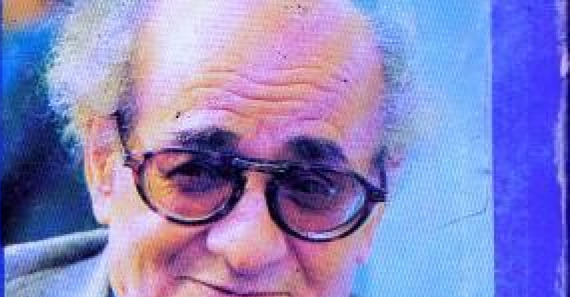
الأعمال الكاملة
خيرى شلبى



الأمالى

لأبى على حسن : ولد خالى
سيرة ذاتية شعبية فى ثلاث اجزاء

- وثالثنا الورق

الهيئة المصرية العامة للكتاب

ـ « تشكر! تشكر! لا شاى ولا غيره! كنت أحب أن أكلمك كلمتين!». كوم زبل الحمام بسيف كفه:

ـ « لك أن تكلمنى بدل الكلمة عشرا ولكن بعد غد!».

ثم نفض كفيه فى بعضهما ومد يمناه ليسلم على، إه، أهلا وسهلا، سلمت عليه وانصرفت مدعيا العبط كما قد بدا أنه يدعيه على لكنى قلبى لم يطاوعنى، فارتددت إليه مقدما له الولاعة الأثرية، فإذا هو ينظر إليها فى دهشة قائلا: « ما هذه يا عكروت؟!» نفضتنى رعشة باردة: «هذه هى الولاعة التى ضاعت من محمد بك أبو شناف!» قال الثعلب: « وما شأنى أنا بها؟! قلت: لكى تعطيها له لأنه يبحث عنها!» نظر فى عينى: أين وجدتها؟!» قلت: « فى حجرة البرج عندك يا حاج!» قال: « إذن فخلها معك حتى تسلمها له بنفسك! أنا لا أقبل حفظها عندى لأنها مسئولية! أنت الذى وجدتها وعليك أن تسلمها له يدا بيد!!» أغرقتنى الحيرة: «لكنك بعثت فى طلبها يا حاج!» قال الثعلب: «إنما طلبت رؤيتك فحسب! ولم تجئ سيرة الولاعة أبدا! الولد بسبوسة لعب بعقلك! عل كل حال تعال بعد غد وسترى محمد بك أبو شناف بنفسه!!».

فانصرفت يا خال وأنا من الحيرة فى بلبلة

تمتإلى اللقاء مع الكتاب الثالث من سيرة الأمالى

(وثالثنا الورق)

وثالثنا الورق

وثالثنا الورق

ـ « تشكر! تشكر! لا شاى ولا غيره! كنت أحب أن أكلمك كلمتين!». كوم زبل الحمام بسيف كفه:

ـ « لك أن تكلمنى بدل الكلمة عشرا ولكن بعد غد!».

ثم نفض كفيه فى بعضهما ومد يمناه ليسلم على، إه، أهلا وسهلا، سلمت عليه وانصرفت مدعيا العبط كما قد بدا أنه يدعيه على لكنى قلبى لم يطاوعنى، فارتددت إليه مقدما له الولاعة الأثرية، فإذا هو ينظر إليها فى دهشة قائلا: « ما هذه يا عكروت؟!» نفضتنى رعشة باردة: «هذه هى الولاعة التى ضاعت من محمد بك أبو شناف!» قال الثعلب: « وما شأنى أنا بها؟! قلت: لكى تعطيها له لأنه يبحث عنها!» نظر فى عينى: أين وجدتها؟!» قلت: « فى حجرة البرج عندك يا حاج!» قال: « إذن فخلها معك حتى تسلمها له بنفسك! أنا لا أقبل حفظها عندى لأنها مسئولية! أنت الذى وجدتها وعليك أن تسلمها له يدا بيد!!» أغرقتنى الحيرة: «لكنك بعثت فى طلبها يا حاج!» قال الثعلب: «إنما طلبت رؤيتك فحسب! ولم تجئ سيرة الولاعة أبدا! الولد بسبوسة لعب بعقلك! عل كل حال تعال بعد غد وسترى محمد بك أبو شناف بنفسه!!».

فانصرفت يا خال وأنا من الحيرة فى بلبلة

تمتإلى اللقاء مع الكتاب الثالث من سيرة الأمالى

(وثالثنا الورق)

تطبيق

لحلف اليمين يابوى أن الولد هليل قد ارتاع حين رآنى فجأة أمامه على غير انتظار بعد غيبة طويلة عن البلدة وفى حالة من [illegible] والقنزحة فشر سعادة الباشا النحاس فى عز مجده..

بالحضن يابو العم. فى كلمات قليلة فهم أننى قد اغتنيت صرت من وجوه القوم أسكن على كورنيش النيل مثلى مثل كبراء مصر، وأننى بعون الله وفضل من الشيخة سعادة قد تبت عن كل ما يغضب الله. قال بشىء من الخبث إنه لا يعرف الشيخة سعادة هذه ولم يسمع بها من قبل. فلما أخبرته أنها من أسيوط ومعروفة لكبراء البلد نظر لى فى حسد مصطنع وطلب منى أن أعرفه عليها بحى الأخصوية. ومع أننى لا أعرف عنوانها فإنى قلت له: إن شاء الله سنصل إليها معا إذ أنها لابد أن تبارك مشاريعى التجارية التى أنوى إقامتها هنا أو فى مصر..

على أن الارتياع أفقده توازنه وجعله يضرب كفا على كف لما حكيت له عما انتويته فى زيارتى هذه المفاجئة للبلدة محملا بالهدايا من كل لون قلبك يحبه..

- «هيه أتريد أن تخطب البنت حنة يا بو العم؟! كلام كالعسل!».

استشعرت فى كلامه نبرة الهزء والاستهجان. كنا نجلس وحدنا فى قاعته المنفصلة وحدها فى جوف الدار مطلة على حوش الدجاج والبط والأوز والأرانب، والمنفتح على السماء مباشرة. فتحنا الشباك الذى يبص على الحوش فهبطت السماء على فتحة الشباك كالخيمة الرمادية يضىء من خلفه فانوس نرى رسمه وضوءه المحجوب خلف الخيمة وذلك كان قرص الشمس الذى لم يكن ميعاد رواحه قد حان بعد؛ مما جعل الأمر يبدو وكأن فى الأمر ثمة مؤامرة غامضة..

وجه هليل نفسه كان هكذا يابوى: فانوس الحق والعدل فى موافقته على ما انتويته يضىء خلف قماشة وجهه الرهيفة لكنه يظهر كما لو أنه جاء بقماش الخيم المشمع السميك فطرحه على وجهه ليطفئ به فانوس الحق. لكننى على ضوء هذا الفانوس الذى استمر يضىء خلف سحابة ظلماء مربدة فى عينى هليل. رحت أحكى عما سأفعله بكل صدق وحرارة؛ فيما هو فاغراً فاه من الدهشة لا ينطق. فلما رآنى قد أنهيت كل ما عندى من كلام هب واقفا؛ سحبنى من يدى:

- «قم بنا».

فى صوته خشونة تشى بكثير من الوعيد والتهديد، قلت وأنا متشبث بمكانى:

- «دعنا هنا فى أمان الله ياخوى!».

امسكنى من قفاى، علامة على شدة استحقاره لى مع الإنذار بانه لن يعرف الأدب معى هذه الليلة بل ربما ضربنى. نعم يابوى هذا ما توقعته؛ ففى سبيل مصلحتى يمكن أن يتجنن. من هنا حرصت على أن يتم الكلام والتشاور ها هنا فى أمان الله بسر هادئ بعيدا عن الذى يسوى والذى لا يسوى، لكن يظهر يابوى أن قرص الشمس الأحمر عدل عن الرواح وسكن فى عينى هليل فصارتا تفحان لهبًا وشرراً حتى لقد خفت منه والله يابوى فقمت معه فى الحال متمتما.

- «اللهم اجعله خيرًا!».

فإذا به يلطمنى بطرف عباءته الجوخ التى كان يلفها لحظتئذ حول كتفيه؛ فلم أدر - من عنفها - أكان يقصدها أم أنها جاءت عفوا لوقوفى فى طريقها؟ إلا أنه لم يعتذر ولم يعبأ بعينى التى دمعت من لسعة اللطمة..

قلبى حدثنى يابوى بأن الأمر فيه شىء غير طبيعى جعل هليل ينقلب هكذا فجأة فيقع فى حمأة الغضب لهذا الحد. ثم إننى فكرت يابوى: إذا أنا مشيت مع سلامة نيتى بأنه زعلان على شانى فالإنسان لا يزعل على الواحد أكثر من نفسه. شعرت فى الحال بالحال أن دودة الغضب بدأت تفقس فى صدرى بل إن فقسها راح يجرى هنا وهناك فى كل عروقى. مرت برهة وجيزة شعرت فيها

أننى أحمل الجبل كله فوق صدرى، وأننى أحاول الإفلات من تحته لأفعل فعلاً مجرماً: اضرب هليل مثلاً أو أتف فى وجه الدار كلها وأنصرف. قلة الأصل كانت شبحًا قبيح المنظر واقفا أمام عينى كالجدار؛ فلما انزاح الجبل اختفى وصفت عينى من غبار الغضب. زفرت بشدة وحمدت الله. لكن مخى راح يضرب يقلب. ذلك يابوى أننى تذكرت أن غضب هليل هذا لم يكن فيه مفاجأة، إنما الزعل بدأ يظهر عليه منذ جئت بسيرة البنت حنه، مما جعلنى أتوهم بأنه يحبها وينتوى لها نية معينة فى نفسه. قلت لنفسى: اللهم نجنا من الفتن يارب واحفظ لى صديقى هليل وابق على الصداقة بيننا من أجل خاطرى، احفظه يارب من لسانى المفلوت، من قلبى المسْوَد بهباب العوز والتشرد فى مصر معدومة الرحمة..

– «على كل حال لن نختلف ياهليل! الكلمة كلمتك والشورة شورتك ولن أفعل شيئا إلا بعد رضاك!»

هكذا قلت وأنا أسبقه نحو الباب. لكنه كان مكفهراً وغير راغب فى الكلام بقيت واقفاً شاعراً بالذنب حتى انتهى من لبس حذائه الأستك ولمعه وسحب عصاه ومضى. فتح الباب متنحنحا؛ استدار برأسه نحوى فى نظرة خاطفة تعنى: إتبعنى..

صرت رجلاً أبهة ياهليل ياخوى؛ لبست العباءة مبكرًا وأمسكت بالعصا قبل الأوان، صرت شيخ عرب يملؤه الشباب تنسكب منه الرهبة يتجسد الورع والتقوى على صفحة وجهه ولو أطلقت لحيتك لصدقك القوم إن زعمت لهم أنك أمير المؤمنين.

معك حق ياولْد، فأنت الآن تعيش رجولتين، رجولتك ورجولة أبيك التى فاته أن يعيشها فى الوقت المناسب مثلك، ذلك المتصابى المهزار لولاك ياهليل لأصبح هزأة للقوم إنما الفضل فى النهاية يرجع لأبيك ياهليل مهما كان؛ لقد أهمل نفسه ورباك على الغالى، الذنى وملّكك؛ توارى لكى يظهرك على القوم؛ تواضع فألبسك فكبرك، أكون حماراً إذن لو خسرتك من أجل أى شىء؛ لكن مسألة حنة هذه هى العقبة الصلبة بيننا الآن؛ هى الكلكعة فى قلبى فاللهم أذبها اللهم اجعله يوافقنى على مسعاى الشريف اجعله يفهم غرضى فلا يتشدق بكلام عن الأصل والتربية فكلنا أولاد تسعة ثم إن مسألة الأصل هذه يعلمها الله وحده ولربما كانت هى من أصل أفضل من أصلنا فالزمن غدار لا يؤتمن؛ وإذا سلمنا بقول أعمامى بأننا نمتُ بصلة نسب قديم إلى الإمام الشافعى فأين نحن الآن من الإمام الشافعى؟! كلنا أولاد آدم وحواء وكلنا خطاة ومكتوب علينا الخوض فى الطين.

تفنيط

صرنا فى الشارع نمشى باحتراس واحترام لم أعهده فى نفسى من قبل. وكنت أحس أن احترام هليل لنفسه ينعكس علىّ تلقائيا. كل من مررنا بهم يهبون وقوفا ليسلموا علينا ولابد أن يوجهوا الحديث إلى هليل..

حازينا غابة النخيل مشينا أكثر من نصف ساعة دون أن يفتح أحدنا فمه بكلمة. كانت رياح الغروب تهب علينا كلما اقتربنا من الجبل؛ إذ هى تلطم الجبل فيفتتها يبعثرها علينا فيتلقفها النخيل بالزغاريد، بضجيج فرح خشن؛ والهواء يتلاعب بنا وبخلقاتنا فتبرز الطبنجة فى جيب الصديرى تحت إبط هليل..

بدأ القلق يساورنى ياخال: إلى أين يذهب صاحبى العزيز الغالى ساحبا إياى؟! أيكون قد أصبح فى غيبتى من المطاريد؟! إنه لا يمكن أن يكون منهم أبداً لكن الملعون يخرم بى نحو الجبل. أخذ يدور حوله. رأينا فى سفحه الخلفى غابة كثيفة من البوص والهيش والحلفاء؛ خلفها حقول من القصب؛ بدت فى تلك اللحظة يابوى كشوارع من الرعب المصفوف تتصاعد منه أنفاس كالفحيح

كالزفيف. عجبت والله ياخال كيف يتأتى لهليل المسالم أن يجيء إلى هذه المنطقة فى دخلة الليل؟ صحيح إنه مسلح وقوى وشجاع؛ ولكن كيف يأمن الشجاع على نفسه بينما صفوف الخيانة مرتصة حواليه وإن حوت رحيق القصب السكرى؟! ها هو ذا يتقافز فوق نتوءات الطريق يتجنب عثراتها بمهارة المتودك يخرم من خلال قطعان القصب فى جرأة وثقة كأن كل هذه العيدان التى بلا حصر وبلا نهاية تأتمر بأمره تخضع لهيبته. ظهر كما لو أن المسافة التافهة التى بين العيدان قد اتسعت له مبتلعة ظلالها كى تحتويه، حقول القصب بحر، حين غطسنا فيه رأينا ما فى جوفه مما يطويه الموج من خفايا وأسرار؛ ففى هذه البقعة يعشش المطرود الفلانى؛ وفى هذه الشقى العلانى؛ وهنا قتلوا فلان الفلانى؛ وها هنا ذبحوا فلانة الفلانية.. إلخ إلخ..

صرتُ يابوى ـ أنا يا المخربشاتى ـ أمشى وراءه كطفل غرير. لا أقوى حتى على سؤاله عن وجهتنا، زعق فى صدرى صوت يقول لى: ما أنت إلا ولد دعى خلبوص. ما كاد سرداب الليل يحفر عميقا فى الظلام حتى بزغت عين محمرة تتموج فى البعيد تحت أجفان السواد هى الأخرى تتسع خطوة بعد خطوة فرأينا ذبالة ضوء كبيرة، سرعان ما تكررت وتعددت وترادفت، حتى استطعنا أن نتبين على ضوئها أشباح جدران رابضة كسوء المصير الذى ينتظر كل سالك سبل الظلام. لكن هذه الجدران الكالحة سرعان ما وضحت فى دور ذات أبواب وشبابيك تفصلها شوارع وحارات،

هى إذن بلدة صغيرة مجهولة، متى نشأت؟ كيف لم أعرفها من قبل ولم أسمع خبرها؟ هنا تكلم هليل، شوح بذراعه نحوى:

- «هذه بلدة لا اسم لها!! لا أحد يعرفها حتى الحكومة نفسها فالحكومة دائما هى آخر من يعلم!! هنا تقيم طائفة من العبيد والخدم الذين يوفرون للمطاريد كل شىء يطلبونه من الخبز حتى اللحم البشرى! لا شىء يعز عليهم!! سكانها لا يعرفون الله ولا قلب لهم! موتاهم يدفنون تحت دورهم! وعلى كل حال فالمطاريد يسمونها الهيش! لكن فيهم فضيلة: يحترمون الطيب ويهابون القوى! مع القوى يزيدونه قوة إضافية! ومع الطيب يؤكدون طيبته بالإحسان إليه ومساعدته إن طلب العون منهم شرط أن يطلبه بلسانه!!»

قلت من دهشتى:

- «أنا لست من هذه النواحى ياخال أم ماذا؟!»

جذبنى من فتحة طوق جلبابى كصياع المدينة:

- «نعم أنت لست من هنا! هذه البلدة عمرها مئات السنين! ولو مكثت أنت طول عمرك فى بلدتنا ما كنت عرفتها فليس يعرفها سوى مجنون أو ضارب فى التيه على غير هدى!! ومن يلقى به سوء البخت فيها يسلم أمره لله فى الحال يتشهد على روحه!! أما أنا فقد عرفتها لأننى فى الواقع - كما لا أظنك تعرف - مجنون كبير!! نعم نعم يابو العم فالجنون وحده هو الذى جاء بى إلى هنا

ذات يوم والجنون هو الذى لا يزال يحمينى من وحشية أهلها الجبابرة! لا يفل الحديد إلا الحديد! فلأنهم مجانين أصلاء أو كما يقول المتعلمون بالسليقة فإنهم لا يخافون إلا من هو أكثر جنونًا شرط أن يتقن الجنون على أصوله!!»

قلبى يا خال صار بين أنياب كلب ينهشه، من الآن أنا لست مضروبًا ولا شىء بالنسبة لهليل..

- «ولكن ياهليل هذه البلدة قريبة من بلدتنا و...».

قاطعنى:

- «السكينة سرقتك! أنت لم تشعر بعد أننا سافرنا!! كان المفروض أن نركب فرسين عفيين لنجىء إلى هنا لكننى لم أفعل خوفًا من شيئين اثنين: أن يشعر أبى وأنت بأننا على سفر فيقلق وتقلق فينفضح غرضنا حين يسمع الجبل وقع حوافر الفرسين فى الليل فيقذفنا بالأعيرة النارية من كل مكان!! مشية الفرس فى الجبل فى الليل لا تكون إلا لفارس من فرسان الجبل أو مقتحم من الحكومة فإن كان من عيال الجبل فالجبل كله على علم بموعد سيره كما أن الجبل يميز وقع أفراسه أما إن كان مقتحما فخطوه معروف مفضوح على أرض الجبل الذى لا يعرفها ولا تعرفه وهنا يلاقى فى كل خطوة عدوانًا !!».

بدأت أشعر لأول مرة فى حياتى يابوى أننى وقعت فى قبضة مجنون رسمى ويظهر أن ليلتنا بإذن الله أسود من قرون الخروب.

جاءنـي يقين بأن دور الدروشـة الذى كان آخـذا بخناق هليل منذ صباه قـد كبر معه فـخلخل توازنه بات يفعل أفعالاً خرقـاء كهذه. هتف بى هاتف أن تشهَّد على روحك يا بطل أو ادع الله أن ينقذكما بمعجـزة كبيـرة لا تقل عن معجـزة موسى عليه السـلام، استللت صوتى من جراب ريق ناشف:

ـ «هليل! صف لى هذه البلدة من حدود بلدتنا!»

شوح بكفـه إشارة إلى أن أخـفض صوتى لحـد الهمس؛ إذ أن الدور المبنية حوالينا كانت قد تراجعت فبدأنا ندخل فى دور أخرى مبنية بصـاج السيارات القديمة وقـوائمها وعجلاتهـا مأخوذة من سيارات الحكومة التى كانت تتوه وتضل فى الجبل، ثمة أخصاص من عيـدان التيل والبوص وأوراق القـصب.. تلونت ذبالات الضوء من فوانيس داخل النوافذ إلى شعلات من لمبة الجاز الصاروخ إلى ركيات نار من خشب مشتعل..

قرب واحدة كهذه توقفنا على جنب. همس هليل فى أذنى:

ـ «هذه البلدة السحـرية فى جيب عميق من جـيوب الجبل! هى معدةُ الجبل التى تهـضم كل فريسة تقع! هى أيضا صندوق زبالة الجَبل!! الفتـوات الذين خاب أملهـم! الذين انفضـحوا لسـبب من الأسـباب فنـفاهم أهل الجـبل الفـوقى عـزلوهم لأنهم أقل من أن يكونوا رجـالا أقل من مـرتبة الفـتـونة!! هنا أيضـا الذين عجـزوا وانهـدت قواهم! الذين خـانوا ولو خيـانة صغـيرة فـانفض عنهم

الرجـال! الذين هربوا من واجب ثأر من ذنب من جريـمة فقـادهم سوء الـبخت وأحـيانا حـسن الحظ إلى هذا المدفن الحى!! ويل لمن كان ضـعيـفا ويقع هنا! لو كان حلـواً فسيـأكلونه! أو مُرّاً فـتأكله الكلاب!!»

ثم لمزنى وأردف:

ـ «لقـد جئنـا من الطريق السـرى الذى كان يغـرقـه النيل عند الفيضان وتقطعه غابات الهـيش والبوص عند الغيض! وهى كـما تعرف ماوى لجميع أنواع المفترسات!!»

ومضى خطوة ثم توقف هامسا:

ـ «ليكن فى معلومك أن الدار هنا أمـان بالنسبة لى يعنى تمشى على كـيفك كأنك تمـشى فى أى بلد آمن!! هم هنا يعلمون عـن ثقة ويقين أن شخصًا عاديًا لن يجرؤ على السير ها هنا بثقة واطمئنان إلا إذا كان أهلاً لذلك بالفعل! الويل له إن انكشف أمـره وظهر عليه الخوف يـكون لقمـة طرية شهـية يأخـذ كل واحد منهـا نصيـبه!! فمـهمتك الآن أن تكون صلبًا قـوى الأعصاب حتى آخـر لحظة فلا تظهر منك نقطة ضعف واحدة فـالخوف هنا هو الحكومة الوحيدة التى تفـصل فى المنازعـات بـين الناس!! إن ظهـر هنـا أنك لست الأقوى من الآخـر فإن مهـمة الآخر تنصـب فى محاولة إضـعافك بأى شكل وبكل شكل مهما تذرعت أنت بالقوة دون رصيد حقيقى من القوة!!»

مـضى خطوة أخـرى وشوح كـأنه تنازل عن كل مـا قـال، ثم استدرك:

ـ «وعلى كل حال فاحسبها حـسبة بسيطة وأرح نفسك: مادام الشىء الوحـيد المضـمون هنا هـو الموت فلتمت شـجاعـاً مرفـوع الرأس حتى لا يكون موتك بالمجـان! من يطلب الموت لا يأتيه الموت هذه هى حكمة الزمان! فكن شجاعـا جدعا حتى آخر لحظة تكسب حتى وأنت ميت!!»

جذبنى، فتبعته، وصـلنا إلى ركية النار؛ فتناهى إلينا ـ رحمتك يارب ـ صـوت المغنية صـبـاح تغنى: حبـيـبة أمـها ياخـوا.. تى.. ياخوا.. ا.. تىْ.. ياختى ياختى ياختـى!! قبل أن يركبنى العفريت فاتسبب فى فضيحة قبض هليل على ذراعى وقرصنى هامسا:

ـ «اليوم توجـد طرق سرية كـثيرة لا يعـرفهـا سوى قلة من المخربشـين يتولون قـضاء كل الطلبـات من كل مكان فى كل وقت فـلا يجرؤ علـى تتبـعـهم أحد لأنهم خـبـيـرون بكيفـيـة تضليله وتوصـيـله إلى الجنون ثم التـهلكة!! وحـدهم يـرون فى الظلام يعرفون متاهات الظلام وليكن فى مـعلومك أن هذه البلدة فيها بيع وشراء وكل شئ كما سترى الآن!!»

صرت أبحث عن عقلى الشاتت يا بوى:

ـ «وَلكن بالله كيف سنرجع يا هليل؟ كـيف نعود إلى دارنا فى هذه الحلكة؟

ـ «وهل ترانا سنعود حقًا؟!»

بكل هدوء قرصنى فى ذراعى.

ـ «ومن قال إننا سنعـود الليلة؟! سنبقى ها هنا حتى الصـباح ونرجع عند طلعة الشمس إن كان لنا عمر بإذن الله!!».

ابتلعت صرختى:

ـ «ولماذا جئت بنا إلى هنا بحق جاه النبى والمسلمين يا هليل؟

«ظننتك كبرت اليوم على هذه المشاوير اللبط!»

شدد من قبضته، وبلهجة ذات معنى:

ـ «لبط/ لبط يا بو على؟! فـمـا الذى تفعـله أنت فى مصـر قل لى؟! أنت الآن فى نزهة فاحمد ربك واخرس!!»

ـ «نزهة؟! أهذه نزهة يا بو العم؟! سيـبت ركبى! الواحد لابد أن يجعل لدماغه سقفا يقيه التهور يمنع مخه من المشى بعيدا عنه!»

كتم ضحكة هازئة:

ـ «بعد قليل سيطير سقف دماغك إلى غير رجعة!!»

ثم أخذ ينقر بطرف العـصا على باب، عبارة عن واجهـة سيارة نقل كبـيرة مركّب على مربـع من أعواد الحديد بمفصل من عـمود حديدى مغروز فى الأرض. فجـأة انخفض صوت الراديو، وصاح من الداخل صوت جهورى لكنه واطىء ومتحرز:

- «من الكريم؟!».

صاح هليل فى بساطة آسرة:

- «هليل!»

فهتف الصوت فى الحال بترحاب شديد:

- «تفضل ياشيخ العرب!».

ثم دوى فى الفراغ صوت نعيب حاد، تيقنت من أنه زيق الباب، الذى هو وجه السيارة الكميون وهو يابوى يحتاج لاثنين عفيين يدفعانه حتى ينفتح. فلما انزاح نحونا يابوى - إذ هو ينفتح للخارج - كاد يصدمنا. فاضطررنا إلى التراجع عنه بسرعة. وإذا بهلف كبير ينام خلفه ولم يفعل أكثر من أنه دفع الباب بأصابع قدمه كان ممددا كشجرة كافور قطعت جذورها عن الأرض، راقدا على بطنه وماسورة البندقية فى حضنه، يبعث إلينا بعينين لوزيتين مضيئتين فى ظلمة الدهليز، قال هليل وهو يبرز نفسه للهلف:

- «معى ضيف عزيز يابو العم قادم لتوه من سيدنا الحسين!! أحببت أن أكرمه كرماً زائدا يعود علينا بخير كثير ينتظرنا حين نفى بالنذر لمولانا!!».

- «أهلا وسهلا! مرحبا!».

ذلك ما نطق به الهلف وهو يتلوى كحوت فى محيط الظلام، ينعوج وينكمش ثم ينتفض قائما معلقا البندقية فى كتفه، أقبل

نحونا مادا يده. سلم عليه هليل بحرارة كبيرة يابوى كأنهما أحباب بل عشاق أصفياء. سلمت أنا الآخر؛ فما أن احتوت يده يدى حتى خيل لى أننى أسلم على واحد من أحب الناس إلى قلبى، استدار ذلك الهلف الجذاب نحو الجدار، الذى هو الآخر عبارة عن صاج تخين من صاج الطائرات التى كثيرا ما وقعت فى الجبل، صاج معشق فى بعضه البعض بشرائح ودوائر من كاوتشوك السيارات والطائرات..

مدّ الهلف يده إلى لمبة الجاز نمرة عشرة المعلقة على الجدار؛ فرفع شريطها المرمد فاتسعت دائرة الضوء فظهر الهلف رجلا ولا كل الرجال، أحمر الوجه مستديرة كالأوطاية تكاد تختفى بين شاربين كبيرين تحت لبدة كشاهد القبر؛ لكن الأوطاية نفسها - وجهه - عبارة عن عينين كلوزتين من النوار تنام كل منهما على طرف شارب. هذا الوجه الدقيق ذو الرأس الصغير - رحمتك يارب - يقف على كتفين كل منهما يصلح أن يكون ناصية حارة من حوارى مصر؛ على قوام سمهرى مبروم يخشى الواحد منا سطوته وهو بعيد عنه بمسافة؛ يرتدى جلبابا من الجبردين الأزرق الداكن ليس تحته ثمة ثياب على الإطلاق.

قطــع

أقبل علينا الهلف مسلما من جديد وهو يدعونا للدخول، ما أن دلفنا إلى حيث كان يرقد حتى جذب الباب فسنكره فى قائم حديدى بضبة حديدية كالدرفيل تبيت فى موضع لها عاشق فى معشوق. أشار هليل نحوى قائلا:

- «حضرته حسن أبو على ولد أبو ضب أجاويد سيدنا الحسين! شهبندر تجار السمك والفسيخ! عيبه أنه ولد خسران وابن ليل ينوى إن شاء الله أن يفنى ثروة أبيه التى يقال إنها لا تفنى! يصرف على الهلس والكلام الفاضى مابينى عمائر ويشترى فدادين!! لكنه ياعم عرندس قلبه أبيض كالبفتة! تصور ياعم عرندس أنه يسعى فى طلب الحاجة فيصرف عليها دم قلبه فلما يحصل عليها ربما لا يذوقها!! يكفيه أن يطلب الشيء فيجده!! يحلم بالمستحيل! لهذا حيّرنا وغلبنا الغلب كله! لم يكفه ما هو فيه من متع وهلس فى أم الدنيا فجاء يطلب منى ليلة فى الجبل يتمتع بها حتى الموت!! وقد صممت الليلة أن أقتله ياعم عرندس فجئت به إليك لتساعدنى على الخلاص منه ولك الأجر والثواب عند الله أما عندى فلك المكافأة التى يمكن أن تطلبها!!»

ثم كف عن الكلام مشوحاً كمن خلّص ضميره، وبقيت واقفا فى محلى كطفل يرتجف من لعبة مثيرة مخيفة معا يابوى.

يخرب بيتك ياهليل ياولد الحرام: أملعون أنت إلى هذه الدرجة ياولد الابالسة؟! ما هذا الذى فيك لم أكن أعرفه من قبل؟ يالى من هشيم أهبل. لابد أنك ياهليل تعيش هنا بشخصيتين دون أن أعرف أو يعرف أحد من أهل البلدة الذين يوقرونك ويحترمونك كرجل صالح لا يترك الفرض يجيء على أخيه الفرض..

ظل الملعون هليل واقفا خافض البصر كطفل برىء لم يكذب منذ هنيهة. أما الرجل الهلف، أقصد عم عرندس، فقد جعل ينظر إلىّ بحب وإعجاب واندهاش، تكاد نظراته تعرينى من خلقاتى؛ ولا أكاد أصدق أن كلام هليل عنى بهذه الرسمانية الخيالية يمكن أن يدخل هذه الدماغ الصغيرة يابوى؛ فآه من هذه الدماغ الصغيرة يابوى؛ إنها دماغ مختصرة يابوى مثل الراديو المسمى بالترانزستور، ليس فى صندوقها متسع للخوف والكلام الفاضى. على أن هاتين العينين الثاقبتين سرعان ما غرقتا فى بحيرة من العهر والطراوة المخنثة؛ غير أنه ذلك العهر الناعم يابوى، المخيف بشدة نعومته، المنذر بسوء العاقبة ياخال. إنه العهر الخديعة؛ فليس يصدر العهر متقنًا هكذا إلا أن يكون محض خديعة ياخال..

نظرة العهر تلد ابتسامة طرية على شفتى الهلف عم عرندس مفروشة كالبساط الأحمدى؛ وسّعت وجهه سوت رأسه بين

شدقـين منبعجيـن. ثم إنه حول بصره عنى نحـو هليل قائلا بكل رقة وحلاوة:

- «خدامينه ياعم! مجيئك عندنا بالدنيا!!».

رفع هليل حاجبيه مشيرا نحوى:

- «هذا السفروت الخلبـوص الكحيان لا تستهـزىء به فقد ذاق فواكـه مصر والبلاد كلـها فلم يشبع!! قلت له إن عندنا فـواكه لم يذقـها فـاستـهـزأ بى ولم يصدقنى فـحلفت لأذيقنه طعم الخـوخ العرندسى!!».

قال عم عـرندس وهو يعاود التفـرس فى وجهى بنفس النظرة المنبعجة الشدقين وفى لهجته نبرة ذات معنى:

- «تريد الخـوخـة بنفسـهـا إذن؟! من حـسن حظه أنهـا الليلة موجودة فى الجبل!! رزقها!!».

دب هليل يده فى جـيب الصـديرى نزع المحـفظة ثم نزع منهـا ورقة بعشرة جنيهات غمز بها الرجل فى يده:

- «هذه لك أنت وحدك حتى تشوف مزاجنا أولا!!»

ثم نزع ورقتين أخريين غمزه بهما فى يده:

- «وهذا رزق الخوخة!!».

وأشار لى:

- «ولها رزق آخر عنده حين يذوق ويعجبه الطعم!!»

وغمـز بشاربه الكث غـمزة ذات مـغزى وقال لى كـأنه يكشف تمامًا عن جوهر غرضه من هذه اللعبة كلها:

- «لقـد عرفت داءك ياملعـون!! أنت عطشـان تريد أن تعب من مسـتنقع نتن! قلت فى عقل بالى أنك لن ترتوى إلا مـن هنا!! فهنا أشبه ببـئر الساقيـة ماؤه بارد صاف وإن شابتـه بعض الجراثيم المقـدور عليهـا!! هنا سـوف ترتوى جـيدا حـتى تزهد الأمـر كله وتصـرف النظر عـما فى رأسك!! وقـد أجلت الكلام مـعك فى أى شىء حتى ترتوى وتصـير فى حالتك الطبـيعية وبعـدها أقول لك نصيحتى ومشورتى!!».

صدقته ياخـال؛ منيت النفس بليلة ولا كل الليالى.. بالفعل بانت تباشيرها يابوى. فى جدية قال عم عرندس:

- «على كل حال الخـوخة زمانها قادمـة! هى لابد أن تبيت هنا الليلة! وإلى أن تجىء فـإن صـاحبك أمـامـه التفـاحـة والبرتقـالة والجوافاية كلهن موجـدات تحت أمره وله الحرية مع كل واحدة إن شاء حاسبها بعد الانبساط وإن شاء صرف نفسه عنها إلى غيرها بغير حساب!!».

انقرص قلبى يابوى قرصة موجعة. تسرب الشك من جديد إلى مخى يقول: اصح يامغفل وإلا فالملعوب كبير سيًما وأن هليل تبدو عليه إمارات تتراوح بين الخبث والبراءة. ثم إنه قال:

- «نريد أن نشـوف مـزاجنـا الآن! دمـاغنا صـفَـرت من طول الطريق ومشقته!!».

مسح الرجل كفيه فى ركبتيه قائلا: «وجب!» ثم أمسك بالمصباح ومضى أمامنا قائلا: «تعالوا». فمضينا وراءه فى دهليز طويل يشبه القبو المظلم. بقينا نمشى مسافة طويلة حتى ملت يابوى وتوقعت السقوط فى الجبّ الذى لا طلوع منه لكننا وصلنا أخيرا ـ رحمتك يارب ـ إلى واجهة منزل مبنى بالحجارة المسواة، له سلم يصعد إلى الباب بعدة درجات، صعدها عم عرندس فصعدنا وراءه. على الضوء العليل لاحظت وجود أكثر من منزل محندق مبنى بالحجارة أيضا؛ حوالى ثلاثة منازل من طابقين لها شرفات كمساكن علية القوم.

همس هليل فى أذنى:

ـ «هذه المساكن بناها عم عرندس مثل لوكاندات فى الجبل يستأجرها المطاريد الجدد والمبعدون لأسباب مؤقتة وكبار الهاربين من ظرف طارىء ومن يريدون الاختفاء التام لاسترداد الدماغ والتخطيط لعمل!!. يدفعون لعم عرندس أغلى الأثمان ليس لقوته بل لجدعنته معهم إذ هو يكون أستر واحد عليهم أخبث حارس يخادع الجن نفسه!! إحذر أن تستهزىء به وإلا فإن قرصته مسممة لانجاة منها!! أما إن صافيته فإنه يقدم لك المعجزات! عمره الآن مائة عام ولكنه يبدو فى الستين فحسب! وقد ولد فى الجبل ولم يكن بينه وبين الحكومة أية خصومة لكنه عشق الجبل فعاش فيه بمزاجه لمزاجه يكسب منه الذهب!! ولأنه ابن

الجبل فإنه لا يخاف ولا ينكسر!! له أملاك كبيرة فى صدفا والغنايم وله ـ إمسك دماغك ـ ابن من كبار المحامين فى الإسكندرية!! وابن آخر يعيش الآن فى لندن كأستاذ لعلم الآثار فى إحدى أكبر الجامعات الإنجليزية ويتاجر فى الآثار التى يمده بها أبوه!!».

كان عم عرندس قد سبقنا إلى الدخول ليجهز المكان فيما بقينا هليل وأنا فى الشرفة ننظر فى الفراغ المظلم ونميز بين السور العالى المصنوع من الأعواد والأعشاب والفروع وصخور الجبل، وبين ظلال الهضاب العالية البعيدة جداً. لا يظهر من البناء الداخلى اى شىء إذ أن عم عرندس الخبيث الناصح اختار هذا المكان بين لسانين متجاورين من ألسنة الجبل، كل لسان عبارة عن هضبة كبيرة مدببة الرأس كلما ارتفعت لأعلى، فبدت تعريشة عم عرندس جزءاً من اللسانين يملأ الفراغ بينهما. مال هليل على أذنى هامسًا كأنه يخلص ضميره من عبء ثقيل:

ـ «على فكرة يابو العم! ليكن فى معلومك أننى لست ولداً داعراً كما يظهر لك منى الليلة!! الحكاية وما فيها أننى عرفت عم عرندس منذ مدة طويلة لأنه اشترى أرضًا زراعية مجاورة لأرضنا وهو يستعين بالله وبى على إفلاحها!! شخصيتى تعجبه يتصورنى ملاكاً من السماء! وهو صاحبى ويعزمنى عزومات كثيرة كهذه أمام الناس ومحبة!! عرفنى بكل سكان هذه البلدة كبّرنى فى

أنظارهم فـاحبـونني كلهم وأعطوني الأمـان وكلهم ينتظر منى أن أطلب منه أى خـدمة لكن الله الغنى عـن خدمـاتهم يابو العم فلست أنوى قتل أحد أو الغدر بأحد! كفانا الله شر الحرام والافتراء!!».

ـ «خشوا يارجال!».

قال عم عرندس مناديا من الداخل. وإذا به قد أنار مصباحًا فى الردهة، وآخـر فى حـجرة على اليـمـين فى المدخل، وبجـوار هذه الحجرة حجـرة أخرى مغلقة. فى المقابل حجـرتان بينهما ممر تفح منه رائحـة الكنيف زاعـقـة، فى الحـجـرة المضـاءة ثلاث كنبـات أسيـوطى؛ أما الأرض فـمفـروشة بحصـير ملون نظيف. شـلتات الكنب مـرصـوصـة على الأرض تتحـلق المنقـد الكبيـر والجـوزة وحـجارتهـا الكثيـرة مع كومـة من باكـوات المعسل. جلسنا فـوق الشلت، فى الحال شرع هليل ينظف الحجـارة ويحشوها بالمعسل. وكان عم عرندس قد اختفى برهة طويلة جدًا حتى انتهى هليل من تعسيل كل الحجارة ثم أخرج من جيبه كلكيعة حشيش كبيرة راح يقتطع منها ويكسو المعسل بعبـاءات من القطيفة الخضراء. ما كاد يعتدل آخذا سمت الانتظار حتى دخل الرجل حـاملاً طاسة كبيرة ملآنة بالخشب المشتعل؛ دلقها فى المنقد. من خلفه دخل غلام أمرد يحـمل صينيـة عليهـا عدة الشـاى وطبقـاً به تشكيلة من الفـواكه النادرة. قلت لنفسى: هذه إذن هى الفواكه المقصودة؟! هليل الملعون قرأ ما دار فى رأسى فانفجر ضاحكا:

ـ «هذه هى العينة فـحسب يابجم! أما الفواكه الحـقيقيـة فإنها آتية لا ريب فيها بعد مجىء الدماغ!!».

ثم مال على عم عرندس فحدثه همسًا بلهجة ذات معنى واضح فى ملامح وجهيهما. ثم علا صوت هليل مشيراً برأسه نحوى:

ـ «دمـاغه لا تجـىء بسهـولة ياعم عـرندس! خُش عليـه بنيـة خالصة يكرمك الله! هات داغه!».

نظر الهلف نحوى نظرته العاهرة اللطيفة:

ـ «ستـاجىء بداغك الليلة يـاحلو! أوقـعت بنفـسك فى يد من لا يرحم! وقعت أم رماك الهوى؟!».

فى أقل من لمح الـبـصـر يابوى كـان الرجل الـهلف قـد وضـع بوصة الجوزة فى فـمى: «شد يا بطل». قلت: «ليلتك فل» وشددت الحجر كله فى نفس واحد على شفطتـين ونفختين، فارتفعت راية النار فوق الحـجر، فإن هى إلا لمحة حـتى انشال الحجـر من فوق البُخْش ووضع مكـانه حجر جـديد، والحجر السـابق ينحنى على الجديد طارحاً فوقه كل ناره، خمس حجارة وراء بعضها فى خيط واحد، ويد عـرندس ممسكة بـالجوزة وبـالماشـة وأصـابع يمناه الفرط فوق نار الحجر حشيـشًا كالحمص ينزل برداً وسلامًا على النار يصنع مهرجانا من سحائب الدخان الشهى..

بعدها بقليل نسيت أننا فى أمعاء الجبل، لسنا فحسب بين فكى التمسـاح بل داخل معـدته، تلك هى الصـورة التى عبـرت رأسى

لتتبخر مع الدخان، ثم بدأت الأصـوات والحركة تكثر خارج القاعة تصنع صـخبًـا حلواً ينضح بالأمـان الحمـيم يحـجز بين دمـاغى والسطل المبكر، برهة صغيرة وبدأت أشـعر كما لو كنت فى مندرة دارنا بل إننى سمـعت اسمى يتردد؛ فـأحسست أن البـراح والمر المتاخـمين لهـذه الڤيللا التى نجـلس فى قاعة منها، والتى تشـبه عشش رأس البر؛ هذا البراح وهذا المر قد احتشد بحركة مستمرة ومتزايدة بشكل مريب ياخال، حـتى خيِّل لى أننى وقعت فى كمين وأن البلدة كلهـا شـرعـت تنقلب لتـتـفـرج علينا قـبـل أن تمسكنا الحكومة فى تجـريسة كبرى يابوى. المصـيبة ياخال أننى سـمعت بأذنى أصواتا تقتحم علينا القاعة من بعض الشبابيك. ومن الردهة أمام القاعة ميـزت صوت هذه العبارة: «ولد أبو ضب» كيف؟! ولد أبو ضب؟ معـقولة؟!». ثم تزايدت الخطوات والحـركة فى حـيوية. دخلت على الأصـوات أصوات جديدة لنســاء وفتـيات ذوات رنات وجلجلة، مع أصوات آنية يتم غسلها، وطيور يتم ذبحها، قلت لعلها علامات السطل قد هيأت لى كل ذلك فجعلت أنظر حوالىّ قائلا:

ـ «هناك زيطة وزمبليطة أم تراها فى رأسى أنا؟!».

قال عم عرندس:

ـ «أنت عندنا لست قليلا يا.. ابن شهبندر التجار!».

صدمتنى العـبارة الأخيرة شعـرت أن فيها تعريضـا بشـخصى فتشككت فى الأمر فنظرت لهليل:

ـ «تسمع هذه الزيطة طبعا ياهليل؟!».

قال وهو يسحب نفس الدخان:

ـ «طبعاً! عم عرندس يقول لك إنك لست قليلا عندهم!».

قال عم عرندس بجدية مفاجئة:

ـ «قد زارنا النبى يا ابن شهبندر التجار؟!».

يعرِّض بى ثانية. طوحت ذلك خلف ظهرى؛ قلت:

ـ «لكن يظهـر أن البلدة كلها تتـجمع حول الـدار وتردد اسمى! فكيف ذلك يابوى؟ من أين جاء كل هؤلاء؟!».

صاح عم عرندس مـشوحاً نحوى بكفه الكبـير وذراعه الطويلة وكمه الواسع:

ـ «وه يابوى! كيف أنت؟! الجـبل كله انقلب وجاء يتـفرج عليك! القصد جـاء يكرمك ويشوف مزاجك!! لا أعرف كـيف وصل الخبر إلى كل هؤلاء؟!».

وانجعص هليل قائلا فى افتتان:

ـ «الأخـبـار فى الجبل تـصل أسرع! هنا ســرعـة البـرق التى يقولون عنـهـا! لكن أنت الســبب ياعم عــرندس! أنت الذى أذعت الخبر!».

عم عرندس ضرب الماشة فوق البلاطة صائحا:

ـ «الخبـر أشاع نفـسه بنفـسه!! أتســتهـزىء يا بوى بمثل هذا الخبر حين يسمعه الجبل بأذنيه؟ حسن أبو على ولد أبو ضب! ابن

شــهبندر التـجار كله فى الجـبل الليلة؟ لابد أن يرقص الجـبل كله طبعا!! ليلتك فل بإذن الله! ولع!».

قلت لنفـسى: هـذا الرجل مَـيَّـاس أو مـجنون يريد أن يسـرح بدماغى حتى يميِّله قبل الأوان:

ـ «ما حكاية شهبندر هذه؟!».

كانت بوصة الجوزة قد استقرت بين شفتيه، راح يشفط وعيناه اللوزيتان كالبليتين تدوران فى محجريهـما تنسجان أفكارًا عجيبة يرد بها، لكن هسـيسًا مكثفـاً انبثق من الباب فجـأة سبقتـه عيون كثيرة تنظر متلصصـة تتهامس قائلة: «نعم هو! هو بعينه! الجالس فى الوسط!». وإذا بامـرأة فارعة كـالنخلة كـحورية البحـر داخلة ترفل فى بذلة رقص كـاسية مـشغولة كلهـا بالترتر الأصـفر على أبيض، طويلة الرقـبة طويلة الشـعر تنساب جـدائلها فـوق ظهرها مستوية فوق عجيزتها النافرة..

مـساء الخـير. هكـذا قالت برقـة الحوريـات؛ سلمت على هليل باعتباره فى مواجهة الداخل؛ فسلم عليها بيديه شاملاً إياها بنظرة سـريعة، قـال كأنه يهـم بأكلها: أهلاً وسـهلاً، لـكنه ما لبث حـتى خفض بصـره واعتـدل جالسـا فى أدب. أقبلت نحـوى ياخال، فى كثير من الشوق والرغبة والامتنان فاتحة ذراعيها صائحة: «هو!»؛ وعم عرندس من خـلفها يؤيد فى تفـاخر: «بل خـياله يافكيـهة!». ارتمت على صدرى قبلتنى فى خـدى. ارتبكت لبرهة طويلة؛ لكننى

مالبثت حتى ضغطتها على صـدرى بقوة وقبلتها على خديها وفى شفتيها، إنحطت بجوارى وفـخذها كله مستريح على فخدى. قلت: يادار ما دخلك شر، واسـتبحت لنفسى الضـغط بصدرى كله على فخذها بكل قـوتى فيـما أنا مـضطر للميل نحـو بوصـة الجوزة لاشرب الحجر؛ فإذا هى تنعوج مع حـركتى فتضغط صدرها على ظهرى بنفس القوة حـتى صار منظرنا أنتيكة. وسرعـان ما تلقفت هى بوصـة الجوزة وانبـرت من مـسندها تشـد النفس ولا أرجل الحشاشـين وصدرها ينتفض فـوق ظهرى ياخال. وحين اعـتدلنا كان الدخان الكثيف يتصاعد من كلينا مختلطا متداخلا نشواناً..

لحظتئـذ ياخال بدأت أصـدق أن الشغلة جـد فى جد. وقلت: لا مفـر من أن أصدق الفـرية المزعومة بأننى شـهبندر التـجار بذات نفسه. مـا أن بدأت خياشيم العبـد لله تستشعر نـكهة هذه النتاية الطايبة كـالقشدة حتى غزا القـاعة هسيس محـوط بشخللة ورنين الأسـاور الذهبيـة؛ ثم هبت علينا طـلائع من العطر الشـهى المثيـر القشـعريرة فى الدمـاغ، دخلت نتاية كـاللبؤة تضـاءلت بجوارها فكيـهة. هى الأخـرى ترتدى بذلة رقص واسـعة الذيل مـشغـولة بالترتر البنفـسجى، غزال ياخـال، لا بالطويلة ولا بالقصـيرة، إلى النحافـة أميل؛ لكن ثدييهـا بارزان كأرنبين مـتكورين وبطنها من تحتيهـما مشدودة كجلد الطبلة المرتفـعة قليلاً يصعد إليهـا البصر من ساقين مـبرومتين لهمـا تحت الثياب الشفافـة ظلال وخيالات

كعمدان معبد الكرنك تظلنها عشرات السيقان المتحاضنة المتجاورة بينهما فراغات تقول لك افرش ونم فى أى منها على ما تهوى، أما الوجه فسبحان الله مثل كوز العسل يابوى وفى لون الشهد بعينين واسعتين كبحيرتين يتوسطهما قاربان والرموش الطويلة مجاديف ينعكس خيالها على الخدين الشاطئين، أما شعرها فجديلة واحدة من الحرير البنى اللون ملفوفة تحت المنديل الحريرى فى لون الفل، كانت ظلال ساقيها تمتد إلى بُعد خلفى ينتصب فوقها ظهر مخروطى مقسوم بالطول، قلت ياسبحان الله؛ إمنحنى يارب كل مدخراتى عندك من القوة التى تنوى أن توزعها على حياتى؛ أعطنيها كلها الليلة فحسب؛ قونى هذه الليلة فحسب وأنلنى بعض غرضى فكل الفضائح أحتملها إلا هذه الليلة يمكن أن أموت فيها..

قالت وهى تقترب منى: «أين هو؟ أين الحبيب الغالى؟!». عرفت مكانى من فكيهة الملتصقة بى. فتبخترت نحوى؛ ثم هوت على وجهى تقبلنى تدفن رأسى فى صدرها وكتفى فى بطنها التى لها ملمس العجين الخمران، قلت للحياء: لا يصح أن يمر على فمى كوز العسل فلا أذوق منه ولو لحسة. أمسكت برأس الغزال ياخال طويته على يمناى فانطوى الجسد كله متكورا على حجرى، فما صدقت اللبؤة أن اقتربت شفتاى من شفتيها حتى فركت وفركت إلى أن دخلت بكاملها فى صدرى وبطنى حتى بللت نفسى وتراخيت عنها قليلاً قليلاً فيما يشبه الندم والسخط الغامض، لكننى سرعان ما قلت الحمد لله أن سابت الشهوة الآن فنفست عن نفسها حتى تكون متزنة رصينة عند الشغل الجد، رفعتُ وجهى عنها، فاصطدمت عينى بعينى الرجل الهلف عم عرندس وهو يحدثنى بخبث أهتم لئيم حاد السخرية:

«أعجبتك بديعة؛ سحرتك بديعة! لبؤتى وأعرفها طبعاً! الوحيدة التى أتت بداغى فاحذرها إبدأ بها وحلى بالفكيه!!».

جعلت أنظر إلى فكيهة كالمعتذر لها عن نسيانى إياها لكن الهسيس ارتفع من جديد؛ وتبعه موكب حافل من أصوات طروبة متداخلة مختلطة كأصوات التجريب والشد والتسخين: طبلة على سلامية على رق على مزمار، وإذا بالغازية داخلة وقد انضبطت الأنغام فجأة وانتظمها المزمار البلدى رائق المزاج حاد النبرة والإيقاع وإذا بفرقة المزمار تأخذ لنفسها مكانا مقوساً كشق القمر فى مدخل القاعة والغازية قد جعلت من القاعة ملعبًا فسيحًا أخذت تطويه رائحة غادية لافة حول نفسها على أطراف أصابع قدميها كالماشية فوق الأشواك؛ جسدها كله يهتز يرتج يرتجف، يناكح الريح من كل اتجاه؛ يعرض كل قطعة فيه لغم شهوانى خرافى سوف يلقمه يشبع فيه مصمصة وقزقزة. أحلى غازية رأيتها فى حياتى يابوى؛ مهرة عالية الجبهة تزرى بستات مصر المحروسة؛ على شفتيها بسمة فيها من البراعة أضعاف ما فى العينين المكحولتين من عهر أبدى ياخال..

انبرينا جميعا نصفق للغازية فى ابتهاج لا مثيل له، انعوج عم عرندس ببوصة الجوزة قائلا:

- «خد لك نفس ياديا أنصاف!!».

وكانت أنصاف لحظتها مسطوحة تميل براسها وجذعها كله إلى الوراء حتى انطوت فارتفع ما بين ساقيها إلى أعلى مثل قبة طاجن اللبن، سلط عم عرندس بوصة الجوزة فى هذه القبة، صائحا: شد، فانفجرنا ضاحكين؛ وبرمت أنصاف جسدها بحرفنة ومرونة حتى جاء دماغها مطرح البوصة بالضبط، وجدائل شعرها تكنس الأرض كذيل الثوب. مطت شفتيها، احتوت بهما بوصة الجوزة شدت نفسا ارتفعت له راية النار فوق الحجر؛ فصفقنا جميعا صائحين: «قشطة»؛ وزغرد المزمار مع السلاَمية طربا وهاصت الدربكة. ففى لمح البصر برمت أنصاف جسدها كالبريمة قبل أن تنسحب البوصة. هاجت الثيران كلها فى داخلى قلت:

ما من بدّ، وصرت أتململ فى جلستى؛ فقال عم عرندس وهو يثقبنى بنظراته مشيرًا إلى أنصاف برقصة من شفتيه:

- «هذا هو الطرشى عندنا!! نقدمه قبل الأكل!».

وأشار إلى كل من فكيهة وبديعة عند العبارة الأخيرة، تغابيت قائلا: «يعنى ماذا؟!»، فطوقنى عم عرندس بشواظ عينيه وقال مشيراً إلى فرقة المزيكاتية:

- «أهل الضرب والنقر سيحرثون دماغهم بحجرين!!».

عندئذ كانت أنصاف قد انحنت على وجهها ومشت على أربع كالمهرة، عجيزتها مرتفعة منقسمة منتفضة تتقابل مع وقع نقرات الطبلة التى تسللت خفيفة ناعمة يصاحبها المزمار فى نشيج شجى مهيِّج للعواطف، تلاصقت الأنغام بالحركات ياخال، أنصاف مقبلة نحوى كاللبؤة المتوحشة عيناها تنذراننى بالويل الجميل إن تخاذلت عنها، فإذا بى يا خال متأهبا لاستقبالها وإذا بى قد صرت محمولاً من تحت الإبطين، وبقوة رشيقة تطوحنى المهرة - لا أدرى كيف - فوق ظهرها راكبًا، وخصل من شعرها لجام فى يدى، استدارت زاحفة على أربع، متقافزة متراقصة، راحت المزيكة تزفنا حتى خرجت هى بى من القاعة فى سرعة خاطفة كالرمح. عبرت الردهة، برأسها نطحت باب القاعة المواجهة فانفتح عن سرير بعمدان طويلة من الخشب الثمين التحفة تبينت من أول نظرة أنه مسروق من مقابر الفراعنة بنقوشه ودقة صنعه وجمال شكله. سرير ملوكى يابوى، رمتنى المهرة فوقه، فانخفضت بى الحشية ثم ارتفعت فى الحال، ثم إنها رمت بنفسها إلى جوارى، فكان الملكة حتشبسوت نفسها تحتوينى ياخال. ضعت فى حضنها ياخال لم أعرف بأى جزء فيه أبداً متعتى، ولقد أحست هى بحيرتى وضياعى فى هذا الجنون المطبق فبدأت تسلمنى نفسها قطعة فقطعة تقول ذقها على مهلك حتى تشبع، صرت كالذى يتقلى على النار ياخال، وأخيراً قمت ياخال؛ تحلف اليمين تقول

ثورا هائجا من ثيران أسبانيا. ما كل هذا يـاخال؟ ها أنا ذا أعرف المرأة لأول مرة في حياتي، لم أكن أظن أنني سأنجح في شيء مما استمتعت به مـا لم تكن هي بنفسـها قد أرشدتني إليه؛ وارتفع صـوت الحـرمـان في صدري يقول: إلهط يـا ابن أبي ضب يامفجوع.

تغريق

لم أدر كم من الوقت مضى ياخال؛ لكن خيل لي أن دهراً بحاله قد انقضى، وعصـراً برمته قد اندحر ولن يعـيده الله ثانية يابوي، نعم يابوي إنني أكون هلفا إن لم أعش في هذا النعيم على طول ما يعطيني الله من عمر مديد بإذنه تعالى..

افـقت على نفسي بعد غيبـوبة طويلة فـإذا أنا في حلم لذيذ ياخال: وجدتني عـارياً في سرير الملك والدنيا بحالهـا ترقد عارية في حضني بكل جبالها وهضـابها ووديانها السحـيقة ورخامـها المرمري، تحـيطنا ناموسيـة من الحرير البنبـه، ذات أضلاع وباب كـباب الخـيمة ذي أربطة مـن الحرير المجـدول يمكن ربطهـا من الداخل وجمع أطـراف الناموسيـة تحت الحشيـة فكأننا في هودج في الجنة الموعودة..

لفحني صوت أنصاف يهدر في أذني:

ـ «هل انبسطت ياخولي الجنينة ياحسن؟!».

قلت فيما أقضم خوخة طائبة:

ـ «ما أظن المرء يشبع من النعمة!!».

فلانت بحضنى، ربضت فيه تبخ صهداً شهيا كصهد مرْق الضأن، مر بذهنى خاطر سخيف يابوى، فهتفت فجأة كأنى أدوس بقدم خشنة صلبة ملوثة فوق البساط الحرير:

- «لو كنت شهبندر التجار بحق وحقيق فلن أقدر على مكافأتكم على هذه السعادة!!».

مررت أصابعها حول أذنى، قالت:

- «لو كنت شهبندر التجار بحق وحقيق ما عبرناك ولا جئنا لحد عندك!! ولا جئنا لك بالطبل والزمر!!».

مخى لف يابوى. طار ذهنى فى الشتات مغادرًا سرير الملك إلى متاهات بعيدة غير مفهومة. غرضه يابوى أن أفهم: لماذا إذن يحتفلون بى كل هذا الاحتفال الكبير إن لم يكونوا فى انتظار أن أوسع عليهم بنقودى الكثيرة بعد أن أدخل هليل فى روعهم أننى من أثرياء التجار؟! بكل ما أستطيعه من رقة قلت لانصاف:

- « تفعلون هذا إذن من أجل سواد عيونى؟! أم عيون هليل؟!»

قالت وهى تغمرنى بقبلاتها:

- «طبعا ياحسن من أجل سواد عيونك! هل هناك أحسن منك عندنا؟!».

قلت باسما فى ضعف:

- «حتى لو اتضح لكم أننى رجل على باب الله؟!».

انفجرت ضاحكة فى جذل وطرب:

- «كلنا على باب الله يا خولى الجنينة لكن الناس مقامات ومقاسات!!».

قلت فى يأس بعد أن أعيتنى الحيل:

- «صارحينى بذمتك ياحلوة! ما سر احتفالكم بى هكذا كأنى الملك فاروق فى زمانه؟!».

بحلقت فى وجهى صائحة:

- «يالك من رجل طيب! أنت متواضع والله يحب المتواضعين ومن أحبه الله تواضع فأحبه الناس!!».

قلت وقد حبكت النكتة:

- «إياك أن تكونى من الإخوان الهاربين من سجن ولد الفرطوس!!».

ضحكت حتى دمعت عيناها:

- «رضاؤك من رضاء الزعيمة!! ألست الأخ الشقيق للزعيمة؟! كيف يكون الأخ الشقيق للزعيمة ضيفا على الجبل ولا يحتفل به الجبل؟! إن الجبل إذا لم يفعل معك الواجب يكون عيبا فى حق الزعيمة لا يحتمله الجبل ولا يرضاه!! خبر وجودك فى الجبل فى مصيف عم عرندس طار إلى كل مكان فى الجبل ووصل إلى

الزعيمة بمجرد وصولك أنت وصاحبك!! عيون الجبل من حراس الزعيمة رصدوكما من فوق الهضاب العالية ومن بين عيدان القصب!! كان اصطيادكما وشيكا لولا أن الذى كشف حقيقتكما هى الزعيمة نفسها!!كانت تمضى متنكرة تتفقد الأماكن التى تحبها والناس الذين تحن إليهم! تشم نسمة الدنيا ثم تعود إلى محرابها كما تسميه!! إنها كما تعلم من أهل الخطوة تذهب إلى أى مكان فى لمح البصر خبيرة بالإنسلال كالريح بين أعواد القصب والذرة والأشجار تجرى بجنبها كالحربة مائلة برأسها كى تشق الريح ولا تصطدم به فلا يكون لجريها صوت ولا لوقع قدميها على الأرض حفيف!! مرنة الجسد بسم الله ماشاء الله تتكور حتى تصير قطة صغيرة تسلك من ماسورة ضيقة تفلت من فراغات الأبواب والشبابيك تتسلق قمم الجبل تسقط مدحرجة نفسها كلعب الأطفال تتجنب الصخور الناتئة بذراعيها وساقيها ببراعة وفن!! هذه الجنية الحبيبة اخترعت بين مسالك الجبل تخاريم لم تكن مطروقة من قبل لكن أحداً لا يستطيع السير فيها سواها وحدها وقد جربها غيرها فدقت أعناقهم وتمزقت جثثهم فأكلتها الغربان فقال الجميع إن الله حق ولم يجربوها ثانية فبقيت هى وحدها ملكة أهل الخطوة فى الجبل!! أقرب مشوار عند غيرها مدته ساعتان من الزمان وأكبر وأطول مشوار عندها مدته نصف ساعة مهما طال!! لهم حق يسمونها فراشة الجبل إذ هى لا تلف حول الهضاب والمرتفعات إنما تمر من فوقها كالفراشة!بهذه الموهبة

وغيرها من مواهبها المتعددة حق لأختك أن تصبح زعيمة الجبل وأمه الرءوم واتضح أن الجبل طول عمره كان فى احتياج لها كأم بل كان فى انتظارها!! ياما سارعت هى بنقل الأخبار والتحذيرات قبل حلول الكوارث بوقت كاف!! وياما جاءت للناس بالدواء النادر من تحت طقاطيق الأرض فى زمن قصير!! وياما طاردها الأشرار فزاغت منهم كما تزوغ السحلية فى جحرها بكل نعومة واطمئنان!! وياما وجدوها فوق رءوسهم فجأة لإنقاذهم من شر يحيق بهم أو خطر يحدق بمراقدهم!! بقيت وفية للمرحوم خرابة تقيم ذكراه فى كل عام تقدم للحاضرين لحم الذبيحة تقول: إنه يوم عيدى أنا يوم أخذت بثأره فى الحال من قاتله المتجبر!! ومنذ داست قدميها أرض الجبل حتى اليوم وهى تعامل الجميع بكل عدل تنتصف للمظلوم تحسن للمحتاج تصلى الفرض بفرضه!! أتخن مخ فى الجبل لابد أن يميل ويلين إذا هى حدثته لخمس دقائق فقط يخرج من عندها زاهداً فى كل شىء متنازلاً عن كل كبرياء معترفا لها بالأمومة والشفافية وبُعد النظر!! إنها تحكم الجبل على طريقة شيخ الطريقة وهى فعلا تقيم ليالى الذكر والحضرة فى أوقات كثيرة ولا أحد يدرى متى ولا كيف تعلمت الكلام الثمين لدرجة أنها حينما تحضر مولد أحد أعمامها كعبد الرحيم القناوى أو الشاذلى أو البدوى تتكلم مع المشايخ المتبحرين فكأنها قرأت جميع كتب الدنيا والآخرة!! موكبها يرحل قبلها بوقت ليجدها مع ذلك فى المكان الذى اختاروه لنصب

خيمتهم!! ليكن فى معلومك أن الفرقة التى رقصتنى الليلة جزء من الفرقة التى تصاحب الزعيمة فى موالدها!! فُتَك فى الكلام ياخولى الجنينة إن الزعيمة حين رأتكما وعرفتكما من طريقة مشيتك طارت إلى سرايتهـا فى الجبل فأرسلت ثلاثة من العفاريت الأشـقياء من خدمـها الذين ورثتهم عن خـرابة أمرتهم أن يتـفقدوا آثاركـما فى مصـايف عم عرندس ليـنذروه بالمحاكـمة إن تعرض لكـم بسوء!! للزعيمـة قضاة علماء تعـشقتهم فى رحلاتهـا وتعشقوها فـباعوا الدنيـا وجاءوا يقيـمون فى خلوة الجـبل تحت ظلها لا يكـفون عن ذكر الله وقـراءة القرآن والأوراد لا يطلبون من أمـور الدنيا شيـئا سوى النجـاح فى هداية وحوش الجـبل وإن الزعيـمة لتـقدم لهم الطعـام والشـراب والكساء والدواء تعـتـبر وجـودهم بركـة حلت بالجبل وهم فى الحق أتقياء أنقياء يحلون أموراً كثيرة كانت تحتاج لحكومة شديدة الـقبضة يعرفـون الله فى كل شـىء إلا فى حـكمهم على من جاء يقصد الجبل بسوء لكنهم والحق يقال عندهم بصيرة نيـرة يمـيزون بهـا بين المظلـوم والمخدوع والمدسـوس والغلبـان والأونطجى والخبـيث والمكار واللئيم إنهم لا يحكمـون بالإعدام إلا على من يستـحقه بالفعل يامـا كشفوا عن حقـيقة ناس استـحقوا العفو فـعينوهم خدماً وفـلاحين وبنائين حتى عـمروا رأس الجبل جعلوا منه جنة فـيحاء!! من حـسن حظى أننى أقوم بخدمـتهم فى خلوتهم من غـسل الثـياب إلى الطبخ والكنـس أتفرج عليـهم وهم

يتكلمون حتـى تعلمت الكلام وعرفت مالم أعرفـه فى المدرسة فانا بنت ناس طيبـين علمونى فى المدارس فى أسيـوط وكنت سادخل الجـامعـة لولا أن ضحك علىّ مـدرس شرير أوقـعنى فى غرامـه فسلمـته شرفى لكنـه سافر إلى بلد بعـيد واختـفى فاختـفيت أنا الاخرى وأتى بى أحدهم إلى الجبل وحتى الآن لم يعرف أهلى عن اخبـارى أى شىء بل نسوا شكلى لدرجة أنى فى الأسـواق التقى ببعضهم فلا يعرفنى!! هل كـنت تتصور أن أحداً يقيم الصلاة فى الجبل؟! الحرية مع ذلك متروكة للجـميع فكل واحد يفعل ما يحلو له فكل شىء ـ كـما يقـول شيخ منهم ـ يمكن فـرضه بالـقوة إلا الإيمان والتقوى!! من يريد أن يغضب الله فذنبه على جنبه وحده!! بات الناس فى اطمـئنان فالشـر كله كان ينشـأ بين أشرار الجـبل خوفا من الخـيانة والغدر! أكبر حاجـة عملتها الزعيمـة أنها كرَّهت الجمـيع فى الخيانة والغـدر فبات الكـل فى روقان بال! بات الكل يحـرس الكل وكل واحـد فى الجـبل هو الجـبل بحـاله!! أى طريد جديد لا يكون فى أمان إلا إذا جـاء وقابل الزعيمة واختـبرته فإما جعلتـه من جلاسـها وإما أمـرت له بالعلاج النفـسى فى مسـجد الجبل وحدائقه حتى تنكسر شـوكته وإما حكمت عليه بالإعدام إن تيقنت من فساده التام!! على فكرة! منذ أن راق بال المطاريد كثرت فى الجبل الافـراح والليالى الملاح! من زواج لطهور لحضـرة ذكر لحضور ضيف عزيز! المزيكة تصدح ليليا فى جميع أنحاء الجبل!!

تجيء الركائب من خيول وحمير وجمال لتنقلني وفرقتي كل ليلة إلى نجع في الجبل أو سراية من سراياته التي يملكها أعيان الجبل من قدامى المطاريد الأغنياء الذين كبروا في السن فتنازلوا عن الزعامة لمن قتلت رأس الحكومة في عقر دارها!! مساء الخير ياأنس! أنت نورتنا!!».

هكذا أنهت أنصاف كلامها وهي تداعب ذقني. أما أنا فكنت سبحت في ملكوت الله ياخال؛ لم أعد أعرف من أنا صرت كفرخ الحمام يلف يحلق يدور من الجبل إلى البلدة إلى مصر محير كيف أحط في أي مكان. أين تراه يكون عشي الأصلي ياخال؟ أيكون لي كل هذه المحسوبية وأبقى ولداً متشرداً هجاماً في مصر يسرق الكحل من العين؟!..

سمعنا طرقًا خفيفًا على الباب. رفعت رأسي، رأيت بديعة تدخل علينا في ربع هدومها تشوح بيديها مستعجلة في شبق:

ـ «ستخلصين على الرجل يالبؤة! خل في عينيك حصوة ملح واتركي شيئا منه لنا!! قومي ياعاهرة!!».

وسحبت أنصاف من حضني فيما هي متشبثة به فقفزت بديعة إلى السرير من خلفي؛ طوقتني بشدة وجعلت تشدني، ثم دخلت فكيهة هي الأخرى متحررة من هدومها فأزاحت أنصاف بقوة واحتلت مكانها. برهة صغيرة ودخل عم عرندس يهتف في وسط القاعة:

ـ «حيلك أيتها العاهرة أنت وهي! تعالوا كلكم الآن فالعشاء جاهز! هيا يا ابن شهبندر التجار!!».

ضحكت من أعماقي يابوي. ذكرت له فرج أم شهبندر التجار الكبير: فأعاد ذكره خلفي مصحوباً بألف زرطة. هجم عليَّ مادًا كفه في ضحكة ماجنة: فصافحته واستندت على قبضته قافزا عن السرير الملوكي الذي ودعني بأنَّه قصيرة وغاية في الرقة والإثارة يابوي.

أربع فى الأرض

الطبلية الكبيرة توسطت القاعة، بجوارها طبلية أخرى. فوقهما صينيتان نحاسيتان كبيرتان؛ عليهما فضلة خيرك هضاب من اللحم المشوى والمسلوق والمحمر، وأكوام من الحمام المحشو بالفريك، وصدور الدجاج والديوك الرومى وأطباق الثريد والسلطات والمخللات. هجمنا على الأكل؛ الكل يفصص ويرمى أمامى، ومحسوبك يطوح فى فمه، فلما امتلأت وبقيت الصوانى حافلة بالخيرات جىء بالفاكهة والمهلبية، ثم رفعت الأطباق وجىء بالشاى الثقيل، طرأت على القعدة وجوه جديدة تولت خدمة الرص والتكريس والتوليع، وظهرت كلاكيع الحشيش من كل ناحية، غمزنى عم عرندس بكلكيعة كبيرة خضراء.

ـ «ما رأيك فى هذه الحشيشة؟!».

عجنتها فى يدى فاسترحت للمسها فقلت: طيبة، فهمس:

ـ «زرع يدى وقطف يدى وصنع يدى!!».

ـ «الله ينور عليك!».

ـ «وأنت ماشى خذ ما تشاء من الكيف لك!».

ـ «تشكر يا عم!».

وزع على كل الجالسين. وكان الزمار قد راح يقسم على الزمار، تسنده الطبلة والسلامية، واستطال نفس الأرغول فى زفرات خشنة خشونة تحرث فى الأعصاب والمشاعر جداول من نغم عميق، سرعان ما قامت النسوان الثلاثة فتحزمن وغطسن فى بحر الرقص يفعلن الأفاعيل..

لاحظت أن صاحبى هليل معتكر المزاج بعض الشىء؛ فانزعجت ياخال؛ خفت أن يقل عقله فيطلب منا الانصراف، أو تركبه غزالة الدروشة فينتبه إلى أن ما نفعله رجس من عمل الشيطان فينكد علينا، فنويت لأخسرنه إن فعل، ملت على أذنه:

ـ «مالك يابو العم؟! طلبت لى السعادة والرضا فما بالك يركبك الهم؟! كلهن تحت أمرك لو أحببت!!».

شوح فى فروغ بال:

ـ «أنت تعرف أن ليس لى فى الحرام! أنا زعلان لأن ما أردته أنا لم يحدث كما أردت!!».

خفت أن يشتت مخى:

ـ «وما الذى أردته أن يحدث يابو العم؟!».

مال على أذنى باسما:

ـ «كان عشمى أن ترى الخوخة بالذات وتشبع منها إنها أحلى وأمتع منهن جميعا!».

ذكرنى بموضوع الخوخة يابوى:

ـ «آه! نعم! ولكن يابو العم خوخة ماذا الآن بعد هذا التفاح والقشدة!؟».

بدا كاليائس؛ شوح فى ولولة:

ـ «فماذا لو رأيت الخوخة؟ تقع من طولك فى الحال!!».

بحثت عن عم عرندس لأسأله عن السر فى عدم مجىء هذه الخوخة فلم أجده، تذكرت أننى لاحظت انصرافه ومجيئه عدة مرات، سلمت أذنى لهليل وعينى لبحر الرقص المتلاطم باللذة والشهوة الطافحة، كنت أحاول النفاذ إلى ما تحت ثياب كل راقصة، إلا أن موضوع الخوخة وغيابها شغلنى؛ فالبنى آدم منا طماع خصوصا فى هذه الشغلة...

فجأة دخل عم عرندس يتحاشى الاصطدام بالراقصات الملتويات تحت قمصان من الحرير الأطلس الأحمر اللامع وشراشيب الشيلان الملتفة حول خصورهن تتطوح بين السيقان، كان عم عرندس متدلى الأذنين فى حرج وخجل كالمضروب على وجهه بالصرمة القديمة، توجست من منظره؛ حولت إليه كل اهتمامى؛ فلما جلس قرَّب وجهه منى ومن هليل قائلا فى أسف:

ـ «البنت الخوخة بنت الكلب أتعبتنى! تصور أننى بعثت بمن أتى بها غصبا عنها؟ لقد عذبتنى! كل مرة أخرج إليها أهددها بأن الضيف الذى عندى يقدر أن يحرقها! لم أقل لها من هو! وهى غشيمة لا تعرف من أخبار الجبل شيئا كثيرا! كل ما طلع عليها قولها إنها قد انخطبت بالأمس لواحد يعيش فى مصر وإنها كفت عن اللبط وفاءً للكلمة التى أعطتها لخطيبها!! بنت الكلب تطلع لنا فى مطلوع جديد تتصور أننا سنصدقها! إننى أصدق أن الكثيرين يمكن أن يخطبوها حتى مع علمهم بسيرها البطال أما أنها تمنع نفسها عن السير البطال لمجرد أن شابا ابن ناس خطبها بالأمس فهذا لا أصدقه لكنى تعبت معها وهى تهددنى بالصوات وقتل نفسها إن غصبت عليها!!».

ثم اكتست عيناه ثوبا من الحزن الشفيف الأليم. شعرت أنه يوشك أن يبكى لشدة ورطته بين أن يوضح لى موقفه من إرغامها على المجىء وبين أن يذيع سراً لا ينبغى أن يذاع. وإذا به يقترب منى حتى يلاصقنى متربعاً؛ هامسا فى أذنى بصوت أليم يقطع نياط القلوب:

ـ «اللهم ابعد الشر عن بناتنا!! هذه البنت لها ظروف صعيبة!! مات أبوها ليفتدى نذلاً كان يحرسه! النذل نذل لم يرع للمرحوم حرمة لم يتق الله فى عرضه وأولاده ترك البنية نهبا لأولاده الصبيان يعبثون بها فلا يردعهم!! خرقها أصغر الأولاد مع أنه

المتعلم الوحيد فيهم بكل أسف!! أجهضوها!! قصوا لسانها! كافأها المفترى الأب بأن تزوجها هو سترة على ابنه زواجا عرفيا!! المسكينة لا تعرف العرفى من الرسمى لكن الله انتقم لها بالعجل فالولد الذى خرقها بعد أن أصبح ضابطاً فى الجيش قتله اليهود فى السويس نزلت على أبيه النقطة والعياذ بالله كسَّحته! شهر واحد ثم اتكل على الله وبقى ولداه الكبيران كل منهما يريد أن يرث البنت كجارية والبنت تصوت وتقول إنها زوجة أبيهم على سنة الله ورسوله لكن نسوان الدار تكفلن بطردها ليلا!! وكنت أمشى فى شوارع البلدة ليلتها حين شفتها تتلكع فى الظلام متنكرة فى زى نفر أجرى من طائفة المعمار يحمل صرة خلقاته!! كشفتها من طراوة مشيتها ضيقت عليها الخناق فبكت! حكت لى ما حكت! جئت بها إلى هنا فخبأتها بعض الوقت ثم صحبتها إلى الزعيمة فوق الجبل حكيت لها حكايتها من طقطق لسلامو عليكم فبعثتنى بها الزعيمة إلى ناس طيبين لهم مهابة المال وعزوة الولاد فشغلوها عندهم خادمة للأطفال وزريبة المواشى!! بصراحة أنا المحقوق فى أمر هذه البنية أنا الذى ميلتها مرة لتبيت مع شيطان من مهربى المساخيط رآها عندى فطار عقله ودفع لى مائة جنيه ولها خمسين مع فرع من الكهرمان الأصلى الأثرى ولولا أننا خدرناها بالحشيش والأفيون ما رضيت أن تفك عظامها!! هذه البنت دون كل البنات أشعر أننى ظلمتها وأننى أنذل من الذى غدر بها فعذبه الله عاجلاً وأشعر الآن أننى لو ضغطت عليها فربما تموت وتجىء لنا بمصيبة!!

ثم ضحك ضحكة هزيلة مكتومة كأنه يريد أن يقول بها: إنس هذه المأساة العارضة وعد إلى ساعة الحظ التى نحن فيها. وجدتنى أقول:

- «هذه بنت طيبة وجدعة فلا تضغط عليها! دعها فى حالها يا بو العم! ساعدها على التوبة!».

استراح عم عرندس لهذا القول كأننى خلصته من ورطة، وشعرت والله يا خال أنه ميال لترك البنت فى حالها، فشعرت أننى قد أحبه ذات يوم. الدور والباقى على هليل الذى بدا كاسف البال كأنك دلقت فوقه برميلا من المياه الباردة، كأن خطته كلها فشلت، فشوحت له قائلا:

- «خلاص يا هليل كل شىء نصيب وأنا مبسوط كل الانبساط فماذا يقلقك يا أخى!».

صار هليل يردد كأنه يبتهل:

- «الحمد لله كل شىء نصيب!!».

ثم أضاف بعد هنيهة:

- «ومادامت الخوخة قد صدقت فى وعدها وحفظت شرف خطيبها واحترمته فى غيبته واحترمت كلامها معه فإننى متبرع لها بمائة جنيه تنفق فى فرحها!».

قال عم عرندس متهللا:

- «كلك نظر يا هليل! على كل حال سأجعلها تجىء لتجلس معنا فحسب! هى ليس عندها مانع من الجلوس معنا لزوم الفرفشة أما أمور الدب والضـرب فى المليان فـلا! والحمد لله أن أمـامنا سكك مفتوحة على البهلى!!».

وأشار إلى الراقصـات. ولم يتم كلامه، إذ أن فكيهـة فعلت مثل أنصاف وزحـفت نحوى على أربع ثم اختطفـتنى من مكانى بنفس القوة والسـرعة والرشاقـة. فإذا بى بعد برهة ملـقى على السرير الملوكى فى الغرفة المقابلة، وفكيهة تعرينى من خلقاتى وتشخلعنى على نغمات المزيكة وأنا ضارب فى سـقف النشوة. ما كدت انتهى حتى قفزت علينا بديعة لكننى صـرت خرقة بالية. صارت تداعبنى حتى دبت فى الروح من جديد فقمت كالمفـجوع كالمجنون. مزقتها يا خال، أسلت الدماء من وجهها عضا وخربشة وكل ذلك من الملل أو من الشبع لست أدرى..

نزلت عن السرير أجـرجر ركبى. فما إن دخلت القـاعة الأخرى متجها إلى قعدتى السابقة حتى رأيتها يابوى فتسمرت فى مكانى. تخيلت أن شللا أصـابنى يابوى، فانهـمرت الدموع من عـينى. أما عين هليل فـقد جـعلت ترقبنى بنظرة حـادة جدا وغامـضة بما لا أعرف إن كانت شماتة أم إشفاقا يا بوى. ثم إننى دققت النظر فيها لأتأكد أن الأمر حقيقة وليست من التـهيؤات. إلا أن الحقيقة كانت صادمـة، فالتى أمامى هـى بعينها «حنة».. حـبيبـة قلبى حنة، التى خطبتها من نفسها بالامس، وأخذت الأرض تميد بى يا خال.

بـــاطــــــــه

ادركت الآن فحسب ما الذى قصده هليل بارتكاب هذه المغامرة الفريدة: كان يريد أن يثبت لى - عمليا - أن حنة ليست جديرة بأن اتزوجـهـا إذ هى تمشى فى الطريق الـبطال، وكـان من الممكن ألا اصدقـه لو قال لـى ذلك وكنت على وشك أن أركب رأسى وأجلب اهم العار مـدى الحيـاة بهذه الزيجة، فـإذا به من حيث لا يقـصد يثبت لى ولنفســه أنها بنت تسـتاهل السـلامة وأنهـا كفـيلة بأن تصون شرف زوجها وتحمى عرضها. المشكلة الآن ليست فيها بل فى هذه المفاجـآت التى دهمتنى بخصـوص الزعيمة: سـعدية ولد ابى ضب تصبح زعيـمة فى الجبل، وعرافة يطلبهـا علية القوم من مجلس قيادة الـثورة؛ فيما أنا سواح كحـيان فى بلاد الله! فهل يا ترى ستوافق الزعيمة على أن أمرغ سمعتها فى التراب؟!.

افقت علـى هليل يسندنى من ناحيـة وعم عرندس من الناحـية الاخرى خشـية وقوعى وأنا أحاول الجلوس. كـانت نظرة حنة قد تسمرت على وجهى فى اندهاش وفزع، لا تنى تردد مأخوذة: «هو انت؟! هو أنت؟! هو أنت؟!». وأنا الآخر أردد نفس العبارة. وإذا بها

تنخـرط فى البكاء، فمـا كـان منى إلا أن انهمـرت دموعى غـزيرة كالسيل فيما أردد:

– «سـامحـينى يا حنة! سـامـحـينى يا حنة ! أنا مـا زلت عند وعدى!!».

فلم ترد، إنما تسللت خارجة وهى تـنتفض من البكاء، جزعت يا خال، فطمأننى عم عرندس:

– «اطمئن فـهى تحت يدى فى أى وقت تشاء المهم أن الزعيـمة بعـثـت الآن تريد أن تراك!! الركـائب جـاهزة بعـد أن تسـتـحـم وتستريح لك ساعتين! لقـد صرفت المرسـال على أننا قادمون على وجه الصباح فكن مستعداً وسيكون هليل معنا!!».

لم أعط منطقـا يا خال. مـسحت دمـوعى وتبسـمت درءاً للكدر المفاجىء، فتبسموا جميعا وقالوا فى نفس واحد:

– «كل شئ قسمه ونصيب!!».

فمـا وجدت قدرة عـلى النظر فى وجه أحد. وأهم شـئ شغلنى آنئذ هو أن أقوم لأرتمى فـوق السرير فأستغـرق فى نوم عميق لا أفيـق منه مطلقا. لكننى مـا كدت أشـرع فى النهوض حـتى دهمنا صوت صراخ ملتـاع؛ وأضاءت الردهة بنور ساطع صـار يقترب؛ وإذا بشجرة من اللهب المخضوضـر فى توهج تعبر باب القاعة فى اندفاع مـذهل صارخ، وصـوت باب الشارع ينفـتح. قمنا فـزعين،

عبـرنا الردهة إلى الشارع. كـانت رائحة احـتراق اللحم البـشرى زاعـقة خـانقة. فـى الشارع كـانت شجـرة اللهب تواصل الجـرى بعشرات الالسنة المدببة وصـرخاتها تمزق جوف الظلام تنداح فى أعالى الجـبل؛ ونحن جـميعـا نجرى وراءها بأقـصى ما فـينا من سرعة؛ والالسنة اللهيبة الممتدة تسود شـيئا فشيئا تحت عباءة من الدخـان الاسـود رأيناها على البـعـد ترتمى فـوق الأرض هامـدة فتباطأت خطواتنا فى يأس مرير ثم توقفنا ذاهلين عـاجزين. كان هليل قـبالتى منكس الرأس صـدره يعلو ويهـبط، فـمـا دريت إلا وذراعى ترتفع ثم تهوى على صدغه بضـربة تقطر حقداً وسـخطا، ثم ارتميت على الارض فانقطعت صلتى بكل شئ.

لعــــب

الشــمس كانت مـتـبرجـة على أتم زينتـهـا يابوى فى ملاقـاة صبحها الفتى. قد صـبغت وجهها وخدودها باللون الوردى. كانت تخادعنا حتـى لا نراها وهى تنفرد به تتعشقـه إذ هى تزحف نحو جبهة الضوء شـيئا فشيئا فتحتـويها خلف السحاب، ثم تسقط با خلف هامـات الجـبل، تقبِّل الضوء ويقـبلهـا، تشـحنه بالضـحى اللاهب، فيشحنها بذكريات الأمس البـعيد. وحين انتهت نعالنا من اللف حول الكثير من الهامات العـالية، وصعود القليل من الهضاب القزمية كـان الصبح قد شب عن الطوق، فالتقيناه صبيـا فتيا على مشارف أعلى هضـبة فى الجبل. هضبـة مخيفة وسـاحرة يا خال تحلف اليمـين أنك لو كنت جنياً أمك من المـريخ وأبوك من الشلال ما استطعت الوصول إليها وحدك بغير دليل تربى هنا منذ الطفولة فأصبح يعرف الفرق بين الشـىء وشبيهه، والاسم وسميه. ذلك يا خال أن هذه الهـضبة قـد مررنا فى الطريق بعشـرات منها؛ وإنك أثناء سيرك بجوارها لا تعرف إن كنت تتـقدم أم تتأخر؛ لا تعرف إن كنت تمشى بجوار نـفس الهضبـة أم هضبة أخـرى. والشمس أحيانا فى وجهك وبعد دقـائق فوقك أو خلف ظهرك أو على يمينك

أو شمالك وأحيانا لا وجود لهـا فى السماء المرئية لك بين شـقين مرتفعيـن يفصلهما طريق. إنك يا خال تمشى فى مواجـهة الشمس ساعـة أو أكثر وفـجأة ترى الشـمس قد صارت وراء ظهـرك قبل الأوان. حقيقة الأمـر يا خال أنك حودت أثناء السير دون أن تدرى عائداً إلى الخلف، والتحويد يتم ببطء على امتداد طويل؛ حتى لتظن أنك تمشى فى خط مسـتقيم. ونفس الهضبـة ربما كانت على يمينك فإذا هى فجأة قد صارت على يسارك، ولو أن طائراً أراد أن يقطع مـشوارنا ذاك الذى نقطـعه فى أكـثر من سـاعتـين فقـد لا يستغرق بضع دقائق..

ركض الركائب يدوخ الراكب؛ وللطريق دواره كمـا للبحر أيضا يا خال. هضاب ثم هضاب ثم هضـاب، تمشى فوقها يا خال وأنت متخيل أنك تمشى بجوارها؛ تصعـدها وأنت متخيل أنك جـاوزتها فتركتهـا خلفك، إذ أنك كلما اعتليت قـمة طالعتك من فـوقها قـمة أخرى لهضـبة كـالتى تطالعك وأنت مـاش فى سفح الجـبل على السواء. أما المشى فـوق الهضبة فإنك لن تشعـر به. هذه الهضاب لابد أن تكون مـسكونة من الأزل يا خـال؛ فلا يـقوى على ضـرب هذه الصخور واختراقها سـوى الفراعين الأقوياء يا خال، يشقون الحجر بالحجر والسماء بسماء مثلها؛ ولد فتوات يا بوى..

رواغتنا الشمس كثيرا، وتسلطت على أقـفيتنا حتى شوتها. كنا كأننا نجترىء على سلمها الحلزونى فنلف حـولها نبتعد عنها مرة ونقترب منها مرات. وكانت كـأنها تتوارى لتأخذنا من الخلف على حين غرة..

ضؤل خيالنا تماما صار بطشة ظلال تحت أقدامنا. خطو البغال قد ثقل إلى أقصى حد، رقابها صارت قرب صدورنا من فرط الصعود. نزل عم عرندس عن بغلته وجعل يسحبها ماشيا أمامها على رجليه ناظرا إليَّ أنا وهليل فترجلنا وفعلنا مثله..

بعد خطوات طويلة إخضر لون الشمس فقلنا إنه اخضرار اللهب فى أوج اشتعاله؛ فمن عجب يا خال أن الأخضر الرطيب كامن فى الأحمر الملتهب الأوار. الله وكيل يا خال، سبحانه جلت قدرته: أن تكون النار هى نفسها الماء الذى يطفئ لهيبها كما سمعت عمى الشيخ ذات يوم وهو يشرح لجلاسه بردة البوصيرى: الماء فى النار، والزرع فى الماء، والشيطان فى الانسان؛ حقا ما عفريت إلا بنى آدم صدقنى يا بوى. كل شئ فى كل شئ ولايفهم معنى الأفكار والخلق وحكمة الله إلا من عاش فى مثل هذا الجبل. شيئان فقط لايجتمعان فى هذه الدنيا فى كيان واحد: الله والشيطان؛ فسبحانك اللهم جلت قدرتك؛ اللهم اغفر لى ما ارتكبته الليلة المنصرمة من ذنوب..

المسافة بين اللون الأخضر وقرص الشمس أخذت تتسع؛ وأخذ قرص الشمس يرفع صدره عن الخط الرمادى الغامق يبتعد ثم يبتعد ـ الخط الرمادى المقوس المنبعج بدأ ينفصل بدوره عن اللون الأخضر يلتحق بموكب الشمس فى السماء. ثم بدأ خط من الخضرة الرمادية الكثيفة يمتد أمامنا طالعًا علينا من بئر الأفق سرعان ما أخذ يتدملج يغلظ يفقد تناسقه. فإذا بنا أمام سور مزروع حول أسلاك شائكة يمتد فى جميع الجهات امتدادات

لانهاية لها: بداخله غابات شديدة الكثافة يا خال. جزورين وكافور وصفصاف وتوت وجميز وفواكه من كل الألوان؛ جميع أنواع الروائح من زهور وورود وثمرات تسطع فى الأفق؛ الكون كله زكى الرائحة يا خال. ولكن، من يا ترى ذلك القلب العظيم الذى يسكن هذه الجنة؟!..

توقفنا برهة نلتقط انفاسنا التى تركناها فى سفوح الطريق فصرنا نتساند على البغال وننظر فى السفوح خلفنا فنحس كأن انفاسنا تشدنا قبل أن نشدها العجيب أننا لم نر من تحتنا أرضًا يمكن أن نتهاوى فوقها إذا وقعنا؛ لم يكن أمامنا سوى صخور ناتئة كحراشيف الجبل تزداد رقاعها اتساعا كلما تسافلت..

مشينا بحذاء السور المزروع الذى كان على يدنا اليسرى ولم يكن يظهر لنا أننا فوق هضبة؛ إنما نحن ـ رغم كل هذا العلو الذى صعدناه ـ لانزال فى سفح من السفوح؛ فها هى ذى هضاب كثيرة تبدو قممها الهائلة من جميع النواحى على امتداد مسافات هائلة: وكان الطريق يتسع على يميننا شيئًا فشيئًا إلى أن انقرض من جانبنا تماما وحلت محله أرض رملية عريضة مترامية الأطراف تحوطها الهضاب من ثلاث جهات. وبدا كما لو أن قرص الشمس قد حصرنا فى ركن ظليل من هذه الجنة فعزلنا عن كل ما يربطنا فى الأسافل. وهنا نطق هليل بعد صمت طويل:

ـ «لو كنت أعلم بوجود هذه الجنة لصرت من كبار المطاريد!!».

وقال عم عرندس:

ـ «ليس كل مطرود فى الجنة يا هليل!!»

وقال ولد من الأتباع لا اسم له:

- «رحم الله خرابة! هو الذى استوطن هذه المدينة وعَمَّرها وكانت فى الأصل يحتلها جماعة من العربان الهلالية ذوو الأظافر الطويلة واللحى الخشنة!! كانوا من أقدم عتاة المطاريد والتائهين ومجانين الجبل!! لم يتركوا مكانا فى الجبل إلا وذهبوا إليه عربدوا فيه!! وأصل الحكاية أنهم كانوا يصاحبون القبط يضحكون عليهم بغرض الحماية فعرفهم القبط على مخارز الجبل فلما جاءوا إلى هذه السقيفة وجدوا أشجارًا مزروعة من قديم الأزل ومن تحتها دير صغير محندق يعيش فيه بعض الرهبان العجائز يقيمون الصلوات!!».

وافق عم عرندس على كلام الولد وقال إن هذا الدير موجود وسوف نراه لكنه تحول إلى مسجد صغير على القد بمثابة خلوة تقضى فيها الزعيمة معظم لياليها مع قضاتها ومشايخها الزاهدين. فقال الولد الذى من الأتباع:

- «العربان الجبابرة هدموا سقفه ولم يقدروا على هدم الجدران!! ناس شغلتهم الهدم أما نحن المصريون أبا عن جد فشغلتنا البناء هكذا قال لهم خرابة!! ولما سكن هنا كان العربان يخزنون فى الدير سرقاتهم وهم الذين قتلوا الرهبان الثلاثة واحدا بعد الآخر بحثا عن كنز ظنوا أن الرهبان يحرسونه لكنهم لم يجدوا شيئا!! وفى ليلة نام فيه خرابة فجاءه فى المنام هاتف على

هيئة تمثال رمسيس قال له: قم ونظف هذا المكان فإنه آمن مكان فى البلاد كلها لأن زوجة إله الخير جاءت بجثته التى جمعتها من كل مكان وزعها فيه أخوه إله الشر فدفنتها هنا وبقيت بجوارها تبكى وتصلى حتى فاضت من دموعها مياه صنعت نهر النيل وغطت كل الهضاب وجرفت المرأة الوفية الطيبة وحملت جثتها الغريقة إلى الإسكندرية فعم الخير فى الوجه البحرى كله لأن الجثة ذابت فى المياه فجعلت لونها أحمر كالفخار !! فقام خرابة من وقته فنظف المكان وجعل منه قعدته ومسكنه فجاءه الهاتف مرة ثانية فى ليلة جمعة وقال له: قم واحفر الأرض ألم تر الأشجار من حولك يا خرابة؟ قال: بلى! قال ألم تعرف أنه حيث وجدت الأشجار توجد المياه؟ قال: بلى! قال: قم واحفر الأرض من تحت رجليك تجد المدد فاسق هذه الأشجار واعلم أن كل شجرة من هذه مدفون تحتها رجل ذكر الله وسبَّح بحمده!! عنها وقام خرابة فجاء بالرجال فظلوا يفحتون فى الرمل أسابيع وأشهر والعربان يرمونه بكل جنون!! خرابة طول عمره عفريت عرف من سهولة الرمل تحت قدميه أن الأرض الصلبة لاتزال بعيدة جدا فصمم على أن يلامسها حتى وجدوا تحت ثلاثة أمتار من الرمل أرضا مربعة من الرخام مجوفة من أطرافها الأربعة تجويفات تتسع لقبضة يد كبيرة لتقبض على يد موصولة متينة!! سرعان ما وسعوا حول هذه الرخامة العريضة وكان الرمل أشبه بعجينة الفخار والمياه تنز حول الرخامة!!».

قاطعه عم عرندس مكملا بلذة:

ـ «جبار طول عمرك يا خرابة! مـا فعله لايجرؤ على فعله أحد! جاء بسـيبـة من الحديد بثلاث قوائم كسيبة الجزار بالضبط! كميزان القبانى! فى أعلاها بكرة من الحديد مجوفة وممتلئة بتكويرات حبل تخين مجدول من أربع أطراف من ليف النخيل! ربط كل طرف فى قبضة تجويف من تجويفات الرخامة ربطا محكما! وأمسك بطرف الحبل حوالى خمسين رجلا عفيا صاروا يشدون! ورجال آخرون بأسلحة الكريكات يفززون الرخامة فى مرقدها يفصلون شفتها عن شفة الأرض هيلا هوب! هيلا هوب! الهمة يا رجال! ما كادت شفة الرخامة تنفصل عن شفة الأرض من إحدى الجهات حتى أسرع فريق من الرجال بوضع شجرة كافور مقطوعة! صاروا يرفعون طرف الشجرة حتى انتصبت الرخامة واقفة على سيفها فقلبوها على ظهرها! أنا على فكرة شاركت فى رفع هذه الرخامة شاهدت البئر من تحتها كنت اول من ذاق طعم مياهه فاستحليته كمياه النيل بل أشد حلاوة! كان مبنيا بالحجارة وقام خرابة ببناء قبة فوقه لها أبواب وشبابيك فى كل شباك داو مربوط بحبل متين! وابتنى قناة موصولة ممدودة فى أعماق المنطقة حتى آخرها كما ابتنى لنفسه السراية المجاورة لجدران الدير وجاءت الزعيمة فبنت للجدران قبة فاهتلأت المنطقة بالأنس والنضرة!!».

البغال تمهلت وحدها يابوى. بدأت نقط بيضاء فى بحر الخضرة الواسع، برزت فى بيضتين كبيرتين متجاورتين بين

الأشجار فاستطعت أن أميز فيهما قبة البئر السبيل وقبة المسجد الخاوة؛ ومن خلفهما سراية مشرقة مثل سرايات الباشوات. ثم إن الوجوه السمراء الملوحة بدأت تكثر حوالينا داخل جلابيب من البيسة الزرقاء يتفحصوننا بابتسامات بلهاء ويهزرون مع عم عرندس بكلام قبيح جارح وهو يلعب لهم حواجبه سخرية وهزءًا بهم. فما أن وصلنا إلى باب حديدى متين أعلى من قامة الرجل الفاق حتى جوبهنا بعاصفة عنيفة من نباح الكلاب لا ندرى هل ترحب بنا أم تنذر بافتراسنا. انبرى أكثر من هلف يسكت الكلاب فلا تسكت؛ صوت تمردها على الجنازير يصلصل بشدة يصنع ضجيجا مخيفا مثيرا للأعصاب ..

الباب الحديدى مغلق لكن كله عيون مفتوحة، كل عين تطل منها فوهة بندقية أو فوهة عين حارسة. لم نكن نقترب من الباب إنما كان هو الذى يستدير ببستانه ليواجهنا. شرفة السراية تبدو كأن السراية التفت بها وجاءت تواجهنا بباب مشغول بالنحاس. فإذا بهذا الباب ينفتح بدرفتيه فيطل من داخله بستان ضخم زاهى الالوان يا خال، تكاد ألوانه الزاعقة الكثيرة تصيح فى طرب بهيج، برهة وجيزة ثم ظهرت الملكة نفرتيتى بحجمها المحندق ومشيتها الملوكية. ما أن لفظها الباب حتى انغلق من تلقاء نفسه. حاجة تهوس يا بوى. أما الملكة فإنها تهادت نحو سور الشرفة المسقوفة، فى خفر وجلال تلف رأسها بطرحة بيضاء كالفل بدت كالتاج المزين بخصلات من شعرها المتكور فى دوائر مرفقة ببعضها

بالطرحة بدبابيس على هيئة ورود وزهور وأوسمة وجعارين من ثمين المقتنيات التى استورثها خرابة من بطن الجبل عن أجداده الفراعين: عقود من الذهب مطعمة بالأحجار الكريمة مشرقة على صدرها العريض الناهد رغم ضآلة حجمها؛ أساور من الذهب مطعمة بالدر والياقوت ترصع معصميها وهى عاقدة ذراعيها فو صدرها كوقفة العذراء بنفس الوداعة..

بدت لى الملكة يا خال على غاية من الوثوق والاطمئنان تما فى يديها أسرار النيل وخط سير الكواكب وفى خزائنها دفا، تحوى خرائط محطات الشمس دقيقة بدقيقة وخريطة المياه بقع ببقعة وجدول الحياة المقبلة لحظة بلحظة. أمال يا بوى، حاج تهوس والله يابوى. أهذه الملكة بجلالة قدرها، المطلة من شرفة من داخل شرفة من قصرها هى أختى سعدية أرملة خرابة؟! حتى لو حظيت بلقب فراشة الجبل أو زعيمة الجبل من أين جاءت بمثل هذه البذلة الوقور التى ترتديها من قطعية واحدة ملفوفة حول الجسد بحرفنة فائقة لا تعريه ولا تختفى معالمه الأساسية البارزة بكل وضوح؛ قماشة داكنة اللون تستقبل ألوان الطيف بلمعة مزدهية كالمرآة يظهر من ورائها الجسد مضاعف القسمات مضاعف الجمال طاغى السحر يا خال. يا خلق الله، لابد أن تكون هذه البذلة أيضا من مستورثات خرابة من طول عسّه فى الأرض فكل الأرض الصعيدية مقابر كالضمير الغفل تحوى الكنوز..

قد جاءك أيتها الملكة من بات مفتونا بكل هذا الذى يخرج من بطن أرض الصعيد يحكى ما يشيب له الولدان من حكايا. بمثلها بات الحاج أحمد نوار الدين السنى حاكمًا على البر كله تأتمر الحكومة بامره وهى تدرك أنه محض نصاب ضلالى لا ذمة له ولا دين، نهارك فل أبيض يا فراشة الجبل يا زعيمته. لسوف تكونين السبب فى نجاحي؛ لا أنوي نجاحا يجعلنى مثل الحاج أحمد نوار الدين السنى بل أرغب فى أن أحكم الحاج السنى بذات نفسه فيصبح من بين خدمي..

تحلف اليمين يا بوى أن الله ركب لى جناحين فى الخفاء طرت بهما فكلما اقتربت من الباب الحديدى ازدادت هى التصاقا بسور الشرفة تكاد ترمى نفسها نحوى لولا ما يفصلنا من سور وزرع وقنوات وأسلاك. كانت البسمة على شفتيها تهتف: حسن! حسن! إن هى إلا برهة حتى انفكت الجنازير عن الباب الحديد فانفتح مزيقا، فظهر عديد من الرجال يحوطون الكلاب يعلقون البنادق فى أكتافهم. تركنا البغال لمن تولاها؛ إندفعت أجرى فوق ممر من الزلط الملون صاعدًا سلمًا مواجهًا. ارتمينا، الملكة وأنا، فوق بعضنا؛ فوقعنا سويا على الأرض ننهمر فى بكاء حار عميق تتخلله ضحكات نزقة يتبختر صوتها فى طيات صوت الذهب واليواقيت.

أكـــــــل

باشوات من يابوى؟ ملوك من؟ هذه هى القصور وإلا فلا. البهو طويل واسع على الجانبين أبواب كثيرة مشغولة بالنحاس الأصفر اللامع على هيئة عقود كبرواز صفحة المصحف الشريف لكنه ملىء بالنقوش الفرعونية التى تحكى قصصا يمكن تتبعها منظرا منظرا. المقابض من عاج وفضة، الأرض مفروشة بسجاد ثمين ملون. السقف مشغول بالزخرفة الملونة كأبسطة منقوشة لتوها. تُرى يابوى من الذى قام بشغل هذا السقف وهذه الأبواب وهذه الثريات المتدلية كأفرع الزهور وعراجين البلح، كلها من البللور فى وسطها مصابيح بللورية كبيرة تضاء بالشموع، هذه الكراسى والمقاعد والمناضد ذات الأرجل المشغولة المرسومة على هيئة وجوه آدمية وأشكال حيوانات وزواحف وطيور جارحة؛ إن رجل الكرسى وحدها تساوى ألوف الجنيهات من كثرة ما فيها من شغل وتطعيم. فوق المناضد الكثيرة المختلفة الأحجام والأشكال أعداد لا حصر لها من تماثيل ومساخيط من جميع المعادن والأحجار الأصيلة. هذا البهو وحده متحف، يابوى؛ وإن ما سرقته

أنا من مقبرة الحاج أحمد نوار الدين السنى لا يجىء شيئا بالنسبة لركن واحد من هذه الأركان المتخمة ..

الملكة جعلت ترقبنى يابوى، تكتم ضحكها من كثرة توقفى عند كل خطوة للنظر المنبهر فى هذه الأشياء، قلت لها :

ـ «من أين جاءتك كل هذه الثروات يأخت السعد» .

انفجرت ضاحكة:

ـ «لا ثروات ولا دياولو !! إنها هنا أكثر من رمال الصحراء يلعب بها الأولاد ويتقاذفون بها عند العراك ويبيعونها بكلمة : شاطر ياولد !! لو لم تكن الحكومة تضبطها وتحاكم حائزها لأعطيتك منها أجولة !! على كل حال إنها تنفعنى أشترى بها أتخن شارب فى الحكومة من صغيرها لكبيرها!!».

قلبى راح يرقص ياخال ؛ لكن الانقباض حل بصدرى بمجرد ذكرها كلمة الحكومة؛ فإن هذه الكلمة اللعينة تصيبنى بحكة الهرش فى دماغى وأجنابى قالت الملكة باسمة :

ـ «ماذا دهاك يا أبا على ؟؟».

اغتصبت بسمة مرة الطعم:

ـ لكن من الذى وضع لكم كل هذه الرسوم والزخارف فى هذا السقف؟! هل جئتم بناس من مصر ؟!».

ضحكت الملكة فى صفاء كانهـا لم تضحك منذ عمر طويل قالت وهى تغمزنى فى كتفى:

ـ «المرحوم هو الذى فعل كل ذلك ألف رحمة ونور تنزل عليه !! كان جبـاراً قويا ورجلا! كان خسـارة فى الموت ولو لم آخذ بثاره لحظة قتله لبقيت طول عمرى فى مستشفى المجانين !! الحكومة لا تستنذل إلا فى اللحظة التى يجب أن تكون فيهـا محترمة وإنسانة! لحظة وقوع الأصيل بين يديها! إنها تخاف ولا تختشى!!

آه يا حـسن لو تعرف الدمـامل الوارمة فى قلبى من الحكـومة! لقد ضربت رأسها فى الحائط حتى تتمكن من القبض على الفارس الذى قتل ذلك الحكمدار ولم تعـرف حتى الآن أننى ذلك الفارس !! نجانى الله لحسـن معاملتى لجميع سكـان الجبل ولأن الحكومة لا يمكن أن تجد لنفسها مـرشدا من أهل الجبل !! وسابقى ساكنة فى هذه الحكومة !!».

ـ «الزمن لا أمان له!».

ـ «سعـدية التى تبحث عنها الحكومـة لتحقق مـعها باعتـبارها زوجة ثانية لخرابة قد تفـيدهم فى شىء ماتت ياحسن وطلعت لها شهـادة وفاة وتم دفن جـثمانهـا فى مقـبرة العائلة ألم تـعلم بهذا ياحسن؟!».

ـ « لا والله فكيف حدث؟!».

ـ «ما أكـثر من يمتن فى الجبل من نسـاء ليس لهن فى الأصل شهادة ميـلاد !! تخيرت واحدة منهن أعطيتهـا اسمى وصفاتى !! ماتت فى هجمة للحكومة عـلى سفح الجبل !! الحكومة وجدت من مصلحتها أن تقتنع فاقتنعت!!».

ـ يالك من جبارة !».

ـ «لست جبارة ! إنما أعرف كيف أشغل مخى عند اللزوم!!».

ارتفعت حـواجبى من الدهشة؛ تحـلف اليمين يابوى أن شـعر حواجبى رقص، تيـقنت لحظتئذ أننى أمام واحـدة أخرى لم يسبق لى معرفـتها من قبل. نعم يابوى هذه ليست أخـتى سعدية بل هى شخص آخر لم نكن نفهمه، ولا هى نفسها كانت تعرف نفسها من قبل ياخال ..

رأيتنى أوقف أمـامهـا كـالتلميـذ المؤدب. أخـذت أشوح بيـدى متلعثما :

ـ «ولكن ! كيف يا أخت السعد؟ كيـف يعنى تعيشين وحدك فى هذا المنفى ؟ وكيف تتصلين بالحياة؟!».

وه ياخال من هذا البريق الذى لمع فى عينيها والذى كدت أجرى من أمامـه هاربا لولا أنها كانت ممـسكة بكتفى بقبـضتهـا القوية، وتضغط قائلة:

ـ «تجيئنى كل الجـرائد هنا !! والراديو والتليفزيون يشـتغلان بالبطارية السـائلة كـما أننا نولد الكهـرباء هنا !! قـرأت وسمـعت

ورأيت مقتل جميع أعدائى بأسمائهم وصورهم !! الواحد منهم كان يجد نفسه فجأة تحت عجلات لورى أو مضروبًا برصاصتين وسط فرح من أفراح أسرته أو مستدرجا للقبض على عصابة أو صفقة حشيش وهمية فما أكثر الطرق التى يمكن أن تتخلص بها من أعدائك ياحسن بأرخص التكاليف !! لكننى بعد الانتقام ممن حكموا علىّ بالترمل فى عز الصبا وعلى أولاد زوجى باليتم فى عز الصغر قنعت بذلك ونذرت عمرى لعبادة الله وعمل الخير !! ألم تعلم بأننى طلعت الحجاز ؟ نعم طلعت باسمى الذى يعرفنى به الجميع : الشيخة سعادة ! هناك قرأت الفنجان للأمراء والمشايخ صدفة أول الأمر ثم ذاعت شهرتى لأننى كنت أجيد قراءة شخصيات الناس وأنسبها للفنجان !! وفى الدير القديم هنا وجدت كتبا كثيرة فى السحر وحساب النجوم وتفسير الأحلام احتفظ بها خرابة فى صحارة كبيرة !! صارت سلوتى ليل نهار بمعاونة بعض المشايخ والفقهاء الذين جئت بهم يعيشون معى هنا فأصبحت بفضلها وبفضلهم شخصا آخر !!».

القشعريرة ركبتنى يا خال ؛ لم أعد قادراً على التحرك من مكانى؛ لم أعد أعرف إن كنت مسحورا بأختى الملكة، أم بسحر هذا القصر المسحور، شعرت بأصابع الملكة وهى تداعب ذقنى التى تعلقت بالسقف:

ـ «هذا القصر كله كان مدفونا تحت الرمال ويقول أحد أصدقائى الفقهاء إنه كان فى الأصل مقبرة أحد الملوك القدامى !

أما هذا البستان فكان صغيرا ووسعه خرابة وأحاطه بهذا السور!! من حسن الحظ أنه ليلة دخلتى أطلعنى على سر هذه الكراسى بأنها من الذهب !!».

على سبيل المزاح قلت لها :

ـ «أما فكرت فى الزواج يا أخت؟!».

ترقرقت الدموع فى عينيها :

ـ «لم أجد من يملأ مكان خرابة فى قلبى !! فطمت روحى !! لم أعد أشعر برغبة فى حضن الرجال بعد ما زهدت فى كل المباهج !! كلما هاجت عواطفى نحو رجل ظهر خرابة ووقف بيننا ! إنى لن أخونه أبداً لأنه سيظل يعيش معى طول عمرى! ولكن فضك من هذا وتعال نتغدى ! أين هليل ؟!»

تذكرته فتلفت مذعوراً ؛ مضيت خارجاً أبحث عنه وهى من ورائى. استندت على سور الشرفة وسط مظاهرة الكلاب وناديت : يا هليل. وكان هو قد سرح مع عم عرندس يتفرج على أشجار البستان وزهوره ليتركنى مع أختى نفضفض بالأسرار على راحتنا. ها هو ذا آت يرفل فى خلقاته التى علاها الغبار فصار ينفضه عنها بضرب نفسه على كتفيه وصدره. استقبلته الملكة بحرارة شديدة وخجل أشد، مضت بنا فى الشرفة الجانبية فإذا هى ممتدة بحذاء القصر تلف حوله ساير داير، والأشجار المتنوعة

ترمى بأفرعـها وأوراقها وظلالهـا على طول الشرفة صـانعة تندة إضافية يتمنى المرء البقاء تحتهـا مدى الحياة متفرجـا على جميع أنواع الحـيـوانات الألـيـفـة والطيـور وهى ترتـع فـوق العـشب والحشائش وفى البحيرات والقنوات المصنوعة فى الأرض بهندسة وحـرفنة. دخلنا إلى البـهو مـن باب جانبى فى الخـلف، عبـر ممر مفروش بالسـجاد فى أركانه مناضد عليها تحف ومـساخيط. من البهو عبرنا إلى قـاعة كبيرة فيها ترابيزة مـائدة برخامة بيضاوية الشكل وأرجل مخروطية مشغولة بـالنحاس والفضة وقعداتها من الخـيرزان الشـبيكـة، هنالك بوريه ضخـم بعرض الحـائط فوقـه رخامة ومرآة ضاعفت من عددنا أظهرتـنا كمدعوين فى حفل كبير تقيمه الملكة. سحبت الكرسى لأجلس عليه متوقعا ثقله فإذا هو فى خفة الهواء. ثم إن العبيد أخذوا يتوافدون علينا بالأطباق التى لم أر لها مـثيـلا فى الأسواق. بعد ذلك جيء بالشـاى الأخضـر ـ عشنا وشـفنا ـ ثم خراطيش كـاملة من علب السـجـائر المكن من أشهـر الأصناف. لا ، لا يا خـال، لست أصدق أنـنى فى الجبل؛ فكمـا أن أختى سـعدية حلت محلها هـذه الملكة فإن الجبل هو الآخر قـصـرا من قصور ألف ليلة وليلة ..

ألمحت لنا الملكة إلى أن كل شــيء هنا وفيـر إذ أن الزيارات ترد إليها كل يوم من كل مكان حاملة ما ليس يعرفه الناس فى البلدان، فكل زائر لمعـشوق له فى الجبل يحـرص دائما على نادر الأشـياء

وعزيز الاصناف وثمين الهدايا. ألمحت كـذلك إلى أن ماكينات المياه ومـواتيـر توليـد الكهـرباء تملأ الجـبل داخل آبار مـحفـورة لهـا خصيصا فى أعماق الأرض ومغطـاة بأغطية ثقيلة متحركة لينكتم فيـها صوت المواتيـر تمتصهـا بطن الجبل فلا يشـعر بها. حـاجة تهوس يابوى ..

طاف بنا صوت الملكة :

ـ «تنشوفا مزاجكما الآن أم تتمددا قليلا ؟!»

فى صيحة واحدة خرج صوتى وصوت هليل:

ـ «نشوف مزاجنا بالطبع!».

أشارت بيديـها النحيفتـين الجميلتـين أن قوما، فقمنـا، فمشت أمامنا تتـبختـر كالأوزة. خرجنا من قاعـة المائدة عبرنا البـهو إلى الممـر الذى دخلنا منه ثم هبطنا سـلما فى نهـايتـه؛ مـشينا فـوق الحصباء نحو بناية ملحقة بالقصر محندقة ومخفية بين الأشجار. قلت : «قصر آخر»، قالت :

ـ «هذا هو القـصر الحـقيقـى ! ما كنا فـيه مندرة الاسـتقـبال للزوار. أما هذا القصر فهو المربض !المسكن ! متى ما دخله مخلوق لا يستطيع أحد أن يهتدى إليه !!

اقشعر بدنى:

ـ «كسبنا صلاة النبى» .

ضحك هليل فضحكت هى الأخرى، مضت تصعد بضع سلمات؛ فتحت بوابة قصيرة القامة كبوابات السراديب والحانات؛ قالت «بسم الله الرحمن الرحيم ! تفضلوا !». ثم تناولت عصا طويلة من جوار الباب رفعتها دفعت بها السقف دفعة واحدة فانزاحت عن السقف طارة خشبية مشغولة بنقوش تقوم على أربعة أسياخ من الحديد تبيت فى مجار لها، تدفق ضوء الشمس؛ فإذا نحن فى مربع ضيق كالمربعات التى تسبق قاعات الأضرحة غير أنه مفروش بالسجاد الفخم وبه مقاعد من الرخام مثبتة فى الحوائط، وفى المواجهة باب بدرفتين من النحاس المبطن بخشب البندق، دفعته برفق فانفتح عن طاقة من النعيم: باحة عريضة جدا بها أسرة تشبه الكراسى، وكراسى تشبه الأسرة، كلها غارقة فى الناموسيات والملاءات والستائر ذات اللون السماوى بدرجاته المختلفة. هنا ياخال كبس علينا النوم فجاة؛ فابتسمت الملكة وهى ترانا ننتقل من سرير إلى سرير على سبيل التجريب إلى أن استقر كل منا على سرير وغاص فى غيبوبة رائعة، ثم سحبت الباب خلفها برفق وخرجت. وحينما عادت لتوقظنا كنا نظن أن خمس دقائق فقط مرت؛ ولذلك أصابنا الذهول عندما أنبأتنا الملكة أن ظهر اليوم التالى قد أتى وأن الغداء فى انتظارنا.

كان فى نيتى أن أبقى بجوارها فى هذه الجنة لأصبح من رجالها بدلاً من الأغراب؛ لكنها غمرتنى بنظرة دافئة:

ـ «لا تتعجل الأمور ! وجودك بجوارى خطر علينا كلينا ! ووجودك فى مصر خير لنا معا ! فامض على بركة الله تصحبك دعواتى! وأما فكرة الزواج فدعك منها الآن! دعنى أخطط لمستقبلك كما أهوى !!».

وفى طريق عودتنا من الجبل كنت كمن قام برحلة إلى دولة اخرى على شمال السماء حقنتنى بدم جديد فكأننى قد صرت أنا الآخر شخصا جديدا كل الجدة ياخال.

أولنا ولد

ذمة ودين يابوى إننى لا أستطيع وصف حـبى لصاحبى هليل. إنه العقل الذى يفكر لى ويدبر أمورى دون أو جـهة؛ حويط غويط كنهر النيل. فى اليوم الـتالى لعودتنا من الجبل سـألتـه على سبيل المزاح:

ـ «ألم يعرف الحب طريقه إلى قلبك يا هليل ؟!».

وكنت لا أزال مـتأثرا بموت حـبيـبتـى التى أحرقت نفـسـهـا لما عرفت أننى رأيتـهـا فى وضع غير مـستور، ولكن هليل ظهـر عليه كانه لم يسمع سؤالى، فأعدته عليه :

ـ «ألم تعرف الحب أبدا يا هليل؟!».

فأضاء وجـهه بإشراقة ناصعـة؛ وشملته رجفة كـأنى ضبطته فى حالة عرى. ثم راح يهمهم كأنه يكلم نفسه:

ـ «عرفتـه يا بو العم إن حبى هو الحب المستـحيل! إنهم فلست أرضى بأقل منه لكن الحبيب يسجن قلبـه فى مكان بعيد لا يعرفه أحد !! لا أظن أن فى الدنيـا حبا كحـبى يابو العم ! حبكم هذا لعب عيال أما حبى فهو الحب الحـقيقى !وهو يشاغبنى يابو العم ! كلما تخيلته قريبا ابتعد! كلما اقترب اختفى !!».

وزفر زفرة حارة. عاجلته:

ـ «وهل أنا أعـرف حـبيـبك يا هليل ؟! هـل هو من البلد أم من مكان بعـيـد ؟! ولماذا لم تكـلمنى فـيـه من قـبل مـادمت هكذا محروقا؟!».

فيطلع لى نظرة حرت فى فهمـها يا خال ؛ نظرة خـيل لى أنها تدمع علىّ بالغباء، كأنها تقـول لى : ألم تره يا أعمى ؟! ألم تشـعر به؟! سرح فى الجبل، سألته:

ـ «وهل يعرف أنك تحبه».

ازدادت رجفته وارتبك ـ شوح بذراعيه:

ـ «دعنا الآن من أمور الحب والغرام يابو العم وتعال نتكلم فى المفيد !!». قلت بشىء كثير من الغضب الدفين:

ـ «دعنى يا هليل ! لم يعد يهمنى شىء بعد الذى حدث بسببك!! ذنب هذه البنت فى رقبتك يا هليل !!».

قال بحدية غريبة:

ـ «إذن فمنى لله ؟ لقد أردت أن أنقذك من الوحل قبل أن تجلب لنا العـار! ولكن الله أراد ما أراد! فـلا تحـملنى الذنب! لا تكن أنت وضميرى وقلبى علىّ يابو العم !! كفانى ما أنا فيه يابو العم !!».

وأخلد إلى صمت مهموم، فأيقنت أنه متأثر جداً، كانت شمس الضحى تفرش نفسها فوق البلدة فنزعت عنها كل الأغطية وألبستها ملاءة من لهب. نظرت فى ساعتى؛ قلت إن الوقت يسمح لى بجمع خلقاتى والتوجه إلى محطة صدفا للحاق بقطار الظهيرة. فإذا بهليل يلوح بإصبعه علامة النفى :

- «لا ! لا سفر اليوم يابو العم ! وراءنا شغل كثير !!».

- «شغل ماذا ؟!».

- «لا تستعجل!»

واستأنف صمته؛ فمضينا نحو دارهم نتطوح من شدة الرهق..

أنهى هليل صلاة المغرب وتربع بجوارى يتمتم بختام الصلاة ويمسح وجهه بكفيه. ثم سحب من جيب الصديرى دفترا مطويا من دفاتر التلاميذ يطل منه قلم كوبيا، فتحه على صفحة مرشقة بنبش أشبه بنبش الفراخ، صار يحسب مستخدما أصابع يديه. أخيرا قال:

- «شف يابو العم ! فلوسك عندى كبرت ! كبرت ! ربنا بارك فيها فأصبح القرش الواحد مائة!!».

- «الحمد لله ! البركة فيك يا هليل أنت مبروك من يومك ولكن ما الداعى لأن تقول هذا الآن؟ هل صدر منى شىء؟ سألتك عن الحساب؟!».

- «لا يا بو العم ! الملكة ربنا يحميها رسمت لنا مشروعا ! أصل الحكاية اننى كنت أتحشم من مشوار الجبل أن نتكلم فى هذا المشروع لكن موت البنت حرقا عطلنى عن الكلام تشاءمت !! الموضوع وما فيه أن الملكة دائما تسألنى عن أحوالك فأحكى لها ما بأحوالها فأوصتنى أن أستغل هذه المكاسب فى مشروع لم يكن يخطر لى على بال !! شف يا بو العم ! أعوذ بالله من قولة أنا وأنت والملكة سنكون شركاء فى عملية مريحة : الملكة ستدخل باسم أولاد خرابة ! المشروع هو ماكينة للطحين! نعم يا بو العم ! البلد كلها والكفور من حولها تذهب مشوارا فى سفر طويل لكى تطحن قمحها فلماذا لا يطحنوه فى بلدتهم بنفس الأجر ؟! أولاد خرابة نصيبهم فى الشركة قطعة أرض شرقى البلد ليس منها أى منفعة لهم فهى قريبة من الجرن وتقام فيها قمائن الطوب بالمجان! سنبنى فوقها داراً للماكينة! أما الأسطى الذى سيشغلها فموجود والملكة تعرفه !! مع ماكينة الطحين ماكينة لتبييض الارز فما رأيك؟!».

- «زين والله زين !! كلام كالعسل!!».

- «الحمد لله !! بركة فى المشروع الذى تم بالفعل وهو يخصنا وحدنا !! تصرفت فيه من تلقاء نفسى: اشتريت ماكينة للرى وماكينة لدرس القمح وتذريته !! موعد وصولهما بقى عليه يومان!! سنسافر ومعنا الأسطى حامد الحقدة إلى مصر لشراء ماكينتى الطحين وضرب الارز!!».

ـ «الله يفتح عليك يا هليل ! أنا باق معك إلى ما تشاء !! ليس ورائى عيال تبكى فى مصر ! على بركة الله ! قم بنا الآن نحتفل بهذه الأخبار الطيبة !!».

ـ « ما شبعت من الاحتفالات يا بو العم؟!».

ـ «نفسى انفتحت!!».

ـ « ربنا لا يجعلنا صدادين للنفوس المفتوحة ! قم بنا يا بو العم!!».

ـ «عد بنا إلى الجبل!!».

= « لا يا بو العم ! كله إلا الجبل ! ما كل مرة تسلم الجرة!! مرواح الجبل شغلانه طويلة معقدة دعك منها الآن !! ولا تنسى أن الملكة ترسم لك مستقبلا مزهزهاً وأوصتنى أن أشكمك حتى لا تجعل صورتك مهزوزة فى نظر الناس! أنت من الآن من علية القوم المحترمين فى البلد فكن هكذا فعلا !! سنحتفل فى وسط دارنا هذه ! كل شىء موجود والحمد لله !!».

خيراً ما أراد. لطشنا هواء وسط الدار المنعش فرسمنا دارًا للماكينة على الأرض بخطوط الأصابع فوق التراب. هذه حجرة العدة لابد أن تكون مستطيلة هكذا لأن سيرًا جلدياً طوله عدة أمتار سوف يلتف على مجموعة من التروس والطارات المتجاورة فبدوران الطارة الكبيرة تدور تروس جوانية، وبدوران هذه التروس تدور أخرى ملتحمة دورانا عكسيا، وهكذا تمضى

مجموعة الطارات والتروس من أول الحجرة إلى آخرها حيث يوجد القادوس فوق قاعدة خشبية تبنى له تلتحم بسقف حجرة العدة حيث يقف أصحاب الحبوب الجارى طحنها ليدلقوا فى القادوس حبوبهم. رسمنا قعدة الأسطى، وغرفة استقبال الزبائن بحيث تكون كبيرة، حددنا موضع الميزان الطبلية، ومن الذى سيشرف على وزن الحبوب قبل طحنها لتحديد سعر الطحين إذ لابد أن يعرف القراءة والكتابة حتى بدون الوزن والسعر فى قصاصة ورق يتسلمها صاحب الطحين ليسلمها للأسطى فيرشقها فى سلك معقوف بجواره، وفى نهاية اليوم تتم مراجعة هذه القصاصات على مادون فى الدفتر فنعرف دخلنا. هنا قررنا فى صيحة واحدة أن يكون والد هليل هو المدير المسئول عن شغل الماكينة من الألف للياء، وأن يتدرب أخى حسين تحت يديه بعد خروجه كل يوم من المدرسة. أما ماكينة الرى وماكينة الدراس فيتولاهما هليل بنفسه، وأن تبنى لهما حظيرة ملصقة بدار الطحين. حتى الخفير الذى سيتولى حراسة ماكينة الرى أثناء شغلها، والأسطى الذى سيتولى ماكينة الدراس اخترناهما فى نفس القعدة المباركة بل وحددنا أجر كل واحد يقوم بعمل بمن فيهم هليل وأبوه ..

فى الصباح توجه كل منا فى طريق، واحد لشراء الطوب والآخر لاكتراء البنائين. لم نضيع دقيقة واحدة. ويوم جاء مهندس التركيب وعماله لتركيب الماكينة كان يوم عيد على البلدة كلها. المزمار البلدى زف الماكينة من أول دخلة البلد إلى أن تم

التـركـيب ثم استكملت السهـرة فى الجـرن أمـامهـا على ضـوء الكلوبات. انطلق المنادى فى بلاد الناحـية كلها ينادى على خـدمات أبى ضب وشركاه، فطربت لذلك غاية الطرب يابوى ..

على حس هذه الـدعـاية يابوى مكثت فى البـلدة حـوالى ثلاثة أشهـر أرقب نجاح شغل مـاكينتى الرى والدراس، وشمـوخ مبنى دار الطحين، واللافـتة الكبـيرة بعرض البـاب مكتوب عليـها : أبو ضب وشركاه ..

يوم سفرى من الصعيـد هذه المرة كنت بالفعل وجها من وجوه علية القوم حين يسافر : تحف بـى الركائب من كل ناحية، الأعيرة النارية تزغرد حـول رأسى تحية وتهـييا . سـبقنى إلى المحطة من قطع تذكـرة القطار. ظلت ذراعى تلوح من شـباك القطار مـسافـة طويلة فوق حـشد من المودعـين. لحظتذاك يا خـال ذقت حلاوة أن تكون من وجوه القوم، أن تكون ذا عزوة وسلطة. لحظتذاك يا خال قررت أن أمـضى فى هذه الطريق حـتى نهايتـها بكل نفس ذائـقة الحلاوة. سوف لن يبعدنى عن هذه الطريق عائق مهما كان صعبا. أمـال يا بوى، العـز حلو يا خـال .. اللى تعـرف ديتـه اقـتله، الآن فحسب فهمت معنى هذا المثل: فكل شىء وكل شـخص فى الدنيا له سعر وثمن عليه أن تدفـعه لتبلغ ما تريد، والعقبـة الوحيدة أمامك هى قلة المفهومية فحسب، والمفهومية هى أن تعرف السعر المناسب للرجل المناسب فـى الموقع المناسب، الثـمن الكفء للعـمل الكبـيـر. اعرف هذا وحده جيدًا، واتكل على الله يا بوى.

كومى

استـوى القطار على سكته يشق أرضا زراعـية معظمهـا قاحل جاف. فلـما استـويت بدورى قاعـدا على الكرسى فوجـئت بأننى محـاط بمئات من الناس فكأننى كنت نسـيت أنى فى قطار. وقعت نظرتى عليه قاعدا على الكرسى المواجـه لى، ملأنى شعور بالزهو يا خال إذ أننى راكـب فى الدرجة الأولى. تفرست فـى الرجل فإذا هو الآخر يتفرس فىَّ. أخـذت أفكر أين رأيته يا بوى ؟ أين رأيته يا بوى ؟ ثم أننى ميلت عليه وعلبة السجائر تسبقنى إليه :

ـ «مرحبا ! إياك أن تكون صعيديا مثلنا ! ».

ابتسم فى مودة عن أسنان ذهبية؛ تناول السيجارة شاكرا:

ـ «منذ مدة طويلة لم نرك!».

صحت فى الحال:

ـ «الحاج قدرى ؟ ويا مرحبا يا مرحبا!»

ضـحك لأننى تذكـرته بـعد وقـت طويل. ضـحكت أنا الآخـر؟ فالحـاج قدرى أشهر مـن نار على علم فى حى الجماليـة، له دكان

كبير فى خان الخليلى يمتلئ معرضه بالمشغولات الذهبية والتحف الثمينة، يتاجر فى العاديات كما تقول لافتة دكانه يعنى يتاجر فى الآثار برخصة؛ ودكانه الكبير يستقبل فى اليوم الواحد مئات من السياح جاءوا له خصيصا بصحبة المرشدين السياحيين. هو الآخر يسافر لهم بين حين وحين، ويراسلونه ويراسلهم، ويعتبر من أغنى أغنياء خان الخليلى ومصر كلها، وبما أننى أضبطه الآن فى قطار الصعيد فقد تأكدت أن هذه العاديات هى الاسم الذى يخفى وراءه كلمة الآثار؛ ولابد أن مشواره اليوم كان لمقابلة بعض مهربى الآثار فى بلاد الصعيد وما أكثرهم. قال مبتسما وهو يضع السيجارة فى مبسم ذهبى :

- «أظن أن اسمك حسن! ».

- «خدامك ومحسوبك حسن أبو ضب!».

- «جلسنا معا كثيرا عند الحاج أحمد نوار الدين السنى!»

- «وجلسنا أكثر فى قعدة المطار فى فاطمة النبوية!»

- «بالضبط! هل أنت من صدفا؟!».

- «أنا من كوم سعيد! هل أنت قادم من سوهاج؟!»

- «كيف عرفت؟!»

- «توقعت ! فأهل العرابة لهم أصدقاء كثيرون فى القاهرة كلهم لا يتخيرون عنك !!»

- «الله يكرمك!».

- «أنا أيضا أعرف رجالا كثيرين من العرابة!»

- «ربنا يجعلنا من بركاتك !نظرة!!»

- «أنت تأمر!!»

- «لماذا لا تزورنى فى الدكان ؟!»

- «ذلك فى بالى ! كل شىء بأوان!»

- «عندك شئ ينفعنا ؟!».

- «عندى الكثير فضلة خيرك!»

- «خش علينا يا رجل!!»

- «لا تؤاخذنى ! انت وأنا أولاد أصل ! يعنى لا نعرف إلا الأصيل ابن الأصيل !! الخسيس لا أحمله إلا أعرفه ولا أقربه !! كل ما عندى أصيل فى أصيل !! التقليد لا !!».

- «الفراسة أن تعرف الفرق بين الأصيل والخسيس! لأن هذا يشبه ذاك الخالق الناطق !!»

- « كثرة الحزن تعلم البكاء يا ابا الحاج! وهذه شغلتى وشغلة أهلى وأجدادى من قديم الأزل! تستطيع أن ترينى ما تشاء لأفرزه لك !!»

«أنا فى انتظارك فى الدكان يوم الأحد القادم! أنا لا أشتغل يوم الأحد لكنى أفتح المكتب من الشارع الخلفى وأجلس فيه طول

النهار لمقابلة أمثالك من الضيوف المهمين! لا تحمل هم شيء ! القهوة تحت المكتب مباشرة تطلع لنا الحجارة وكل المشاريب كما نهوى وكل شيء موجود !!»

ثم دس يده فى جيب السترة الداخلى فأخرج علبة سجائر ذهبية. ثم ظهر عليه أنه تذكر شيئا، فأعادها وأخرج علبة ورقية فتحها فإذا هى ملآنة بسجائر محشوة بالحشيش. أشعل لى وله بالقداحة الذهبية؛ ورفع أصابعه الطويلة الملآنة بالخواتم الذهبية الغليظة فسحب الأنفاس المتلاحقة. وكانت البذلة الفخمة التى يرتديها ـ رغم اتساقها على جسده ـ غير لائقة عليه بالمرة؛ فملامح وجهه وشاربه الضخم وأسنانه وخواتمه الذهبية وتطجينه فى الكلام كل ذلك يشى بجلباب بلدى ولباس بحجر ودكة بشراريب. ضحكت فابتسم ظنا منه أن تعميرته سرها باتع إلى هذا الحد السريع.

حرفنة

تلقانى الحاج أحمد نوار الدين السنى عند البوابة بترحاب شديد، فتح لى أحضانه:

ـ «ازيك يا عكروت ! جئت فى وقتك! ابن حلال والله طول عمرك يا عكروت ! تعال !!».

وقادنى إلى البهو فالممر فالحجرة العلوية وهو لاينى يردد:

ـ «ياه ! غير معقول والله! أن يطلب الواحد شخصا فيراه فى الحال! كنت ساضطر للبحث عن ولد من الملاعين الذين كبروا هذه الايام ربنا أعطاهم ! الله يسهل لعبيده لكن الواجب واجب !! أين كنت يا ولد يا عكروت كل هذه الغيبة ؟ فى الصعيد ؟!»

قلت : نعم . قال :

ـ «الصعيد كله سيكون عندنا فى أول الشهر ! هل تذكر ستك الشيخة سعادة التى أوصتنى بك خيرا؟ عزمناها على العشاء بطلب من شخصية كبيرة جدا عضو بمجلس قيادة الثورة ومستشيخ و[illegible] فى أمثال الشيخة سعادة !! أول الشهر لابد أن تكون معنا

خل بالك ! إزيك يا ولد يا عكروت ؟! محـمد بك أبو شناف ينتظرك تصور أنه سأل عنك ؟! رجل فيـه الخير والله!! هيا!! اخلع هدومك هذه والبس لبـس الشـغل!! لابد أن تتكـفل الليلة بمحــمـد بك أبو شناف تعدل رأسه على الآخر! خش خش!!» .

فعلا يا بوى؛ محمد بك أبو شناف ابتهج لما رآنى، لا أدرى لماذا بالضبط صاح بصوت جهورى ووجه باش:

ـ «أهلا يابو على ! عاش من شافك!!»

ومد يده الطويلة نحوى فتلقفتها مسلما بحرارة:

ـ «أهلا سعادة البيه ! واحشنى !»

كـان يرتدى جلبـابا من الحـريـر السكروته الابيض، تحـتـه صديرى من نـفس القماشـة. عصـاه الابنوس مركـونة بجواره. لاحظت وجود طـبلية صغـيرة مـشغولة بالارابيـسك موضـوعة أمامـه فوقهـا عدد من القطع الاثرية الفـاتنة. إرتبك قليلا حـينما رآنى أحدق فيها، حاول أن يـثقبنى بنظرة تكشف له عن أعماقى، فأسدلت السـتار على عينى مدعـيا العبط على الهبـالة، ومضيت أسـتحـضر العـدة؛ فـإذا بالحاج السنى يلحـقنى بهـا قادمـا من المطبخ، دخل على مـحمد بك ومكثت أنا فى وقـفتى أعـيد ترتيب قطع العدة لأقوم بتنظيفها وتعـسيل الحجارة فإذا بى أسمع هذا الحوار يا خال:

قال الحاج :

ـ «هل سـتسافـر أنت بنفسك يا سـعادة البيـه أم أن سمـسـارًا سيأتى ليأخذ البضاعة من هنا ؟!».

فقال محمد بك:

ـ ربما أسافـر بنفسى! ولكن اطمـئن من هذه الناحية!! فـسواء سافـرت أو لم أسافر فعندى الأشـخاص الذين يقدرون قيـمة هذه الأشـيـاء عن خـبرة ودراية! إلا أن وجـهـة نظرى أن مـا يأخـذه السمسار نحن أولى به ! ليس هـناك أى مشكلة! لو عندك أضعاف هذه القطع هاتهـا ولا يهمك!! وأمـامك طريقـان للاطمئنان: إمـا أن تبيع لـى من هنا وتقبض حـقك فى الحال وفى هذه الحالـة تقبض بالعملة المحلية !!

وإما أن تتـركنى أسافـر لأتصرف هناك بـأسعار أعلى وعـملة صعبة وفى هذه الحالة آخذ نسبـة خمسين فى المائة وأقبضك بعد العودة من السفر !!

قال الحاج السنى:

ـ «صراحة ربنا ! أنا أفـضل البكاء على رأس الميت! فهذه القطع ليست ملكى ولو كانـت ملكى فما بين الخيرين حـساب!! أما وهى ملك ناس غيرى وما أنا إلا وسيط يأكل عيشا من ورائها فأنا ملزم أمامهم برد البضاعة أو دفع ثمـنها دون أجل !! فمعذرة إكرامى لك سيكون فى أمـرين: السعـر المستريـح أستغنى فـيه عن عـمولتى!

• وضمان أصالة البضاعة!! إنها قطع أصلية مائة فى المائة تأخذها وأنت مغمض العينين!! لن أذكرك بأننى خبير يعتد برأيه! إنما القطع نفسها تقول أنا أصيلة ولست فى حاجة لخبير !!».

قال محمد بك :

– «ليكن ! يا دار ما دخلك شر نتفق إذن على الأسعار الآن! أعطيك ما معى وأبعث فى طلب الباقى من البيت! وربما استدعى الآن صاحب مال يدفع ويشيل! أليس يهمك دفع الحق فحسب إذن فساريحك تماما!!».

قال الحاج السنى:

– «أفادك الله ! عدأك العيب! شف يا سيدى! هذا تمثال لرمسيس الثانى من المرمر الحر! ثمنه لك أنت وحدك وحتى لا تفاصلنى: مائة وخمسة وسبعون ألف جنيه! أنت تبيعه بضعف ذلك وأنت مستريح بالعملة الصعبة!! هذه تسعيرة معروفة لا تنقص مليما واحدا!! التمثال نفسه إذا كان من الذهب الخالص فيضاف إلى هذا المبلغ قيمة الذهب بالميزان! وإذا كان من الفضة ينقص نصف المضاف! وإذا كان من البرونز ينقص ثلاثة أرباع المضاف! فإذا كان من الحجر أو الجص أو الفيروز فإنه يبقى على سعره الأول!! وهذا رأس نفرتيتى من الذهب الخالص ثمنه مائتا ألف لك وحدك!! وهذا العجل أبيس من الرخام ثمنه مائة ألف ! وهذا عقد من الفيروز المطعم باللؤلؤ ثمنه ثلاثمائة ألف ! صندوقة وحده تحفة لا تقدر بمال!! الواضح أنه عقد ملكى! لأن كل حبة م

حياته – على دفتها – محفور عليها وجه آلهة الخير !! على فكرة كنت أنوى ادخاره لابنتى لكنى خشيت أن ينكشف أمره فنروح فى سين وجيم! انظر إلى ما فيه من أبهة وفخامة وفن ! شىء يحير العقل!! لو كنت منك لاحتفظت به لزوجى فأنت بمالك من حصانة تستطيع أن تحمى صدر زوجك !!».

قال محمد بك :

– «سنرى ! سنرى! سأتصرف!»

– «عندى لزوج سعادتك أسورة من نفس النوع مع حلق وخاتمين !!»

– «هاتها فورا!!»

– «هى ليست تحت يدى الآن ! سأطلبها من أصحابها حينما أقبضهم فلوسهم !!».

– «يبقى شىء : هذه الأسعار أليس من الممكن هزها قليلا حتى يكون لنا من ورائها نصيب؟!»

– «وشرف امرأتى! وبنتى التى أتمناها من ربنا ! وحياة محمد بك وعشرتنا الطويلة! وحق صلاتى وصومى وحجى والقرآن المجيد هذه هى تقديرات أصحاب الشأن بالمليم وأنا سأخرج من المولد بلا حمص!! لا تنس أن المبالغ توزع على كتائب من البشر لا حصر لها كلهم شارك فى إيجادها وتهريبها وحراستها وما إلى ذلك ! لكن المصلحة واحدة ! أصحابها جهلة أغبياء لا يتحاورون إلا

بالرصاص خصوصا فى هذه المسائل! وهم أوعى منك ومنى ومن كل الخبـراء ! إنهم جبابرة! والمؤكـد أنهم الآن يراقبون خط سـير البضـاعة دون أن نراهم!! ولو شعـروا أن فى الأمر مكيـدة مدبرة فـإن أى خـارج من هنا سيـلقى حتـفـه فى الحـال!! ربنا يكفـينا شرهم!!».

دخلت عليهم بالعدة فوق الصينية، وضـعتها فى الركن المعتاد. لم التـفت إليهـمـا، أذن من طين وأذن من عجـين. السـرعة كـانت الحجارة مرصوصة وجاهزة. انتبـه محمد بك أبو شناف فتحسس المكان حواليـه ثم رمى لى بقطعة حشيش تزيد عن ربـع أوقية من صنف لم أر مـثله فى حـياتى؛ فـغطيت المعـسل كله بتـعـميـرات عريضة. ثم دارت الجوزة بالصلاة على النبى.

محمد بك أبو شناف يا خـال كمن يشرب فى آخر زاده، شربه يحـرق دمى يا خـال، فأنا المـسك بالجـوزة أقعى أمـامـه لتكون البوصـة فى مسـتوى شـفتـيه، على أن أبقى هكذا مـدة طويلة لا أتحرك ريثمـا يشرب هو على أقل من مهله. يشـد شدة، ثم ينتظر برهة، ثم يطقطق ثم يشـد شدتين سـريعتـين يخرج الدخـان على أثرهما مندفـقا بغزارة من منخريه، بعـدها يتلمظ قليلا وينفخ فى البوصة كـما ينفخ العامل فى الميكروفون عند تجـربيه ثم يبدأ فى الشد الهادى، السحب، الذى يزداد قوة وسرعة شيئا فشيئا لينتهى بالسحـبة الأخـيرة التى يشتـعل منها الحـجر فتـرتفع راية النار، فأصيح أنا على سبيل التحية: قشطة. عندها يترك البوصة واضعا

كله على فمه وأنفه يعتـقل بهما اندفاع الدخان ليرده من جديد إلى منخريه ليستـمتع بوجوده فيها أطول مـدة ممكنة. حاجة تهوس يا بوى ..

ها هو ذا ينكس رأسه مندمـجا فى تفكير عميق؛ أحـيانًا يسـحب القلم الذهبى من جـيب الصـديرى ويروح يدون أرقامـا وعمليـات حسابيـة فى نوتة ملحقة بمحفظة جلدية أنـيقة جدا؛ وأحيـانا يعيد التـقليب فى القطع الأثرية فـيمـا يراقـبه الحـاج أحمـد نوار الدين السنى من تحت لتحت بعـينيه الضيقـتين اللتين تشعـان بالشقاوة والمرح والثقـة المطلقة بالنفس، وها أنذا أيضا دمـاغى تضرب تقلب فتتراءى لى أفكار جريئة ترتفع راية اشتعالها فى رأسى: هل يأتى يوم يكون فيه محـمد بك أبو شناف هذا من زبائنى؟ وهل أستطيع أن أبيع له بفلوس كبيرة كهـذه؟ لم لا يا بوى ؟ والعملية كلها قلب جامد وشخصية ملء هدومـها، ولى فى الحاج السنى مثل يحتذى يا بوى فـهو بمنـظره هذا لو عرضنـاه فى سوق الجـمـعة بثـلاثة مليمات فلن نجد من يشتريـه، ومع ذلك فها هو ذا يعيش فى قصر لا يملكه رئيس البلاد، ويجالس أكـابر القوم، وينطق الأرقام بجرأة وبساطة كـأنه يقول: تشرب شاى؟ ولا يبـدو عليه أنه يفعل شـيئا غير طبـيـعى. شف يا خـال، الثـقة بالنـفس أولا هى السكة التى يمشيهـا الناس نحو الثقة فيك. هذا ما تعلمـته الليلة يا خال ويجب من الآن أن أتدرب على ذلك. نعم، كيف إذن سأكون مـعلما وحاجا وعضوا فى البرلمان بإذن الله إذا لم تكن شـخصيتى نفسها على قد

الثوب الذى سترتديه؟ والله لأفعلن، الحاج أحمد نوار الدين السنى ليس أجدع منى فى شىء، ولا حتى هذا المحمد بك أبو شناف فإن كان متعلما فى المدارس فالعقل لا تبنيه المدارس وأكبر شهادة هى المأخوذة من كلية الحياة الدنيا يا خال. إن عالم الخربشة الذى التحقت به فى سن المدرسة يمنحنى الأوسمة مادام اللصوص والبلطجية والفتوات هم السائدون. ليس فى هذه المدينة شىء يسمى الأصل يا بوى؛ أصلك وقتك، فالناس هنا لا يهمها معرفة ابن من أنت ولا من أى أصول عريقة تنحدر، إنما يهمها ماذا أنت الآن ماذا تملك ماذا تلبس ماذا تأكل كيف تسكن كيف تركب إلخ إلخ. وأنا بحكم دراستى فى الشارع وفى السجن وفى العراء عرفت جيدا كيف يمكن أن يحترمك الناس يشيلون الأرض من تحتك على رءوسهم: سأتقمش كعمدة أمريكا نفسه، سأعطى البقشيش كلما تيسر، سأعطف على الناس، سأضع على لسانى كل طيب من القول، صحيح أن هذا ليس سهلا يا بوى، والإنسان لا يكون ما يريد بمجرد ما يريد، لا يا خال، الشغلة يلزمها تدريب ولسوف أتدرب فماذا ورائى ؟ ..

وكأى فلاح قرارى دس محمد بك أبو شناف أصابعه فى جيب الصديرى فسحب ساعة الجيب المشبوكة فى كتينة ذهبية فى لون غطاء الساعة المنقوش. ضغط على المفتاح فارتفع الغطاء فنظر فى الساعة ثم قال: أعطنى التليفون. فى ركن الغرفة سماعة تليفون معلقة على مسمار، نزعها الحاج وضغط على زر فيها فسمعنا

صوت الصرارة عاليا؛ قدمها إلى محمد بك الذى تسلمها وراح يضغط على أزرارها الململمة فى مربع صغير. سمعنا صوت الجرس يرن عند الطرف الآخر، قطعه صوت امرأة حالمة طرية النبرات: هاللو .. و٠٠٥ .. قال محمد بك :

- «مساء الخير يا مدام !»

إنتعش صوتها:

- «أهلا يا محمد بك!»

- «إدينى الأستاذ!»

- «بعد برهة جاء صوت رجالى ممروض:

- «أهلا محمد بك ! يا للمفاجأة السعيدة!»

صاح فيه :

- تعال حالا ومعك فلوس كبيرة! أمامنا لقمة عيش طرية وحلوة بإذن الله !!».

- «عملة صعبة ؟!»

- «عملة أصعب !! هاها ها .. ى !!»

يعنى دفتر الشيكات ينفع؟!»

- «فى أقل القليل!!».

- «تتكلم من أى مكان؟!»

- «من القمرة فى مصر عتيقة أنت تعرفها طبعا !!».

- «جميل! حالا ساكون عندك ! من كورنيش المعادى ربع ساعة بالكتير! عندك شرب ؟!»

- «عندى كل شيء لكن لو عندك الأحسن هاته !!»

- «موافق ! إلى اللقاء !»

أغلق محمد بك الزر، فجاء صوت الحرارة، فضغط على الأزرار :

- «مساء الخير يا حاج! تعال حالا فى مصر عتيقة ومعك فلوس كبيرة جدا ! إلى لقاء !».

ومكالمة ثالثة:

- «مساء الخير يا معلم! تعال حالا فى القمرة فى مصر عتيقة ومعك الشنطة، فاهم طبعا يعنى أيه الشنطة ؟ ! إلى اللقاء !».

وهكذا أنهى عدة مكالمات؛ ثم تفكر قليلا، ثم سلم السماعة للحاج السنى الذى أعادها إلى مكانها ثم نهض واقفا:

- «دقيقة واحدة أشوف أخبار العشاء ! ساوصى الطباخ بزيادة الكمية! تشرب شيئا فاتحا للشهية؟! عندى شمبانيا قديمة وعندى نبيذ قبرصى وعندى ويسكى بلاك أندهوايت وعندى كورفوازيه!!»

انتشى محمد بك مقدما:

- «نبدأ بالشمبانيا قبل الأكل!!»

أومأ الحاج برأسه ومضى. نزل السلم إلى الطابق التحتى مباشرة حيث المطبخ والطباخ والسفرجية، أخذت أنا أعيد تنظيف الحجارة وتحصيتها وتغسيلها، وراح محمد بك يعيد النظر فى القطع الأثرية ثم راح يوزعها على جيوبه، وعندما أمسك بتمثال رمسيس المرمرى وجدتنى أندفع مشيرا إليه هامسا:

- «على فكرة يا أستاذ! أستطيع أن آتيك بأخيه الذهبى وبنفس السعر!

مائة وخمسة وسبعون ألف جنيه !!»

جحظت عيناه يا خال؛ ظل محملقا فى وجهى دقائق طويلة لا ينطق؛ ثم قرب وجهه منى هامسا:

- «من أين؟!»

- «من العرابة القبلية! نفس الناس الذين يوردون للحاج نوار الدين السنى! إنهم أقاربى شق الكلوة! ولى عندهم خاطر كبير!!»

- «إذن فهذا السعر مبالغ فيه ! أظننت أنى سأقبل هذه الأسعار؟! الحاج يتكلم كما يحلو له واكن ساعة الحساب لن يقبض منى سوى السعر المناسب ! أنا لست غشيما كما يتصور!!».

- «عدم المؤاخذة يا أستاذ ! السعر الذى باع به الحاج نوار الدين مستريح ولن تجده أبدا وهو لن ينزل عنه مليما واحداً لأن الاتفاق تم أمامى والحاج صادق إلا فى شيء واحد هو أنه أن يستفيد! فعمولته سيأخذها ولكن بصراحة ستكون قليلة لأن ناس

العرابة القبليـة يعتقدون أنه سيـضيف عمولة أخرى فـوق السعر المتـفق عـليـه لكنه لم يـضف وهذا يدل على أنه يريـد أن يخـدمك ويجعلك تستفيد أنت بهذه العمولـة التى كان سيضيفها عليك! لقد باع لك بتـراب الفلوس! إننى أعرف كـيف يحاسـبه أقـاربى! لعلم سيادتك يا أستاذ أقاربى ليسوا مـحتاجين له! إن الخواجات التقال يذهبون إليهم لحد دورهم يدفعـون وينصرفون بكل ثقة واطمئنان والبضـاعة تصل إليـهم بعد ذلك فى العناوين المذكـورة أقاربى يا سعادة البيه لا يغلبهم غـالب! ألم تعلم يا سعادة البيه أن لى أولاد عم تعلموا تعليما أجنبيا عاليا وأصبحوا الآن يشتغلون فى المتاحف العـالميـة الكبيـرة والجـامـعات وأنهم أكـبـر وسطاء بين أقـاربى والزبائن؟! إنهم يبـيعون للحـاج نوار الدين كرامـة للنسب! زوجة المرحومة كانت منهم !!».

ـ « أعـرف! كل شئ مـــعـروف! ولكن إن كـانـوا ـ أقـاربك ـ يحبونك حقا فإنك تستطيع أن تخدمنى فى السعر!»

ـ «أنا غلطان ! إنس ما قلته لك !».

ـ «أتعرف مع من تتكلم يا حسن ؟!»

ـ «يا سعادة البـيه إننى أعرف ولهذا أردت أن أكـسب صداقتك بهذه التضحية الكبيرة!»

ـ «لماذا لا تحاول!»

ـ «لا أستطيع فتح فمى!»

ـ «وكيف يتم البيع؟!»

ـ «شال الحمام حط الحمـام! تعطينى الفلوس أسافر بها وأعود لك بالتمثال!».

ـ «بدون معاينة؟!».

ـ «مـعاينة مـاذا يا سـعادة البـيه؟ أنت لا تـستطيع أن تعـاين الشمس أو القمر لتتأكد إن كانت شمسا وإن كان قمراً !!».

ـ «ولكن ! مبلغ كـهذا ! من أدرانى؟ ربما حـدث لك حادث! ربما وقـعت فى المصيـدة! من يضـمن لى رد المبلغ؟ من يضـمن لى أن اسمى يظل بعيدا عن الواغش؟!».

ـ «قـبل كل شىء يا سعـادة البيـه إنهـا ثقة وأمـانة! حكاية أن يحدث لى حـادث موت فإنه يكـون قضاءً وقـدرا وفى هذه الحالة أعطيك ورقة بإمضائى بأننى تسلمت هذه الأمـانة لتوصيلها لسين من الناس!! أمـا أن أقع فى المصيـدة فـهذا لا يكون أبدا حـين ولو كنت مراقبا من الحكومـة !! إن تضليل الحكومة شغلتنا وفننا الذى نأكل من ورائه عيـشا!! كل ما أنبهك إليـه هو أن الحاج نوار الدين السنى لا يجب أن يعـرف بهـذا الكلام وإلا أفسـد كل شئ ! وعلى فكرة ! أنا مـبسوط والحـمد لله وأسكن فى شـقة فى عـمارة على النيل فى مـواجهـة كوبرى الملـك الصالح! وعـائلتى ضخـمة جـدا وأنوى أن أرشح نفسى فى الانتـخابات القادمـة عن دائرة بلدتنا ! وعندى فـضلة خيـرك مـاكينة للطـحين ومـاكينـة للرى وماكـينة

للدراس وأملك ســراية فى الـبلد! قـصــدى أننى ابن ناس وعـينى ملآنة !!».

ابتـسم، ربت على كـتـفى، صـار فكه الـسـفلى يروح ويجىء كـبندول الســاعـة. خفـت منه يا خـال ولعنت أب الذين خلفـونى لانسحـابى من لسانى، رأيـت فى لمعان عينـيه قاطع طريق يـقتل القـتيـل ويمشى فى جنـازته، خيل لى أن نـهايتى والعـيـاذ بالله ستكون على يديه؛ لكن صوتا لعله صوت أمى نبح فى صدرى! لا تأكل من هذه الحـركـات فهى صـنعة مـتـقنة! تشـجع يا ابن أمك وامكر به مـثلما يمكر بـك لا تضعف لأن ضـعفك قـوة له وهو لن يأكلك إلا إذا تأكد من ضعفك فكن أقوى منه تأكله وتذكر دائما أنه ليس إلها ولا وحشا مفترسًا!!

من خلال سحبه للأنفاس قال :

- «اطمئن من هذه الناحية فـانا أعرفك وأحبك! ثم إننى شخص ذو حيثيـة ولا أحد يستطيع النصب علىَّ مهمـا كانت قوته !! إننى أنظر إلى أبعد !».

- «خلاص يا سعادة البيه ! نصرف النظر عن الموضوع !!».

- «لا !! فرصة كهذه لا أفوتهـا بسهولة! اسمع! الحل الأمثل أن أرسل معك أخى ومعـه نفر واحد فقط هو الخبيـر المثمن وستكون الفلوس مع أخى سيـريها لك قـبل السفر لتطمـئن ! ستركب مـعه سـيارته مـعززا مكرمـا لحد باب الدار ! تـسلمه التـمثـال يسلمك الفلوس ويعود بك إن أردت !! ما رأيك ؟!».

- «ومتى تفعل ذلك يا بو العم ؟!».

- «بكرة ! خير البر عاجله!».

- «عدم المؤاخذة يا أستـاذ ! أخ سعادتك يجب أن يلبس الجلباب البلدى مـثلى وكذلك الرجل الخـبيـر !! كمـا أننا لا يجب أن نركب سيارة ملاكى بل لابد أن نروح ونجىء فى تاكسى !!».

- «وما الحكمة» ؟!».

- «الملاكى سـتفـضـحنا! ولبس الأفندية سـيلم علينا الواغش ! وافقنى على ما أقول لكى يتم المشوار فى أمان الله !!».

- «ليكن ! نحن نحب البلدى على كل حال !!».

وهكذا كلم أخـاه فى الهـاتف طالـبا مـنه المجىء بجلبـاب بلدى مـصطحـبـا معـه زاهى بك بجلبـاب بلدى أيضًـا وأن يأتى مـعـه بالفلوس التى تركها عنده أول أمس.

سـمعنـا صوت خطوات الحـاج أحـمد نـوار الدين السنى على السلم الخشبى فأمسكنا عن الـكلام. لكن الخطوات تبعتها خطوات كـثيـرة جعلت السلم يئـن ويتوجع. دخل الحـاج ومعـه ثلاثة من المدعوين التـقاهم عند البـوابة وهو يتمم على الخـفيـر فى سرادق البضائع ..

دخلوا علينا فـتـملكنى الذهول يا خـال، كـان من بينهم الحـاج قدرى الذى التقـيـته فى قطـار الصعـيـد، واتضح لى أن اسمـه الحقيقى الحاج دهب وشهـرته قدرى. أخذنى بالحضن والسلامات

الحارة مما جعل محمد بك يحدجنى بنظرة متفحصة كانه يتعرف على حقيقتى لكن شيئًا من الاطمئنان ظهر فى عينيه. بعد دقائق معدودة حضرت صورة من محمد بك أبو شناف ولكنها أضأل حجما بقليل، عرفت أن اسمه حازم وأننى رأيته من قبل فى مكان ما لست أذكره. معه شخص نصفه رجل ونصفه أنثى، شعره طويل مرسل على قفاه كالمرأة؛ خدوده حمراء وكذلك شفتاه لكنه قوى البنية مع ذلك غليظ الصوت يكثر من الكلمات الأجنبية ومن الغمز وترقيص الحواجب. ارتفعت الغاغة: سلامات وصيحات ونكات قديمة لا مناسبة لها فى الظاهر. والحاج أحمد نوار الدين السنى يعبر عن احتجاجه فى صورة عكسية بقوله :

- «براحتكم ! البيت بيتكم !!».

ثم نزع غطاء زجاجة الشمبانيا ففارت فاعتقل فورتها فى فوهة الكوب ثم طوح بما فى الكوب فى فمه مكشرا ثم وضع الزجاجة وبقية الزجاجات أمام محمد بك، وصفق بيديه تصفيقة خاطفة فدخل خادم يحمل صينية عليها كئوس كثيرة وضعها وانصرف. دارت الكئوس حتى نفدت الزجاجات. بعد ذلك مباشرة دخل السفرجية فنصبوا المائدة الأرضية واشتغل الأكل كانهم جميعا كانوا جياعا منذ أعوام. غسلوا أيديهم وهم جلوس فى أماكنهم بواسطة الطشت والابريق. عاد التحشيش مرة أخرى يا بوى. أدمغتهم مصفحة يا خال، قلاع تضرب فيها المدافع والقنابل فلا تتزعزع. ولولا أن خادماً راح يساعدنى بما له من خبرة واضحة لأصابنى الكساح يا بوى ..

الشاهد يا خال؛ لمع الخبث فى عينى الحاج نوار الدين فنظر فى ساعته وخبط على ركبتيه قائلا :

- «اسمحوا لى أن أقوم لاتوضأ وأستعد لصلاة الفجر!!»

وكان واضحا يا بوى أنه يريد الانصراف فحسب ليترك لمحمد بك ورجاله فرصة التفاوض فى البيع والشراء على راحتهم. هذا ما نطقت به نظرته الألعبانية الصبيانية الشقية. إنه يفهم شخصياتهم جميعا حق الفهم يا بوى وعلى الأخص محمد بك أبو شناف ولهذا يتعمد أن يتيح له فرصة هبرة كبيرة من هذه الفئة، على سبيل الرشوة، فلابد إذن أنه يستفيد فوائد أخرى كثيرة من وراء علاقته بمحمد بك أبو شناف ورجاله؛ أنهم على الأقل حوائط تصد عنه الرياح. وه يا بوى، ما أكثر ما يجب أن أتعلمه منك يا حاج عفريت .. الرجل الذى شرب الشمبانيا لتوه متعللا بانها ليست من الخمر مضى يستعد لصلاة الفجر حاضرا فى جامع عمرو. هو أول من يذهب وآخر من ينصرف وهو كذلك نجم من نجوم المسجد العمروى وعضو بمجلس إدارته وأكبر المتبرعين لترميمه وتجديد فرشه.

توقف عند الباب بقامته المحنية قليلا :

- «أبعث لكم بأى شىء ؟!».

- «شكراً !».

فرحتى بالبقاء خابت يا بوى؛ فسًت ؛ فقد دار الحوار كله بلغة لا افهم منها حرفا واحدا؛ أغلب ظنى أنها الفرنسية. صرت

كالأطرش فى الزفـة. تحلف اليمين كـأننى ثور الله فى برسيـمه. غلى الدم فى عـروقى، جاءنى صوت مـجهـول يدوى فى صدرى قائلا: من لـم يتعلم الكلام بالإنجليـزى أو الفرنساوى يـبقى طول عمره حمارا. ندمت لأننى على كثرة مـعاشرتى لأكثر من ترجمان ولد أعمى لم أتعلم منهم كلام الخواجات؛ قال الصوت المجهول فى صدرى: إن كنت تروم أن تكون بنى آدم يا ولد أبى ضب فـمن غد تتعلم الكـلام بالإنجليزى مهـما كان الثـمن فلربما جاءتك سـفرية فتسـتطيع التكلم مع خلق الله. الله وكـيل يا بوى؛ تحلف اليمـين أننى رغم جهلى التام بكل ما يقـولون تابعت الكلام بشغف كأننى أفهم، مـثلما أتابع فيلمـا أجنبيا وأفهم مـوضوعه بالفـهلوة. كانت فرجة يا بوى، مـعركة حامية بالإنجليـزى أو لعله الفرنساوى؛ لم يكن ينقصهم إلا الانقـضاض على بعضهم ونهش لحـوم بعضهم، ولكن العجيب أن ذلك يحدث فيـما هم يضحكون ويتبادلون الأكف على سبيل التحية ..

عدم فهمى للغة الكلام جـعلنى أركز على حركة الأيدى وملامح الوجوه. الحاج قدرى تناول التمثال المرمرى وعرضه للضوء ناظرا فيه بعدسة كعدســة الساعاتى يغرزها بين الحاجب والوجنة. فبدا التمثال فى نظرى أنا فى غاية الجمال يا خال. وه يا بوى وه، بحق الله من هذا الذى حـدد هـذه الملامح فـوق كـتلة من المرمـر حـتى جعلها تكاد تنطق؛ كيف رسم الانفعـال على الوجه والأبهة الملوكية فى وقفة رمـسيس الجامعة بين الكبـرياء والتواضع بين الألوهية والبشرية بين الخيـال والواقع، بحق جلال الله يا خال هذا لا يقدر

بثمن، مجـرد النظر فى تمثال كهذا يعلمك مـعنى الجمال يزرع فى قلبك الحب لمصر ولأهلها القدامى ..

دار التمـثال على الجالسـين واحدا واحدا مـثل قنديل من ألوان الصفـاء الوردى بجميع درجـاته. كل من أمسكه ود أن يبقـيه فى يديه أطول مـدة ممكنة، لولا أن يد الآخـر تمتـد لتقـتنصـه، تحلف اليمين يـا بوى أنه كان له حضور ملكى مـهيب لدرجة أننا جمـيعا انكمشنا فى حـضرته. فلمـا ظهر العقـد الفيروزى المنقـوش قامت قيامة الجميع وكادوا يـقطعون سلسلته من شدة الجذب والتقليب؛ بل إن الأفندى الذى نصفه رجل ونصفه أنثى لم يتورع عن إحاطة عنقـه به على سبـيل التجـريب؛ فلما اسـتوت حـباته علـى صدره انتفض أحليلى فى الحال تهيجـا عليه لأن العقد نفى نصف الرجل وضاعف حجم الأنثى فـيه بصورة زاعقة يا خـال. ثم ظهر العجل ابيس وطائر أبو قـردان؛ مـا كل هذه الرقـة يا خـال ؟ لا يمكن أن يكون صـانع هذا بشراً مثـلنا؛ صدق ولد عـمى حين قالوا عـنها : المسـاخيط، إذ هى فى نظرهـم مخلوقـات غضب عـليهـا الله كمـا يقـولون لشدة افـترائهـا عليه فـسـخطها هكذا؛ نزع منهـا الروح فجمدها كل حسب معدنه الأصلى فى الحياة، الحجر حجر والذهب ذهب والطين طين ..

قامت الخناقة يا بوى، بالعربى هذه المرة، بل البلدى والصعيدى والحوارجى. الحاج قدرى مصمم على أخذ التمـثال والعقد معا كما اتفـقـوا فى مبـدأ الكلام؛ لقـد اشـتـرى قـبل أن يرى ووافق على

الأسعار بغير فصال فلا أقل من احترام الاتفاق. وحاج آخر أصفراوى الوجه والعينين كالثعبان من الواضح أنه زير ملآن بالفلوس، يهتف بصوت متحشرج مكتوم متآكل الأحرف بأن لديه زبوناً مهماً جدا وعزيزاً عليه جدا يطلب هاتين القطعتين على وجه التحديد وإنه لهذا طلب من محمد بك أن يبحث له عنهما لدى معارفه فهما إذن فى الأصل باسمه ومن نصيبه، أما مسألة السعر فإنه لن يدقق بل لا يهمه مضاعفة المبلغ فى سبيل أن يظل رجلا فى أعين عملائه الاوروبيين الذين يثقون فى كلمته ..

انجعص محمد بك أبو شناف ملتفتا إليه، وأفتى بأنه يعرف سماسرة المتاحف هؤلاء وأنهم فى نظره أولاد قحبة لأنهم الرابحون فى النهاية، ثم حسم المعركة بأن خير الحاج قدرى بين التمثال والعقد فاختار التمثال، بل بادر بلفه فى منديله الحريرى ودسه فى جيب سترته الداخلى. فى حين مد الحاج الآخر يده فى كثير من الغضب المكبوت والكآبة فسحب العقد ووضعه بإهمال فى سيالته، وبدأ أنه غير راض على الإطلاق. وكانت نظرات محمد بك أبو شناف تحوم حول الحقيبة الجلدية تحت كوع الحاج الأصفراوى. وبحركة تمثيلية، وكأنه يدخر له هدية أنقح من التمثال، أخرج رأس نفرتيتى صار يلوح بها فى وجهه كأب يختبر فرحة ابنه بلعبة جديدة. بالفعل إنفردت أسارير الحاج الأصفراوى وابتسم واختطفها فى الحال كالطفل المنبهر ودسها فى جيبه الداخلى فحدجه الحاج قدرى بنظرة معاتبة ثم أردف:

- «حلال عليك ! شف كيف أنى لم أزعل الآن رغم أنى بالفعل كنت أتمنى هذه القطعة بالذات لكثرة الطلب عليها !!».

فى خبث متقن هتف محمد بك :

- «نحن فيها ! خذها وأعطه التمثال !!»

صاح الحاج قدرى :

- «ما داخل جيبى لا يخرج منه ثانية عدم المؤاخذة !!».

- «خلاص ! كل واحد حلال عليه ما أخذه !! ربنا يجعل سوقها أحلى منها !!».

أما الرجل الثالث، وكان أفنديا غاية فى الاتزان والصمت والرقة فإنه ركن العجل أبيس وطائر أبى قردان فى حجره فى شكل غير بارز علامة أنهما من نصيبه ولا مجال لعرضهما على أحد أو مشاركته فى شىء منها، بل إنه كان أول من افتتح المنظر البديع يا خال، كان يحمل كيسا من الفاكهة وضعه بجواره تصورت أنه يحتوى على تفاح أمريكى. سحبه وفتحه فإذا هو ملآن برزم الفلوس يا خال، ورق بنكنوت أخضر وأحمر مؤستك فى باكوات . عد لمحمد بك مائتى باكو، فلوس مضغوطة حتى ليبدو الباكو كأنه علبة من ورق الكوتشينة، انتظر محمد بك برهة ثم قال :

- «ما هذا ؟ ! أنت لم تأت على النصف بعد !!»

أشار له الافندى بأصابعه أنا أنتظر؛ ثم سحب دفتر الشيكات من جيب سترته، وحرر شيكا برقم واحد أمامه أصفار كثيرة،

سلمه لمحمد بك. حاولت التقاط الرقم فلم أتمكن لأن محمد بك طواه بسرعة ووضعه فى جيب الصديرى.

ثم جاء الدور على الحاج قدرى، الذى أخرج هو الآخر دفتر الشيكات وحرر شيكا برقم لم أميز على البعد إن كان تسعة أو ستة لكن الأصفار هى الأخرى كانت كثيرة. نظر فيه محمد بك ثم أعاده إليه بنظرة تأنيب فيها شىء من الوقاحة كأنها تكاد تشخر قائلة: «جرى إيه يا روح أمك ؟! . فابتسم الحاج قدرى ومط بوزه كالمغلوب على أمره ثم سحب الشيك فمزقه وكتب شيكا آخر قبله بشفتيه وقدمه لمحمد بك :

- «مالى بركة إلا أنت»

طواه محمد بك وهو يرشقه بنظرة ولد صايع مخربش :

- «طيب يا روح أمك ! تشكر !ربنا يبارك على كل حال !!».

ثم اتجه بكليته إلى الحاج الأصفراوى الذى كان قد سحب الحقيبة وفتحها. مخى شت يا بوى ؛ تحلف اليمين أن دماغ تشعثت: من أين تأتى كل هذه الألوف ؟! فى البلد كل هذه الأمو يا خال وهناك ناس لا تلقى اللضى ويقولون دولة اشتراكية يظهر أنها اشتراكية فى النهب والسرقة يا بوى. فلوس الحا الأصفراوى جديدة لم تلمسها يد من قبل، أيكون هو الذى يطبعها بالكميات التى يشاء ؟ غير مؤستكة لكنها مرصوصة فى باكوات محزمة بأحزمة ورقية عريضة عليها أختام وأرقام. خذ عندك يا

بوى : الله واحد، ماله من ثان، العدد ثلاثة، هب، أربعمائة خمسمائة ستمائة، ثم خلت الحقيبة ومع ذلك نزع منها دفتر الشيكات وحرر شيكا قدمه لمحمد بك فى لهجة مشوبة بالاعتذار والرجاء:

- «عفوا ! هذا الشيك يستحق السداد أول الشهر القادم يعنى بعد ثمانية أيام فقط ! ومن يدرى ! ربما يسهل ربنا قبل موعد الشيك فآخذه وأعطيك المبلغ !! كله على الله ! كله سينصرف بعون الله !!».

قال محمد بك وقد لمعت صلعته الشبيهة بقطعة جرانيت رمادية اللون :

- «أعرنى هذه الحقيبة بعد إذنك !!».

- «هى لك ! حلال عليك !!».

محمد بك انهمك فى رص البواكى فى الحقيبة حتى امتلأت عن آخرها، فداس على الغطاء بقوة حتى وصل لسان الكالون إلى مستقرة المحفور، ثم حرك تروس الأرقام حتى ساواها ببعضها ثم عاد فلخبطها ثم سلم الحقيبة إلى أخيه حازم مصحوبة بغمزة من عينيه، فنهض حازم مستأذنا، ومضى يهبط السلم الخشبى بسرعة. عند ذاك اعتدل محمد بك فى قعدته؛ رفع إحدى ركبتيه اسند فوقها ذراعيه، وبيده الأخرى مسح وجهه ورقبته وصلعته بمنديل حريرى معطر، ثم تنفس كأنه انتهى من معركة حربية خرج منها ظافرا:

- «يا .. ه !! كل ما كان فى رأسى طار ! طيرتوه ! أفقت الآن تماما !! أين حسن ؟ ! شف شغلك يا أبا على ! روقنا قبل أن ننصرف لنعرف كيف نتصرف !!».

ثم أضاف بلهجة ذات معنى :

- «معك حشيش أم تراه نفد ؟!»

شعرت أنه يشجعنى على القول بأنه نفد، مع أن نصف الكمية لازال معى. فهززت رأسى مؤيدا فكرة النفاد. فنظر إلى الحاج الأصفراوى نظرة ذات معنى، فقدم هذا قطعة وقدم الحاج قدرى قطعة. أحييت النار. دور والثانى، تناهت إلى أسماعنا الخطوات فعرفنا أن صلاة الفجر قد انتهت. لكن الداخل كان حازم؛ فتلقاه محمد بك بسرعة : «سلمت الأمانة لأصحابها ؟!» ؛ فقال وهو يخلع حذاءه ليتربع : «حصل !». بعده بقليل أقبل الحاج أحمد نوار الدين السنى يتمتم بختام الصلاة فى جدية بالغة. وقف بالباب مستردا نظراته الصبيانية الشقية المرحة.

- «صباحين وحتة!».

ردوا جميعا :

- «قشطة عليه !»

فظل واقفا كانه يستعجل قيامهم، بل صار يوحى إليهم بذلك :

- «كله تمام ؟ أى طلبات تنقصكم ؟!»

عند ذاك نظروا جميعا فى ساعاتهم وقال الحاج الأصفراوى : «نهاركم سعيد !» ونهض واقفا، فسلم عليه محمد بك قائلا: تلفن لى غدا فى العاشرة مساء فى النمرة الثالثة. ثم سلم على الجميع مودعا، وقال لحازم: أسبقنى أنت إلى تحت. من الواضح أنهم جميعا يعرفون مسالك القصر وممراته، خاصة أن الحاج السنى أغلق جميع الأبواب بالمفاتيح فيما عدا الأبواب التى تقود السائر من تلقاء نفسها إلى الطابق الأرضى فالبوابة الخارجية دون أن يخترق بهو المدخل الحافل بالتحف فوق المناضد. جلس الحاج السنى بجوار محمد بك وفى عينيه توق شديد للحساب. قال بلهجة مدببة ذات معنى :

- «انعشينا ؟!»

- «اللهم أدمها نعمة واحفظها من الزوال!»

قدم للحاج قصاصة ورق فيها بعض الأرقام:

- «الحسبة كانت هكذا فيما أظن ؟! أمامك عدد القطع وأمام كل قطعة حسابها! وأمامك الحسبة مجموعة جاهزة !!»

بنظرة سريعة مدربة استوعب الحاج السنى الحسبة كلها ومع ذلك قال بلهجة دافئة :

- «أحسب وراءك ؟ والله عيب !!»

قدم له محمد بك الشيكات واحدا وراء الآخر :

- «بكم هذا ؟»

- «بكذا»

- «وبكم هذا ؟»

- «بكذا»

- «فيكون المجموع؟»

- «كذا»

- «وبكم هذا ؟ »

- «بكذا»

- «إذن فيصبح لى فى ذمتك ثلاثمائة جنيه زيادة تردها لى عندما تصرف الشيكات ! سأظهرها لك فهى محررة لحامله !».

واستدرك:

- «أعط المئات الثلاث لحسن بقشيشا ! حقه ! من حضر القسمة فليقتسم !!» كدت أستسلم للفرح لكن الله ألهمنى فرفعت يدى هاتفا فى إباء وشمم:

- «لا ! تشكر يا سعادة البيه على كل حال ! ولكن البقشيش بالنسبة لى لا ! أنا لم أفعل شيئا ! مستورة والحمد الله !

- «إذن فخذ المبلغ وتصدق به !! لكن لا ترد كلمتى وتكسفنى!!»

- «عفوا يا سعادة البيه ما قصدت شيئا !!».

وكان الحاج السنى يراقبنى بابتسامة مرتعشة ماكرة فيما تلعب يده فى سيالته. ثم خرجت يده برزمة الفلوس مطوية، وتقدم منى ودسها فى سيالتى:

- «أنت الخير والبركة !وضعت لك فوق هدية محمد بك مائة جنيه من عندى !!»

وقال محمد بك :

- «عن إذنك آخذ حسن معى سأكلفه بمشوار !!»

- «كلنا ملكك يا سعادة البيه !»

ومضى خلفنا حتى الباب الخارجى؛ وظل واقفا يتمتم والمسبحة تساقط حباتها فى يده حتى سخن محمد بك سيارته وانطلقت بنا إلى منشية البكرى حيث مسكن حازم، وكانت الشمس تحاول أن تشرق ولكن الضباب الكثيف يكتم أنفاسها بشبورة خانقة، والناس تمشى فى الشوارع الطافحة بالمجارى لاهثة شاردة كئيبة، وتتراص على محطات الأتوبيس، والسيارات تمرق من أمامهم لتهيل عليهم الغبار والأوحال.

بصره

السيارة التى استدعاها حازم بالهاتف من موقف سيارات الصعيد حملتنا ثلاثتنا فقط: حازم ورفيقه المشعرانى فى الكنبة الخلفية، وأنا بجوار السائق: مسدسان بارزان فى جيبى صديرى كل من حازم ورفيقه؛ مما أشعرنى بالأمان والخوف معا يا خال، لا أدرى كيف. وعندما فتح حازم حقيبة الأمس المستعارة من الحاج الأصفراوى وأورانى رزم الفلوس الحمراء والخضراء شعرت بضرورة وجود السلاح معنا يا بوى .

الله وكيل يا خال ؛ القلق لم يفارقنى طوال الطريق على الرغم من أن حازم أغرقنا بالسجائر الأجنبية المحشوة بالحشيش، والأفيون، والشاى والقهوة من إبريقين مقفلين قيل لى إنه اختراع حديث يجعل الإبريق يحتفظ للشاى بسخونته كما نزلت من فوق النار، أو ببرودته كما خرج من الثلاجة. حاجة تهوس يا بوى. الرفيق المشعرانى - زاهى بك فيما أظن - لم يكف عن التنكيت والضحك طوال الطريق: نكت سياسية جريئة تسخر من عبد الناصر، ونكت قبيحة عارية. كل ذلك ودماغى فى البر الثانى من

الوادى: كيف ستتصرف ياابن أبى ضب فى هذه الشغلة؟ لا مجال بالطبع لأن تتراجع لكل عليك أن تكون حصيفا كما نبه عليك صوت أبيك . عيناى ذابتا على الطريق يا خال ؛ أمعنت النظر فى كل سيارة حازتنا أو عبرت بجوارنا أو خيل لى أنها تعاكسنا. أنا ربك والحق أشم رائحة الشرطة مهما تخفت فى أزياء وتنكرت فى هيئات؛ أساس الخسة يا بوى أن السلطة مغرية فضاحة لمن يعشقها إذ هو دائما أبدا يحب أن يشعر بأنه فوقك مميز عنك؛ شعوره بالسلطة أقوى من شعوره بالواجب يا خال، أقوى من قدرته على التخفى..

السكة أمان؛ ولم يظهر لى شىء يؤيد قلقى. وصلنا إلى أسيوط بسلامة الله يا بوى. قلت: بس ! هذه فرصتى لأتملك زمام الأمان فى السكة:

- «متشكرين يا أسطى ! مع السلامة أنت !»

قاطعنى حازم باحتجاج حاد الصوت:

- «لماذا ؟! اتفقنا معه من الباب للباب وحاسبناه !!»

صحت فيه باحتجاج أكثر حدة:

- «لو سمحت يا بو العم! دعنى أتصرف كما يتراءى لى !! فالمهمة مهمتى ! إن الأسطى لن يستطيع توصيلنا للمكان المطلوب وسط طرق ضيقة ومزارع وعرة!!».

لحظتها صاح السائق:

ـ «نعم! لم أكن أعرف هذا عند الاتفاق! اعملوا معروف السيارة لا تتحمل الطرق اللولبية غير المرصوفة!!».

ـ « معك حق يا بو العم ! سيارتك هذه رقيقة مثلك ونحن لا ينفعنا إلا سيارة صعيدية خشنة !! فاتكل على الله أنت !!».

وملت على حازم موضحا:

ـ «هذه سيارة بنمر قاهرية ومنظرها يثير الريبة حولنا يجعل الناس يخافون منا خاصة أن منظركما غريب على البلد !!»

بينى وبينك يا خال كنت أشك فى السائق أتصوره من بين الشرطة لقرب الشبه بينه وبينهم. فلما أبدى خوفه الشديد على سيارته لمحت وراء خوفه خوفا أكبر على حياته يعكس استرابة من المشوار كله، فداخلنى كثير من الأمان. صحبتهما إلى سوق أسيوط لنجلس على إحدى مقاهيه بعض الوقت. تلقيت السلام الحار فى كل خطوة ؛ مئات التحيات والشايات انهمرت علينا من كل من رآنا حتى انكمش رفيقاى بعض الشيء. أرسلت صبيا فى طلب سيارة من الموقف القريب؛ تصادف أن سائق السيارة يعرفنى؛ بالحضن يا بو على؛ أهلا يا بو العم، بنا إلى الغنايم ...

عندما صرنا فى مدخل البلد توقفنا عند عشة تبيع الشاى والقهوة، طلبت للسائق ما شاء من المشاريب وأعطيته حسابه

وجزءا من حساب العودة على أن ينتظرنا بقية النهار بالمبلغ الذى يطلبه كى يعيدنا إلى أسيوط ...

كانت الفكرة قد عششت فى رأسى يا خال، رأيت أن أدخل الرعب فى قلب رفيقى حتى يتسنى لى أن أكون مسيطرا على الشغلة. لففت بهما حول البلدة بهدف التضليل ثم توجهت بهما إلى مقهى المغارة فى الجبل، تلك التى دخلتها ذات يوم صدفة وكنت على وشك الضياع فيها لولا ستر الله، ما إن دخلنا من باب المغارة حتى التقانا صاحب الكشك فى الحال المقام فوق المدخل ليخفيه بداخله، عرفنى صاحب الكشك فوجه لى ولضيوفى تحية مناسبة، رفيقاى تصورا أننا دخلنا الكشك لنشترى السجائر أو نشرب الشاى: فكانت المفاجأة صادمة حينما أشرت إليهما أن يتبعانى، هبطت بهما منحدرا خادعا يظن من يجتازه أنه يؤدى به إلى الطريق الزراعى ثم يفاجأ بأن الانحدار فيه لا نهاية له: ثم تبدأ السماء فى الاختفاء شيئا فشيئا إلى أن تختفى تماما فى القبو المظلم ثم داخل النفق الطويل...

بدأ الرعب يعتريهما فعلا يا خال، من خطوة لأخرى يسألنى أحدهما فى استرابه واضحة:

ـ «إلى أين نذهب؟!»

فارد عليه بخشونة مبطنة بالرقة:

- «لا تخف مادمت معى!!»

إلى أن صرنا فى قلب المقهى، فاستقبلت فيها استقبالا حافلا يابوى كأننى من كبار الزوار بل كأننى صاحب بيت، أتخن شنب كان يجرى ليخدمنا، جاء الشاى ذو الرائحة النفاذة، جاءت الجوزة والحجارة، وكانت بقايا حشيش الأمس وأنبوبة زيته فى جيبى، فملأت الحجارة: شربت معهما بعض الأنفاس: ناديت للواقف وراء النصبة فجاء يهرول وكان عملاقا يخيل إليك أنه ضلع من الجبل دبت فيه الحياة، سلم على ضيفى؛ قلت له إنهما من أقاربنا فى مصر، فأعاد السلام عليهما بحرارة أشد قائلا:

- «إن شاء الله الغداء عندنا! جئتم فى موعده ولن تخرجوا من هنا قبل الغداء!! ما الذى تحبون أكله؟ رومى؟ بط؟ حمام؟ خرفان؟ جديان؟ كل هذا موجود عندنا ولن نشتريه!!».

استحسنت الفكرة التى لم تخطر لى على بال. قلت:

- «جهز الغداء الذى يعجبك أنت! وهذان الرجلان فى عهدتك وحمايتك حتى أعود! سأمكث حوالى نصف ساعة!!».

بإصبعه أشار الرجل الجبل إلى عينيه.

- «تحب أن نبعث معك حرسًا؟!».

- «لا! الحارس هو الله!»

- « ربما احتجت لمن يعاونك!!»

- «الشغلة بسيطة!»

- «طالع فوق؟!»

- «نازل تحت!!»

- «بألف سلامه!إتكل!»

استأذنت من ضيفى فأذنا لى بنظرة فيها من الإكبار والرهبة والخوف المزوج بشجاعة مدعاة خرقاء ما هز قلبى بالفرح والتفاؤل، فقلت عائدا إلى البلدة..

من فورى توجهت إلى دارى ففتحتها كالمتسلل، أزحت ملة السرير . بسن الكوريك أزحت التراب عن غطاء البئر ثم أخرجت ما فيه فإذا بقلبى يرتعد خوفا وفرحا معا، الثروة كانت أكبر مما قدرت، وه يا بوى، كل هذه الأنتيكات والتماثيل عندى؟ حمدا لله، انقضت يدى على التمثال الذهبى، شملنى الرعب الممزوج بالندم الكبير! كان التمثال أكبر من تمثال المرمر بحوالى خمس قراريط فضلا عن أنه أثقل بكثير يا بوى، هززته فى يدى ففزرت أنه يزيد على الكيلو جرام بكثير! ثم ما هذا الشغل يا بوى؟ تمثال المرمر كان واقفا فحسب أما هذا فواقف فى مدخل بوابة المعبد الكبير وعلى كل من يمينه ويساره حارس بحربة مرسومين على صدغى البوابة أما هو فمجسد بكامل وجها وظهرا فى فراغ البوابة، وه يا بوى، اجننت يا ولد أبى ضب لكى تفرط فى هذه التحفة الثمينة يا

ابن المرة؟! صحـيح أن الفلوس كبيرة لكننى كنت أتمنــى أن أحتفظ بها وبالتـمثال مـعا، أو على الأقل يعود التـمثال إلى مرقـده حتى يجىء عـدله، أوشكت أن أفعل يا بوى، لكننى بـصراحة خـفت من بطش محمد بك أبو شناف؛ عزيت نفسى بأنه ربما صار لى نصيرا فى المستـقبل؛ يجب أن أضحى كـما يفعل الحاج أحـمد نوار الدير السنى، وهكذا لففت التـمثال فى منديل دسستـه فى جيبى؛ أغلقت البئر أهلت عليـه التراب دلقت عليه قدرا من الماء دست فـوقه حتى بططتـه أعـدت مـلة السـرير إلى مكانهـا وخـرجت إلى الشـارع العمومى..اتخذت طريقى إلى دار هليـل فإذا به يلتقينى فى الطريق حيث كان فى طريقة إلى دارى بمجرد سماعه خبر وصولى ومعى ضيـوف، فى كلمات قليلة أحطته علمـا بحقيقـة الشغلة من طقطق لسلام عليكم، فدفعنى برفق نحو داره ليغير ثيابه ويأتى بمسدسه، بعد دقائق كنا فى مقهى المغارة..

وجدنا التـحشيش قـائما على قدم وساق، الـصبيان الضـخام اسـتقـبلوا هليل بما يليق بـه من الحب والترحـيب، تناثرت عليـه عبـارة مســاء النجف على المعلم من كل ناحـية. قال الرجـل الجبل وهو يقدم لى نصف كوب من الأفيون البلدى المذاب فى الشـاى:

ـ« خبر وصولك طلع إلى فوق!!»

هتفت مستاء:

ـ « لماذا؟ لم يكن هناك داع يا بو العم!!».

ـ « كان الخبـر سيصل بنا أو بغيـرنا فليصل بنا من باب أولى فنحن لا نسـتطيع كتمـان خبـر كهذا فكل من يدخـل الجبل يصل خبـره فى الحال قـبل أن يجلس يا ولد عمى!! ولابـد أن نعرف إن كان علينا أن نرحب به أم نطرده أم نتاويه!! الأصول أصول يا ولد عمى لا تزعل منها!!».

ثم استدرك وهو يتناول الكوب منى:

ـ «هات صـحابـك وتعال؛ عندنـا قاعـة لكبـار الزوار يجب أن تشـرفوها؛ دعـوا هذا المكان للركش والواغش ربمـا كنتم تحبـون التحدث مع بعضكم فى شىء مهم!!»

أشار إلينا فتبعناه؛ مضـينا فى القبو الواسع المستطيل مشوارا يقرب من نصف كيلو متر؛ ثم حودنا فى كوعة حادة بارزة كجدار يعتـرض الطريق، بعد الحـودة مبـاشرة حودة أخـرى أكثـر حدة وبروزا، تليها عـطفة تؤدى إلى تجويف سرعان مـا أفضى بنا إلى تجويف أعـمق على مساحـة كبيرة مـربعة مليئـة بمقاعد حـجرية كالمصاطب الملتصقة بالجدران وبعض مقاعد صغيرة من القش. ما إن جلسا حتى تبين لنا أننا فى حجـرة مربعة لا باب لها تحيط بنا الجدران من جميع الجهات..

جىء بدكة خشبية كبيرة امـتدت أمامنا كمائدة؛ صار الصبيان المـاشـير يبـزغـون فجـأة من أضلاع القـاعـة حاملين الأطبـاق والأباجر والسلطنيات، رائحة الطعام الدسم فـاحت حملتها نسائم

لا ندرى من أين تهب، وليمة كبرى يا خال، كل يا بو العم وهات معك من يأكل، قال الرجل الجبل إنه سيعطينا قيمة ساعتين نتمدد فيهما للراحة حتى نهضم الطعام وبعدهما يجىء بنفسه ليعيطنا حبسة العصارى..

الضوء النهارى كان منسربا من أماكن مجهولة، هذا بالنسبة للغشيم يا بوى؛ أما بالنسبة لمخربش صايع مثلى اعتاد النظر والتدقيق فى كل خطوة فإننى لاحظت أن هذه القاعة محفورة فى الجبل بطريقة لولبية لتضليل الغريب من ناحية ولإدخال الضوء من ناحية أخرى جاعلا فى كوعة من الكوعات مسقط ضوء مفتوح على السماء فى قلب هضبة عالية. حاجة تهوس يا بوى. ومن الواضح يا خال أن هذه الحجرة المغارة تصفى مشاعر الجالسين فيها وتهدىء نفسه تمنع عنه القلق، طوحت بصرى على القاعدين معى فخيل لى أنهم جميعا من الملائكة الأطهار الأبرار....

تململ هليل فى قعدته:

- «نتكلم فى الشغل يا بو العم!»

انتبه الضيفان فاعتدلا فى شىء من التحفز. قال حازم بفتور أقلقنى:

- «جئت بالأمانة؟!»

أشرت إلى هليل:

- «جئت لك بالمعلم نفسه صاحب الأمانة!!»

- «أهلا وسهلا! تشرفنا!!»

فمد هليل يده فى جيب الصديرى، سحبها بالمنديل الملفوف؛ فك المنديل عن التمثال الذهبى أمسكه من قاعدته السفلية رافعا إياه فى الهواء، أصابنا الذهول يا بوى: الأفواه مفتوحة عن آخرها، المشعرانى زاهى بك تناول التمثال بكثير من التقديس كأنه يمسك مصحفا: صار يقلب، يمعن النظر فى كل ملمح، ينظر بالعدسة المكبرة، أخيرا سلمه لحازم مع كلمة واحدة:

- «تمام! مائة فى المائة!!»

نظر حازم الى هليل:

- «على كم يا معلم؟!»

فى معلمنية ثقيلة يحسد عليها قال هليل:

- «مائتا ألف من أجل خاطر حسن وضيوفه!!»

قال المشعرانى:

- «الاتفاق لم يكن هكذا!!».

قال هليل:

- «شف يا بو العم! ما كنت أنوى إظهار هذا التمثال بالذات لكنه حسن سامحه الله دائما مسحوب من لسانه! لهذه التحفة زبائنها يجيئون لحد عندها!!» اعتدل حازم كأنه سيواجه حوتا ضخما؛

- « يا معلم! لقد اتفق حسن مع ناس فى مراكز كبيرة فى البلد! وما أنا إلا واسطة خير أسلم المبلغ وأتسلم التمثال!!».

صاح هليل فى احتجاج دقيقى ومتقن:

- « والله عال! بعتم واشتريتم وصاحب البضاعة كالأطرش فى الزفة!!

المشكلة يا بو العم أن حسن نسى شكل التمثال فاتفق معكم على تمثال أصغر من هذا!!»

قلت كأننى أخلص ذمتى:

- « لم أبع ولم أشتر أنا عرضت فحسب يا بو العم!! والرجل الطيب الذى تكلمت معه عرض أن يدفع الآن خمسة وسبعين ألفا وبعد أيام قليلة يدفع مثلهما فقلت له سأحكم صاحب الشأن فأرسل معى هذين الرجلين الكريمين لإظهار الجدية فى الكلام إن وافقت يدفعان وإن لم توافق يا دار ما دخلك شر!! فماذا قلت؟!»

- « قلت لا إله لا الله!»

ونكس رأسه فى الأرض مفكرا، أراد حازم أن يأخذ خطوة عملية لإظهار الجدية، فتح الحقيبة، أفرغ ما فيها عد خمسا وسبعين باكو ملفوفة بأحزمة البنك كومها أمام هليل قائلا فى أريحية:

- «هذه هى الفلوس خذها وخذ التمثال! نحن نشتري رجلاً! ومجرد مقابلتكم لنا تساوى فى نظرنا أموال الدنيا كلها».

ثم إن أخى - وحسن يقول لك - رجل يشترى! رجل بمعنى الكلمة وصاحب صاحبه وينفع فى الزنقة ربنا لا يوقعك ولا يوقعنا فى أى زنقة!! ولا يصح أن أقول لك عنه أكثر من هذا وسأترك لمخك النظيف معرفة من يكون أخى بالضبط!!».

- « أنت فى نظرى لا تقل عن أخيك ولا يرضينى أن أقصر رقبتك أمامه! أنت أيضا لا تقصر رقبتى! قلت إن أخاك رجل ولا كل الرجال! جميل يا بو العم! هذا تمثال غير الذى تصوره حسن ولا يمكن التفريط فيه إلا بسعر يساويه! سآخذ مائة وخمسة وسبعين ألفا الآن ويبقى خمسة وعشرون آخذها بعد عشرين يوما! خذ التمثال لتريه لأخيك حتى يقتنع!!».

- « معى الآن هذا المبلغ فقط! صدقنى!».

- « إذن فأخوك يسلم لحسن المبلغ المائة أو يعود حسن بالتمثال! مع العلم بأننى واثق فيك وفى أخيك وواثق أكثر فى نفسى فما ضاع لى حق أبدا ولن يضيع بإذن الله!!».

واستدرك ناظراً لى نظرة ذات معنى:

- « سمعت ما قلته يا حسن؟!».

- « سمعت يا بوى!».

فاتجه ببصره لحازم:

- «شف يا بو العم! التمثال أمانة معك سأسلمه لك أنت لا لحسن! وعلى قدر ثقتى هذه فيك أتعشم أن تعاملنى بمثلها! فاهمنى يا بو العم؟!».

هز حازم رأسه فى امتنان؛ وبسرعة تناول التمثال فلفه فى منديل ثم دسه فى جيب الصديرى، فقمت أنا بإعادة رص البواكى فى الحقيبة وسلمتها لهليل. طرح المشعرانى علينا طرحة سجائر ملغومة، وإذ مال ليشعل لنا بالقداحة فوجئنا بالرجل الجبل يدخل بالعدة ليسقينا حبسة العصارى..

عند خروجنا اقتادنا الرجل الجبل من سكة بعيدة تخترق أحشاء سفح الجبل وسط فوهات مخيفة وكتل مائلة وأحجار تتعانق فوق فراغات، طريق شديد الوعورة يا خال ملئ ببقايا جثث آدمية أكلتها الثعالب والثعابين والغربان والكلاب الضالة وكنا نتقافز فى مشينا لنتخطى الثعابين والحيات والكلاب الميتة والفئران الجبلية الضخمة، وأكوام قمامة، وإطارات سيارت وهياكل سيارات محترقة ودراجات بخارية متكسرة، وقبعات وطرابيش شائطة وأسمال بالية. صرنا نصعد فوق مدق ترابى محفوف بكتل الصخور الناتئة المدببة، صعودا بدا أنه لا نهاية له حتى تصبب العرق من جباهنا، وقرص الشمس الأحمر المخنوق يصير على مرمى حجر من رءوسنا تارة ويختفى تارات، إلى أن فوجئنا به قابعا فى السفح البعيد وسط بحيرة من الدماء، وكنا قد صرنا نهبط نحوه نكاد ننكفئ من سرعة الهبوط؛ فإذا بصفحة النيل أمامنا قد احتوت قرص الشمس، وإذا بالطريق الزراعى أمامنا، عندئذ سلم علينا الرجل الجبل مودعا وواصل سيره حول

الجبل ليدخل من كشك السجائر فيما واصلنا نحن إلى مدخل البلد من ناحية دارنا. سلم هليل علينا ومضى بالحقيبة تحت إبطه إلى داره، ومضيت بالضيفين إلى كشك الشاى حيث ينتظرنا السائق، الذى وجدناه فى حال من الرضا متربعا على المصطبة وقد احتفى به كثيرون من عائلة خرابة فقدموا له الغداء والحجرين المعتبرين، واد عتره يا بوى، صمم أن يوصلنا إلى القاهرة و.. طريق السلامة يا عسل..

مكسب

وصلنا إلى القناطر الخيرية فى الخامسة من مساء اليوم التالى بعد أن استرحنا فى شقتى على نيل المنيل ثم ذهبنا إلى شقة حازم فى منشية البكرى حيث أجرى اتصالاته وعرف المكان الذى يجب أن نتجه إليه فركبنا سيارته فاتجهت بنا إلى منطقة نائية بحذاء القناطر بعيدة عن العمران بمسافة طويلة؛ هى عبارة عن غابة كثيفة من الأشجار المنسقة كأنها خارجة من محل الكوافير، والنخيل الملكى ذى الجريد الناعم. الطريق إليها ممهد بإتقان وممتد إلى داخلها يقول للسيارة واصلى سيرك. صارت أشجار الفاكهة تحف بنا من الجانبين، وثمة لمبات كهربية حمراء كعناقيد العنب تتدلى بين الأفرع الكثيفة. على مبعدة قصيرة ظهر باب الفيلا كقطب من الضوء. باب مسيج بالحديد الصلب المصقول اللامع على شكل درابزينات وشبكات ومصدات، يتم الصعود إليها بخمس درجات، ورغم أن المكان يحيطه الهدوء التام، ولا صوت إلا نقيق الضفادع، فإن المرء يحس أن هذا الهدوء ليس خالصا يا خال؛ فثمة نفس ثقيل الوطء يا خال، ثمة حرس رهيب يتفشى فى أحشاء الغابة وحواليها يرصد حركة كل نملة داخلة أو خارجة

ومن الواضح أن لديه علماً بكل من سيأتى ولديه أيضا تعليمات بعدم الكشف عن نفسه إلا عند اللزوم. وهذا ما قد حدث فى الحال يا بوى، ما أن وقفت السيارة ونزلنا منها حتى ظهر من تحت الأرض أفندى محترم فى غاية الرقة والأدب؛ ألقى علينا التحية ثم أشار إلى السائق أن يتبعه. فمضى حازم بالسيارة خلفه على نفس الطريق الممهد العَريض وقد كشفت أضواء السيارة عن الأفندى السائر أمامها فظهر المسدس متدليا فوق إليته اليسرى. مالبث حتى توقف وأشار لحازم بذراعه على حودة غير مرئية لنا تقود السيارة إلى طريق الخروج من جانب آخر، ثم اختفى. عاد حازم ليتقدمنا صاعدا الدرج. ضغط على زر فى الحائط، فسمعنا وشيشا صادرًا عن جهاز يشبه الراديو الترانزستور مثبت على صدغ الباب، ثم انطلق صوت فيه خشونة وتوعد : «من بالباب ؟» . رد حازم فى الحال : «أنا حازم أبو شناف ومعى صديقان !». فانفتح الباب من تلقاء نفسه بحركة آلية ذات صوت كأنه يدور فوق تروس ساقية من سواقى الفيوم ...

دخلنا فلم نجد فى استقبالنا أحدا . ردهة كبيرة جدا مليئة بالأبسطة الملونة الناعمة اللامعة على الأرض وفوق الحوائط بين براويز لوحات ومرايا، تحف ثمينة موضوعة على أرفف وطقاطيق عالية. نجف كثير يتدلى من السقف كعراجين البلح الأحمر والاصفر والأسمر والأبيض والأخضر. أشكال وألوان من الكراسى والمقاعد والكنب والشلت والبفات متناثرة فى مجاميع

متآلفة تفصل بينها ممرات ومناضد صغيرة عليها تحف تضاء بالكهرباء. تهنا في الردهة يا خال، صرنا نتخابط يمينا وشمالا، لكن صوتا رن في قلب الردهة صائحا من أعلى : إطلع يا حازم. فقذفنا بأبصارنا إلى أعلى فإذا بأفاريز ذهبية لشرفات وبلكونات تلف حول الردهة. وكانت أعيننا قد ألفت الضوء الخافت فتبين لنا في الركن البعيد سلم مائل بدرابزين خشبي مشغول بالأرابيسك ودرجه مفروش بالسجاد. اخترقنا المقاعد إليه. في نهايته كان في استقبالنا رجل أسود كالذين يظهرون في الأفلام في قصور الباشوات يرتدون جلابيب مقصبة. اقتادنا عبر ممر عريض مستطيل مفروش بالسجاد. موسيقى أجنبية خافتة الأنغام تزفنا منطلقة من كل خطوة. في آخر الممر غرفة بدت مفتوحة كالملعب فيها أسرة ساحرة مفروشة بالحراير، ودواليب وخزنات ومرايا ومقاعد كالحمير المنجدة. من شدة اتساعها وارتفاع جدرانها بدت كأنها بلا سقف، تمتد حتى مشارف البصر بلونها الأبيض المزدان بظلال لبنية ونقوش زرقاء وحمراء خافتة، ولها أبواب عديدة لونها أبيض: شيش وزجاج وشبك سلكي. لم نميز الأبواب من الشبابيك إذ أن الأرض المغطاة بالخشب الباركيه تمتد تحت الأبواب المواجهة لنا على البعد، وفي العمق البعيد سماء متلألئة مترجرجة تخترقها أشرعة عملاقة وقزمية، صرنا نقترب منها فنميز فيها صفحة النهر المداح ملتحفا بالسماء وكلما اقتربنا ابتعدت الأشرعة، عبرنا الباب الثاني فإذا بنا في شرفة ملحقة بالحجرة لا تقل عنها اتساعا مسقوفة بشرفة مثلها، مفتوحة كهذه على شاطئ النهر نصف

سورها عواميد حديدية منكلة ومتداخلة في أشكال زخرفية، حاجة تهوس يا بوي...

محمد بك أبو شناف ملقى في كرسي خيزراني كالأرجوحة بقاعدة دائرية تسمح لظهره بالتراجع حتى يلامس الأرض كان مضطجعا وبجواره ترابيزة عليها زجاجة وكأس، وعلى ترابيزة شقيقة مجموعة أطباق فيها جوز ولوز وفسدق، ترابيزة ثالثة صغيرة عليها طاسة نحاسية يرتص فوقها ما يقرب من عشرين غليونا مما يسمى بالبايب،دفع ساقيه إلى الأمام قليلا وكان يرتدي منامة فوقها روب، اعتدلّ به الكرسي، وضع الكأس وأبقى على الغليون بين أسنانه صائحا من فم مقفل:

ـ « سبع ولا ضبع؟! حمدا لله على السلامة أولا!!».

قال حازم وهو يلقي بنفسه على كرسي مماثل:

ـ « سبع طبعا».

جلس المشعراني وجلست، سحب حازم المنديل وفكه عن التمثال، انتقض محمد بك فاتحا فمه من شدة الذهول والرهبة.

ـ « يا سلا..! ..! ...م!!».

واختطفه، صار يقلب فيه، يقربه ويبعده.

ـ « شيء يفوق الوصف! سأحقد على من يقتنيه!!»

عاجله حازم:

ـ « ولكن البيع ليس نهائيا مع الأسف!!»

فرحت بقوله إذ يطرق الحديد وهو ساخن، بدت على محمد بك صدمة من نوع صدمات قطاع الطرق الذين يدعون الأصول وتشى ملامحهم ونبرات صوتهم بأنهم مدربون على اختراقها. نظرته يا بوى قالت ببريقها الجهنمى إنه بيع نهائى ولن تستطيع قوة فى الأرض إلغاءه، لكنه سرعان ما تسربل بإهاب الحكماء المسالمين:

ـ « ما المشكلة؟! لن يكون هناك مشكلة!!»

بكل وضوح وحيدة قال حازم:

ـ « هذا مختلف عن التمثال الذى وصفه حسن! لقد وصف من الذاكرة!! صاحب التمثال لم يقبل بأقل من مائتين: مائة مقدما والمائة الثانية فى ظرف عشرين يوما! وأنا تعهدت له عهد رجال أن التمثال أمانة عندى حتى يأخذ هو حقه كاملا! فإن وافقت حضرتك على هذا المبلغ فإن حسن يجب أن يأخذ الآن خمسة وعشرين ألفا ليعود بها! أو يأخذ التمثال ويرد المبلغ!!».

نظر فيه محمد بك متمعنا باستغراب ودهشة كأنه يريد أن يقول له. أنت معى أم معهم؟! لكنه استبدل هذه العبارة بقوله:

ـ « وأنت! ما رأيك فى هذا الكلام؟ وما رأى الخبير؟!»

بلهجة ذات معنى قال حازم:

ـ « ما رأيته ولمسته أن الرجل كبير الشخصية وقوى جدا وليس من السهل ولا من الحكمة مماطلته فهو واثق من نفسه إلى

حد الجنون لكنها ثقة فى محلها!! وقد عاملنا باحترام وشجاعة وشهامة ولما كلمته عن حضرتك كان مستعدا لرد الفلوس وهو على ثقة بأنها ستعود إليه كاملة ثم إننى وعدته ويهمنى كما يهم حضرتك طبعا أن أكون عند وعدى!! بصراحة لقد أحببته واحترمته وقررت أن أكسبه صديقا إلى الأبد وأنت أيضا لو شفته ستقربه منك!! هذا ما حدث ولك الرأى فى النهاية!!»

زام محمد بك فى تفكير عميق ثم نظر إلى المشعرانى فهز المشعرانى رأسه فى تأييد لحازم، وأضاف:

ـ « تحفة لا مثيل لها فى العالم كله! لا يقدر على ثمنها إلا دولة!! وهى خسارة فى البهدلة بصراحة وحضرتك تفهم ما أعنى!!»

تناول محمد بك رشفة من الكأس ثم أشعل الغليون بولاعة ثم جذب عدة أنفاس متلاحقة، وضع التمثال بجوار الزجاجة فأشاع فى المكان كله بهجة ذهبية ذات أبهة وأنس، أخيرا قال محمد بك:

ـ « ماشى! أنا أيضا سأشترى هذا الرجل سأنفذ له كلامه فهو لا يجب أن يكون أرجل منا ونحن فعلا يجب أن نحتفظ به! خلاص يا حسن ! الليل وآخره! قوموا شوفوا لنا حجراً نشربه قبل أن يطبق هذا البايب اللعين على صدرى !!».

تقدمنى حازم فى نفس الشرفة التى نجلس فيها. كانت الأشرعة فى مواجهتنا على مرمى رصاصة كما بدا لى: لكن

الشرفة انكسرت فجأة إلى اليسار ثم امتدت إلى الأمام فكأننا ذاهبون مباشرة إلى الأشرعة التى بدت كأنها فى متناول اليد؛ لكننا بينا أن الأشرعة لاتزال بعيدة وأنها تبدو قريبة لأن الفيلا مبنية على أرض منخفضة عن سطح النهر بمقدار الطابق الأرضى كله رغم ارتفاعه . أخيرا صارت الشرفة فوق سطح الماء فيما كانت الأشرعة فى العمق البعيد لاتساع النهر. هذا الجناح من الشرفة كان متكامل الجدران لكنها جدران من الزجاج والألمونيوم وهو زجاج ترى منه كل ما فى الخارج دون أن يراك من بالخارج؛ أخبرنى حازم بذلك لما رآنى متحرجا من أن يرانا من هم على ظهر هذه السفن. حاجة تهوس يا بوى ..

القعدة كانت متكاملة يا خال تقول للخرمان اجلس وانس الدنيا كلها فى هذه الجنة. حشايا ومساند أرضية، حصائر ملونة فى أركان متعددة، طبليات من خشب مصدف. فى أحد الأركان ثلاث جوزات فى قلب دلو كبير ملئ بهضاب ثلج وماء؛ بوتاجاز صغير يشبه الكلوب، براريد وأكواب فوق صوانى من الفضة شكارة ملآنة بفحم من شجر البرتقال أشار إليها حازم قائلا :

- «شوف شغلك يا حسن ! هذا فحم يشتعل بعود كبريت !!» .

قامت القعدة يا بوى لا ينقصها سوى الشاربين. نظرت حولى فلم أجد أحداً فبدا الجو موحشا بعض الشئ وخيل لى أن مخلوقات غريبة ستنط من النهر لتنقض علىَّ ؛ تراءى لى فى كل

ركن شبح غامض الهوية. وكانت الستائر المتراخية تهتز وتثير صلصلة وخشخشة وهسيسا يختلط بهدير الموج الذى يبدو مع ذلك ساكنا تماما : وثمة غناء حزين يقطع القلب يابوى كان الهواء يلعب به يطوحه هنا وهناك. قمت مشيت نحو الأشرعة؛ كانت كأنها معى فى الشرفة. خيل لى أنى يجب أن أفعل شيئا ؛ مضيت إلى الداخل كى أنادى عليهم. التقانى حازم مهرولا لمنعى من مبارحة المكان. غمزنى بقطعة حشيش كبيرة كالرشوة المفضوحة، ولمز بشفتيه قائلا :

- «شف مزاجك وحدك حتى نجىء فأمامنا دقائق ربما تطول !! اسرح مع نفسك ومع الجو هنا ولا تقلق إن تأخرنا عليك !!».

بقيت وحدى متربعا تحت الشباك أدخن الحجر تلو الحجر حتى تعبت، صرت أتسلى بغناء صعيدى آت من السفن، وبمنظر السيارات رائحة جائية بأضوائها الشبيهة برياح مرئية تكنس الأرض، سئمت يا خال، شعرت بالجوع، تخنت وجهى وقمت ؛ مضيت على أطراف أصابعى نحو الداخل. عبر الحوائط الزجاجية الداخلية المتقابلة رأيتهم منهمكين فيما يشبه العراك الصامت وقد تحلقوا الترابيزة الزجاجية الكبيرة: محمد بك وحازم وزاهى المشعرانى و ... الحاج الأصفراوى. عجبت كيف جاء دون أن أدرى به. أخذت أقترب على أطراف أصابعى، ارتعت يا خال، كانت رزم الفلوس مكومة على الترابيزة كهرم سقارة المدرج · البنك

الأهلى أو بنك مصر لا أظنهما يحتكمان على مثل هذه الكمية من الفلوس. تدهورت رأسى يابوى : كيف يمكن لإنسان واحد ـ مثلى ومثلك يابوى ـ أن يمتلك كل هذه الأموال ؟! كيف استطاع أن يحملها ويمشى بها ؟! وإذا كان لشخص أن يدفع كل هذه الأموال فى بيعة واحدة فما الذى يمكن أن يقبضه بعد بيعها وماذا يكون رأسماله ومن يكون ذلك المشترى يا خال ؟!.

أخيرا هب محمد بك واقفا، صار يلم هذه الرزم ويرمى بها فى شكارة من شكائر البريد. نهضوا جميعا واقفين فاستدرت فى الحال عائدا إلى مقر القعدة وركبى تهتز برعشة شملتنى من شال العمة إلى أصابع قدمى استأنفت قعدتى أمام النار لكننى جعلت وجهى تجاههم. رأيت أشباحهم تتحرك. مضى حازم أمام الحاج الأصفراوى فى الممر الذى جئنا منه، ثم سلم عليه وعاد. رأيت محمد أفندى يضع جهازا صغيرا فى جيبه ويعطى آخر مثله للمشعرانى ثم يمسك بلفة من ورق الجرائد منفوخة ثم يقبل نحو فيلحق به المشعرانى وحازم. اقترب منى محمد بك بابتسامة عريضة:

ـ «شف يا حسن يا ابنى نحن لسنا أقل رجولة من قريبك هذا ! سنقسم البلد نصفين فلا نظلم قريبك ولا نظلم أنفسنا ! سنأخذ الآن خمسا وسبعين ألفا مرة واحدة ولا يبقى لكما عندى أى شىء !! هذا هو العدل والإنصاف وأتعشم أن تفلح فى إقناع قريبك بأن يشترينا هذه المرة ويكسب منا فى المرة القادمة !! أليس كذلك ؟!»

ضحك؛ فرقص قلبى من الفرح لهذه الثروة التى هبطت على من حيث لا أحتسب. سللت صوتى من جراب صدئ :

ـ «يا سعادة البيه الصعيد كله ملكك ! نحن جدعان ونشترى الرجال بأغلى من المال ! وقريبى أرجل منى ! هات المبلغ يا سعادة البيه ودع الباقى لى !!».

ربت على كتفى بيد :

ـ «حازم سيوصلك به إلى بيتك !»

وناولنى اللفة فاحتضنتها بقوة. ووجدتنى أقول دون أن أدرى ـ لكى أسبك الشغلة:

ـ «بهذا أكون طلعت من المولد بلا حمص، باع البياع واشترى صاحب المال وضاع السمسار فى البلموطى !!».

ضحك بصوت مجلجل. التفت إلى حازم :

ـ «أعطه ألفين يا حازم ! وحلال عليه ما سيأخذه من قريبه !!».

أومأ حازم برأسه بحركة : نحن مع بعضنا لآخر الليل؛ فهززت رأسى أن : وماله. ثم دخلت بالبوصة على محمد بك ؛ فأمسكها والفا وراح يعزف على ماء الجوزة لحنا طروبا بعث النشوة فى رأسى يا خال . ثم إنه جلس متربعا على شلتة فوق حصير ملون. وحينما وقفت لتغيير ماء الجوزة لمحت على البعد فى الضوء الخافت حازمًا يفتح شنطة السيارة ويضع فيها الشكارة ويغلقها

ثم يكلم الأفندى الواقف فى الحديقة قائلا : دعها هنا قريبة من أعيننا ! ثم يرتد عائدًا. دخلت بالبوصة على محمد بك ووجدتنى أقول له على سبيل المزاح:

على فكرة يا سعادة البيه ! نفسى ومنى عينى أن أدخل الانتخابات لأصبح عضوا فى البرلمان !!».

ضحك حتى أبعد البوصة عنه ماسحا عينيه بمنديل :

- «وماله ! وهل تظن من فى البرلمان أحسن منك ؟! رشح نفسك يا رجل واتكل على الله !».

- «هل كل واحد يمكن أن يرشح نفسه ؟!.

- «إلا أصحاب السوابق بالطبع ! وحتى هذه يمكن أن تحلها أنت وشطارتك !!».

- «وكيف يرشح الإنسان نفسه يا بوى ؟!».

- «يذهب إلى البرلمان ويملأ استمارة الترشيح وينتظر أياما حتى يبلغوه على عنوانه إن كان ترشيحه مقبولا أم لا !! فإذا كان مقبولا تذهب إلى دائرتك وتقوم بالدعاية اللازمة لنفسك !!».

- « دعاية كيف يا بو العم ».

- «يعنى تجتمع بالناس وتقول لهم سأفعل لكم كذا وكذا من الخدمات ! ويجىء يوم الانتخابات فيتوجه المواطنون إلى اللجان للإدلاء بأصواتهم ! ويتم الفرز وتظهر النتيجة !!».

- «زين يا بوى زين !! هل يمكن أن تخدمنى فى هذه الاستمارة؟!».

ضحك ، أشار لحازم :

- «حازم يساعدك إن شاء الله حينما تنوى عندما يحين موعد الانتخابات !!».

- «وهل للانتخابات مواسم يابوى كالزراعة ؟!».

ضحك حتى نفذ وقاره:

- «طبعا ! حينما يجىء موعدها سأقول لك !!»

رن صوت كشقشقة العصفور . سحب محمد بك الجهاز من جيبه، رفع غطاءه فضوعف حجمه : آلو .. هو تليفون إذن بغير سلك ولا دياولو . أخذ يردد :

- «نعم ! أيوه ! وماله ! هاتها وتعال ! وحسن بك أيضا ؟ ماشى' سنؤجل العشاء حتى تحضروا بسلام !»

وطوى الجهاز ووضعه فى جيبه :

- «مفاجأة يا حسن ! الشيخة سعادة آتية بعد قليل مع الحاج محمد نوار الدين السنى وحسن بك !».

- «معقولة ؟!»

- «حسن بك هذا ليس أنت بالطبع ! إنه صديق لنا من أعضاء مجلس قيادة الثورة !».

ثم أخذ يصفق كفا على كف، استطرد مندهشا ومتعجبا فى نفس الوقت :

- «العالم جُن !! تصوروا أن بعض أعضاء السفارة الأمريكية هم الذين دعوا الشيخة سعادة هذه المرة للتعرف عليها والتبرك بها عن طريق صديقنا حسن بك ؟! رجل أعمال سعودى يعمل بالسياسة نقل لهم أخبارها بأنها ساحرة تجيد قراءة الطالع السياسى للأشخاص وللدول !! يعنى تشوف بخت دولة مثلا !! ها ها !! عندها تنبؤات خطيرة بالنسبة للعالم كله ولكبار السياسيين والزعماء !! قيل إن معها كتاب سحر فرعون تجيد تفنيط أوراقه وتوزيعها على الأيام والشهور والأبراج لتخرج بنتائج يقولون إنها صادقة ومهمة !! تنبأت لرجل الأعمال السعودى بأشياء حدثت بحذافيرها !! وزميلنا حسن بك يحلف أنها ترى كل ما فى دماغه ودماغ غيره ويتحدث عنها مع كل أعضاء مجلس قيادة الثورة !! حسن بك أرسل من أتى بها من أسيوط كما يفعل دائما ! ذهب معها للسفارة الأمريكية شافت شغلها هناك ثم دعاها لقضاء بقية السهرة هنا !! الحاج نوار الدين يقول الآن إن الأمريكيين فتنوا بها وأكرموها كرما زائدا خاصة أنها لا تتقاضى أى أجر وهذا ما يزيد الثقة فيها باعتبارها ليست محترفة تتكسب !! ليلتنا فل إن شاء الله !! ارفع زجاجة الخمر يا حازم واخفها فى أى مكان حتى لا يصدع حسن بك رؤسنا بالحرام والحلال !!».

سحب الجهاز الثانى من جيبه. ضغط على زر، تصاعد الوشيش بصوت عال ، أصوات طشطشة وغليان ومواتير خلاطات زاعقة، جاء صوت رجل :

- «الشيف تحت أمرسعادتك !!»

- «مساء الخير يا شيف ! ما أخبار العشاء ؟!»

- «تحت الطلب يا أفندم !»

- «زاد عدد الضيوف ثلاثة ! وربما أكثر !!»

- «الخير كثير بإذن الله !»

- «سنطلبك بعد قليل ! شكرا !»

ووضع الجهاز أمامه :

«هذه ليلة المفاجآت السارة ! اسقنا يا حسن طاقما سريعا قبل مجىء الضيوف!!».

ورحت أسقيه بأعصاب مضطربة من الفرح يا بوى.

أوراق السر الأعظم

ما أظن يا خال أننى سأجد شبيها بأختى سعدية التى حققت ما يشبه المعجزات. حقيقة الأمر يا خال أننى لم أكن عرفتها على حقيقتها أثناء الطفولة؛ فطفولتى كانت شريدة شقية، أبعدتنى عن الدار مدداً طويلة يا خال نسيت فيها أشياء ولم أفطن لأشياء. فمما كنت نسيته مثلا يا بوى أن أختى سعدية هذه سعيدة الحظ من يومها تستقطب الحب من القلوب المتصخرة فهى الوحيدة التى اصطفاها عمى الفقيه الكبير أثناء طفولتها لكى يعلمها الكتابة والقراءة ـ رغم أنه ضرير ـ خيرا من كتاب القرية ومدرستها، ولكى تخدمه ـ فى نفس الوقت ـ أثناء انشغاله فى الدرس لمريديه وطلابه وطلاب الفتوى. كل الكتب كانت فى رأسه فحين يجىء من يطلب إليه الفتوى طلب من سعدية أن تأتى بالكتاب الخامس على اليمين من الصف الثالث للرف المجاور للباب، ثم يأمرها بأن تفتح صفحة كذا وتقرأ من بداية السطر السابع مثلا. فتفعل بلهجتها الركيكة المتعثرة ولكن تلويحة العصا القاسية تجعل ذهنها صاحيا يتجنب الخطأ فى نطق الحروف وتشكيلها قدر الإمكان وهو لاينى

يصحح لها. وبعد قراءتها فقرة أو فقرتين ربما صفحة أو صفحتين يطلب كتابا آخر فيستمع منه إلى صفحة أو صفحتين، وقد تدوخ البنت بين عشرة مجلدات رائحة عائدة بها مقلبة صفحاتها لكى يتمكن هو فى النهاية من إصدار فتوى مكونة من خمسة أسطر وربما أقل. ولما كان جميع أبناء عائلة أبى ضب قد فاتهم قطار التعليم فإن جميع كتب عمى الكبير قد اندفنت فى دواليبها العتيقة حتى شاطت أوراقها وأوشك أبناء عمومتى على تبديدها إهمالاً وبعزقة لولا بقية من تقديس موروث للورق المكتوب إكراماً لخاطر القرآن الكريم؛ إلى أن أنقذتها أختى سعدية فأخذتها كلها إلى الجبل استجلابا للبركة والفأل الطيب.

طب ما قولك يا خال إننى أتذكر الآن لحظات طيبة ؛ إذ تحكى لنا سعدية فى الليل كل ما سمعته من عمها الكبير وضيوفه وحول ماذا دارت معارك اليوم بينهم وبينه. والله يا بوى كانت تتكلم مثلهم بالنحوى الفصيح وهى بنت ست سنوات. وفى صباها كانت من اللماضة ومرونة اللسان على درجة كبيرة ...

يالها من امرأة قوية جبارة. تصور يا خال أن رمش عينها لم يطرف حين رأتنى فى القعدة ؟ كل ما هنالك أنها هزت رأسها قائلة كأنها تخاطب شخصا رأته من قبل مرة واحدة عابرة :

ـ «كيف حالك ؟ طيب ؟ الحمد لله !».

ثم انصرفت عنى بوجهها الذى انسدلت فوقه الطرحة الحريرية البيضاء الشفافة. كان فى صحبتها الحاج أحمد نوار الدين السنى.

وذلك المدعو حسن بك عضو مجلس قيادة الثورة ذو اللحية السكسوكة. تناولنا العشاء الدسم فى حضورها بشراهة دون أن تنفتح لها شهية؛ إنما اكتفت بتمرتين أخرجتهما من حقيبة يدها الشبيهة بالصندوق السحرى قائلة إن هذا هو غذاؤها على الدوام. احتراماً لها أمر محمد بك أبو شناف بإيقاف وإبعاد الشرب بجميع أنواعه جالسا أمامها كالتلميذ المذنب هو وحسن بك والجميع فى حالة ترقب لكل كلمة تخرج من فيها ..

الأضواء يا خال كانت خافتة، هادئة، والهواء الطرى يربت على اكتافنا بيد حريرية حانية. صوت آذان الفجر ارتفع كأن المدينة قد تفجرت بصوت الله أكبر ترجعه مئات المآذن بمكبرات الصوت فى جميع الأنحاء. نهضت الشيخة سعادة لصلاة الفجر، فاقتادها الحاج أحمد نوار الدين السنى إلى ركن بعيد جداً فى آخر الغرفة الواسعة، وعاد فأمَّ الصلاة بمحمد وحسن بك وحازم والمشعرانى الذى ظهر أنه انضم على سبيل المجاملة للمصلين فحسب. وجدت نفسى فى وضع بايخ يابوى، فقمت ـ غفر الله لى ـ وانضممت إلى الصف بغير وضوء، موحيا للجميع بأننى على وضوئى وجاهز للصلاة فى أية لحظة. لكننى ما أن فعلت حتى فوجئت بالشيخة سعادة كالقضا المستعجل تربت على كتفى بخشونة قائلة بحدة :

ـ «أنت ! عيب عليك ! إذهب وتوضأ !!»

ثم فعلت نفس الفعل مع المشعرانى وحازم ؛ لكنها سلطت عينيها على المشعرانى بنظرة غاضبة حارقة ؛ فارتبك حتى ارتعش. فقالت له :

ـ « أما أنت فعليك أن تستحم قبل الوضوء !!»

حاول أن يفتح فمه لينطق فى احتجاج مرسوم على وجهه إلا انها صفعته بنظرة آمرة بالسكوت مؤنبة، ثم امسكت بطوق ثوبها وهزته متأففة متشممة. فلما رأته مصرا على غبائه قالت له بصريح العبارة :

ـ «ألا تشم رائحتك ؟! كيف تمشى هكذا ؟! من يخطف المتعة الحرام خطفا كاللص فيجرى والنجس عالق بجسده لا يصح أن يخطف الصلاة !! لقد أفسدت صلاة هذين الرجلين الفاضلين !!».

ثم هتفت برفق فى أذن الإمام :

ـ «إن الله مع الصابرين ! أقم الصلاة من أولها يا مولانا واسبقها بركعتين للاستغفار !!».

ففى الحال سلم الإمام واقفا ذات اليمين وذات اليسار، ثم بصوت عال نوى الصلاة ركعتين للاستغفار ، فتبعه كل من حسن بك ومحمد بك. أما ثلاثتنا فقد وقفنا غارقين فى البلل؛ فيما عادت هى إلى مقر صلاتها. دون أى تردد مضينا خلف حازم كالتلاميذ الاشقياء إلى دورة المياه كى نتوضأ. لم يجرؤ أى منا على التبجح

فى وجهها والادعاء بأنه متوضئ ؛ وهتف المشعرانى وهو يخلع ثيابه على باب الحمام فى غير حياء :

ـ «هذه الشيخة نافذة البصر ومن يشكك فيها أخرق عينيه !!».

وقال إن هذا الحمام تاريخى بالنسبة له لأنه لن يكف عن التطهر بعد ذلك مطلقا.

على الضوء الخافت يا خال خرج الكتاب المفصص الأوراق من حقيبة يد الشيخة سعادة محاطا بهالة من الرهبة والتقديس. العيون كلها عمودية عليه. كان عبارة عن رزمة من ورق البردى الأثرى متساوية الأحجام طولا وعرضا ؛ تقريبا فى حجم كف اليد الكبيرة، مربوط بشريط حريرى أحمر. نزعت الشيخة سعادة هذا الرباط، قلبت فى الأوراق بحركة من يفنط ورق الكوتشينه. الورق كله ملىء بالرسوم والنقوش، بعضها أشكال زخرفية ملولبة تتخللها شرط تشبه الأرقام، ورسوم لوجوه وسيوف وآنية ودوائر حاجة تهوس يا بوى ..

راحت ترص الورق على الأرض فى كومتين. فصلت كل كومة عن الأخرى، فإذا بمجموعة كثيرة الورق والأخرى أقل بكثير. محسوبك ـ لا أدرى لم ـ كان يعد الورق وهى ترمى به، فعرفت أن الكومة الكبيرة عددها ست وخمسون ورقة، تقريبا كعدد ورق الكوتشينة الجديدة ؛ أما الكومة الصغيرة فكان عددها اثنتين وعشرين ورقة، ورسومها تختلف عن رسوم المجموعة الكبيرة. فمجموع الورق كله ثمان وسبعون ورقة بالتمام يا خال .

صاح المشعرانى وقد اقشعر صوته :

ـ «حازم ! هل تتذكر ؟! رأينا مثل هذا الورق فى النمسا !! يوم زرنا العراف النمساوى ليكشف لنا عن حظنا فى ذلك المشوار المعقد المؤلم إياه وكنا متشائمين ! نفس هذه الرسوم ولكن على ورق حديث بمطابع حديثة وعليها أرقام لاتينية !!».

ظهر على حازم ومحمد بك كثير من الحرج ، وغمغم حازم :

ـ « نعم ! يبدو هذا ! أظن !».

قالت الشيخة سعادة :

ـ «هذا كتاب التاروت المصرى ! ورثته عن أجدادى ولكن الذى كشفه لى وعلمنى قراءته هو أستاذى العراف المغربى الحسين بن عزيزة لعلكم سمعتم به !!»

هتف حسن بك :

ـ «أنا قابلته شخصيا عند الملك الحـ ن ! تكلمت معه ! هو رجل مبروك وجهبذ من جهابذة قراءة الكف والفنجان فى العالم فكيف عرفتيه يا ستنا الشيخة ؟!».

قالت الشيخة سعادة :

ـ «أنا قابلته فى الحجاز عند أحد الأمراء وقام بيننا الود فى الحال حصل اتصال روحى عاجل ! دعوته إلى مصر ليزيدنى من علمه وحينما أورانى نسخة مقلدة من هذا الكتاب مطبوعة حديثا

تذكرت ما عندى وجئت به من صندوق عمى فكاد يغمى على الشيخ من شدة المفاجأة قال إنه الأصل المبارك الذى لم ينزع عنه سحره القديم إذ هو مرسوم باليد !! فما كاد يفك لى رموزه حتى صرت بعون الله كاتنى مؤلفته ومع ذلك فكل يوم أتعلم منه شيئا جديدا !! لقد ألفه أجدادى المصريون ليحفظوا فيه سر ما توصلوا إليه من تقدم وعلم وحضارة لكى يحافظ عليها أحفادهم !!».

أمسكت بالمجموعة الكبيرة لوحت بها :

ـ «هذا ما تقول به هذه الأوراق وهى المسماة بأوراق السر الأصغر !!».

منظرها يا خال وهى تتكلم عن الأوراق شارحة كل ما يتعلق بها بفصاحة وطلاقة لم يكن غريبا علىّ يا خال ، لم يدهشنى على الإطلاق يا خال ؛ فالمنظر مألوف لى تماما يا خال ؛ ومن زار معابد الفراعنة فى الصعيد فلابد أنه شاهد الكثيرين من أمثال الشيخة سعادة. تضم وفود السياح رجالا وسيدات من المثقفين المتعلمين تعليما عاليا؛ ومع ذلك يتلقفهم فلاح صعيدى لم يدخل أى مدرسة لا يعرف القراءة ولا الكتابة لكنه يشرح لهم معانى النقوش وصور الحوائط صورة صورة نقشا نقشا فى حدوتة متسلسلة مليئة بالمعلومات الثمينة المبهرة والأحداث التاريخية الكبيرة؛ فيستمع إليه المتعلمون دارسو التاريخ فى الكتب فلا يجرؤ أحدهم أن يتفلسف عليه قائلا كيف علمت هذا لأن الجميع يعلم أن هذا المرشد

الصعيدى الأمى قد حفظ هذه النقوش عن رواده الأوائل من أساتذة التاريخ وأضاف إلى ما تعلمه ما أنشأه خياله استكمالا وتصورا، فلماذا أفلح فى هذا يا بوى ؟ لأنه عشق هذه النقوش عشقه لما تنطوى عليه من وقائع وحواديت .. وهكذا بدت أختى سعدية يا خال . ها هى ذى أمسكت بالمجموعة الثانية القليلة الأوراق لوحت بها :

ـ «أما هذه الورقات فاسمها أوراق السر الأعظم !! أثبت فيها أجدادى ما سيقع فى الحياة وفى البلاد على امتداد واحد وعشرين قرنا من الزمان تبدأ بميلاد المسيح يعنى ألفين ومائة سنة ! مضى منها ألف وتسعمايه وواحد وتسعون فيبقى عشر سنين ! فكل ما حدث فى السنين الفائتة وما سيحدث فى السنين العشر الباقية مثبوت فى هذه الورقات !!»

بعينين ضيقتين سألها الحاج أحمد نوار الدين :

ـ «ولكن ما معنى التاروت ياستنا الشيخة ؟!»

بسرعة أجابت :

ـ «يعنى الطريق المصرى بالفرعونية يا مولانا !!»

ـ «أفادك الله !!».

ثم انكمش يستمع فى شغف ؛ واستدركت الشيخة سعادة:

ـ «بعضهم يقول إنها الطريق الملكى !!»

نظرات حسن بك تتسع ، تعتريه حالة من التحفز المتوتر ، حالة من يريد أن يعرف كل شىء دفعة واحدة وفى الحال . إذا به يا بوى يطرقع بأصبعيه صائحا:

«حلو ! حلو ! مهمتك الليلة يا ستنا الشيخة أن تكشفى لنا نبوءة أوراق السر الأعظم هذه ! نحن فى عرضك ! نريد أن نعرف ماذا سيجرى لبلدنا فى السنين القادمة !!»

رمقه محمد بك أبو شناف بنظرة فيها من الاستغراب والدهشة قدر ما فيها من فضول لمعرفة ما ستتنبأ به الشيخة سعادة. وحينما تقابلت نظرته مع نظرة حسن بك ظهر كأنهما متواطئان على شىء خفى مشترك بينهما، ثم اتجها بالنظر إلى الشيخة سعادة فى شغف واضح واهتمام كبير مغلف بالمرح. قالت الشيخة سعادة :

- «تريد أن تعرف السر الأعظم ؟!».

كانت لهجتها تعكس السؤال والجواب معا، كأنها تريد أن تقول له : أنت تريد ذلك وأنا أيضا أريده. ثم أمسكت بالمجموعة الصغيرة فأعادت النظر فى أوراقها واطمأنت إلى ترتيبها ثم وضعت الرزمة مقلوبة على وجهها.

المهرج

تمهلت برهة طويلة يا خال، قلبت خلالها نظرتها الثاقبة فى جميع وجوهنا، ثم رفعت الورقة الأولى. وقلبتها على ظهرها أمامنا، فإذا هى رسماية تكاد تكون طبق الأصل من ورقة الكوتشينة المسماة بالجوكر لولا اختلافات طفيفة جدًا يا خال. ربما اختلاف يد الرسام الحديث الذى شذب خطوطه من ظلال خطوط الرسام القديم: رجل كالبلياتشو، يقف فاتحًا صدره العريض مادًا إحدى قدميه إلى الأمام فى حركة شبه راقصة، الفخذان مفتولان مكتنزان بعضل رشيق وكذلك الساقان فكل ساق ملفوفة بما يشبه الجورب الواصل إلى الركبة تتدلى منه شراريب، كل ساق بلون مختلف عن الآخر، فى قدميه حذاء أشبه بحذاء الأطفال كل فردة مختلفة اللون عن الأخرى أما جسده القوى فملفوف بما يشبه العباءة مشغولة عند الصدر بالقصب والكلفة فى شريحة متعرجة تمتد من أسفل العنق إلى أسفل البطن، جانبها الأيمن أزرق، وكذلك جانبها الأيسر أما المساحة التى تغطى البطن فما بين الأصفر والزيتى، حتى الياقة التى تحيط بالعنق يتقاسمها اللون الأزرق والزيتى، ذراعاه أيضا كذلك، على رأسه غطاء أشبه بكلبوش

صوفى ذى أذنين طويلتـين مائلتين على أذنيه تبـدو كل منهما فى ميلها كرأس حصان صغيـر، اليمنى زيتية اللون واليسرى زرقاء، بقوة ظاهرة يمسك بيسراه عصـا من عصى الشرطة لكنها مغلولة إلى عنقـه، فى حين فرد كف يـمناه رافعا أصـبعـه السبـابة كمن يتشـهد على شفتـيه ابتسـامة عابثة لا مـبالية، وفى عـينيه نظرة مـرسلة إلى بعـيد فى تفـحص وإن أوحت بأنهـا تعـرف كل شئ سلفًا. قالت الشيخة سعادة مشيرة إلى الورقة.

- « المهـرج! الورقة الزائدة! غـير المحـسوبة لا رقم لهـا إذ هى موجودة فى البدء قبل الترقـيم! تطفو دائما فوق الأعداد! رغم أنها لا رقم لها بين الورق فإنها محسوبة فيه يحلو للكثيرين اللعب بها بل هى ورقة الحظ!! فى يمناه العصـا، رمز لقوة الردع والتاديب! وفى أصبع يسراه النذيـر والتحذير والوعيد!! أصـبع يسراه كانه يقول لنا ربكم الأعلى والعصا فى يمناه تقول هذه قوتى فاتبعونى لهذا فـهو مـهرج وهكذا كان الفـرعون قـبل أن يتعـرف قلب أحد أحفـاده على الواحد الأحد القهـار!! رغم أن الله قد أصبح سـاطعا فى السماء وفى الأرض ووسعت رحمته كل شئ وبيده الملك لا إله إلا هو فـإن هذه الصورة بقـيت فى الحـساب وإن كـانت بلا رقم بقيت رغم الحساب من قبل الحساب وفوق الحساب بقيت لأن ابن آدم جبلتـه الطغيان والتـهريج! بقى كورقة يـلعب بها أولئك الذين فطرت قلوبهم على القسوة والتاله الكاذب فى معاملة خلق الله كما يلعب بهـا الزمن صانع كل الأوراق!! اندسـاس ورقة المهـرج بين

الورق أمـر وارد على الدوام واندسـاس المهـرج نفسـه فى لحظة تاريخيـة فاصلة لعـبة خسـيسـة من لعب الزمن الخسيـس لكنها واردة بل هى فى كثير من الأحيان مرتـقبة!! ظله يبقى زاحفا أمام كل طاغـية ما بقى الـطاغية طاغـوتًا متـسلطا!! إنه ظل الدكـتاتور وجهه الآخر قرينه النقيض!! أرى فى الأفق ظل المهرج يفشو وهذا إيذان بقرب نهاية الطاغـية!! الطاغوت نفسه إذا استـمر سادرا فى غيه ربما انقلب إلى مهرج خطير ! ولـقد امتهنت كرامة النيل ، ألقى فيه بالروث، ركبه الكفرة الفجرة وتلك علامة الانهيار إلى حضيض الحضـيض والأفظع منه أن يتـخلى الطاغيـة باختيـاره عن العبء صراحة أو من وراء ستار وهذا يعنى أنه صـائر إلى رحيل حقيقى مفـاجيء كل الشواهد تشير بعـين قوية إلى قرب رحـيل الطاغوت واعتلاء المهرج سـرير السلطنة وحينئذ تموت البلاد ميـتتها الأولى فـالبلاد لا تموت بنكسـة أو هزيمـة إنما تبـدأ الموت حينمـا ينزوى المسئول ويظهر المهرج وقد ظهـر المهرج بالفعل فى الإذاعة واضعا ذنبه فى المصـيدة وفى الشوارع ظهر الـفيل فى المنديل والفلة فى القـانلة والبـغل فى الإبريق وكل ذلك يعـتلى غـداً سـرير السلطنة يصبح التهريج سيد الأخلاق يرقص السكارى فوق بركان الغضب المضـغـوط تحت طقاطيق الأرض فـاللهم لا نسألك رد القـضاء بل نسألك اللطف فيه !!».

ألقت بالورقة مقلوبة وتناولت ورقة أخرى.

الساحر

لوحت بالورقة فى وجوهنا كى نـراها جيدا، الرسم نفس المنظر الذى نراه دائما للساحر يا خال، أو الحاوى، هو أقرب إلى الحاوى يا خـال، بل هو الحـاوى بكل حـذافـيـره، رجـل ممسك بالعـصـا السحرية القصـيرة، أدواته موضوعة فوق منضدة صغـيرة أمامه: أربع كور، علبة مستطيلة، بوقان ..

قالت الشيخة سعادة :

ـ «الورقة رقم واحد : الساحـر! أول ورقة محسوبة فى أوراق السر الأعظم البالغ عددها اثنتان وعـشرون ورقة !! الساحر قديم الأزل كـانت له فى العـصـور القـديمـة مكانة مرمـوقـة فى قصـر الفـرعون وقـصور السـادة النجب، وقد تطور شـأن كل الأشيـاء فأصبح سلاحا من أسلحة العصر الناجحة فى التأثير على الناس!! الساحر بأبواقه وألاعيبه السحرية المبهرة أصبح ذا شأن عظيم فى عصرنا أصبحت له شاشة فضية فى كل دار كل فندق كل كوخ كل مخيم لسوف يلعـب فى السنوات القليلة القادمة أخطر أدواره على الإطلاق يذيع أنباء انتصارات السلطان الكاذبة يضلل الناس يخفى عنهم عـوراتهم العـارية يلهـيهم عنهـا ينسـيـهم أنفسـهم يجـتث جذورهـم من الأرض يستـأصل شأفـتهم يحـولهم إلى قطيع من الدهمـاء البلهاء المخـدرين لا حول لـهم ولا قوة ليـستـمر زبانيـة الجحيم سادرين فى غيـهم تباع الأرض من تحت أقدامهم بالجملة والقطاعى لـكل من هب ودب فـلا يعـتـرض أحــد ولا يأبه أحـد كالحمير تلقى إليها بالشعيـر فتأكل وتتبعك أينما ذهبت بها يصبح شغل الناس الشاغل هو استمـرار الجلوس أمام الساحر الذى يبث فى أفئـدتهم كل ما تبغـيه القوى الشـريرة بفعله ـ بفـعلها ـ يطرأ على البلاد رواج كاذب تكثـر الدراهم فى الأيدى وتنعدم فى الحال قيمتها يعز القوت يرخص الآدمى تتدهور الكرامة يتاجر الناس فى شرفـهم فى أعراضــهم فى دينهم فى تاريخ بلادهم تأكل الأم من فرج ابنتها يموت الشرفاء والوطـنيون كمدا وقهرا يرتع اللصوص والقوادون فى جميع الأروقة يعم الفساد يضرب فى نخاع السقف يدب السـوس فى أوصــال الأسس المتينة الراسـخــة يزلزلهـا، والساحر يعرض على الناس كل صنوف الفـسق والفجور بذريعة التنبيه والتسلية وهو فى الواقع يكرس لهـا تكريسا !! المستفيدون من انتشــار الفساد يكثـرون ومعفـرو جباهـهم تحت أقدام أثرياء النفط يكثـر عـددهم تحت راية الدين والـدين منهم براء!! يضـيع الفقـراء كل الضياع تنمحـى صورة الوطن من الأذهان من القلوب المرهقة!! التلاميذ فى المدارس يتعلـ ون العهر مبكرا لا يقوى المعلم

على منافسة الساحر الجبار لا يصبح ثمة من معلم يصبح الساحر نفســه بصندوقه الســحرى الصغـير ملاذا يصـبح أفيـونا إدمانا ترياقا أسود وحينئـذ تموت مصر ميتتها الثـانية، فاللهم لا نسـألك رد القضاء بل نسألك اللطف فيه!!».

ألقت بالورقة مقلوبة فوق زميلتها، وأمسكت بالورقة التالية لها.

الكاهن

مرسوم عليها صورة سيدة تمسك هى الأخرى بالعصا يا خال، لكن العصـا أطول من قامتهـا يا خال كالحربة، الأرض من تحـتها ضيقة يا خال، لونها فاتح تشـير المرأةبيدها اليمنى إلى الأمام، ثمة طاووس واقف تحت قدميها ككلب حـراسة، حاجة تهوس يا بوى، يمشى الطاووس بجـوارها فى نـفس الاتجـاه، المرأة ترتدى ثوبا أحمر اللون، بغـيـر كمين فـهى إذن عـارية الذراعين يا بوى وفى خصرها حزام أزرق اللون، أما لون وجههـا وعنقها وساقيها فلون السمن البلدى يـا خال، تغطى رأسهـا ـ فوق شعـرها المرتب حتى عنقها ـ طاقية تشبه التاج وما هى بتاج، لونه أخضر بغرة صفراء، ساقهـا اليمنى عـارية واليـسرى نصف مـغطاة بما يشـبه بقـايا جورب، يدها اليـمنى تشير إلى الأرض، المرأة جـميلة يا بوى يحلو الله أن تقـبلها فى جيـدها وعنقهـا وسمـانة ساقـها اليســرى التى انحسر عنهـا الثوب، قالت الشيخة سـعادة وهى تنقل بصرها بين الورقة وعيوننا الشاخصة:

- « الورقة رقم اثنين! ورقة الكاهن الأعظم هذه السيدة المسكة بهذه العصــا الطويلة كالحربة هى الأم والزوج والعشـيقة والأخت والابنة هى أيضا ذلك الطاووس الذى يحازى قدميها!! جسدها كما ترون يتفجـر بالأنوثة الطاغية الرزينة السهـتانة تلك هى مؤهلات الكيد العظيم إذ هى الفتنة والردع فى آن، بها صارت رمزا للكهانة للفجور فـى آن معا وذلك تبعا للـمناخ الحاكم ففى عصـر التهريج والفتنة يظهر وجهها الفاجر ينمو الطاووس حتى يطاول قامتها إذ المهرج دائما أبدا سعيد الحظ ولهذا فـورقته فى لعبة الورق تسمى بالمحظوظ!! ولأنه يعتلى الأريكة عقب فتـرة من الشدة والقهر فإنه يحظى بالهـتاف والتأييـد حتى ممن لا يحبـونه ولا يحتـرمونه! لا غرابة فإنه يترك لهم الحبل على الغارب! وغدا أو بعد غد تنفتح كل المنافذ على كل المنافـذ تسبح الأشيـاء فى الأشياء يمارس الجـميع الجنون فى لذة فائـقة تصيـر حرائر الوطن عاهرات تـتحكم المرأة الطاووس فى رقاب الرجال تمسك دفـة الأمور من وراء ظل المهرج باسمه تـبيح كل شئ تبيع كل شئ تطول العصـا الحربة فى يدها تصل إلى أبـعـد مكان فى قـلب العـبـاد تلك هى سنة الـضـلال والانحراف! لقد خلقت حواء من الضلع الأعـوج فى آدم كما تقول الأمثـال فاعوجاجـها منسوب لابن آدم وهى لا تطغى وتتجـبر إلا فى عصر يخلو من الرجال الحقيقيين يخلو من المعنى الكبير لكنها إن شعرت بالمعنى الكبيـر حولها مع ندرة الرجال فى نفس الوقت

صارت أعتى وأشـجع من بعض الرجال قدمت ما لا يـقدرون عليه إلا أن حسـاب النجوم والأفلاك يشـير مع مـرسوم الورق إلى أننا مقبلون على أيام بلا معنى فـلا مجال بالطبع لأى مـعنى والمهرج أول يمسخ لوجوده نفسه كل المعـانى كل القيم كل الـرجال كل الشجعان فاللهم لا نسألك رد القضاء بل نسألك اللطف فيه !!».

ورمت بالورقة وسط ذهول مطبق من الجميع .

المملكة

الصورة لامرأة أخرى يا بوى لكنها من طراز آخر تبدو كالملكة يا خال بل هى ملكة على رأسها تاج، قد جلست على كرسى العرش ممسكة بيمناها عصا الصولجان، تشير بأصبع يسراها إلى أعلى كأنها تقول إن الله واحد، رشيقة نحيلة الجسد يا خال لكن صدرها محدد تحديدا مثيرا بل إن بقعة سرتها بارزة تحت قميص أحمر، فتحة صدره مشغولة بكلفة صفراء، يلتف حول جيدها عقد من طابقين من فصوص لعلها من اللؤلؤ، للقميص كمان كاسيان حتى المعصم، الكم الأيمن أحمر والأيسر أصفر على أخضر، من حول الخصر النحيل ينساب ثوب سخى كثوب الزفاف، تتداخل طياته فى موجات. ما فوق الردفين المكتنزتين والفخذين يتداخل اللون الأخضر مع اللون الأصفر شاملا مسند الكرسى الأيمن، وما فوق الركبتين حتى الأرض يتداخل الأزرق الغامق مع الأزرق الفاتح منظر فى غاية الجمال يابوى، لا تقل لى الملكة نازلى ولا فريدة ولا نور ولا ناريمان ولا الشاهبانو التى نسمع عنها فى إيران، لا يا بوى، ولا حتى ملكة الإنجليز يابوى، حاجة تهوس

يابوى. قالت الشيخة سعادة وهى تجابهنا بابتسامة مشرقة فياضة بالذكاء اللامع فى عينيها.

ـ « الورقة الثالثة: الملكة ! ترون الحكمة والحشمة على سمتها ولذا لن يكون العصر عصرها إنما هو عصر الملكة الزائفة التى تمتطى ظهر المهرج يصبح الناس جميعا من تحتها حميرًا وحمارين!! الملكة الأصيلة جبلتها العفاف والملكة الزائفة جبلتها الإسفاف!! الملكة الأصيلة برقعها الحياء والملكة الزائفة لا برقع لها!! الملكة الأصيلة تحنو على شعبها والملكة الزائفة تمتص دمه!! الملكة الأصيلة لبست ذاتها يوم عدة الحرب خاضت بحار النار أوقعت بالقياصرة فى شر أعمالهم والملكة الزائفة عما قريب تخوض أنهار المال توقع بالسماسرة الجبابرة فى شر أعمالها هى!! الملكة الأصيلة مفطورة على العطاء والملكة الزائفة سوف تستلب الكحل من العيون !! كل الملكات لسن بقديسات هذا شئ بديهى معروف ولكن ملكة أصلية لديها بعض الانحراف خير ألف مرة من ملكة زائفة تتظاهر بفعل الخير والتقوى والصلاح فالملكة الأصيلة لديها من الروادع والتقاليد ما يحكمها أما الملكة الزائفة فليست محكومة بشئ سوى اهتبال الفرصة المتاحة للثراء واستعباد خلق الله وقانا الله وإياكم شر ما تخبئه لنا الأيام المقبلة من مفاجآت ضارية!!»

ورمت بالورقة فكأنها نزعت من دماغى قطعة من ظلام المخ رمت بها إلى بعيد. ذمة ودين يابوى إن هذه المرأة فيها سر إلهى.

الملك

الصورة كما هو واضح يابوى صورة ملك أو امبراطور يجلس على كرسى العرش آخر أبهة يابوى مرتديا التاج فوق رأسه ، ممسكا بيمناه الصولجان وبيسراه ما يشبه الدرع، أظنه الدرع ياخال، أشبه بالذى أراه فى تصويرة أبى زيد الهلالى وهو راكب على الحصان ممسكا بالسيف وبهذا الشئ الحديدى الذى يتقى به الضربات، لون التاج أزرق على أصفر على أسود على أحمر، وعلى كتفيه وشاح أحمر اللون على الذراعين بشريط أزرق فاتح على الذراع الأيمن. جزء من ظهر الوشاح أسود اللون يغطى الجنب الأيسر للملك أما بطنه كلها فعارية، وبقية الجسد ملفوفة بثوب أزرق فضفاض تمتد ذيوله على الأرض وينحسر عن الفخذين من فوق الركبتين حيث يتضح أن الركبتين ملفوفتان بلفاف يشبه جورب النساء أصفر اللون فاتح . أما الصولجان فلونه بين الأصفر والأخضر فى خطوط طولية وهو عبارة عن عصا تشبه الشمعة فى أعلاها بقايا شعلة لم تنطفئ لونها أحمر، وأما الدرع فلونه كريمي، قالت الشيخة سعادة:

ـ « الورقة الرابعة: الامبراطور!! عقدتنا الأزلية تختلط بدمنا منذ الأزل!! أزلنا الملكية لكننا لم نلغ الملك إنما غيرنا اسمه فحسب ذهب الملك فجاء الامبراطور يسعى لتوسيع ملكه ليشمل أمة محمد!! عيب المصرى منا أنه إذا اعتلى الأريكة صار امبراطوراً فى الحال ونسى كل شئ أمام ذلك الكرسى اللعين مغير النفوس والاحوال!! من يلبس ثوب الامبراطور ويجلس على كرسيه ممسكا بالصولجان لا يكون امبراطوراً صحيحا حتى لو امتلك الجيوش والاموال والأنصار والحاشية والأبهة إنما الأمبراطور الحق هو ما ترونه فى هذه الصورة يمسك الصولجان بيد ودرع الحرب باليد الاخرى: الحكم والمسئولية الشرع والقوة!! يقول الدرع فى الصورة إن الامبراطور فى حالة تأهب مستمر لأن ينزل الميدان بنفسه يخوض الحرب دفاعا عن امبراطوريته حتى لو مات فى سبيلها فالموت هنا شهادة وبطولة واستمرار للتألق والقوة أما من لبس ثياب الامبراطور فقد أمسك الصولجان بيديه الاثنتين والصولجان وحده ليس يحميه! يريد أكل الحلاوة بغير نار! يأكل الحلاوة والنار للمخاليق فسبحان الملك فمن يجعل من نفسه امبراطورا وهو ليس بامبراطور حقيقى شرعى يكون قد حمل نفسه مسئولية جسيمة سوف ينوء بحملها لا محالة كمن يحمل قربة مثقوبة تخر على دماغه!! يقول حساب النجوم وحساب الحياة وكل الحسابات إن القربة خرت كل مائها على دماغ الامبراطور الزائف فأصبح مبلولا وصبر الناس قد فاض مع مياه

هذه القربة المثقوبة!! لقد مات حلم الامبراطور وتدهورت أركانه فمات الامبراطور بالتبعية وهو الآن يجرى ويتنطط من حلاوة الروح وإن هى إلا ساعات ويلفظ بقية أنفاسه بفعل فاعل أو من تلقاء نفسه ! تقول الحسابات أيضا إن الناس لن تحتمل عهدين متشابهين فلا نفس الكلام ينفع ولا نفس الخطب تلهب الحماسة!! تشير الشواهد إلى أن القادم الجديد، وإن جنح إلى الترفيه ورخى الحبال وفتح المنافذ سوف يختار صورة جديدة للامبراطور الذى يكونه سوف يغير شكله فحسب سيكون امبراطورا من بين الشعب وباسم شعبى خالص لكنه سيكون أشد صلفا وغطرسة وتشدداً من أى امبراطور حقيقى لكى يقنع نفسه أولا بأنه على مقاس الكرسى وأن أحداً من رعاياه لن يستهزىء به أو يستهيفه سيجد نفسه مضطرا لإطلاق يديه فى البلاد قتلا وسجنا وتشريدا وتنكيلا، سيطيح بكل من يظنه خصما له فمن الصعب على المهرج أن يتصرف كامبراطور حقيقى يملك صفة العفو عند المقدرة والقدرة على زجر الصغار وردع الكبار بحسن السلوك ومثاليته سيظل دائما أبدا فى حاجة لتأكيد امبراطوريته يتلذذ بطعمها قدر الإمكان ولسوف يذوق حلاوة الكرسى بالطبع فيصير مستعدا للتنازل عن كل شئ والتغاضى عن كثير من الامور فى سبيل أن يظل امبراطوراً حتى لو استعان بقوة الشيطان !! فى عهده تموت كل الأشياء الجميلة الزهر والنهر ونسمة الدنيا!! يذهب من كان حكم باسم الفقراء يخلفه من يحكم باسم الأغنياء لكن من يظلم

الفقراء لا يكسب هذه سنة الحياة ولا أحد يملك لسنة الحياة تبديلا!! ما طار طير وارتفع إلا كما طار وقع ولسوف يقصف الله عمره لكن كرسى الامبراطور أبدا لا يبطل سحره فاللهم لا نسالك رد القضاء بل نسألك اللطف فيه!!».

ورمت بالورقة كأنها تستعيذ بالله من شرها يا خال.

الحكيم

الصورة مألوفة لى يابوى، إذ هى قريبة الشبه من تصويره رأيتها كثيرا فى كتب التلاميذ وفى المجلات يقولون إنها لأمير الشعراء أحمد شوقى، غير أن هذا الرجل عارى الصدر والذراعين بارز العضلات كالمصارع، يسند رأسه على يده اليسرى كشوقى بك بالضبط يابوى، ويندمج فى التفكير، مطلق اللحية، ولحيته مدببة بشعبتين، وعلى رأسه طاقية فى أعلاها مثلثات زرقاء وصفراء، يجلس على صخرة من صخور الجبل، نصفه الأعلى مغطى بشال كبير أزرق اللون فى أطرافه شراشيب صفراء، يمسك بيمناه عصا برأسين متقابلتين، كأنها تريد أن تقول: سكة الحكمة سالكة من الناحيتين، أمامه نسر رابض تحت قدميه كما لو كان هذا الرجل يشتغل مدربا لهذا النسر يابوى، وها هو ذا قد أمره بالقعود تحت قدميه صاغرا ففعل، ولابد أنه دربه على الرقص وعجين الفلاحة أيضا، النسر لونه أحمر على أصفر على أخضر غامق كلون صخرة الجبل..

قالت الشيخة سعادة :

ـ الورقة الخامسة : الحكيم! روح مصر الباقية ما بقى الدهر! لا يسخرن أحدكم من عيال مصر الذين يقولون: نحن الذين دهنا الهواء بالدوكو ونحن الذين عبأنا الشمس فى زجاجات فهذا القول فيه من الصحة نصيب كبير!! هاكم هذا الحكيم المصرى الذى فعل ما لايستطيع فعله أحد! فللإنسان أن يدرب القرد أو الفيل أو الأسد أو حتى التمساح لكن أن يدرب طائرا يخترق الفضاء فهذا هو المستحيل سيما وإن كان هذا الطائر نسراً. ولكن ها هوذا النسر يقعد بين قدمى الحكيم المصرى قعدة التلميذ المؤدب!! الحكيم المصرى لم يدربه بالقوة ولا بالسحر ولا بالفهلوة إنما دربه بالحكمة وهاهى ذى عصا الحكمة فى يمينه برأسين إن ذهبت هنا رأت وإن ذهبت هناك رأت يعنى عصا الحكمة صائبة أينما اتجهت أماما أو خلفا يمينا أو شمالا شرقا أو غربا!! ذلك هو صبر المصريين على البلاء. الصبر الذى يظنه الأغبياء تبلدا واستسلاما للعبودية! الصبر الذى بنى الأهرامات وامتطى النيل وشيد للعبادة بيوتا ذات عمد راسخة! الصبر الذى نقش على الحجر الصوان قصة الخلق والحياة قبل الموت وبعده! الصبر الذى حفظ الأجساد بعد صعود أرواحها إلى بارئها ! وهو صبر من الحكمة وحكمة من الصبر فإن رأيتم المصرى يمشى لاهيا خالى البال غير معنى بمن يركبه من يمص دمه من يستعبده فاعلموا

أنكم مخطئون إن تصورتموه هكذا لأنه فى الواقع ويعرف كل شئ يدرك كل شئ إلا أنه حكيم طويل البال جبلته الصبر على الزرع حتى ينمو وعلى الأرز حتى يستوى!! كم فنيت أمم وبادت شعوب وزالت دول إلا مصر بقيت منذ بدء الخليفة وتبقى وحتى يرث الله الأرض ومن عليها بفضل هذا الحكيم الشارد فى ملكوت الله ممسكا بعصا الحكمة يدرب بها النسور الجوارح وما أظن حكامه أشد بأسا من النسور! لقد صبر عليهم وروضهم حتى فنوا جميعا وبقى هو !! يقول لى الورق إن البلاد فى قابل السنين تجتاحها الرياح الهوج من كل ناحية من الداخل ومن الخارج تقلب أعاليها فى أسافلها ترفع الخسيس تخسف الأصيل تشعل النار فى الأخضر واليابس فكأن القيامة قامت فأذهلت كل مرضع عن رضيعها فجرت الأرض بالحمم ولن ينقذها فى النهاية سوى حكمة هذا الحكيم الذى نصت عليه وسجلته خطوط الأولين فى هذا الورق فاللهم لا نسألك رد القضاء بل نسألك اللطف فيه!!»

ورمت بالورقة كأنها تنفض يدها من ذنب تبرأت منه.

العاشق

الصورة واضحة يا خال: هذا عاشق ومعشوقته يقفان معا فى خلوة. فتى وفتاة أجمل من بعضهما والله يابوى، يقفان متجاورين متقابلين فى آن معا. يمناها فى يمناه، يسراها على صدره ويسراه على ظهرها. هى ترتدى فستانا أزرق فوقه بطانة حمراء كالمعطف مفتوحة يبدو من الفتحة قميص حريرى رقيق أصفر اللون يبرز صدرها فى كرتين متجاورتين، شعرها مصفف إلى الوراء كالوشاح الأسود أما الفتى يابوى فيرتدى ثوبا يشبه الفستان أزرق اللون على كتفيه ظلال حمراء، يصل إلى ما فوق الركبتين حيث يبرز من تحته سروال حابك على الكاحلين، فى قدميه حذاء أحمر اللون كالسروال، فوق رأسيهما يابوى، يحلق ذلك الطفل ذو الجناحين أنت تعرفه يابوى فلابد أنك شاهدته كثيرا مرسوما على دائرة ناموسية السرير يمسك بيديه نبلة يسدد منها سهما فى اتجاه رأسيهما وإذ هما فى هذه الخلوة يا خال يتسلل نحوهما رجل خنيس ينضح شكله باللؤم والخسة والتآمر، شكله غير مريح يا خال، بلا رقبة، رأسه مغروسة فى كتفيه الضيقتين عليه

طاقية كطاقية الخفراء مكبوسة فيه، يرتدى ثوبا أحمر اللون كالدم بكورنيش أزرق، فوقه عباءة برتقالية اللون تخفى ذراعيه فلا يبين منهما سوى يدين، اليسرى تستند على عصا طويلة رفيعة، واليمنى تشير بأصبعها السبابة نحو الفتى والفتاة فى توعد ولوم وتهديد، ويظهر يا خال والله أعلم أنه أب الفتاة جاء يضبطها فى هذه الخلوة المحرجة..

قالت الشيخة سعادة :

ـ «الورقة السادسة: العاشق! العشق مكتوب علينا وهذه نعمة من نعم الله لا يمن بها إلا على عباده الصالحين الأتقياء! قلوبنا والحمد لله مفطورة على الحب والحب هو باب الحياة وهو الماء الذى يرويها يجعلها تورق تخضر تثمر تعطى!! لكن الله تعالت حكمته ابتلانا دون خلقه جميعا بالعزول لابد من عازل يبعثر القلوب يشتت الحبيبين يفرق بينهما كغراب البين إن لم يكن أبا أو عماً أو خالاً أو أخا أو أما أو ابن عم أو ابن خال فحاسد حاقد محروم من الحب غصبا عنه يا ولداه يطلب أن يسرى الحرمان على غيره إشفاء لمرض فى قلبه!! من تراه يكون مسئولا عن تجريم الحب وتحريمه فى بلادنا !! أى شيطان أسود القلب أصاب نفوسنا بالعطب حتى أصبحنا نقف لكل حبيبين بالمرصاد !! أغلب اليقين أنه جاء من القبائل وخرافة الأنساب التى ظن الرجال الواهمون أنهم قادرون على حصار الأرحام حفظا لها مع أنه لا

حافظ للأنساب والأرحام سوى الأرحام نفسها إذ هى مجبولة على الانغلاق من تلقائها دون غير المرغوب غير الجدير غير الشرعى فما بالك بعد الوعى والتربية الصحيحة والثقة فى الأنثى باعتبارها أصل الحياة؟! يقول الورق إن العزول الذى ابتلينا به قد تجدد هذه الأيام فى عزول أكبر لا قبل لعاشق باحتماله: فمن ذا الذى يستسلم اليوم للحب ـ حتى ولو كان مباحاً ـ وهو يعلم أن لا جدوى منه ولا نهاية لطريقه المحفوف بالصعاب والأشواك ؟! من ذا الذى يجرؤ على المضى فى طريق الحب الصادق النية وهو لا يدرى أن يبيت ليله ولا أين توجد لقمته ؟! هج الشباب وطفش إلى بلاد المال يطلب مسكنا ومركبة وهدمة ولقمة فلئن أغاضت عليه بلاد المال فتاتها الكثير نقلته إلى دنيا غير الدنيا أنسته الحبيب الأصيل وضعت نصب عينيه تطلعا جديدا امرأة سلعة لا حبيبة ولا قريبة!! وغدا يرحل كل الشبان لا يبقى فى البلاد سوى العجائز والأرامل والعوانس الجميلات المائسات البائسات لا يبقى على المداود إلا شر البقر!! تتعب البلاد فى الخلفة والتربية لكى ينتفع غيرنا بفلذات أكبادنا !! وقديما قيل لجحا أين وطنك يا جحا؟ قال هو مؤخرة بقرتى!! فلا يغرنكم إذن قول القائلين من المغتربين وراء المال إن الوطن ساكن فى قلوبهم أبد الدهر مهما غاب عنهم [illegible] كلما غاب عنهم !! لا ! ربما كانوا صادقين لكن الأصدق منهم [illegible] الزمن القائلة بأن البعيد عن العين بعيد عن القلب يعنى أن [illegible] المال شاء هؤلاء أو أولئك أم أبوا استأصلت شأفتهم من أرض

الوطن فلئن عادوا إليه فى خريف العمر متخمين منعمين فى رغد من العيش فإنهم محض سكان لا مواطنين!! لكل قاعدة استثناء بالطبع لكن المرئى لنا دائما أن من يكسب المال من بلاد أخرى ومن طرق سهلة أو ملتوية أو غير مشروعة فإن المال دائما يباعد بين قلوبهم وقلوب حتى ذويهم فما بالك ببنى وطنهم !! حينئذ تموت مصر ميتتها الثالثة فاللهم لا نسألك رد القضاء بل نسألك اللطف فيه!!».

ورمت بالورقة فى هدوء وحنو كأنها مستمرة فى مناخ العشق وبنفس الهدوء تناولت الورقة التالية.

العربة

الورقة يا خال مقسومة إلى نصفين بالعرض. النصف الأعلى مبروز بما يشبه ستارة المسرح المفتوحة، وقد وقف فى وسطها ـ كأنما على خشبة المسرح يا خال ـ رجل يشبه القائد قوى البدن مفتول العضل على صدره رسم يشبه الدرعين فوق الثديين من الواضح أنهما جزء من تفصيلة البدلة التى يرتديها وهى أشبه ببدلة نابليون بالضبط كما أتذكرها فى كتب التلامذة وعلى كتفيه نجمتان كل نجمة عبارة عن دائرة صفراء اللون ببرواز دائرى أزرق كلون الكمين. يتوسط الدائرة شكل دقيق يشبه الهرم. أما البدلة فأعلاها أزرق اللون وأسفلها أحمر فاتح، ومن تحت شكل الدرعين الصغيرين اللذين هما جزء من القماشة ينحدر مثلث أصفر اللون بداخله رقوش مزرقة، يغطى منطقة السرة كلها. شعره كشعر الأنثى منسدل على كتفيه لكنه يلبس فوق شعره هذا طاقية تشبه الطاقية الورقية التى تباع للأطفال فى الموالد. حافتها العليا على شكل مثلثات متجاورة. ذراعه الأيمن مثنى ويده على خاصرته أما ذراعه الأيسر فيمسك بعصا صغيرة شكلها يشبه

ريشة الكتابة وسنها يبدو من بعيد كأنه شعلة، ولونها أحمر فاتح على وجهه عزم وتصميم وإصرار فيما أطلق عينيه بالنظر إلى بعيد. حاجة تهوس يا بوى..

أما نصف الورقة التحتى يا خال فتحتله عربة يجرها جوادان عفيان كل منهما يمضى فى وجهة مختلفة، أى والله يا خال، حيث يجنح الجواد الأيمن إلى الجهة اليمنى، ويجنح الأيسر إلى الجهة اليسرى، غير أنهما ليسا منطلقين إنما يمشيان فحسب فى خطو منتظم متناسق، كل منهما يمد لاقدم اليمنى فيما انكسرت لها اليسرى. الجوادان لونهما أصفر أما العربة فلونها أزرق ومقعدها أحمر فاتح. فبدت الصورة يا خال وكأنما القائد واقف فى شرفة قصره يرقب العربة التى صارت تحت بصره تماما..

قالت الشيخة سعادة:

ـ «الورقة السابعة: العربة! ها أنتم ترون القائد الحكيم واقفا فى شرفة القصر وقد انزاحت عنها وعنه الستار يمد بصره إلى بعيد يكاد يعانق ببصره حدود الوطن يرقب من قد تسول له نفسه الاقتراب من حرمةالحدود المحمية! ذلك واجب لابد منه إذا ما قام وطن فلابد لكل وطن من قائد لابد لكل قـ[illegible] من هذا الواجب وإلا ما كان قائدًا!! بعصا الحكمة هذه يوجه هذه العربة إلى حيث يفتدى الوطن!! فى الصورة عربةواحدة لكنها بحركة الجوادين مهيأة للسير فى هذا الإتجاه وذاك معا!! حكمة الأولين أتت بورقة

لعربة بعد ورقة العاشق مباشرة فى الترتيب لأن الأمور هكذا مرتبة: الوطن موطن العاشق وعشقه! عشق العاشق للمعشوق هو أغنية المواطن للوطن حرارة العشق هى نار القتال فى سبيل الوطن قلب العاشق ومنزله العامر!! العربة عند أهلنا القدامى لم يكن لها إلا وظيفة الجرى إلى الدفاع لكننا يا ألف حسرة لم نقرأ هذا الورق فجاءنا قائد غير حكيم توفرت له العربات بكل أنواعها إلا عربة الحكمة لم تتوافر له فأوكل بالمهمة أهل العز والرفاهية الذين أرادوا اغتصاب كل شىء ظنوا الدفاع عن الوطن نزهة يعودوا منها بمغنم شخصى ظنوا الدفاع عن الوطن يعنى الدفاع عن الإمبراطور فقط وحماية حياته وحده فكلهم مجند للبحث عن أعدائه يؤلفون له الأعداء من صنع خيالهم وفى هذا السبيل يقضون على كل من لا يروق لهم أو لا ينضوى تحت لوائهم حتى صار الأمن يعنى أمنهم الشخصى والجميع تبعا لذلك أعداء لهم فأوقعهم الله فى وحل شرورهم لكن العدو حصد فلذات أكبادنا ونور عيوننا وعتادنا وأرضنا وسماءنا!! ولقد يجىء غدًا من يستفيد من الدرس المؤلم فيرد للوطن بعض هيبته المفقودة لكن الواقع ينذرنا بأن القريبين من الكرسى ليسوا من خيرة الرجال وإن كانوا ملء هدومهم ومراكزهم وملء السمع والبصر هكذا شفناهم، عرفناهم. لسعت ظهورنا أسواطهم، حولونا إلى عبيد أذلاء فرقوا بين المرء وبنيه بالرعب بالخوف جعلوا من المرء مخبرا على أمه ! إنقسم المرء على نفسه أضعفوا الناس قتلوا فيهم روح المحبة روح العشق لوطن

ملأوا الهواء بالأكاذيب وهذا ليس من شيمة الرجال !! غداً ينزاح الكابوس فينطلق المارد الحبيس لا ليصنع مجدا بل ليعب من الحياة يغنى للفوضى وهو معذور إلا أن هذا هو ما يرجوه أشباه الرجال الذين يتأهبون اليوم للوثوب على الكرسى فمما يوافق هواهم أن يلهو الجميع فى العب من الحياة بأثر رجعى لينصرفوا هم إلى تثبيت ملكهم بإرضاء القوى الأجنبية فبقاؤهم على الكرسى مرهون برضاء القوى صاحبة المصلحة فى خير بلادنا!! يقول الورق: أفيقوا أيها القوم واقرءوا هذا الرمز لتعرفوا أن كرامتكم مرهونة بكرامة هذه البلاد التى تأويكم وتستر أعراضكم وترويكم بنيلها وتدفئكم بشمسها وأن كرامة هذه البلاد مرهونة ببقائها قوية ذات بأس وهيبة وأن هذه الفترة مشروطة بقائد ممسك بعصا الحكمة وعربة حرب تجرها خيول عفية!! يقول الورق هذا من عصور طويلة مضت لكننا قد حيل بيننا وبين الأصول فباتت أقدامنا على سلم النزول هابطة فاللهم لا نسألك رد القضاء بل نسألك اللطف فيه!!». استقرت الورقة فوق زميلاتها.

العدالة

فى الصورة يا خال امرأة ذات صدر ملآن بثديين متخمين بالأمومة يا بوى، يشعر المرء أمامهما بالطفولة يا خال، لكنها عمياء يا بوى، وملامح وجهها فى غاية البراءة يا بوى، تضع على رأسها طاقية صفراء اللون بظلال مزرقة تشبه شكل الهرم، وخصلات من شعرها نافرة في فوضى متسقة، ترتدى ما نسميه اليوم بالبلوزة؛ نصف كم زرقاء اللون على كتفيها شارتان صفراوتان برقوش مزرقة، أما لون بشرتها وساعديها فلون الزيت الفرنساوى تقريبا يا بوى، من تحت الإبط الأيمن ـ مع استدارة الخصر ومن منبت الثديين المتكورين تحت الثوب ـ تنساب ملاءة حمراء اللون تلف بقية جسدها، تمامًا كبنت البلد المصرية القديمة يا خال حينما تترك الملاءة اللف تنزلق عن كتفيها فى إهمال لتبرز كنوزها المستورة، لكن ساقها اليمنى بارزة من الملاءة، ملفوفة فى جورب يميل إلى الزرقة، وفى قدميها حذاء أصفر اللون، أما ساقها اليسرى بقدمها فمختفية تحت الملاءة يا بوى، تمسك بيدها اليمنى سيفًا مرفوعًا إلى أعلى، وبيدها اليسرى ميزانًا معتدل الكفتين..

قالت الشيخة سعادة:

ـ «الورقة الثامنة: العدالة!! السيف فى يمناها وفى يسراها الميزان متوازن الكفتين: القوة والعدل! فلا عدل بغير قوة تسنده تفرضه، لكنها كما ترون عمياء! يقول ما بينى وبين الورق إن عماء العدالة يأتى حينما يرغمها الإمبراطور على العمل لحسابه الشخصى تحكم بما يراه هو على من يعاديهم هو بالحق أو بالباطل!! ولقد تحققت نبوءة الورق منذ سنوات قليلة يوم هجم البلطجية المدعومون بقوة الإمبراطور على كبير القضاة مشرع القوانين فضربوه فوق منصة الحكم ضربًا مبرحًا أهانوه أهدروا كرامته دهوروا كل هيبة القضاء إنتفت العدالة أصيبت بالعمى ومن غد يسوء الأمر أكثر فاكثر فالمحظوظ الذى سيرث العدالة مفقوء العينين جاهزة سوف يلوى عنق الميزان يحرف سيف القوة ليصبح مسلطًا على رقبة العدالة ذاتها فتنفتح السجون تبتلع الصالح مع الطالح العاطل مع الباطل تحتجز اللصوص الصغار سارقى طعام يومهم لتخلو الساحة لكبار كبار اللصوص سارقى الأقوات والمصائر والأحلام والأفراح والدول يتوه فى المعمعة كل الأبرياء ينمحى صوت الحق تموت روح المقاومة وحينئذ تموت مصر ميتتها الرابعة لكن يبقى فى الجسد ذبالة نبض يغذيها زيت من عرق الفلاحين والصنايعية وصغار الموظفين الشرفاء يبقى الأمل معقودًا على قلة من حاملى ميزان العدالة ممن جرى فى

عروقهم سر مصر ذات الأرواح السبع فاللهم لا نسألك رد القضاء بل نسألك اللطف فيه!!».

ورمت بالورقة فى شىء كالياس يا خال، وأمسكت بالورقة التالية ولوحت بها فى وجوهنا بتمهل يعطينا جميعًا فرصة تأملها.

الناسك

صورة رجل عجوز كحكوح. شكله يا بوى أقرب لشكل قسيس، يرتدى جبة مقفولة تلف جسده من رقبته إلى قدميه، لها زنط مثل القرطاس يمكن لبسه فى الرأس لكنه مطروح على كتفيه أما الرأس فعارية صلعاء من الوسط كجزيرة بيضاء تحيط بها دائرة من الشعر تغزر في مؤخرة الرأس تخف فوق الجبهة فكأنه يلف حول رأسه حبلا أسود، الوجه مشطوف بفك مستطيل يختفى تحت لحية منسقة قصيرة الشعر، أنفه دقيق وفي مستوى الجبهة بالضبط لا بروز له، عيناه ضيقتان كليلتان تدققان بوهن في البعيد، يده اليمنى ممدودة بفانوس منير، ويده اليسرى تتكئ على عصا، الجبة لونها بنى فاتح والعصا زرقاء اللون وكذلك الفانوس..

قالت الشيخة سعادة:

ـ «الورقة التاسعة: الناسك!! يمر على البلاد خريف كخريف عمر هذا الرجل الفاقد الهدف فى شيخوخته الحائرة تنحنى قامة

الوطن!! ها أنتم ترون أنه لا إشارة لليل أو الظلام فى الصورة بل إن الفراغ المحيط به كله أبيض فيما المصباح مشتعل مع ذلك فالمصباح إذن إشارة إلى ظلام طغى على نهاره حجب عن بصره كل مرئى!! شىء كهذا سوف يحدث للبلاد فى قابل السنين حيث تكثر الأموال فى أيدى البعض وتنعدم فى أيدى الكثيرين فمن يكثر المال فى أياديهم ويصبح لا عمل لهم سوى الإنفاق تفقد الحياة معناها ومن ينعدم المال فى أياديهم ويصبح لا عمل لهم سوى البحث عنها بغير طائل تفقد الحياة معناها عندهم أيضا فما أسرع ما يشعر هؤلاء وأولئك بخريف الحياة بغضب الله إذ يصيب البلاد بمن يتحكم فى مقدراتها دون قدرة على بعث الربيع والخصوبة فيها!! يلجأ الناس إلى التنسك فى ظلام البصيرة فكأن التعبد مصباح يستهدون بنوره العليل نحو الهداية تصبح العبادة هدفا وحيدا فى الحياة لأنهم جميعا بلا هدف وما هكذا أرادت لهم السماء العادلة فقد أمرنا الله بعبادة كأنها العمل وعمل كأنه العبادة!! يجىء على الناس يوم لا يجدون فيه ما يفعلونه يحولهم الساحر ذو الشاشات الفضية إلى نسخة متكررة من كائن لا حضور له ولا أثر يشعر الناس بالضياع التام!! ولما كان الإنسان مجبولاً على أن يفعل شيئًا يحقق به ذاته فلسوف تتجه الأغلبية العظمى إلى الإغراق فى العبادة لا بدافع من قوة الإيمان بل لمجرد تحقيق الذات على نحو من الأنحاء!! فى غد يخرج دين الله عن

هدفه السامى عن طريقه الفعال يصبح ميدانًا للصراع لاستجلاب القوة لاستدرار المال باسم الله يتقاتل المسلمون يعم الخراب وسط برك من الدم ومستنقعات من الجيف وحينئذ تموت مصر ميتتها الخامسة فى خريف أجرد بلا ملامح يحيل الوطن إلى عجوز كليل البصر محنى القامة يتوكأ على عصا يبحث فى ضوء مصباح شاحب عن حقيقة ضائعة وهدف مفقود فاللهم لا نسألك رد القضاء بل نسألك اللطف فيه!!».

ووضعت الورق بهدوء متجاهلة امتعاض محمد بك أبو شناف، وانذهال الحاج أحمد نوار الدين السنى، وولع حسن بك بما يسمع.

عجلة الحظ

عجلة كعجلة العربة الكارو بالضبط يا بوى، منصوبة بين قائمين من الخشب لهما جذور ضاربة فى الأرض متشعبة كجذور الشجر، للعجلة يد معقوفة يمسك بها ـ بكلتا يديه ـ رجل أشبه بالملاك الطائر البرىء يا خال، عارى الجسد إلا من إزار أزرق اللون يلتف حول سوأته، وقد نبت له فوق ظهره جناحان أشبه بفروة شعر الخروف يا بوى، وها هو ذا منهمك بكل قوته فى تدوير العجلة ذات الإطار الأسود؛ وقد ركب فوق إطار العجلة فتاة ممسكة بشاب مذعور هابط مع دوران العجلة، يده اليمنى متشبثة

بيد الفتاة، ويده اليسرى طليقة فى الهواء ممسكة بقبعة تكاد تطير فى أسفل العجلة ـ قريبا من الهاوية يا خال ـ رجل ساقط برأسه فى الهاوية قدمه متشبثة بالعجلة، ومن فوقه هيكل رجل آخر ألقى به دوران العجلة إلى الفراغ فتشبث بهذا الفراغ الساقط تحته. حاجة تهوس يا بوى....

قالت الشيخة سعادة:

ـ «الورقة العاشرة: عجلة الحظ!! هذه هى الحياة كما ترون دنيا دوارة كما الكرة الأرضية من يكون فى القمة يصير بعد قليل فى الهاوية يوم لك ويوم عليك فلو دامت لغيرك ما وصلت إليك إلا لكى تتخلى عنك بعد حين لكن أحدًا لا يتعظ!! من يرى نشوة الراكب فوق القمة وزهوه وفرحه تصدمه رؤية المتهاوى فى القاع مدحورًا تعيسًا!! يقول الورق إننا يجب أن ننتبه إلى هذه الحقيقة هذا المصير حتى لا يستخف الطرب من فوق القمة فيطغى ويتجبر عليه دائمًا أن يتذكر أن الركوب على القمة إنما هى برهة من الزمن لحظة خاطفة مهما طالت لعلها الوهم بعينه أما الحقيقة فهى السقوط إلى الهاوية حيث ينتظرنا فى القبر ما ينتظرنا من عذاب أليم لا ينجو منه إلا من ظل دائمًا أبدا يتذكر المصير النهائى يحسب حسابه بالعمل الصالح فاللهم لا نسألك رد القضاء بل نسألك اللطف فيه!!».

وضمت الورقة إلى أخواتها.

القوة

الصورة لأسد هصور كما يقال يا بوى، شكله مخيف. يكاد يشبه الحصان فى حجمه وقوته يا خال، فى وضع هجوم. ذيله طويل مرتفع لأعلى ومقوس كعلامة الاستفهام. وهناك رجل يماثله فى القوة، مبروم العضلات عارى الجسد إلا من غلالة تحيط خصره القوى، وفى وضع صراع مع الأسد. لا يا بوى هو ليس كمحمد الحلو فى السيرك القومى، فمحمد الحلو مدرب للأسود بالفعل والأونطة من بعيد لبعيد وفى وجود من يقفون قريبا منه فى استعداد لضرب الأسد بالنار أو بالسيف إذا قل عقله وهجم على مدربه. أما هذا الرجل يا بوى فإنه يأخذ الأسد بالباط جسدا لجسد قوة لقوة، وقد أمسك بذراع الأسد وثناها على فخذه يكاد يقطمها قطم الخيارة، والأسد رافع رأسه فاتح فمه يجأر بالصراخ. شعر رقبته الكثيف مهوش متهدل مما يدل على أن الأسد حالته كرب والله يا بوى..

قالت الشيخة سعادة:

ـ «الورقة الحادية عشرة: القوة!! هذه الورقة يوجهها التاروت المصرى لكل متجبر متسلط على الشعب المصرى لكل مزهو بقوته المأخوذة من قوة الكرسى أو المال أو العزوة!! يقول الورق. هذا هو الشعب المصرى فاحذروه ثم احذروه ثم احذروه لا تغرنكم القوة التى منحت لكم فإنه فى الأصل صاحبها مانحها لكم فإياكم إياكم أن تغتروا بها تقلبوها عليه فلو كان الواحد منكم أسدا كهذا الأسد

فالشعب كهذا الفارس الجبار يستطيع أن يلوى ذراعه هكذا يكسرها فوق فخذه يسلبه قوته يجعله غذاء لأمثاله من الوحوش الضارية الشاردة إن المصرى الذى أنشأ هذه الأهرامات وهذه المساجد وهذه الكنائس وهذه الفدادين الزراعية وركب فوق النيل أمسك بلجامه لقادر على ردع كل متغطرس مزهو بقوته!! يقول الورق إن هذا الأسد هو كل قوة غاشمة والرجل القوى كل قوى الجماعة تختزنها مضغوطة مقهورة لتصبها فى واحد يفيض به كيل الهوان الجماعى وما دام الورق قد أثبت هذه الصورة على هذا المرسوم فلابد أن شيئا من هذا سوف يحدث فى السنين القليلة القادمة فاللهم لا نسألك رد القضاء بل نسألك اللطف فيه!!».

وفيما كانت ترمى بالورقة يا خال، لاحظت أن ابتسامة شبه ساخرة قد انطبعت على وجه محمد بك أبو شناف إلا أنها كانت ترتعش بالخوف يا بوى لا أدرى أمن رهبة الكلام أم من ذنب ينتوى فعله عما قريب، صار ينظر لحسن بك من تحت لتحت كأنه يتهمه بالتآمر عليه؛ وكانت نظرة حسن بك التى رد بها عليه يا خال كأنها تقول له: اصبر فإن الله مع الصابرين..

المشنوق

حاجة تهوس يا بوى: خشبة المشنقة ممدوة على جذعى نخلتين طويلتين، والعشب الأخضر يملأ الأرض. رجل معلق فى حبل المشنقة لا من رأسه يا خال بل من إحدى قدميه، تمامًا

كالذبيحة يا بوى فى سيبه الجزار؛ رأسه غاطس فى العشب، قدمه اليمنى مربوطة مكسكرة فى خشبة المشنقة. أما قدمه اليسرى فسائبة، ويظهر يا خال أنها مقطوعة حتى الساق، حيث لا يظهر منها سوى الفخذ. يرتدى لباسًا مكونا من قطعتين: قميص أخضر اللون على صدره كلفة صفراء مشرشرة كالزقزاق، وسروال أحمر اللون ، ياقة القميص حمراء حابكة حول رقبته، الرأس واضح أنه ميت مغلق العينين شعره الغزير ـ الأحمر اللون كذلك ـ متهدل على جبينه الملتحق بالحشائش الخضراء..

قالت الشيخة سعادة:

ـ الورقة الثانية عشرة: المشنوق!! هكذا تكون شخصية المواطن المصرى الحق فى القريب العاجل كما يحدث دائمًا حين تتفتح البلاد لكل مغامر أفاق مصاص دم من نفاية العالم وهذا ما يتنبأ به الورق للسنين القليلة القادمة يأتى للبلاد جحافل للنصب والسلب وسط زفة هائلة يقيمها المنتفعون يباركها الجياع الواهمون يصبح ابن البلد معلقا كالذبيحة فى مشنقة من نخيل بلاده الذى جف وفوق عشبها الطرى الأخضر المرتوى بعرق الذبيحة وحدها!! أموال النفط سوف تعيث فسادًا فى البلاد تصل إلى أيدى االتجار الجشعين إلى السماسرة الوكلاء أهل الخور المستعدين لبيع كل شىء تعز السلع تذهب إلى القادرين على ثمنها يصبح المواطن المسكين مستباح الجسد والكل يثرى على حسابه!! المثل الشعبى المصرى ما كذب حين قال: كل واحد معلق من

عرقوبه! هذه الصورة ترجمة لهذا المثل كما أن المثل فى الأصل ترجمة لها ومعناه أن كل واحد من الشعب يصبح مسئولا عن نفسه حين تنفض الحكومة يدها من جميع مسئولياتها تجاهه تتركه غذاء للغربان وأكلة لحوم البشر تبقى سادرة فى غيها ناسية أنها بدونه لن تستطيع العيش فى رفاهيتها فالمتكئون فى الأرض لا يقدرون على صنع رفاهيتهم لوحدهم ما لم يكن هناك من يهيأها لهم ومن هنا فالحكمة الكامنة وراء هذه الورقة على هذا المرسوم تقول إنه على الباغى تدور الدواير ولابد أن يجىء الدور على المتكئين فيها ليعلقوا من عرقوبهم هكذا تأكلهم طيور جارحة تجذبها من بعيد رائحة الجيف فاللهم لا نسألك رد القضاء بل نسألك اللطف فيه!!».

وسقطت الورقة من يدها دون إرادة منها، فيما نكس محمد بك أبو شناف رأسه فى الأرض شاحبا متفكرا، فى حين راحت نظرات الحاج أحمد نوار الدين السنى تتقافز بينه وبين حسن بك فى أشعة من الشقاوة وحب الاستطلاع الجارف وإن بدا ذلك فى صورة مرح جميل كمرح الأطفال الغفل الأبرياء.

الموت

هيكل عظمى كامل لجسد آدمى، نفس الجمجمة التى نرى رسمها دائمًا يا خال كعلامة على الموت. وهكذا بقية الهيكل العظمى بالرقبة والقفص الصدرى والذراعين والإليتين والفخذين

والساقين، مجرد عظام كالعصى الناشفة لكن اليد اليمنى ممسكة بما يشبه المنجل، شكل بين المنجل والمنقرة إذ أن يده الخشبية طويلة كيد المقشة طول قامة الرجل، لون الهيكل العظمى أحمر، وكذلك لون يد المنجل، أما سلاحه فلونه أزرق. الهيكل العظمى واقف منفرج الساقين جدا، والأرض من تحته حمراء كلها تلال، لكن منظر الهرم واضح بين ساقيه يمتد خياله الأحمر اللون خلفه كجدار أقل احمرارا، المدهش يا خال أن رقم الورقة ثلاثة عشر وأنا أعرف يا خال أن الكثيرين من كل أنحاء العالم يتشاءمون من هذا الرقم؛ أفيكون هذا التشاؤم راجعا لهذه الورقة يا بوى؟ أنا شخصيا أظن ذلك يا خال فهذه الورقة قديمة جدا يا خال..

قالت الشيخة سعادة:

ـ «الورقة الثالثة عشرة: الموت!! من هذه الورقة ارتبط هذا الرقم بالتشاؤم يقول مرسوم هذه الورقة هاكم منجل الموت يترصدكم ليحصدكم جميعا لا يفرق بين أمير وخفير بين ملك ورعية يقول انتبهوا دائما يعنى اعملوا لآخرتكم كأنكم تموتون غدا واعملوا لدنياكم كأنكم تعيشون أبدا كما هتف بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم!! أجدادنا لم يهابوا الموت لكنهم احترموه كحقيقة ماثلة وضعوه فى حسابهم كمصير محتوم لا مفر منه!! لم يكن فى نظرهم نذيرًا بالفناء بل كان منفذًا إلى الخلود حيث تبدأ الحياة الثانية التى لا تنتهى ولا تفنى جعلوا من مقابرهم كما يقول

شيخى المغربى معلمى قصورًا متينة البنيان عامرة بكل نفيس جليل الشأن كى تكون ملائمة لاستقراره فى الحياة الأخرى الحقيقية كانوا بفطرة الله على علم بأن الموت ليس نهاية كل الحياة وأن الإنسان لم يخلق عبثا ولن يضيع سدى أو يذهب هباء إنما لابد له من مثول محقق أمام محكمة إلهية حيث يوضع قلبه بكل حسناته فى كفة الميزان وتوضع أعماله السيئة المنافية للخير والأخلاق فى الكفة الأخرى فإن رجحت كفة القلب السليم استأنف الإنسان حياته فى ظل الخلود وإن رجحت كفة السوء ألقى به فى نار جهنم!! لكن اعلموا أنه ليس لهذا فحسب رسم التاروت هذه الصورة إنما أراد أن يقول لنا شيئًا آخر أشد وأنكى.

إن الحياة على ظهر الأرض ستكون مهددة بالفناء التام فى السنوات العشر القادمة سيفنيها بنو الإنسان سيتحقق قوله سبحانه وتعالى: «يخربون بيوتهم بأيديهم» وإنسان هذه الأيام على ظهر الكرة الأرضية يخترع الأسلحة الفتاكة التى تحول الأرض بكل ما عليها إلى هشيم تذروه الرياح ولقد أدرك أجدادنا القدامى منذ وقت مبكر خطورة ما تسمونه اليوم بالتقدم العلمى القائم على اللعب بالنار والتدخل فى نظام الكون!! لقد أنبأنى معلمى عن القنبلة المسماة بالذرية التى ألقيت على اليابان فدمرتها والتى أصبحت الآن كالكرة يلعب بها الأمريكان والروس فرسم أجدادنا هذه الصورة على هذا النحو كى تصبح وازعًا على الفعل

الصحيح المناسب يعنى أن نستعد بشىء يبطل مفعول الدمار الذى ينشره زبانية الشر من بنى الإنسان فاللهم لا نسألك رد القضاء بل نسألك اللطف فيه!!». وكان الاقتناع والانبهار واضحين على وجوه الجميع خاصة وجه حسن بك الذى راح يتمتم بكلمات مبهمة أغلب الظن ياخال أنها آيات قرآنية.

الاعتدال

ملاك جميل الصورة يا خال، بجناحين كبيرين كجناحى نسر على، لونهما أخضر زرعى مشوب بالأصفر الفاتح، يرتدى الملاك قميصا أحمر اللون بنصف كم، فوق جيبة زرقاء اللون، وقد أمسك فى يده اليسرى آنية أشبه بإبريق من الفخار، وأمسك باليد اليمنى إبريقًا آخر من الفخار أيضا كما يظهر يا بوى، وقد رفعه وراح يصب فى الإبريق سائلا أبيض كاللبن الحليب يا خال، وأغلب الظن أنه لبن. على الأرض تلال فى لون الطمى المحروق وثمة ما يشبه أصرية الزرع ترتفع منها أغصان مخضوضرة مورقة.

قالت الشيخة سعادة:

- «الورقة الرابعة عشرة: الاعتدال!! لعلها كما ترون واضحة وضوح الشمس ومعناها ساطع كالقمر: الملان يكب على الفاضى! بهذا وحده يحدث الاعتدال!! هذا الملاك ذو الجناحين الأخضرين الممسك بالإبريقين هو طيف من عند الله سبحانه وتعالى يشير إلى

أن هذه هى حكمته مقولته عدالته: الملآن يصب فى الفاضى لكى يحدث التوازن فتورق الفروع وتخضر الأغصان ويأتى التمر فتستمر الحياة!! تلك هى كلمة السر التى حفظها لنا أجدادنا فى كتاب التاروت كى نعرف سر ازدهار الحياة واستمرارها زاهرة مشرقة كانوا على علم بأننا مقبلون على زمن صعب يستأسد فيه الشطار يستأثرون بكل شىء فيكثر عدد المحرومين مما يهدد أمن الحياة بالدمار بثورة يشعلها المحرومون فى الأخضر واليابس تهون عليهم كل الأشياء الثمينة والمنابع الخصيبة طالما أنهم محرومون من خيرها!! عدالة التوزيع ليست كل ما تقوله الصورة بل تقول بالاعتدال أيضا وفى كل شىء فى الحياة كما قال ديننا الحنيف «لا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا» إنما أراد الله كما أثبتت هذه الصورة المشعة أن يكون الإنسان لا بخيلا ولا مبذرا وهذا ما كان يقصده سيدنا يوسف الصديق عندما أنبأ فرعون بحقيقة الرؤيا وهى أن يدخر من خير السنوات السمان لينفق منه فى جفاف السنوات العجاف فاصبحت مثلا يحتذى ويلتزم به أجدادنا يحرصون على تبليغه لنا كى نبقى على ما بنوه!! وإنما لحكمة عميقة أن يجىء ترتيب هذه الورقة بعد ورقة الموت فكأنها الجواب على النذير نسأل الله أن ينير قلوبنا كى نواجه بهذه الورقة زمننا الصعب هذا الذى تنبىء الأيام الحاضرة عن أهوال وأهوال يخبؤها لنا فى جوفه المعتم الكئيب فاللهم لا نسألك رد القضاء بل نسألك اللطف فيه!!».

وألقت بالورقة وسط همهمة جهيرة تصيح فى ورع يارب عفوك ورضاك.

الشيطان

الصورة بشعة يا بوى، تقول بالفم المليان أنا الشيطان، نفس الصورة التى رسمتها الحواديت القديمة وأظهرتها أفلام السينما. هكذا تراءت لخيال جميع الرسامين: رجل عارى الجسد تمامًا يا بوى، لونه أحمر قاتم وأصابع يديه ورجليه حوافر كحوافر الحيوانات الجارحة مدببة معقوفة كالخطاطيف يا خال وله ذيل طويل مبروم كذيل البقرة يتقوس فوق مؤخرته ويلتف على فخذه الأيسر ممتدا فوق إحليله منتهيا بشرابة من الشعر كشرابة الخرج يشرب شكلها من شكل الحوافر فكأنها يد ثالثة تحت يديه. أنفه معقوفـا يا خال كأنف اليهود وعلى وجهه مسحة من الخسة والنذالة والخبث الناعم الأريب، وشعر واقف كالريش المدبب كالخطاطيف المعقوفة كالحوافر. أما يده اليسرى فقد أمسكت بشوكة مستطيلة كحربة بشعبتين مدببتين كالحافر، بينما امتدت يده اليمنى فى الهواء مع امتداد فخذه اليمنى بساقها المتكسرة كأنها أوقفت الخطو فجأة، وقد جلست أمام ركبته اليمنى امرأة استندت بمرفقيها على فخذيها واضعة يديها على عينيها فى خوف وفزع من منظره، مرتدية بلوزة حمراء اللون فاتحة الحمرة وجيبة

زرقاء فاتحة الزرقة وتغطى رأسها بطاقية صفراء فاتحة الصفرة؛ أما زوجهـا فمختلف تماما يا خـال، ومن الواضح يا خال أنها ست بيت وأم أولاد ممن نراهن فى الأسواق يتسـوقن الخضار والأوطة لغداء أولادهن وأزواجهن الموظفين الغلابة، من خلف ذيل الشيطان ترتفع شواشى نباتات خـضراء خشنة صحراوية شـائكة كأظافر الشيطان، حاجة تهوس يا بوى..

قالت الشيخة سعادة:

ـ والورقـة الخامـسة عـشـرة: الشيطان!! فـصل جـديد يكمل الفصول السابقة فمن شـبح الموت إلى ملاك الاعتدال إلى الشيطان تتـصل حلقـات الحكمـة واضحـة جليـة فلكى نتـقى الموت الزوال الاضـمحـلال الفناء علينـا أن نقتـدى بفـعل مـلاك الاعتـدال وإلا فالشيطان واقف بالمرصاد!! وقد علمنا من قراءة الأوراق الفائتة أن زمنا صعبًا معتم الجوف يخـبىء لنا المحن والصعاب والعثرات قد بات فى أعتابنا بالفعل إذن فالمنـاخ قد بات ملائمًا لذيوع الشيطان ولابد أنكم يا أسـيادى قـد رأيتم فى المرسـوم كـيف أنه قد ركـز خطوه واهتمامـه نحو امرأة مهيـضة مسكينة حائرة مذعـورة فما قـصـد الورق يا ترى؟ قـصده واضـح لكل ذى عـينين: تمر على البـلاد محنة الرواج الكاذب تكره الـبسطاء فى عـيشـهم البسـيط تجعلهم هدفـا سهلا للمغـريات إذ يدخل الملوك إلى البلاد وهم إذا دخلوا قرية أفسدوها وجـعلوا أعزة أهلها أذلة!! هم ملوك بأموالهم فحـسب وما أموالهم بأموالهم إنمـا اغترفوها من آبار لا تنفـد كان من المفـروض أن يحكمهـا مرسـوم ملاك الاعـتدال لكن الشـيطان المتخـفى بأعماق أفئـدتهم بث فيهم قـوة جبروته فاسـتأثروا بكل شىء وحدهم سـاقهم زهوهم إلى أعـشاش الطيـور الآمنة!! يجىء هؤلاء إلىّ أرض الحضـارات بنسائها الفاتنات يحلمـون بارتشاف رحيـقهـن لا يهمـهم أن هذه الأرض كنانة الله فى أرضه ولا أنـها أنفقت دم قلبهـا وفلذات أكبادها لتدفع عنهم الأعـداء حتى أضناها الفـقـر وهدها العـوز إنما همهم اهـتبـال الفـرصـة بالوثوب على الضحية وهى ساخنة بنار الحرمان فاقدة للمقاومة بضغط الحاجة والعوز!! تمر على البـلاد محنة تضـربها فى الصمـيم ينفرد فيـها الشيطان بالمرأة يسلط علـيها قوته السـحرية يوسوس لها يغـريها بالسـقوط فى الخطيـئـة مقـابل ما بات أمنـية لكافـة المحرومـين المرهقين: لقمة طرية وثوبا زاهيا ومسكنا عـامرًا وسيارة مجنحة!! تمر على البـلاد محنة تكون فـيهـا المرأة هى الخاسـرة والضحـية الأولى وبسقـوطها تتـدهور كل الأبنية إنها الـوعاء الذى إن تلوث انحدرت الأجيـال نحو المسـتنقع الآسن ببذرة حـرام تملأ الأرض جـورًا وانحطاطًا يعكر الرجس مـياه النيل وحـينئـذ تموت مصـر ميتتـها الخامسة ما لم نحفظ للـمرأة شرفها وعلمها وقـوت عيالها كى تصد عن نفسـها غواية الشيطان المتربص بها لا مـحالة فاللهم لا نسألك رد القضـاء بل نسألك اللطف فيه!!».

وكان الجميع قد وضعوا خدودهم على أكفهم كأن صورة المحنة قد تجسدت فى أنظارهم شاخصة دامغة.

المعبد

بناء كبير ضخم مرتفع الجدران، عليه مهابة واضحة يا خال، مبنى هو بالحجارة المخروطة من صخور الجبل خرطات متساوية منسقة، مثل بناء جميع المعابد التى رأيتها فى الصعيد يا خال، والتى قامت بينى وبينها علاقة ود حميمة يا بوى لدرجة أنى إذا دخلتها شعرت بالرجفة والرهبة. تماثله فى البناء مساجد كثيرة فى القاهرة: مسجد قايتباى، مسجد عمرو، مدرسة برقوق، جامع قلاوون، الجامع الأزهر، الجامع الأنور، وكالة الغورى، والظاهر يا خال أن الذين بنوا هذه البنايات كانوا يقلدون معابد الفراعنة الصعيدية. للبناء الذى فى الصورة باب مغلق بضلفتين من الخشب الثمين مدهون بلون بنى غامق، أما الجدران فلونها زيتى غامق وفيها بعض نوافذ لونها أحمر قانى الحمرة، البناء شبه متصدع يا خال، فثمة أصداغ من أضلاعه العليا سابت وانكفأت منهارة، وبعض قطع صغيرة من حجارته تناثرت متطايرة فى الهواء كسرب من عصافير مهيضة يا خال، يوجد رجل منكفىء على وجهه منحدرًا نحو الهاوية رأسه فى اتجاه الأرض وقدماه إلى أعلى ومن الواضح أنه وقع من فوق سطح المعبد أثناء تصدعه

وانهيار واجهته، يلبس قميصًا أزرق وسروالاً أحمر. يوجد كذلك رجل آخر قد وصل إلى الهاوية بالفعل مجندلاً على الأرض تناثرت حوله بعض قطع من الخشب والحجارة، يرتدى قميصا أحمر وسروالاً أصفر، الظاهر يا خال أن نفرًا من المارقين قد اعتصموا بهذا البناء وتبادلوا الحرب مع من بالخارج فتعرض المبنى لهجوم عنيف زلزله وصدعه..

قالت الشيخة سعادة:

«الورقة السادسة عشرة: المعبد!! من أراده بسوء قصف الله عمره فى الحال! النبوءة فى المرسوم واضحة: ستجىء أيام كئيبة تختلط فيها الأمور نتيجة لعماء البصيرة لا يعرف فيها المرء صديقه من عدوه يكثر وكلاء الله على الأرض بغير مسوغ أو قرينة يمتلىء المعبد بالدهماء من الجهلة ذوى النفوس المعتمة يريدون اتخاذه قلعة يستمدون منها الحصانة يعتلون منبرها وهامتها المقدسة لفرض أنفسهم على مقدرات البلاد والعودة بها إلى عصور الجاهلية الأولى يتخذون من أنفسهم حكامًا وخلفاء بغير سند حاملين فى ذلك راية الدين متذرعين بما أصبح يعم البلاد من فساد وضلال ولسوف يقضى الله فى أمرهم بقضائه العدل حيث يسلطهم فى البداية على أهل الفساد والضلال حتى يزلزلوا مضاجعهم يزعزعوا الأرض من تحتهم ثم يسلط عليهم زلازله الطبيعية وبراكينه وصواعقه فيقضى عليهم ذلك أن هؤلاء

وأولئك أبعد ما يكونوا عن الورع والتقوى ويكون الله قد سلط أبدانًا على أبدان لحكمة بالغة ولكن يبقى المعبد شامخًا رغم تصدعه إلى أن يهيىء الله له من يعمره على أساس من النور والخير والمحبة الصافية وتكون مصر قدماتت ميتتها السادسة فاللهم لا نسألك رد القضاء بل نسألك اللطف فيه!!».

وكان الجميع قد نكسوا رءوسهم فى الأرض وانشدت جلود وجوههم فصارت الوجوه مسحاء يا بوى.

النجم

ملاك آخر يا بوى، ولكن بدون أجنحة. شكله أقرب إلى الفتاة إن لم يكن فتاة، شعره منسدل الخصل حتى الكتفين العاريين، وقد التف بإزار أحمر اللون غطى الجانب الأيسر من الصدر والبطن تاركًا الذراعين عاريين وكذلك الجانب الأكبر من الصدر حتى الذراع الأيمن متحرر من الإزار، ركبته اليسرى ممدوة من خلال ما يشبه ملاءة زرقاء اللون فاتحة تغطى نصفه السفلى، والساق ممتدة تصنع مع الركبة زاوية حادة حيث استقرت القدم الرقيقة الحافية على شاطىء البحر. فى يده اليسرى قلة فخارية حمراء، وفى يده اليمنى إناء يشبه الكوب أصفر اللون؛ أماله الملاك وجعل يدلق ما فيه من سائل أزرق اللون فى البحر. وهذا شىء غريب ياخال، فحيث تتوقع أنه يغترف بالكوب من البحر ليملأ

القلة إذا هو يفعل العكس كما يظهر فى الصورة يا خال، وإلا فما فائدة أن يكون الكوب فى يمناه والقلة فى يسراه؛ المهم يا خال أن السماء من فوق رأسه مباشرة مرصعة بسبعة نجوم، ثلاثة حمراء اللون فى أعلى تشكل هيكل مثلث متساوى الضلعين المتقابلين، وأربعة نجوم آخرون صفراء اللون، اثنان منها فى منتصف الفراغين بين الضلعين المتقابلين، واثنان فى أسفل تحت النجمتين الحمراوتين، ورأس الملاك بينهما، واحدة أمام جبهته والأخرى خلف شعر رأسه، حاجة تهوس يا بوى، مع ملاحظة أن السائل المندلق من الكوب فى البحر رغم تماثله فى الزرقة مع مياه البحر فإنه مشوب بظلال حمراء وصفراء نفس لونى النجوم السبعة والإزار والملاءة وأرض الشاطىء الصفراء تمامًا يا خال، ولذا فقد صنع السائل المندلق دوامة صفراء وحمراء؛ حاجة تهوس يابوى..

قالت الشيخة سعادة:

ـ «الورقة السابعة عشرة: النجم!! يجىء يوم يعلو فيه النجم فيعم الفيضان يرجع إلى سابق عهده الأول لكنه يكون ملوثا شنيعا قد ألقيت فيه الجثث والجيف والسموم الصفراء قادمة من النبع الأعلى ذلك الذى كان فيما مضى وقبل خصى النيل بالسد يخط الماء بعرق الأرض السوداء!! فيضان الماء ولو كان ملوثا خير من جفافه وها هنا يهوى النجم بفكرة ملائكية ملهمة على هذا السموم فى الورقة ترينا ضرورة وضع مطهر فى الماء ينقيه من

كل السموم وأول دواء علينا اتباعه هو قتل الداء المستشرى فينا نحن أبناء هذه الأيام: نوقف اعتداءنا السافر المتواصل على النيل وإنه لعدوان يصيب أرضنا وأبداننا بالأمراض المستعصية ومهما يكن من أمر فإن هذه الورقة كما يقول معلمى هى ورقة الأمل والرخاء والنجاح ولكن أى رخاء وأى نجاح إنما هو مرهون برفع أيدينا الآثمة عن نهر النيل وعن كل ما يجرى فى البلاد من مياه فاللهم لا نسألك رد القضاء بل نسألك اللطف فيه!!».إنضمت الورقة إلى زميلاتها.

القمر

الورقة مقسومة إلى نصفين بالعرض، بينهما شريط أبيض ضيق، فى النصف العلوى يلتصق القمر بسقف الورقة؛ هو أشبه بالميدالية مرسوم عليها وجه شاب طفولى الملامح ذكى العينين مضموم الشفتين ينظر فى البعيد، ويظهر يا خال أن القمر يبدو هكذا دائمًا لمن ينظر إليه من بعيد: وجه إنسان بملامح وتقاطيع ناطقة..

على يسار القمر يا بوى شرفة قصر منيف، وعلى يمينه شجرة مورقة لون جذعها بنى غامق وأوراقها خضراء بالطبع، والأرض فى لون الطحينة، تكتنفها بعض نباتات شوكية فى شرفة القصر فتاة يظهر نصفها الأعلى، مرتدية ثوبًا منزليا بسيطا، بنفسجى

اللون، فوقه مريلة بيضاء، وقد عقصت شعرها، ومدت يدها اليمنى فى دعوة وترحيب، تحت الشجرة يجلس شاب يرتدى قميصا أزرق اللون على سروال أحمر غامق، وغطاء رأس أحمر، وقد أمسك بآلة موسيقية تشبه آلة البزق وآلة السمسمية، راح يعزف عليها وهو فى حالة من الطرب والنشوة؛ والأنغام خارجة على هيئة خطوط ونقط رفيعة جدًا تشكل مويجات متدافعة فى بطء كبقايا دخان السيجارة..

فى النصف السفلى يا خال مساحة زرقاء فاتحة تشبه نسيج الخيش، وتبدو كأنها حوض من أحواض أسماك الزينة، يحدها من اليمين ومن اليسار ضلعان تخينان من اللونين الأحمر والأصفر فى وسطها تمامًا شكل شبح أحمر قان، لرجل متصلب يرفع ذراعيه إلى أعلى كأنه يلعب رياضة الصباح، لكننا لو نزعنا ذراعيه يصير شكله شكل فانوس من فوانيس رمضان، تحت كل ذراع من ذراعيه حشرة حمراء اللون لكنها غامضة الجنسية لا نعرف إن كانت سمكة بذيل أو سلحفاة أو خنفساء، هذه الورقة يا خال من أشد الأوراق غموضًا..

قالت الشيخة سعادة:

ـ «الورقة الثامنة عشرة: القمر!! يفسرها معلمى نقلا عن علماء التاروت وما أكثرهم فى العالم بأنها ورقة الفضيحة والخطأ والوهم!! يمر على البلاد زمن تنكشف فيه كل الخفايا يصبح ما

كان يسمى بالمستور عريًا كاملاً يصبح العرى سمة عنوانًا على العصر تفقد كل الأشياء جلالها تضيع من كل الكلمات معانيها تغترب مفردات الشرف والأخلاق والكرامة والسؤدد والوطنية والأمانة والأدب والواجب والتضحية والإيثار والعدالة والإنسانية والرحمة تصبح كل هذه الكلمات سيئة السمعة مثارًا للسخرية والهزء والرثاء يتساوى الجميع فى قلة القيمة تنعدم الروادع تضمحل الوزعة تدخل النفوس فى ليل حالك ثقيل الوطء مدلهما يبحث فيه كل صائد عن فريسة شاردة وهنا ينزل القمر بنوره الفضى الفاضح يخترق أعماق البرك والمستنقعات يبرز ما فى جوفها من حشرات وجيف وسموم!! ما القمر هذا إلا إنسان حقيقى مستنير أغلب اليقين أنه عقل الأمة التى بقيت فى أرضها الخصيبة روحها السابعة التى لا تموت مطلقا فهذه الأرض المباركة التى أنجبت الأبطال والفاتحين والمتنبئين والمقرئين والمتقنين والكاتبين والمثالين والنقاشين والبنائين والزارعين الحارثين الحاصدين تحتفظ فى باطنها فى ضميرها الحى بكل بذرة طيبة لا تلبث حتى تطل برأسها بمجرد ما تتهيأ لها الظروف المناسبة!! ومثلما يكتمل البدر فى منتصف الليل منتصف الشهر ومثلما يبزغ الفجر من ذيل عباءة الظلام القاتم يبزغ عقل الأمة من جديد حينما تشتد الحلكة وتتبهم الأعماق فإذا الظلام قد أخذ يتبدد من النفوس بفعل ما يشعه العقل الجديد القديم البازغ من الكمون فتحدث الإفاقة يبدأ الإنسان فى ازدراء نفسه وتلك بداية

القومة التى لا يعلم إلا الله مدى ما تحتويه من مخاطر وأسرار فاللهم لا نسألك رد القضاء بل نسألك اللطف فيه!!».

راحت النظرات تتابع يد الشيخة سعادة وهى تضع الورقة بحنو كامرأة تتحسس كتاكيتها يا خال.

الشمس

الدائرة كاملة هذه المرة يا خال، وليست ملتصقة بأى سقف، بل هى معلقة فى الفضاء، تندلع منها أشعة حادة صفراء مخضوضرة؛ فهى الشمس إذن يا خال، لكن الدائرة عبارة عن شكل كالجنيه الذهب محفور فيه وجه رجل مثل وجه القمر لكنه أصفر ذهبى بعينين خضراوتين، والاخضرار يظلل جانب وجهه الأيسر، وهو مفتوح العينين بنظرة واثقة تستطلع الأفق البعيد، تكاد تبتسم ابتسامة منشرحة. الأرض من تحتها فى لون القمح بتلال متناثرة، فوق هذه الأرض يا خال ـ بين شجيرات خضراء مسلة ـ يجلس فتى وفتاة كأنهما يتناجيان فى خلوة علنية على هالة من الاطمئنان والنزاهة؛ الشاب يرتدى ثوبًا مكونًا من قطعتين، قميص أصفر فاتح يكسو صدره وذراعيه حتى الخصر، يليها الثوب البنفسجى اللون غامق؛ وقد جلس متجعصًا واضعا ساقًا على ساق. أما الفتاة فقد انعطفت عليه، بقميصها الأحمر المحتشم، وجزء من الجانب الأيمن لصدرها ملتصق بكتفه الأيسر،

كل منهما على ركبتيه كتاب مفتوح، منظرهما يا خال أشبه بزميلين فى الجامعة اختليا فى منعطف من حقل بعيد بذريعة المذاكرة واندمجا فى حوار حميم، حاجة تهوس يا بوى..

قالت الشيخة سعادة:

- «الورقة التاسعة عشرة: الشمس!! تلك هى التى لا تغرب عن أرض الكنانة وإن طال احتجابها خلف سحب الجهالة والطغيان والغزوات!! يجىء زمن تحتجب فيه الشمس خلف الأبراج العالية خلف مظاهر سفه كذابة من طبقات تأكل السحت والمال الحرام وتنشر على البلاد ظلام جهلها تغسل أمخاخ الشباب الضائع الهفتان تجعله أداة للتخريب وسفك الدماء الزكية لكن القمر العاقل الذى يضىء النفوس بعد ظلامها يكون نذيرًا تباشير صحو ندى عفى سرعان ما تسطع الشمس من ورائه على العرايا البائسين تلهب عقولهم تميت فيهم الخور وجراثيم النكوص تريهم الأشياء على حقيقتها تتمزق أستار الأوهام تسقط حواجز الرهبة بينهم وبين السفاحين القتلة يبدأ الزحف الشامل فى فضاء الحرية نحو إرادة الله التى خلقتهم فى الأصل أحرارًا فاللهم لا نسألك رد القضاء بل نسألك اللطف فيه!!».

ترقرقت موجات القلق فى وجوه الجميع.

المحاكمة

صورة مروعة يا خال: ملاك من السماء بجناحين صفراوين، لونه طحينى، يقعد متربعا فوق كتل من السحاب الثقيل فى لون جسده، قد أمسك ببوق طويل راح ينفخ فيه. وفى الأرض أربعة أشخاص: رجلان وامرأتان، الرجلان عاريان تمامًا، والمرأتان إحداهما خرجت من هدومها والثانية متشبثة بإزار أزرق اللون يدارى سوأتها، الفزع والروع واضحان عليهم، من حركة أياديهم ووجوهم نفهم أنهم فى حالة صراخ واستغاثة، أرجلهم مغروزة فى الأرض يا خال، والأرض فى لون أجسادهم النحاسية، مما يوحى للرائى بأنهم كانوا مدفونين فى المقابر وأنهم لبوا نداء البوق فبعثوا إلى الحياة من جديد فرموا بالأكفان، وانبثقوا من باطن الأرض كالسكارى التائهين الفزعين من ملاقاة يوم الحساب حاجة تهوس يا بوى، لابد يا خال أن هذه الصورة ترسم يوم الفزع الأكبر..

قالت الشيخة سعادة:

- «الورقة العشرون: المحاكمة!! تلك هى القومة! قومة الموتى من الأحياء الذين بث فيهم الشمس حرارتها وشققت لهم الأرض فنهضوا خارجين من شقوقها متلهفين على الإمساك بمن كان السبب فى دفنهم أحياء كى يقتصوا منه!! إن علماء التاروت فى العالم حين عرفوا أن هذه الورقة اسمها المحاكمة وأنها تعنى

الحساب العسير فرقوا بينها وبين الحساب الإلهى النهائى وذلك من واقع المرسوم فى الصورة فها هى ذى إحدى النساء ترفع ذراعها اليمنى صائحة فيمن حولها بحركة تنبيه وتوجيه فلابد أنها تقول لهم ابحثوا عن المسئول عما جرى لنا وها هم الآخرون حولها يتبادلون المشورة سيما وأن الأمر قادم إليهم بإلهام من السماء عبر البوق الملائكى الصائح فيهم أن انهضوا حرروا أنفسكم من الموات من القهر من الذل من عوامل الفناء حاسبوا من ظلمكم أهانكم امتص دماءكم «فلكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب». ولابد أن المحاكمة ستكون شاملة فضوء القمر وحرارة الشمس يفرزان من بينهم الأصفياء المهتدين القادرين على حقن الدماء فاللهم لا نسألك رد القضاء بل نسألك اللطف فيه!!».

وكنا جميعا قد أرهقنا يا خال، فأخذنا نرمق الورقة الأخيرة فى استرخاء لذيذ.

العالم

رجل عارى الجسد يا خال، يمسك بيديه وشاحا أو ربما شالاً مبرومًا كشال العمامة الصعيدية، يتلولب عند طرفيه وفى الوسط يغطى سوأة الرجل، فكأن الرجل ممسك بثعبان كبير مذعور. يقف الرجل وسط طوق من الزهور والورود بيضاوى الشكل، نفس الطوق الذى نراه عند بائعى الزهور فى أيامنا هذه، فى أسفله عقد

شريط حريرى أحمر مربوط بعقدة وشنيطة، فوق الطوق يا خال، على الزهور أوراق الورد، يقف ثلاثة من الطيور الجميلة كأنها جزء من فكرة الطوق، الطائر الأوسط بجناحين أصفرين كبيرين مفرودين، لكن شكل الطائر ذى اللون النحاسى أشبه بالنسر وما هو بنسْر، أما الطائران الآخران عن يمينه وعن يساره فرأسهما أحمر وريشهما أصفر مخضوضر، وكلاهما واقف فى وداعة مضموم الجناحين فى تطامن وسلام لاويًا عنقه فى اتجاه الطائر الأوسط. الطائران ربما كانا حمامتين أو قبرتين، وأما الرأس السفلى للطوق فمستقر بين رأسين لحيوانين شكلهما غامض وواضح معا، على اليسار رأس لأسد كثيف الشعر يظهر جزء من ظهره خلف شعره، وجهه وجه إنسان تكاد نظرة عينيه القويتين بما فيهما من إنسانية تدفعانك لأن تمد يدك لكى تسلم عليه، أما على اليمين فوجه ثور عفى بقرنين مدببين معقوفين، وجزء كبير من جسده ظاهر فى الصورة لصق ببطن الأسد، الثور غير مذعور من الأسد يا خال، وإن كان منظره يوحى بأنه فى حالة تهيج جنسى، ويظهر يا خال أنه رأى فى المساحة غير المرئية بقرة أثارت اهاجته، لكن سبحان من جمع الأسد مع الثور فى مثل هذا الود المسالم يا خال، حاجة تهوس يا بوى..

قالت الشيخة سعادة:

«الورقة الأخيرة: العالم!! تلك هى ورقة الاكتمال كما وصفها علماء التاروت!! التحقق الكامل والنجاح المستمر بالعمل الخلاق

الدءوب هكذا كان حلم أجدادنا الوردى: أن يصل العالم إلى هذه الدرجة من الأمن والسلام والتوافق حيث يعيش الإنسان مطوقا بالزهور والورود محاطا بالطيور الغناء تضمحل العداوات حتى بين الأعداء الألداء من الوحوش المفترسة والحيوانات الأليفة وهكذا يكون كتاب التاروت الذى منه نشأ تعبير: افتح لى الكتاب يعنى اقرأ لى طالعى قد كشف لنا سر استمرار الحياة زاهرة متحضرة مورقة على الأرض يسودها الوئام والسلام ليس بين البشر فحسب إنما بينهم وبين جميع ما فى الكون من مخلوقات يتم التكامل بينهم كما يتم التحقق لهم!! كلمة السر هى العلاقة الخفية بين الورق فى ترتيبه من ورقة إلى التى تليها كل ورقة تحمل مرسوما لمعنى وكل معنى يرشد إلى ما ينبغى عمله كى تستمر الحضارة صاعدة طالعة من أرض مصر الطيبة كى يظل المصريون حملة لواء السلام والوئام إلى العالم أجمع!! إنكم لاشك تعلمون حقيقة الرسم بالنسبة للمصرى القديم فقد كان لا يرسم إلا ما ينتوى فعله فمتى رسمه صار حقيقة نافذة!! أنبأنى معلمى أن جدى القديم كان قبل خروجه للصيد يرسم نفسه وهو يصطاد شيئا محددا هو على وجه التحديد الشيء الذى طلبته نفسه فإن طلبت لحم الغزال رسم نفسه فى كيفية الإيقاع بالغزال فكأنه ينفذ خطة الصيد نقشا وتلوينا على الحائط ثم إذا به قبل خروجه للصيد يضع القدر على النار ثقة مطلقة فى أنه عائد بالغزال لا محالة قبل غليان الماء فى القدر فهو إذ يرسم العالم هكذا إذن

معناه انه ليس يرسم حلمه الأكبر فحسب بل يضعه موضع التنفيذ يحيله إلى حقيقة واجبة النفاذ يلتزم بها!! اللهم أعنا جميعا على الخلاص من كافة المعوقات. ضع فى قلوبنا بلسم الشفاء وفى عقولنا مشعل الهداية وفى ألسنتنا ذكر الواحد القهار إنك أنت السميع العليم يا مذل يا معز يا واهب النعم! آمين يا رب العالمين!!».

رحنا نتنفس هاتفين فى صيحة واحدة: يارب، فيما راحت الشيخة سعادة تطوى أوراقها، تلفها بالشريط الحريرى، تعيدها إلى محفظتها الجلدية، ثم اعتدلت فى جلستها تجفف عرقها، ثم طلبت كوبًا من الينسون.

بنت

أنا والله يا بوى ما كان مرادى أن أتزوج بعد ما حدث فى تلك الليلة التى احترقت فيها من هزة قلبى فى طلعة الشباب، فى الأول كانت رغبتى فى الزواج منها وعدًا قطعته على نفسى لكنها حينما أشعلت النار فى نفسها انزرع حبها فى قلبى، قد أحرقت نفسها خجلا منى لما رأيتها فى وضع سيىء..

إلا أن بركات الشيخة سعادة تدخلت فى الأمر يا خال، والنصيب غلاب ما فى ذلك شك، فالعبد فى تفكير والرب فى تدبير، الشيخة سعادة ذات السر الباتع كانت تنتوى لى أمرًا، هكذا أوعز الله لها بذلك، وخيرًا ما فعل، وهل كنت أحلم بمثل هذه الزيجة يا بوى؟

فى ليلة استراحة القناطر فكرت ـ من هبلى ـ أننى يمكن أن أعود إلى الصعيد بصحبة الشيخة سعادة فى مواصلة سهلة ميسورة أبهة، لكن الشيخة سعادة ما إن أنهت مهمتها ونهضت واقفة، وكان الضحى يغمر القناطر الخيرية بشمس خضراء حانية ـ حتى نهض الجميع، فمشينا بصحبتها إلى الطابق الأرضى، حيث كان فى انتظارنا سائق وحارسان، فإذا بالشيخة سعادة تلف يدها فى طرف الطرحة وتسلم علينا واحدًا واحدًا بسرعة، ثم تمرق من الباب إلى السيارة السوداء الواقفة أمام الباب مباشرة، حيث فتح لها السائق الباب كأنها الأميرة المتوجة. فلما ركبت أغلق الباب وفتح باب القيادة ودخل، وفى لمح البصر رجعت السيارة بظهرها قليلا ثم زحفت كالبرق ثم ما لبثت حتى اختفت كالفكرة الخاطفة. توقفت أنا مبلولا يا بوى، سلم علينا محمد بك أبو شناف وصعد لينام. أما حازم فتقدمنا نحو سيارته حيث ركب المشعرانى بجواره وركبت أنا والحاج السنى فى المقعد الخلفى، وقفل عائدًا بنا إلى مصر عتيقة..

فكرت فى اللحاق بالشيخة سعادة. لقد أصبحت مفتونا بها يابوى كأنها سيدة لم يسبق لى معرفتها من قبل وهأنذا لا أريد أن أفارق محضرها إلى الأبد لكننى كنت مرهقًا يا خال، معى فلوس كبيرة لا يجب أن أسافر بها فى طريق الصعيد إلا نهارًا وعينى فى وسط رأسى، صعدت إلى شقتى لأنام..

نمت أربعًا وعشرين ساعة متواصلة يا بوى، نوما عميقا كالموت؛ لدرجة أننى عندما صحوت ظللت ممددا فى السرير أكثر من ربع ساعة أحاول أن أتذكر من أنا وأين كنت قبل النوم وكيف جئت إلى السرير، فلما صارت المسائل تتضح أمامى شيئًا فشيئًا شعرت بسعادة عمرى ما شعرت بها يا بوى، اشتقت للشيخة سعادة فى الحال، معلمتى وأميرتى ومصباح طريقى، اشتقت أيضا إلى هليل، قلت لنفسى إن المبلغ الذى زاد هو من حقه سأعطيه له، قمت فأخذت حمامًا ساخنا كأولاد الناس الطيبين ثم لبست ثيابى، حشرت فى جيب الصديرى رزمتين كبيرتين من الفلوس، نزلت يا خال نفسى مفتوحة للشراء، شراء أى شىء وكل شىء. خرمت فى وسط المدينة بجرأة كبيرة، جلست على أكثر من مقهى وفى أكثر من حانة، شربت أرقى أنواع الخمور، اقتحمت المحلات فابتعت كسوات كثيرة من الأصواف والأتيال والحراير والأحذية والجوارب والفانلات والشيلان، لى ولهليل وللشيخة سعادة ولكل إخوتى البنات و أمى وأولاد خرابة.

حلف هليل ألا يأخذ مليما واحدا جزاء خدمته لى، فهو ـ كما قال ـ ليس يعمل سمسارًا على آخر الزمن، يكفيه ما جئت به من هدايا له ولابيه، فحلفت له مائة يمين أن هذا المبلغ جاء على اسمه من عند الله وأننى لن يتبعنى منه مليم واحد فهو رزقه، ثم أزحت المبلغ نحوه بقوة، فتدفقت صفائح الدم فى وجهه الشفاف وقال إن

المصلحة واحدة على كل حال وإن الله قد بارك فى ماكينة الطحين وماكينة المياه وفى زريبة المواشى لدرجة أنه لم يعد يعرف كيف يشغل كل هذه الفلوس، ثم إذا به يصيح فجأة وقد طلعت الشمس فى خديه من فرط الفرح:

- «أخذتنا فى دوكة! أنت ابن حلال وأمك دعت لك فى ليلة قدر ولهذا تجىء دائمًا فى وقتك يا بو العم!... قبل دخولك علينا كنت سألبس لأسافر إليك لأجىء بك!».

- «خيرًا إن شاء الله؟!»

- ستتزوج يا عم!! ضاعت منك الجميلة فأتاك الله بالقمر يا بو العم! قمر ماذا يا بو العم؟ القمر والشمس والنجوم وكل الكواكب فى كفة وعروسك وحدها فى كفة!

معها الشهادة الإعدادية ومنعها أهلها من الخروج بتاتًا!! أختك هذه داهية!! انتقتها لك بالملقاط! حسب ونسب جمال ومال وكل شىء قلبك يحبه موجود فى عروسك يا بو العم!! أهلها أغنى ناس فى بلدة الدوير يا بو العم! جيراننا فى الأرض أنت تعرفهم طبعا! أبوها بهى الدين شحاته الذى كان أبوه عمدة قبل أن نولد! عمها محام كبير فى أسيوط وأخوال البنت من أعيان بلدة الشنانية وأخوال أمها من أولاد إلياس!! أختها الكبرى متزوجة من ابن عمدة الغنايم!! يعنى عزوة كبيرة يا بو العم بركة ورثك!!».

ركبنى الذهول يا خال. فأنا أعرف هذه العائلة معرفتى لبدلتى، هم بالفعل ناس طيبين على الآخر يا بوى، نسوانهم سنايير كالحوريات حمر الوجوه كالقشدة بالمربى، الناس يضربون بهم المثل فى الجمال، قلت لهليل:

- «وهل وافقوا يا هليل؟!»

تراجع هليل بذقنه على صدره:

- «إه! إياك تظن نفسك قليل الشأن! لقد رحبوا يا بو العم ورنت الزغاريد فى الحال!! من الذى لا يرضى بمصاهرة حاكمة الجبل بجلالة قدرها؟ قاهرة الحكومة فى عقر دارها! أم اللسان الحلو والفعال الأحلى! أنسيت يا بو العم أن خيرها على الجميع؟ أنسيت أن الجبل بفضلها أصبح نظيفا لا يأوى سوى الرجال الحقيقيين؟ الجبل اليوم يكاد يكون مسجدًا لولا أنها لذكائها تسمح بشىء من الحرية فيه حتى لا تكون مكروهة من أحد خاصة وأنها تعرف الحياة الخشنة فى الجبل ومدى ما فيها من حرمان!! الجميع يضعون فى أعينهم حصوة ملح فيفسق من يحب الفسق فى السر على خفيف خفيف!!»

- «لكن منذ متى حدثت هذه الخطوبة يا هليل؟!»

- «من شهور طويلة والمفاوضات دائرة بين الجبل والدوير! لكن الخبر ذاع بالأمس فحسب عقب عودة الملكة من مشوار مهم

حيث مرت على الدوير فى طريق عودتها بسيارة حكومية سوداء! فبعثت من أتى بى وباختك زوج أبى وأختك الثانية وخالتك تفيده وأمك!! نصبنا مؤتمرا كبيرا يا بو العم واتفقنا على كل شىء ورضيت العروس أن تعيش معك فى مصر أو فى أى مكان يعجبك!! أما وقد بعث بك الله فى الوقت الملائم فغدًا بإذن الله نذهب معا إلى الدوير لنشمط الغدوة التمام وترى البضاعة عن قرب! وبعد غد نمضى بوفد يضمها هى وأمها وأختها وزوج أبى وأبى وأنت إلى أسيوط لنشترى الشبكة على نقاوة عينها!!»..

ـ «كلام جد يا هليل؟!»

ـ إه! قالوا الجمل طلع النخلة! هاك الجمل وهاك النخلة يابوالعم تاهت ولقيناها! تجيد ركوب الخيل؟!»

ـ «طبعا!»

ـ «تركب حصانى وأركب البغلة ونخطف رجلنا إلى الدوير! فركة كعب بينها وبين بلدتنا! نشرب الشاى عند أصهارك! نتفق معهم على الغداء عندهم غدا!»

ـ «زين والله زين»

ما دريت إلا وأنا فوق الحصان وهليل بجوارى فوق البغلة نركض تحت خيمة الأصيل الذهبية عبر بلدة أبو حجر فى طريقنا إلى بلدة الدوير، وكان قرص الشمس ينصهر على مرمى البصر

فوق أسطح البيوت فيصنع كل شىء بلون الذهب، وقد راح الهواء المنعش يصافح صدرى المشدود فيملؤنى زهوا وسعادة فتبدو الدنيا كلها فى ناظرى محض حلم من الأحلام يا خال..

عقلى طار يا بوى عندما وقع بصرى على وجه العروس وهى تضع أمامنا صينية الشربات وتمضى، تحلف اليمين يا خال أنها غزال بكل معنى الكلمة، أنا الآخر وضعت فى الصنية مائة جنيه كاملة تعبيرًا عن رضائى، صممت على الإسراع فى إتمام الزواج قبل أن يرجعوا فى كلامهم، أكلت عقلى البنية يا بوى، فكلما أعجبها شىء أقول: ماشى، حتى خرجت هى من عند الصائغ مبرقشة بالذهب فى عنقها وأذنيها ومعصميها وأصابعها وصدرها..

فى ظرف شهر واحد جهزت دارى فى البلد كدار أكبر عمدة فى الناحية جعلتها سراى بحق، وانتقلت إلى شقتى فى مصر عتيقة فدهنتها بالزيت فى ألوان زاهية وفرشتها فرشا ملوكيا معتبرا شاورت الحاج السنى فاقتادنى إلى محلات شهيرة متخصصة فى كل ما يشرح القلب من المفروشات، صارت شقتى قصرا من قصور الباشوات تحت إشراف الحاج السنى واختياراته.

أقيم الفرح يا بوى، خذ عندك من لعب الخيل بالمزمار إلى لعب الحطب فى ليلة الحنة، أما ليلة الدخلة فجاءتها فرقة من فرق القاهرة نصبنا لها مسرحا فى الساحة الكبيرة، ذبحنا عجلا

وبضعة أغنام، دعوت الشلة الوسخة: بسبوسة وبربش وغزولى وهندى، والحاج السنى ومحمد بك أبو شناف وحازم والمشعرانى وبعض تجار الأنتيكات من خان الخليلى، الدعوات كانت مطبوعة بماء الذهب على ورق ثمين، وتسهيلا لهم استأجرت أتوبيسا سياحيا خاصا وقف فى ميدان التحرير أمام مبنى الاتحاد الاشتراكى ووقف هليل بنفسه أمامه يستقبل القادمين، باسم الله ما شاء الله حضروا جميعا ما عدا محمد بك أبو شناف أرسل اعتذارا مع حازم..

تمت الدخلة فى سرايتى فى البلد وسط دهشة الجميع من مظاهر الثراء التى بانت فى الفرح فى الصباحية انهالت علينا فلوسا كبيرة من أقارب العروس وأقاربى فأهديتها جميعها للعروس تشترى بها مزيدا من الذهب، مما رفع مقامى فى نظرها ونظر أصهارى يا خال، الأهم من ذلك يا بوى أننى ضمنت قلب البنية فوضعته فى جيبى من أول ضمة.

چوكر

النصيب غلاب يا بوى كما قلت لك. كانت نيتى أن أمكث فى البلدة عشرة أيام على الأكثر ثم أعود بعروسى إلى القاهرة كى أفرجها على كل ما تحلم برؤيته، ولكن الظروف السعيدة شاءت أن أبقى فى البلدة أكثر من شهرين، فبينما نحن لم نفرغ بعد من

البوس والأحضان جاءنا الصويت من بلدة العزايزة ينعى موت سالم أبو حبه عين أعيان البلدة وعضو مجلس الأمة عن الدائرة التى تتبعها بلدتنا، لحظتها يا خال كنا نتأهب للسفر فجرا إلى القاهرة فى سيارة مخصوصة بيتنا عليها وأعطيناها العربون، لكننى تلقيت مرسالا من الجبل ينبه علىّ بعدم الرحيل ويطلبنى غدا للصعود إلى الجبل، رقص قلبى يا خال، تحلف اليمين أننى سمعت طبوله فى صدرى، كنت على علم بأن الملكة ـ الشيخة سعادة ـ سوف تجتمع بى على عجل فى استراحة الجبل السفلية فى نفس المغارة التى جمعت فيها حازم والمشعرانى بهليل يوم بيع تمثال رمسيس الذهبى، كانت الإجراءات الأمنية يا بوى تتفوق على الإجراءات الخاصة بالرئيس جمال عبد الناصر، كان هليل مرافقا لى على طول الخط، وفى اجتماع الملكة بنا تلقينا الخطة كاملة منها، على أن نشرع فى تنفيذها فى الحال..

الولد هليل ـ ربنا يعطيه العافية ويطول لى فى عمره ـ أدار الشغلة جيدا.. ذهب على رأس وفد إلى العزايزة، وأرسل أباه فى وفد إلى الغنايم، وبعث بعدد من رجالات الجبل ووجوهه فى وفود إلى الشنانية وأولاد إلياس وأبو حجر وكل بلاد مركز صدفا، وتكفل أصهارى بإرسال وفود من جانبهم إلى كل البلاد، أما عائلة خرابة بكل ثقلها فقد انتشر رجالها فى كل مكان، ثم جاءت الوفود كلها مبسوطة ملآنة بالفرح تقول إن جميع رجال الدائرة يرحبون

بترشيحى لمجلس الأمة وأن علىّ أن أتقدم بقلب جامد مطمئن إلى أن جميع أصواتهم فى جيبى من الآن، حيث أن الناس يا خال قد زهقوا من المرشحين من الباشوات القدامى والجدد الذين يستعلون عليهم بمجرد نجاحهم، فليجربوا المرشحين المتواضعين من أمثالهم، بل إن بعض العائلات أخذت المبادرة فى الحال فأقامت سرادقات دعتنى لزيارتها فى بلادها، لتقفل باب المفاوضات أمام غيرى، وجاءت تحريات الجبل تفيد بأن من سيرشح نفسه ضدى رجلان اثنان لا حول لهما ولا قوة، أحدهما مسيحى والآخر مسلم، يحترفان ترشيح نفسيهما كلما لاحت الفرصة دون أن يحالف أحدهما النجاح مرة واحدة، وكان هليل يستطيع مفاوضتهما على التنازل لكن الملكة نبهت عليه أن يدعهما وشأنهما..

ذهبت إلى المحامى عم زوجتى وانتدبته لمساعدتى فى القيام بإجراءات الترشيح التى لم أكن أعرف عنها أى شىء والله يا بوى، فبكل ترحيب سافر معى إلى القاهرة بنفسه فمكثنا بها نحو أسبوع كامل على نفقتى خلصنا فيه كل الأوراق والمسوغات؛ وقمنا بعدة زيارات لجهات أمنية لا أدرى من أمرها شيئا ولكن المحامى العقر الذى اتضح لى أنه شخصية كبيرة فى القاهرة وأنه عضو اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكى على مستوى أسيوط، أحاطنى علما بأن كل هذه المشاوير ضرورية وأننى يجب من الآن

أن أتعرف على جميع شخصيات الحكام فى مصر وخاصة رجال الحزب ورجال الأمن وكل الجهات التى قال لى إن اسمها الجهات التنفيذية يعنى التى فى يدها تنفيذ القوانين والأعمال.

بدأت الدعاية الانتخابية يا خال بمجرد إعلان قبول ترشيحى الذى سعى وراءه عم زوجتى بجهود طيبة، وآخر ما كنت أتصوره يا بوى أن الجهات المسماة بالأمنية لابد أن تقول رأيها فى المرشح بالقبول أو الرفض؛ ولو كنت أعلم ذلك من قبل لتكسرت مجاديفى خوفا من الشهور التى سبق لى أن أمضيتها فى السجن بسبب تهريبى للأسلحة والذخيرة من معسكر الجيش أيام كنت أبيع القهوة والشاى فيه للعسكر، إلا أن المحامى العقر وفر علىّ متاعب كبيرة يا بوى، ما ألذ هذه اللعبة وما أحلاها يا خال..

هنا العزوة الحقيقية يا بوى والأبهة التى على أصولها: ناس يحملونك فوق أكتافهم يهتفون بحياتك وأنت ماض بينهم كالعريس لا تسعك الأرض من الفرحة، وناس يخطبون أمامك فى الميكرفون بكلام قد لا تفهمه ولكنه ذو وقع حلو فى الأذنين، شعرت ياخال... كأننى مخلوق لهذه الأملة، وأننى يمكن أن أقتل أى مخلوق تسول له نفسه حرمانى من النجاح فى هذا الطريق..

أبرقت إلى غزولى وبربش وبسبوسة وهندى فجاءوا للمساعدة فى الدعاية، منحت كل واحد منهم مائة جنيه كمصروف يد، وكانت هذه الحركة أكبر إلهام لى من الله يا بوى، إذا بى يا بوى

لم أعرف الولد بربش بالذات على حقيقته! اتضح لى أنه خطيب مفوه يا بوى، ابن الفرطوس لا أدرى من أين يأتى بكل هذا الكلام الموزون الذى يملأ الدماغ، وبالنحوى يا بوى، الولد ابن حرام، عرف كل ما يحتاجه الناس فى بلادنا، وكل ما يفكرون فيه من مشاكل تؤرقهم وأحلام تؤنسهم، فصار يضرب على أوتارها فى كل سرادق نزوره وكل دار تستضيفنا، يسرع فى الحال بالوقوف ليتكلم نيابة عنى قائلا: إن سيادة النائب ـ يعنى أنا يا خال ـ سوف يفعل لكم كذا وكيت: مستشفيات، مدارس، سكك حديدية، مواصلات، وظائف لكل العاطلين، شق ترع ومصارف، ماكينات رى، إعانات للعاجزين، تمليك أرض للاستصلاح.. إلخ إلخ.. وكان يتكلم بجدية كبيرة يا خال، وينفعل مثل خطيب المسجد، والخلق كلهم يصفقون يهتفون بحياتى؛ فيخيل لى يا خال أننا جميعا نشارك فى تمثيل مسرحية، وأننا جميعا بمن فينا الجمهور نستحق أكبر جائزة على إتقاننا للأدوار..

طب ما قولك يا خال إن جدية بربش وانفعاله فى الخطب هما اللتان جعلتانى آخذ الأمر بجدية؟!

نعم يا بوى، إن اندماج بربش فى الخطب كأنه المرشح لا أنا،، كأنه كان ينتظر هذه الفرصة من زمان، جعلتنى أندمج أنا الآخر فى الدور بعد أن كنت أدارى وجهى بكمى موليا نحو الحائط لأضحك من الوضع الذى صرت فيه، ثم إن بسبوسة هو الآخر

كان ولدا جدعا لأقصى حد، لم ينادنى إلا بسيادة النائب، ويكلمنى باحترام كبير، يقول لى سيادتك وحضرتك وجنابك، ويساعدنى فى الرد على بعض الأسئلة التى كانت تنهال علىّ من الناخبين، أما غزولى فكان أشبه بخادم خصوصى معتبر، هو الذى يقدم لى القهوة، ويشعل لى السجائر، وينفض الغبار عن ثيابى، ويحمل عنى بعضها إن شعر أنى ضائق ببعضها، يسرب السجاير الملفوفة بالحشيش سرًا عندما نمتلك الخلاء، وسنة الأفيون، ومن حين لآخر يرش الكولونيا على الأيدى ليخفى فى رائحتها النفاذة رائحة الحشيش، إلى أن ثار فى وجهه أحد الصعايدة ثورة لطيفة مازحة طالبا منه منع هذه الرائحة لأنها تفسد على أنوفهم رائحة هذا الحشيش المعتبر. وكان داء السرحان وراء السطل ينتابنى كثيرا أثناء الخطب والكلام والترحيب، فأتصور أننا نقوم بعملية نصب من عملياتنا لحساب الحاج السنى.. حاجة تهوس يا بوى..

المحامى العقر عم زوجتى لم يستكبر علينا رغم كثرة مشاغله وضيق وقته الثمين، كثيرا ما فوجئت به مقبلا بسيارته الفورد العتيقة، فيشرب معنا فنجان قهوة فى السرادق أو يتعشى، ويقول كلمتين يشجع بهما الناخبين على انتخابى، ملمحا فى كلامه إلى أن المحامى سوف يريحه ويريح عنه الكثير من المهمات..

الطريف يا خال، والذى لا يمكن أن أنساه أبدا، أننى مدين للخطيب بربش وردود بسبوسة وملاحظاته وتعليقاته فى معرفة المهمة الأساسية لعضو البرلمان، نعم يا بوى، فحتى لحظة قيامى

بالدعاية لم أكن عرفت أى شىء عن هذه المهمة، إنما كانت المهمة غامضة فى رأسى، فحد علمى أن عضوية البرلمان هذه رتبة شرفية أو نيشان يأخذه العضو إذا نجح فى الانتخاب، يكون جواز المرور له فى كل مكان فى الجمهورية يدخله لتخليص مصالح المواطنين، ولكن خطب بربش وتعليقات غزولى ودروس بسبوسة الصريحة ونحن نتأهب للنوم فى سرايتى آخر الليل، كل ذلك فهمت منه أن عضو البرلمان هذا شىء كبير يا بوى، إنه لابد أن يحضر اجتماعات البرلمان الدورية حيث يعرض كل عضو مشاكل وأوضاع أهل دائرته مطالبا لهم بكذا وكيت من الخدمات، ورفع كذا وكيت من المظالم، وأنه يجب أن يستجوب أى وزير يشاء وحتى رئيس الوزراء نفسه، وأن يوجه إليه الأسئلة والانتقادات حول ما لا يعجبه من أوضاع البلاد كل وزير فى دائرة اختصاصه. أما أن يلف العضو على المصالح الحكومية لتخليص مصالح لأهل دائرته ولنفسه فتلك شغلة جانبية لن يفلح فيها إلا إذا أفلح فى المهمة الأساسية وبات معروفًا مشهورًا بكثرة استجواباته للوزراء وبحدته وطول لسانه وجراته فى الاستجوابات، ومن النصائح التى لا أنساها للولد بسبوسة الجدع قوله لى فى وقت مبكر إننى يجب أن أبحث عن ثلاثة أو أربعة ولدان من عيال الصحافة أصاحبهم وأنفق عليهم لكى تظل أخبارى دائما فى الصحف، وهذا ما حرصت عليه بالفعل يا بوى وعملت على تدبيره..

وفيما نحن فى هذه الزيطة إذا بى أفاجأ بحضور حازم والرجل المشعرانى، أتى بهما الرجال إلى السرادق فى الدوير. أخذته إلى المندرة خلف السرادق؛ ملت عليه هامسًا، مستقطبًا من الحفل روحا معنوية:

ـ «تحت أمرك يا حازم بك!»

مال نحوى هو الآخر بادلنى الهمس:

ـ الأمر وما فيه أن محمد بك مطلوب منه بعض الحلى! أقرع! حلقان! أساور! جعارين، ولو أنك كلمت صاحبك المعلم ليبحث له عن رأس نفرتيتى من الذهب أو حتى من المرمر فإنه يشكرك ولا ينسى الجميل!!»

قلت لنفسى: وه يا بوى هذه شبكة ستصطادك يا حسن فخذ بالله ستجىء الضربة من هنا لتفسد عليك كل هذا الحلم، ما دار فى دماغى لحظتها أن أهب فيه وأنكر معرفتى بأى شىء مما يتحدث عنه لكننى عجزت عن الاستندال يا بوى، نقصتنى بجاحة المرأة الداعرة، سيما وأننى لم ألحظ أية وجوه غريبة أو حركة مريبة قلت لنفسى إن اللباقة هى المنقذ الوحيد من هذه الورطة، ثم فكرت بسرعة فيما عندى من قطع، فتذكرت أن بها بعض هذه الأشياء التى طلبها أما بقية ما طلب فكله موجود عند الملكة، ولكن كيف يتأتى لى الآن استحضار شىء من هذا أو ذاك وكيف نفاصل

ونساوم وعلى أى مثل نقيس الأسعار سيما وأننى غشيم فى المهنة لم أتودك بعد، رحت أبحث فى دماغى عن معنى لكلمة اللباقة التى أسمعها كثيرًا فى مثل هذه المواقف، فإذا بى أقول بنبرة اعتذار فيها قدر كبير من الود:

- «حازم بك أنت ترى الآن ما نحن فيه من انشغال! طلبك هذا يمكن أن البيه على عينى ورأسى ولكن بعد أن ننتهى من هذه الشغلة فالبلدة كلها ليس عندها وقت تهرش فيه رأسها»..

ابتسم بلطف:

- «على فكرة معى حقيبة ملآنة بالفلوس يعنى ما يطلبه المعا سيأخذه وزيادة!!»

انتصب الخوف فى جوفى يا بوى، فهذا إغراء غير مريح فى مثل هذا الظرف الحرج، قلت بشىء قليل جدا من الحدة:

- «هذا مستحيل يا حازم بك! ليس من المعقول ولا من المقبول أن أترك الناس وأذهب للبحث عن طلب كهذا!! إنك لست تطلب علبة سجاير أتلقفها من على رف الدكان!!»

شوح بحركة مرحة مازحة:

- «إن المرشح لن يغضب منك إذا غبت عن مجاملته يومًا أو نصف يوم ولا شك أنه قد رآنى وعرف أن عندك ضيفًا!!»

شوحت بدورى مبتسمًا فى سخرية:

- «إن المرشح هو أنا يا حازم بك! أنا العريس الذى تريد منه أن يترك عروسه فى الكوشة ويهرب!!»

من فرط المفاجأة وقف على حيله يا بوى، مبهوتا:

- «أنت المرشح؟ هذه الدعاية كلها لك إذن؟!»

ثم انفجر فى ضحكة صاعقة:

- «كنت أظنك تمزح يوم حدثتنا فى هذا الأمر ذات ليلة!!»

قلت بزهو كبير:

- «لا يا بو العم لم أكن أمزح!!»

قال باريحية لم أكن اتوقعها:

- «خلاص يا حسن! أقصد يا حسن بك! متى يكون موعد الانتخاب؟!»

- «بعد غد يا بو العم! نحن الآن نضرب فوق الحديد وهو ساخن! وبعد ساعات معدودة يتحدد مصير العبد لله!!»

فكر قليلا ثم أشرق وجهه:

- «حلو! أنا إذن جئت فى وقتى! شف يا عم! نحن جدعان الصعايدة بالضبط! نخدم الصديق نفديه بروحنا! سأقدم لك خدمة العمر فى مقابل أن تكون جدعًا معى وتأتى لى بطلبى من تحت طقاطيق الارض!!»

ضحكت:

- «ستبقى إذن لتساعدنى فى الدعاية؟!»

أومأ برأسه:

- «وأكثر من الدعاية!!»

- «ومحمد بك الذى ينتظرك؟!»

- «ساكلمه فى التليفون وأبلغه بما حدث! وسوف يرحب طبعا! لن يمانع فى أن أبقى هنا يومين أو ثلاثة من أجلك ومن أجل المصلحة!!»

- «قلت إنك ستساعدنى بأكثر من الدعاية! كيف؟!»

تراجع بذقنه مستنكرا جهلى بإمكانياته، أضاف:

- «يكفى أن أمر معك على اللجان!! مجرد أن يرانى رؤساء اللجان معك!! لو كنت فى ذيل القائمة تصبح على رأسها!!»

- «وه! وه! كيف يا بو العم؟!»

- «سترى! أنت لم تعرفنا على حقيقتنا بعد يا أبا على!! وهذه فرصة لأريك من نحن!! يجب أن تعرف أننا عائلة كبيرة بمعنى الكلمة وسرها باتع!!»

جعلت أتمعن فى وجهه وقد تصور لى عفريتا من الجن فى هيئة إنسان رقيق، قلت لنفسى: خليك مع الكذاب لحد باب الدار وشف نهايتها، لن تخسر شيئا، قلت له...

- «وأنا يا حازم بك لن أنسى لك هذه الخدمة مدى الحياة!»

بلهجة غاية فى العملية علق:

- «لا تؤاخذنى! هناك مثل إنجليزى يجب أن تعرفه لكى تتعامل به من الآن خاصة بعد أن تنجح: بزنس إذ بزنس!! ومعناه شغل الصداقة شغل! تكسبنى واكسبك!!»

- «فهمت! فهمت تماما يا حازم بك! والآن! ما يساوى مائة سأجلبه لك بعشرة فقط! يعجبك هذا؟!»

رفع ذراعه فى تنبيه:

- «ليس هذا فحسب يا أبا على!!»

- «والمزيد؟!»

وإن قال لى بالقطع النادرة!! الأندر! الأهم التى لا نتعب فى تصريفها بسهولة! وفى نفس الوقت تستاهل التعب والمغامرة!!»

لحظة.. يا خال اطمأن بالى وهدأ بلبالى، أيقنت بإخلاصه العمل، هو شاطر فحسب يريد أن يكون الغالب فلا بأس، قلت:

- «وهو كذلك يا حازم بك! ستكون أغنى واحد فى مصر بإذن الله من ورائى!!»

نهض واقفا وقد ركبته حماسة مفاجئة:

- «على خيرة الله! إتفقنا ما أقرب سنترال هنا؟»

- «سأبعث معك مرسالاً إلى مركز صدفا!»

خرجت فناديت واحدًا من الولدان من أصهاري، أمرته أن يركب مع البيك لحد سنترال مركز صدفا ثم يعود به..

عندما دخلت السرادق وحدى استوقفنى هليل على جنب، وكان قلقًا بشكل أزعجنى بل زلزلنى يا خال، قلت له: تشيل طاجن ستك لماذا؟ صار يكح مسلكا صوته، قال بحشرجة قلب واجف:

- «يظهر أن الميزان سينقلب يا بو العم! أخشى أن تضيع منا الدائرة!!»

صحت فزعا:

- «فال الله ولا فالك! ما الذى جعلك تقول هذا الكلام الماسخ؟!»

قال بجدية غير مريحة:

- «أنت مع ضيفك من ساعة لم تسمع الميكروفونات المنافسة لنا!! المهم يا بو العم! أكدت الأخبار أن الرجل المسيحى العضمة الزرقاء تنازل للمرشح الثانى وسلمه كل أصواته! يظهر أنه قبض قرشين! المرشح الآخر يلف على الدور من صبحية ربنا يوزع الأموال باليمين وبالشمال! قرر أن يشترى أصوات الدائرة مهما كلفته! إنه كما تعرف لص كبير طول عمره! ولو نجح فى الشراء فلن يبقى من الأصوات سوى عائلاتنا فى مواجهة سواد الشعب!!»..

فكأنه ضربنى بالصرمة القديمة على وجهى يا بوى. وقفت مبلما يتدفق العرق من جبينى ويجرى فى قناة ظهرى. صحوت من الحلم، قلت لنفسى: نعم هكذا تكون الأمور صحيحة طبيعية إذ ليس من الطبيعى أن مثلى يتطاول مرة واحدة إلى مثل هذه الأملة. شعرت أن الغضب قد بدأت ناره ترفع ألسنتها فى صدرى، وخيل لى أن شخصيتى الحقيقية: الحرامى حسن أبو ضب، رد السجون، قد أوشكت أن تطل من ثيابى لتفسد كل هذه الصورة البديعة جاءنى صوت لعله صوت أبى بحكمته الساخرة: أنت لن تخسر شيئا يا ولد الناس خليك فى الحلم لنهايته فعلى الأقل تستمتع بالساعات الباقية بارتفاع صيتك بدلا من أن تنكد على نفسك من الآن. طغى عليه صوت الملكة فى صدرى: إثبت فى مكانك يا عبيط يا أحمق فهذه كلها أخبار ولا أحد يدرى أين يتجه سهم النصيب المقدور على الخلق فإن كانت هذه الأخبار صحيحة فإنها تدل على قوتك الواضحة فدع من يلعب يخسر كل أوراقه واستمر أنت فى اتكالك على الله وحتما لن يخذلك لأنك ربما كنت أفيد للناس من غيرك حتى لو كنت جاهلا وهو متعلم نكرة وهو شهير..

قلت لهليل:

«نحن معنا الله يا هليل! نفعل ما نقدر عليه والباقى على الله! والعبرة بالخواتيم كما يقول المثل!!».

وسحبته إلى المقعد المخصص له فى السرادق، فرافقنى خطوات ثم ارتد شاردا يباشر استطلاعاته وتحرياته..

تلقفنى بربش بنظرات هلعة، تطل من عينين مضيقتين كثقبين مفتوحين على جهنم، لدرجة أننى هربت منها يا خال، فوقعت عينى فى عين بسبوسة الواسعتين طويلتى الرموش كبحيرتين من صفاء مريب، فإذا فيهما نظرات ابتهاج مفعم بالتفاؤل والرضا. أما غزولى فقد نكس رأسه فى حياء مفتعل وراح يشد خيطا خفيا مدككا فى شفتيه مثل استك السروال، يشده فتنكمش الشفتان على بعضهما ليصير شدقاه مثل بك الفلوس الحريمى، ويرخيه فتنفرج الشفتان ببسمة شديدة الخبث تنضح بخسد معلن يكاد يفخر به. قلت فى توجس هامس:

- «مالكم يا أولاد الفرطوس؟ شكلكم ليس طبيعيًا!!»

قال بربش فى حسد واضح:

- «لا! لا أمرك صار ملفتا للنظر! هناك سر!!»

- «لا حول ولا قوة إلا بالله! لا سر ولا حاجة يا بربش! استهدى بالله ولا تسرح بعقلك بعيدا!!»

- «يا ماء من تحت تبن!! أنت يطلع منك كل هذا! إنك إذن لمن الأقوياء الخطرين!! أنت عضمة ثقيلة!!»

- «إكشف عن غرضك يا بربش!!»

- «كيف وصلت إلى أنور السادات يا عكروت؟!»

- «أنور السادات؟!»

وشملنى الرعب يا بوى، أمسكت بطوق جلبابى هززته:

- «إيش أوصلنى أنا لأنور السادات يا بربش؟! أنا لم أره فى حياتى ولا أستطيع الوصول إليه!!»

- «اطلع من دول يا عكروت!! كيف إذن يرسل بأخيه ليقف بجوارك فى الدعاية؟!»

- «أخوه حتة واحدة؟!»

ثم ضحكت إذ أدركت حقيقة اللبس:

- «هذا الضيف يا بو العم اسمه حازم أبو شناف!!»

انفجرت الضحكة الساخرة من ثلاثتهم، وقال بسبوسة فى ابتسامة جميلة وغمزة أجمل:

- «على كل حال الاسم لا يهم! أبو شناف أبو جلمبو!!»

اوما غزولى بخبث:

- «ما يضر!! بالعكس! أبو شناف أحسن!!»

حتى هندى، الذى لم يفتح فمه بكلمة منذ وصوله قال فى اريحية

«تستغفلنا أم تستغفل نفسك؟! يا راجل عيب!!»

وقال بربش كأنه يخلص ذمته من الله:

- «هذا الذى كان هنا منذ دقائق هو أصغر أخوة أنور السادات النائب الأول لرئيس الجمهورية جمال عبد الناصر!!»

صحت فيه بقليل من الغضب، ربما لأستفزه يا خال، للإدلاء بمزيد من المعلومات:

- «من أدراك أنه هو؟! منجم حضرتك؟ أم تراك تعرف جميع أبناء الخلق؟!»

نقر بأصبعه على ذراعى فى ثقة:

- «إننى أعرفه جيدا! اشتغلنا معه كثيرًا! وهو ولد طيب على كل حال وجدع! وصاحب صاحبه!!»

اغتظت رغم الفرحة الكبيرة يا بوى، صحت فى بربش:

«يا أبا الحاج! هذا حازم أبو شناف وهو من معارف الحاج أحمد نوار الدين السنى وعن طريقه عرفنى وعرفته! جاءنى فى فرحى لكنكم لم تروه لأنه انصرف بعد دقائق!!»

ضحكوا فى نفس واحد، وركز بربش نظراته الثاقبة فى عينى، نظرات صايع كبير عجوز:

- «ولماذا جاء الليلة يا ترى؟!»

ارتبكت قليلا، فانفعلت:

- «كان هنا فى مشوار ورأى أن يفوت ويسلم علىَّ!! أنت قلت إنه ولد جدع وطيب وخدوم! فلما علم الآن أننى داخل الانتخابات صمم أن يبقى بجوارى يساعدنى وهو حاليا يتكلم فى التليفون!!»

تبادلوا نظرة ذات معنى غامض، نضحت نفس البسمة على وجوههم. قال بربش:

- «هنيئا لك يا عم! اقتنعنا الآن أنك عبقرى زمانك أنت لعبتها صح! ونفعت اللعبة!»

وقال بسبوسة:

- «النتيجة بانت فى الحال!!»

- «كيف يا بسبوسة؟!»

رد غزولى:

- «كل من كانوا هنا ساعة دخوله ذهلوا وقالوا لبعضهم أنور السادات بعث بأخيه لتأييدك وتهديد خصومك!! بعضهم قال بإعجاب وفرح: رئاسة الجمهورية بنفسها تؤيد حسن بك وتقف وراءه وهذا المرسال معناه: يا أهل الدائرة هذا الرجل سينجح يعنى سينجح فاجعلوها تجىء من عندكم أحسن!! أنا أراقب الناس من ساعتها وأتنصت عليهم!! كان الواحد منهم يخرج ويعود ومعه عشرة!! ألست تلاحظ أن السرادق ازدحم الآن بشكل غير طبيعى؟! كل هؤلاء جاءوا ليتأكدوا من الأمر!!»

فعلا يا بوى، السرادق ازدحم بصورة لم يسبق لها مثيل. الواقفون أضعاف الجالسين، والمتجمعون خارج السرادق أضعاف هؤلاء وأولئك. آخر نظاكه يا بوى، كلهم عيونهم هائجة تبحث عن

الضيف، قلت لنفسي: منصورة بإذن الله يا بوى، أيقنت أنه دعاء الوالدين وبركة الشيخة سعادة..

اقترب بسبوسة منى أكثر، وأشار بطرف عينه إلى الرجل المشعراني الذى كنت قد نسيته تماما يا بوى، وكان جالسًا قرب باب السرادق فى حالة من حب الاستطلاع الشغوف بالزحمة. قال بسبوسة:

ـ «هذا الشاب ابن رأس كبيرة فى مجلس قيادة الثورة! من أكابر الضباط الأحرار! لكنه مختف عن الأنظار لا نشاط له!! وأم صاحبنا هذا شبه مطلقة حاليا! المهم أنها تعيش بأولادها منه ـ وهذا أكبرهم ـ وحدها فى شقتهم القديمة!! أما الرجل الكبير فإنه مزواج مطلاق!! يعيش الآن مع زوجة صغيرة السن فى ڤيلا بعيدة!! حالته على فكرة ميسورة يعنى يجد كل طلباته والحمد لله!! فلأنه خائب فى مسائل المكسب والاستفادة من المركز لأنه كما يقولون عنه فى الأصل رجل مبادىء فإن جمال عبد الناصر يعطف عليه ويرسل له نفقة شهرية كبيرة!! وهو من جانبه كل حين يفزع فزعة يثير بها بعض الزوابع حتى يلهف قرشين كبيرين من الرياسة أو من أى مكان!! الرياسة تداديه تحمد الله أنه ترك لهم شئون السلطنة وابتعد ليعيش حياته!! هم ربك والحق فرحون بهذا فليأخذ ما يشاء طالما أنه لا يشاركهم فى السلطنة!! أما هذا الولد الداهية ـ ابنه ـ فمن أشطر الشطار! له نشاط دولى معروف! يتاجر فى أشياء كثيرة جدا من الخردة إلى الآثار إلى السلاح للفدائيين الفلسطينيين! وبدون رسمال على شرط!! يعتمد على السمسرة والعمولات! يعيش عيشة الأمراء الصعاليك كل يوم فى بلد كل ليلة معه امرأة جديدة لكنه هو الآخر طيب رغم ذلك!! غير شرير بمعنى أصح! ولهذا يتركونه فى حاله ويخلصونه من كل ورطة وورطة!!»

لأننى أحب بسبوسة يابوى، وأثق فى كلامه ومعلوماته، فقد اقتنعت بكل ما قاله بربش، لأن بسبوسة لم ينفه، فكرت يا خال فى أن أغير مظهرى وطريقة احتفالى بالضيف تبعا لهذه المعلومات المبهرة، لكى أرسم الوضع كما ينبغى يا خال. لكن صوت الملكة صاح فى أذنى: دع كل شىء يمضى كما هو فلا تتدخل بأى تصرف قد يفسد عليك الطبخة الإلهية..

رفعت بصرى بعد شرود، فإذا بهليل على باب السرادق يشير لى أن تعال، انسلخت من الشلة الوسخة ذاهبًا أتعثر فى الكراسى والأكتاف والمناكب، وأرد على التحيات البهيجة المنهمرة من كل ناحية. لاحظت بقلب واجف فرحان أن الجميع يقولون لى: يا سعادة البيه. فجعلت أكتم ضحكتى بقوة خرافية..

سحبنى هليل إلى بعيد جدا، إلى قلب الطريق الزراعى على شاطىء الترعة. ضغط بأصابعه على ذراعى فى فرح:

ـ «ما الخبر؟! البلاد من حولنا انقلبت! الطرقات تدلق ناسا على السرادق!!»

ـ «خير ماذا يا هليل؟!»

ـ «هناك شائعة جرت فى بلدان العب كله كالحريق: أنور السادات بنفسه جاء إلى السرادق لتأييدك!! أين هو؟! ناس من الشناينة ومن العزايزة ومن الغنايم وكله آت يسألنى أضحك وأعمل كأننى أعرف ولا أريد أن أتكلم!! لقد زعق لنا نبى من السماء يا بو العم!!»

ضحكت فى جزل، صرت أعض على نواجذى، أكمل هليل:

ـ «لماذا تضحك هكذا؟!»

ـ «فعلا يا هليل: زعق لنا نبى من السماء! المضحك أنك رأيت الضيف وزميله عدة مرات! من يوم الجبل إلى اليوم!!»

ـ «وه!! نكتة هايلة يا بو العم! الولد فعلا يشبه أنور السادات الخالق الناطق! نفس الدم نفس الصلعة نفس العود!! طويل سرح!!»

اندمج فى الضحك هو الآخر يا بوى. صرنا نروح ونجىء على الطريق، والآتون يهبطون عن الركائب ليسلموا علينا فى حرارة، والسؤال على شفاههم: هل أنور السادات فى السرادق؟ ونكاد نجيبهم بنظراتنا أن: نعم..

بربش و بسبوسة وغزولى وهندى أصبحوا يبيتون عند هليل، وعندما ظهر حازم والمشعرانى أصر أصهارى على استضافتهما فأوعزت إليهم بألا يثقلوا عليهما فى الأسئلة؛ وأخيرا فضلت أن

أبقى معهما، وذهب وفد من نسوان دارنا للمبيت مع العروسة التى فضلت ألا تترك دارها درءا للفأل السىء فى شهر العسل. وفى الليل انفردت بحازم مع كوبين من الشاى وحجرين، ثم سألته مباشرة دون لف أو دوران:

ـ «قل لى يا بو العم! هل أنت حقا شقيق أنور السادات؟!»

لم تظهر عليه أية مفاجأة يا خال، قال بسرعة:

ـ «لا بكل أسف! لست شقيقه!!»

ـ «عجايب! ولكنك صورة طبق الأصل منه!!»

ـ «وما الضرر فى ذلك؟!»

ـ «لا ضرر ولا ضرار يا بو العم!»

ـ «الجميع هنا طبعًا تصوروا أننى شقيقه!!»

ـ «طبعًا يا بوى!»

ـ «مصلحة! دعهم يتصورون!!»

ـ «ولكننى نفيت لهم ذلك!»

«لا تنف ولا تؤكد! دع الأمر عائمًا!!»

«خلاص يا بوى!»

[illegible] يا بوى كنت إلى التأييد أميل: التأكيد من خلال النفى، حتى إذا ما جاء يوم الانتخاب صار العبد لله كالامبراطور، يا ربى، ما كل هذه الواجبات التى فعلتها معى؟ لقد رسمتنى بعنايتك حقا

حـقا إن من ينصـره الله لا غالـب له. ما كنت أتصـور يا بوى أن سيارة ملاكى تشبه الطائرة بنمر قاهرية سوف تأتينى فى اللحظة المناسـبـة لكى تكون تحت أمـرى وإذ بى أتـنقل بهـا بين اللجـان فتضـفى على مظهرى أناقة وأبهة؛ تلك هى سـيارة حازم. عند كل لجنة من اللجان ننزل وسط احتفال كـبير، نمر على أعضاء اللجان مجرد مرور. كان أصـهارى قد عينوا فى كل لجنة مندوبًا عنى من طرفهم يراقب العملية الانتخابيـة، كل مندوب مزود بقدر كبير من المال يغدق بـه على أعضاء اللجـنة شايًا وقهـوة ومرطبـات وغداء وسجاير وهدايا غـير مرئية. وقد روعى فى اخـتيارهم أن يكونوا على قـدر كبـير من الذكـاء والتفـتح والوعى والفهلوة مـع إجادة القـراءة والكتـابة. هؤلاء يا خـال لعـبـوا دورًا خطيـرًا فى إرهاب اللجان بصنعة لطافة، أكدوا إشـاعة أن شقيق السادات جاء مندوبًا عن أخيه لتـدعيم مركز مرشح الثـورة الذى هو أنا بل زعموا أننى عضمة كبيرة فى التنظيم الطليـعى الذى كونه عبد الناصر ليضـرب به الاتحاد الاشتراكى. فما يكاد حازم يظهر فى مدخل اللجنة حتى يكون المندوب قد هيأ اللجنة لاستقباله بحرارة ويريه رئيسها مدى جـدية العـمل وخلوه من أى لبش، وكل من لا يعـرف القـراءة من الناخـبين ـ وما أشـد كثـرتهم ـ ملأت له اللجنـة بطاقته بـاسمى تلقائيًا حتى لو ذكر لهم شخصا آخر غيرى..

سارت الأمور كما ينبـغى يا خال، تم كل شىء بنجاح وسلام. فـما أن أغلقت الصناديق ورحلـت إلى لجنة الفرز حـتى صحـبت حـازم إلى منزلى فجلسنا فـى المندرة نسـتـريح اسـتـعدادا لملاقـاة لجان الفرز. وكنت أثناء تجهيـز البيت للزواج قد أجريت تعديلات، فجـعلت من حجرة نومـى السابقة مـخزنا للأشيـاء الخصوصـية فـتحت فى حـائطها الداخلى دولابًـا سحـريًا يتفـرع منه نفقـان سـريان فى قلب الجـدار، للأسلحـة وللقطع الأثرية. تسللت إليـه لأجهز لحازم بعض القطع المطلوبة، فـإذا بى أفاجأ برأس نفرتيتى من الذهب الخالص موجودة بين القطع. ففرحت جدًا يا خال،وقلت فلتكن هذه القطعة وحدها هدية لحازم إن جاءنى نبأ النجاح. وفعلا يا خـال، تلقيت النبـأ كامـلا فى اليـوم التالى، فـارتفعت الطبـول والأعلام والزغـاريد، عمت البـلاد فرحة صـاخبـة، وبدأت الوفود تتدفق علينا للتهنئة، استدعيت حازم إلى حجرة داخلية، قلت له إن المعلم قد نفذ له طلبه بخصوص رأس نـفرتيتى ويعده بتنفـيذ كل طلباته بعد أن نفـيق من دوشة التهانى. انشـرح صدر حازم وهو يتفرج على القطعة بفرح عظيم، قال:

ـ «كم يطلب المعلم فيها؟!»

قلت بعد تردد قليل:

ـ «إدفع ما معك وأنا أكمل الباقى من جيبى!»

قال فى شىء من الخجل والتلعثم:

ـ «والله! صراحة يعنى! محمد بك أعطانى خمسين ألفا فقط!!»

اعتقلت فرحتى الطاغية ورسمت بدلا منها صدمة كبيرة:

- «تعرف طبعا ثمنها الحقيقى!»

بقليل من الخبث المفضوح:

- «كم تظن أنت؟!»

- «مفصول للمعلم بثلاثمائة ألف!!»

- «ليس خسارة فيها! ولكنك تستطيع أن تتفاهم مع محمد بك فيما بعد!!»

- «خل عنك! خذها ووصلنى ثمنها!»

- «قد القول!»

وفتح الحقيبة بغير تردد، عد لى خمسين رزمة مؤستكة. وكان من الواضح أن الحقيبة لا تزال عامرة، وأنه سيسفح مبلغا رهيبًا من وراء هذه الصفقة، لكننى كنت راضيًا تمامًا. عانقنى بحرارة قال إنه وأخيه تحت أمرى فى كل ما أطلب فى كل وقت، ثم انصرف عائدًا إلى القاهرة بشبه مظاهرة أوصلته حتى طريق أسيوط. أما أنا فذهبت إلى هليل لأتناول الغداء عنده مع الشلة الوسخة، فانتابتنى نوبة كرم عاتية، نفحت كل واحد منهم ألف جنيه: مش خسارة فيكم يا أولاد الفرطوس. ثم قلت لهم: أنا الآن عضو بالبرلمان وأنتم من الآن رجالى وباتت مصلحتكم عندى فوق كل اعتبار. وودعتهم على موعد محدد فى القاهرة فى شقتى بعد أيام. أما يوم سفرى أنا والعروس يا خال، فحدث ولا حرج.

شايب

جاءنى المعلم شندويلى يقدم التهنئة الحارة الطالعة من قلبه فعلا يا خال. كانت هذه أول مرة يدخل فيها عمارته منذ أن بارحها إلى مصر الجديدة هربًا من الغازية الساكنة قبالتى. أهلا وسهلا كيف الاحوال، كلمة فى حدوتة عرفت أنه يعمل الآن فى تجارة أراضى البناء، يشترى القطع بأسعار تافهة نظرا لأنها فى أماكن بعيدة عن العمران، ثم يركنها وينساها واثقًا من أن العمران سيمتد إليها إن عاجلا أو آجلا، وعندما يقترب منها العمران يشرع فى بيعها بأسعار خيالية: فى الهرم والجيزة والكيت كات ومصر الجديدة والزيتون والوراق. قلت والله إنها لشغلة مربحة ومكسب مضمون، فقال إنه مستعد لإرشادى إلى الأماكن التى تباع فيها الأراضى. أمهلته شهرا واحدا حتى انتهى من تعلم قيادة السيارات. ذلك أن الولد بسبوسة ـ الله يستره ـ طلعها فى دماغى، وتكفل بالبحث عن سيارة محترمة، ثم اصطحبنى إلى معرض سيارات يدعى السعودى فتفرجنا على عدد من السيارات المعروضة منها الجديد على الزيرو ومنها النصف عمر. توقفنا أمام واحدة ماركة شيفروليه، وهذه كما قال بسبوسة من أشهر وأجود الماركات لا يركبها إلا الناس الأبهة، الدليل على ذلك أن هذه السيارة يملكها مدير الأمن السابق وهو من عائلة صعيدية ثرية مشهورة، يبيعها لأنه يريد أن يركب واحدة جديدة فالعظماء المهمون دائمًا هكذا يا بوى، قلت لبسبوسة:

ـ «هل السيارة جديدة فى نظرك يا بسبوسة؟ قال: تمام التمام على ضمانة المعرض جئنا بالميكانيكى ففحصها وشهد لصالحها، فانتهينا فيها بثلاثة آلاف جنيه لأن السيارة كانت بحالتها لم يمض على إنتاجها سوى عام واحد، ومزودة بكل الكماليات وفى حقيبتها ثلاجة تنفع للرحلات الطويلة، ثم إن لونها أسود. قلت إنها لا ينقصها سوى الراية لكى تصبح دبلوماسية. فضحك بسبوسة قائلا:

ـ «دبلوماسية إيه وراية إيه يا عبيط؟! إن حصانتك أقوى بكثير!»

طلبت منه إيضاحًا لهذه الكلمة يا بوى. فلما شرح لى معنى الحصانة التى يتمتع بها عضو مجلس الأمة فردت صدرى من فرح وزهو حتى خيل لى أن البلاد كلها صارت ملكى مسخرة لخدمتى، وحمدت الله الذى لا يحمد على مكروه سواه. ثم إن بسبوسة تكفل بتعليمى فى ظرف شهر واحد حتى أصبحت كانى ولدت سائقًا..

أول مشوار ركبتها إليه كان إلى منطقة الوراق ومنها إلى أرض اللواء فالهرم، حيث اشتريت مجموعة من القطع تتراوح مساحاتها بين المائتين والثلاثمائة وخمسين مترًا، واخترت بسبوسة ليكون مديرًا لأعمالى، إن عمله فى الحكومة لا يتطلب منه وقتًا طويلاً، فليمكث كل وقته معى، بمرتب شهرى يساوى مرتبه من الحكومة

فى عام كامل، مما جعله يتفانى فى خدمتى. ولما كان أشد واحد فى الشلة حفظًا للأسرار وكتمانًا فقد أشركته سرًا فى العمليات التى تتم بينى وبين حازم والمشعرانى، سيما وأن دائرة هذه العمليات قد اتسعت فأصبحت أتعامل مباشرة ـ فى السر أيضًا ـ مع الحاج قدرى والحاج الأصفراوى والمعلم عطاطس وهذا الأخير قبطى من أغنى أغنياء الكرة الأرضية، تقيم أسرته كلها فى أمريكا ويعتبر أحد ثلاثة فى العالم يتحكمون فى سعر الذهب، فهو أكبر تجارة فى مصر والمنطقة العربية كلها ومحلاته منتشرة فى جميع أنحاء البلاد يديرها أقاربه فى حين يتفرغ هو لتسويق النحاس القديم ومشغولات الذهب والأنتيكات وكل ما هو ذو طابع أثرى . المعلم عطاطس والحاج قدرى والأصفراوى وحازم والمشعرانى يعرفون أننى مجرد وسيط فوق العادة. وأنا لبست الدور جيدًا يا خال، فلا فصال معى ومن هنا انعدم الفصال من أساسه، وكل كلمة أسمعها من واحد منهم لا أرد عليها فى الحال، بل أقول: سأكلم المعلم وأرد عليك وهذا الرد يقلق طالب الشراء فيتصور أننى سأتنصل من البيع فيعمل جهده لينهى البيعة على نحو يرضينى. وقد أبرمت اتفاقًا مع الملكة أنها تعطينى القطعة بثمن معين نحدده معًا، وأبيعها أنا بالثمن الذى يروق لى، وجيب بسبوسة هو المخزن الأمين للقطع حتى تنتهى المساومات وإن استمرت أيامًا. ولما رأت الملكة أننى أعطيها أسعارًا خيالية كشفت لى ما أذهلنى يا بوى: لديها مخزن لا ينضب أبدًا مدى الدهر من

القطع الأثرية النادرة المتنوعة، من قطع توضع فى الجيب إلى قطع تحتاج لبلدوزر يا بوى، وحتى هذه لم نعدم وسيلة لتفكيكها ونقلها مع الحديد الخردة..

جاءنى بسبوسة ذات يوم يخبرنى أن الراقصة الساكنة قبالتى تزوجت أحد شيوخ النفط فابتنى لها قصرًا فى مصر الجديدة، وترى الآن أن تفوضنى فى بيع الشقة لى. فاشتريتها فى الحال، وسويت الأمر نهائيًا مع المعلم شندويلى بأن اشتريت العمارة كلها بثمن بخس. جهزت الشقة كمكتب لى، وبواسطة بسبوسة تم تركيب خطين تليفونيين فى الشقة والمكتب، وخط ثالث فى دارى بالبلدة..

محب للخير أيضًا هذا الولد، وحبه للشلة الوسخة أكبر من حبه لأى شىء آخر. طلبت منه أن يستأجر لنا شقة صغيرة فى حى شعبى آمن نقضى فيها سهراتنا لزوم شرب الحجرين بعيدًا عن الواغش على أن تكون لنا وحدنا لا يدخلها مخلوق آخر. ففوجئت به يوم كلمته يصطحبنى لمعاينتها. كان يعرف ما ساطلبه فيجهزه قبل أن أطلبه. قال لى ونحن نتفرج على الشقة إننى لا يجب أن أتخلى عن الشلة لأنها ستكون يدى اليمنى فى أى عمل أقوم به، فإذا كان هو قد أصبح المدير التنفيذى لأعمالى فإن بربش فى رأيه يستطيع أن يكون أكثر من عشرين مديرًا فى مدير واحد: ينظم شئون المكتب ومواعيدى مع المسئولين ومواعيد الزوار معى، يكون

حلقة الوصل بينى وبين هؤلاء وأولئك، يستمع إلى أصحاب المشاكل والطلبات نيابة عنى. ثم نبهنى إلى شىء لطيف، فثمة فرق كبير بين أن أطلب المسئولين بنفسى وأن يطلب ذلك موظف عندى يقول للطرف الآخر: حسن بك مع حضرتك حسن بك يطلب المقابلة! حسن بك سيكون هنا الساعة كذا.. إلخ، يستطيع أيضا أن يكون مديرا للدعاية، يتصل بالصحف يبلغها ويرد عليها نيابة عنى يجند المحررين للكتابة عن أعمالى الخيرية التى ليس من المهم أن أقوم بها فعلا. أما غزولى فالفوائد من ورائه لا تحصى ولا تعد، ابتداء من المشاوير البسيطة إلى المهمات الثقيلة، فهو متودك، مدرب على المشى وجمع التحريات، لديه خبرات كثيرة، وحسن تصرف، ولباقة، وأمانة، أما الولد هندى، صديقى المقرب من زمن مضى، كيف يتأتى له أن أهمله؟ قلت له:

ـ «غلبتنى يا بسبوسة! وأظنكم جميعا مخلصون لى!!»

تبسم الولد بسمة متألم مندهش:

ـ «شف يا صاحبى! نحن عيال جدعان نساوى ثقلنا ذهبًا! نحن الذين علمناك التفتيح والشغل المربح! عاشرتنا وعاشرناك على الحلوة والمرة ولكن الله أعطاك وكبرت! هنيئا لك يا عم! مهمتنا الآن تكبيرك أكثر وأكثر ففى تكبيرك مصلحة لنا! أنت الآن عضو فى البرلمان تملك الحصانة! ووقوفنا معك الآن لا يزيد عن وقوفنا معا فى أى عملية قمنا بها!! كنا نسرق ونهجم ونكسر الدكاكين

ضامنين متضامنين لا أحد يفتن على الآخر وإلا فتن على نفسه! لا أحد يخون الآخر وإلا خان نفسه! نحن الآن وقد غيرنا شكل النشاط وطرقه يصبح العمل هو هو! كل ما هناك أننا أصبحنا نملك الحصانة! اتسعت السكك أمامنا!! أنا وإخوانى نعرف لعبة الحكم والسياسة فى بلادنا: إنها أربح تجارة فى مصر وسرقة مشروعة غير أنها تحتاج لكلام وشعارات ودعايات وأونطة زائدة! كنا بالأمس لصوصًا صغارًا يسرقون الأفراد فى جنح الظلام سرقات صغيرة أما الآن فقد انضممنا إلى صف الكبار لنسرق شعبًا بأكمله فى وضح النهار تحت حماية قانونية وبموافقة المعتدى عليهم!! فإذا كنا لم نخنك ونحن صغار فى عمل غير شرعى فكيف يمكن أن نخونك ونحن كبار فى عمل شرعى أنت رمزه ومديره؟! لكننى أحب أن أخلص لك النصح ولابد أن تسمعنى وتعى الدرس الذى سأقوله لك جيدًا! السياسة ضد الأمانة على خط مستقيم! ضد الشرف ضد الأخلاق ضد المبادئ إنها تستخدم هذه الكلمات فحسب لتحكم باسمها! يتذرع السياسى بالأمانة ليصنع ستارًا سميكًا يخونها من ورائه!! يرفع راية الشرف لكى تظلله وهو يفقد الشرف فى كل لحظة! يتشدق بالأخلاق والمبادئ كحلة أنيقة يرتديها ليعوض بها غياب الأخلاق والمبادئ من نفسه!! هم جميعًا هكذا يا صاحبى والجو السياسى نفسه موبوء واسأل بربش يقول لك أسراره التى يعرفها جيدًا! جراثيمه قوية لا تصمد أمامها أى مقاومة! وإذا اتضح لها أن

الشخص أمين حقًا شريف حقًا صاحب خلق ومبادئ حقًا فإنها توقعه فى مصيبة!! لابد أن يتكاتف عليه الجميع حتى يطعنوه فى أمانته فى شرفه فى أخلاقه فى مبادئه! لأنه نشاذ بينهم! مرفوض! فى عالم السياسة يا صاحبى لا مستقبل إلا لغير الأمين غير الشريف منعدم الأخلاق والمبادئ! عليك أن تضع هذه النصيحة حقًا فى أذنيك!! تذكره فى كل لحظة فى كل كلمة تقولها فى كل فعل تفعله عند كل من ستتعامل معهم من الأعضاء والوزراء وغيرهم من أصحاب المناصب!! و لكن! وآه من لكن هذه على رأى المكاتبين عليك أن تجيد الأونطة السياسية! أن تجيد الكلام فى الأمانة والشرف والأخلاق والمبادئ ومصالح الجماهير وحماية تراب الوطن وقدسية الرأى العام إلخ إلخ! تجيد هذا بقدر ما فيك من قدرة على التلون والتحول المفاجئ من النقيض إلى النقيض!! إدهن نفسك بالعسل! عليك أن تشعر كل واحد بأهميته! تحدث مع الواحد منهم كأنه سيد الكون!! إياك إياك أن تهاجم أحد الوزراء أو الكبراء هجومًا عدوانيًا يطعن فى كفاءته أو فى شرفه أو فى وطنيته خاصة عند الاستجواب! إبدأ باستجوابك دائمًا بالاعتراف للوزير بكل الأفضال والمزايا فإن كان عندك اعتراض أو نقد فلتقدمه بصنعة لطافة وفى صيغة مدح على أساس أنه تكاملت أفضاله ولم يبق إلا هذا الغبار القليل الذى يجب أن ينفضه عن نفسه!! من ناحية أخرى فإنك إذا رأيت أحد الأعضاء يهاجم أحد الوزراء هجومًا عنيفا فلا تأخذك الحماسة للمشى وراءه! كن آخر

من يتكلم فإن تكلمت فكن محضر خير!! بهذا يحبك الجميع! أعود فأذكرك بأن جميع زملائك من الأعضاء وكذا الحكومة هم جميعًا يلعبون نفس اللعبة كلهم يضع مصلحته الشخصية فوق كل اعتبار لكنه يختار يافطة يقف وراءها فلا تتحمق ولا تنفعل لأن المسألة كلها أهيف مما تتصور!! غيرك إذا انفعل على حس المصلحة العامة فاعلم أنه ينفعل بقدر ما يستفيد من وراء الانفعال!! غدًا تعرف قيمة هذه النصائح! وعلى كل حال ما دمنا معك أنا وبربش بالذات فسوف تعرف كل شيء بسهولة! وربنا معنا جميعا!!».

ربك والحق يا خال! انفتح مخى على كلام الولد بسبوسة وشربته. لكن ورق الشيخة سعادة وما تمخض عنه من نبوءات انتصب فى دماغى واقفًا، وصوت الشيخة يشيلنى ويحطنى، فأشعر بوجع فى عظامى ولحمى. شيئًا فشيئًا راح صوت الشيخة سعادة يواجه صوت بسبوسة كل منهما يحاول أن يعلو فوق الآخر ليسكتّه، إلا أن صوت بسبوسة كان هو الأعلى يا خال، ويظهر أنه كان مسنودًا على شيء فى داخلى يؤيده، نعم يا خال، وكان لهذا الصوت منطقه: هذه فرصتك يا ولد أبى ضب لن تتكرر بسهولة إلا كل دهر، إنها مثل اختناق القمر وكسوف الشمس ولو أنك ضيعتها فذنبك على جنبك، لابد أن تخرج من هذه الفرصة أغنى من المعلم عطاطس ومن الدولة نفسها، توجست من الشيطان الشاطر.. يا خال، خفت أن يحبكها معى فأضيع فى الكازوزة.

لست أقصد الشيطان الشاطر الذى يحرضنا فى العادة على الفسق، إنما قصدت الشيطان الأشطر الذى يحرضنا على الصلاح فى زمن كله فسوق وفجور وظلم وقهر واستبداد. لو كنا فى زمن مبدؤه الصلاح والتقوى لكنه معطوب فى بعض البقع لاستطعت أن أقاوم الشيطان الذى يحرض على الفسق. أما فى زماننا هذا فإننى يجب أن أقاوم الشيطان الذى قد يغرينى بالصلاح يحرضنى على الالتزام بالأمانة والشرف والأخلاق والمبادئ وسط قوم لا يعترفون بشئ من هذا كما قال بسبوسة صادقًا. وجدتنى أقول له وأنا فى غاية الألم:

«لكننى يا بسبوسة أحب أن أخدم أهل دائرتى الذين وثقوا فى وانتخبونى دون غيرى من الكبراء!!»

ضحك بسبوسة:

- «الشعب المصرى لا تهمه هذه المسائل!! إنه لم يكتب معك عقدًا يحاسبك به فى المحكمة!! إنه ينتخب للمجاملة أو من الخوف!! وتنتهى علاقة الناخبين بالنائب بعد نجاحه!! لم يحدث أن دائرة حاسبت نائبها فى نهاية الدورة! لم نسمع عن ذلك طول عمرنا! بل إنهم ينتخبونه هو نفسه فى دورة جديدة رغم أنه ربما يكون اشتغل ضدهم طوال الدورة السابقة!! شعبنا يا صاحبى طيب وفى حاله ولا يهمه من الذى يحكمه لأنه فى النهاية يفعل ما يشاء والحكومة هى الأخرى تفعل ما تريد!! فى مصر من يركب لا ينزل

أبدًا إلا إذا مات هو أو نفق البعير من تحته! والشعب طول عمره لم ينجح فى إسقاط أحد عن عرشه!! ثم تعال هنا: الناس انتخبوك فى آخر لحظة خوفًا وظنًا بأن الثورة تؤيدك وتقف وراءك! اللجان هى التى انتخبتك!! هى صحيح لعبة عيال وصدفة جاءت مع العمى طبات ولكن النتيجة أنت حصدتها!! ولعلمك فإن المصائب الكبيرة والأحداث الجليلة تحدث فى بلادنا بسبب أمثال هؤلاء العيال الذين لهم أقارب من الحكام!! وعلى كل حال يا صاحبى فلن يمنعك أحد من خدمة أهل الدائرة! ولكن بصنعة لطافة! عن طريق الالتماس المهذب! وبالأجر فثق أن أحدًا لن يخدمك أو يخدم أحدًا من طرفك إلا بالأجر! بالفلوس أو بالخدمة مقابل خدمة! وهنا يجب أن أقدم لك النصيحة أيضا: لا تقدم خدمة بالمجان مهما كانت لاتكلفك شيئًا!! فمجانية الخدمة تقلل من قيمتها فى نظر المخدوم!! تنقلب الآية هنا يا صاحبى! فحيث كل الناس يخلصون أمورهم بالأجر فلا مصداقية ولا شكر لمن يخلص بالمجان!! يظن المخدوم أنها كانت سهلة عليك فلا يكون للخدمة أى أثر فى نفسه!! إن المخدوم فى بلادنا أصبح لا يشعر بطعم الخدمة أو لذتها أو أهميتها إلا إذا اكتوى بنارها ودفع ثمنها غاليًا!! قرأت مرة عن شاعر يدعى إبراهيم ناجى مؤلف أغنية الأطلال لأم كلثوم لابد أنك سمعت اسمه! هو فى الأصل طبيب ذهب إليه أحد الفقراء ليكشف عليه فى عيادته فى شبرا! فكشف الرجل عليه فوجده مصابًا بالأنيميا يعنى سوء التغذية فشعر بفقر الرجل واحتياجه فلم يأخذ

منه أجرًا على الكشف بل أعطاه جنيهًا كاملاً من جيبه مع روشتة كتبها له ببعض الفيتامينات المقويات وقال له: خذ هذا الجنيه اصرف به هذه الروشتة وتعال بعد أسبوع لأكشف عليك ثانية! فمضى الرجل الغلبان ثم جاءه بعد أسبوع وكان مهزولا: فقال له ناجى: ألم تصرف الروشتة؟ قال: لا! قال: أعطيتك جنيها لتصرفها به فلماذا لم تفعل؟! قال الرجل بسلامة نية: ذهبت بالجنيه إلى طبيب آخر جيد!! فتصور يا صاحبى! الرجل الغلبان فقد الثقة فى الطبيب لانه تنازل عن أجره وساعده!! هذا هو الشعب المصرى يا صاحبى مع الأسف الشديد: تضربه وتأخذ كراء يديك ومن يحاول خدمته بالمبادئ والأخلاق والضمير قام فى وجهه الفسقة الفجرة وألبوا الشعب المسكين الجاهل ضده فيضربه!!».

الولد لخبط غزلى يا بوى، طمس صوت الشيخة سعادة تمامًا فبدت لى إنسانة طيبة القلب ساذجة. لكننى يا بوى سرعان ما فطنت إلى أنها لم تكن تقدم النصيحة بقدر ما كانت تقدم النبوءة لينتفع بها من يشاء. الواقع يا خال أننى صرت محيرًا فى أمر الشيخة سعادة، فأنا على ثقة أنها تحب الوطن والعدل والإنصاف بقدر ما فى نفسها من ورع وتقوى، فكيف بها هى نفسها تقبل المتاجرة فى الآثار، وتأوى فى مملكتها سفاحين وقتلة ومدمنى إجرام؟! إلا أن صوتًا كصوت الشيخة سعادة نفسه سرعان ما رد على بكلمات من كلام بسبوسة! إنها فعلا تميل إلى فعل الخير

وتتمنى أن يكون كل شيء على ما يرام لكنها لا تستطيع إلا أن تعامل المجتمع بنفس العملة الرائجة فيه وإلا أصابها العطب والبوار يا خال..

موجز القول يا بوى أننى نويت أن أوفق بين صوتين يزعقان فى صدرى بقوة: صوت الشيخة سعادة وصوت بسبوسة: أن أخدم ما استطعت، وأن أكسب ود الحكومة ما استطعت؛ بشرط أن يؤدى هذان السبيلان إلى تكبير مصالحى ووضعها فوق كل اعتبار.

قص

بلدياتى فى القاهرة كثيرون جدًا يا بوى، أكثر من عددالتراب فى جميع أحياء القاهرة الفقيرة والغنية على السواء، بل أكثر من عدد البعوض الذى يملأ ليل الصعيد. فنحن فى الصعيد لا يبارينا فى التكاثر سوى مثل هذه الكائنات السريعة الانتشار. وليس فى الصعيد يا بوى سوى فقر أو غنى، ليس ثمة من وسط يا خال، أنت إما فقير أو غنى. متى ما كبر الولد شد الرحال إلى القاهرة أو الإسكندرية أو أى بلد بعيد، هذا وإلا فمآله الجبل فى نهاية الطراد. ما من بائع سريح يحمل أثواب القماش على ظهره والمتر فى يده يجوب بلدان الوجه البحرى إلا وكان صعيديًا بارز الصعيدية. ما من عامل من فواعلية البناء الذين أقاموا كل عمائر البلاد إلا وكان

صعيديًا صرفًا، لا تنى أصواتهم الأسيانة الشقيانة الزعلانة ترن فى سمع البلاد كلها أبد الدهر رنينها العذب الشائق الأبدى: يا وابور الساعة اتناشر يا مقبل ع الصعيد، يا بهية وخبرينى ع اللى قال ياسين، وأنا كل ما أقول التوبة يا بوى ترمينى المقادير..

آه يا خال مما يصيبنى كلما استمعت إلى هذه الأغنيات، يذوب قلبى عشقًا للصعيدى والصعيد. سمعت بعض التلاميذ وهم يذاكرون ويقولون إن رجلا يونانيًا قديمًا اسمه لا أدرى ماذا.. قال إن مصر هبة النيل.. رأيى يا خال أنه رجل حمار لا يفهم حقيقة الأمر، خواجة لف مصر لفتين وراح يفتى فى بلده عن مصر، وما هكذا الأمر يا خال، مصر هبة الصعيدى، اللهم إلا أن يكون هذا الخواجة يقصد القول بأن النيل صعيدى وهنا يجب أن أصدقه. ها نحن متجمعون متكئون على الأرائك فى شرفة قصرى فى مصر المقطم لا نحمل للدنيا همًا طالما يقف صعيدى بعربة الخضار عند باب القصر، وصعيدى آخر بعربة الفول، وصعيدى ثالث بعربة أنابيب البوتاجاز وصعيدى رابع يكنس الشوارع، وصعيدى خامس يمد قضبان السكك الحديدية، يسوق شاحنات النقل، يسهر فى قصر رئاسة الجمهورية يحكم مصر والعرب يهز طرابيش العالم أجمع، فما الذى ننتظر من الصعيدى بعد كل هذا يا بوى؟!..

جميع باعة السمك فى جميع أنحاء القاهرة يا بوى هم من بلدياتى كما قلت لك من قبل، من بلدة (كوم اسفحت) المجاورة

لبلدتنا، من متعهد لشيال لبائع سريح. إن قابلك أى سماك فى القاهرة فاعرف أنه من كوم اسفحت. أما ولد بلدتى نفسها والنجوع المتاخمة لها فما أكثرهم فى سوق الخضار وفى شوارع القاهرة وكل حواريها وفى جبل المقطم يفتتون صخوره بالديناميت يحولونها إلى ثريد. كل هؤلاء وأولئك يا بوى يلزمهم مأوى، فالقادرون منهم قلة، معظمهم لا يأبه بالمنظر، ينام فى أى مكان، تحت أى عراء، يأكل أى أكل، يلبس أى لبس، المهم أن يشتغل والسلام يا بوى، فيهم جرأة كبيرة وبساطة، وميل إلى التعشيش، بنفس طويل جدًا يا بوى، يختار الواحد منهم أى ناصية أى ركن أى عطفة، يفرش عليها أقفاص الفاكهة فى شكل يسر الناظرين، يشعل الكلوبات فى الليل يؤنس وحشة الحوارى والأماكن المقطوعة، ينصب خيمة فى أى أرض خلاء شرط أن تكون مملوكة للحكومة. فى تسعة وتسعين فى المائة من هذه الحالات يا بوى ستمر الأيام ويصبح شاغل المكان صاحبه ومالكه. بفلوسه من عرق جبينه يشتريه من تحويشة المليم فوق المليم بصبر أيوب. ما من صاحب محل كشرى أو فول كبير فى البلد إلا وكان صعيديًا يقف بعربة يد بجوار هذا المحل أو فى قلبه، هى الوقفة يا بوى لا يتحول عنها، عشر سنوات عشرون، مائة، المهم لابد أن يجىء اليوم الذى يشترى فيه هذا المكان أو يستولى عليه..

بلدياتى هؤلاء يا بوى كان منهم عدد كبير شغله قريب من المقطم، لاحظوا بفطرتهم أن الجبل كله فضاء يحتاج لتعمير سفوح تمتد هابطة قليلا لتلتحم بصحراء المماليك المتاخمة لحى الدراسة. صعب على بلدياتى أن يروا هذه المساحات الهائلة تصفر فيها الريح وهم بلا مأوى. هم يدركون أن الطريق إلى مكاتب الحكومة مفروشة بالذل والهوان أو بالمال المسفوح، ومن لديه المال يضن به على صنف الحكومة، جنس الحكومة. فى نفس الوقت لا يحتمل الذل والهوان من موظف، ولا يثق حتى فى أى قاض يعوج الطربوش على ناحية ويحكم بأربع سنين فى قضايا الدم. وما الداعى لأن يتطوع الصعيدى بنفسه لينبه الحكومة إلى شىء ينويه. إنه إذا أراد شيئًا فعله فى الحال وليحلها بعد ذلك الحلَّال، ثم إن احتياجه للشىء لا يعطيه فرصة لأن يأخذ الإذن من أحد.. وهكذا يا بوى هجموا على فضاء المقطم. منهم من اختار رقعة فسيحة فى أحد سفوح الجبل أو صحراء المماليك فحوط عليها بعيدان الحطب والبوص والقش وأقام فى وسطها كوخًا يأوى تحت سقفه. ومنهم من كان قادرًا فابتنى حجرة بالطوب وحوط على الباقى بسور يحتاط مساحة تكفى لبيت صعيدى كبير. لا شىء أسرع من التقليد فى بلادنا المصرية يا بوى. الناس كلهم هم مشردون بصاصون، ما إن يرى الواحد منهم مشروعًا ناجحًا حتى يأخذ نفس الفكرة وينفذها بحذافيرها، ربما بجوار صاحبها الأصلى بقفا غليظ ووجه كالح. ذريعته فى ذلك أن الله

مقسم الأرزاق ولابد أن يرسل لكل واحد رزقه. هكذا رأى بقية الصعايدة من بلدياتى إخوانهم قد غنموا هذه القطع من الأرض البراح التى لا صاحب لها ينازعهم فيها، فتواتروا جميعا على سفوح المقطم وصحراء المماليك، كل حسب قوته وعزوته واجتهاده وجرأته وذكائه وخبرته، منهم من حوط على فدان وبناه فعلا، ومن حوط على ثلاثة أفدنة بنا بعضها وزرع البعض الآخر حديقة. هم يدركون أن الأرض ملك للحكومة، وفى اعتقادهم أن يوم الحكومة بعام كامل، فإلى أن تنتبه الحكومة وتطالبهم بالجلاء وينازعونها وتنازعهم يكون قد حلها الحلال الذى لا يغفل ولا ينام، يكون الظرف قد تغير وتوافرت الفلوس والإمكانيات لمساومة الحكومة. هم أيضًا أذكياء يا بوى ذكاء حيوانات الصحراء الماكرة القادرة على التنكر والزوغان والهروب فى عراء الرمال. لقد فهموا من مجريات الأمور أن البلاد فيها أزمة مساكن تعترف بها الحكومة وتعلن عجزها التام عن حلها ومن ثم فإنها تتغاضى عن ناس حلُّوا مشكلتهم بأنفسهم وبنوا لأنفسهم فى أرض حكومية كان من المفروض أن تبنيها الحكومة لهم، يعنى لابد أن الأمر سيكون فى صالحهم فى النهاية يا بوى..

وقد كان يا بوى. اكتسبوا بطول البقاء شرعية البقاء كأمر واقع منذ سنوات طويلة، فمن يلقى نظرة على هذه الأعشاش يدرك لأول وهلة أن الحياة قائمة ها هنا منذ وقت طويل مضى، بهذا تشهد

الأرض التى رطبتها المياه المتدفقة باستمرار فاختفت بصمة الصحراء، وبهذا تشهد هذه الأكشاك والدكاكين التى تبيع البقالة والخضراوات والسجائر والحلوى واللحوم، وحلاقين وسمكرية وميكانيكية ونجارون وسباكون وقطع غيار سيارات، كذلك تشهد هذه الهوائيات القائمة فوق الأعشاش وقد علاها الصدأ والتراب وهذه الأشجار الوارفة ونباتات الخروع وأشجار الموز والأسوار المخضوضرة..

إلى أن شرعت الحكومة فى تخطيط مدينة نصر فى الطرف الأقصى من صحراء المماليك. وبدأ المقاولون فى البناء لحساب الأهالى العائدين من ليبيا والعراق والكويت ولصوص القطاع العام وتجار المخدرات وكبار التجار الذين أثروا على حساب أقوات الشعب. الحكومة شجعت على البناء وسهلت أموره، وفرت حديد التسليح والأسمنت بأسعار رخيصة، حتى الأرض باعتها لهم بسعر تكلفة المرافق تقريبًا وبالتقسيط المريح. فى المقابل يا بوى كانت هناك صفوف من عرسان وعرايس واقفين بالمرصاد يتسقطون أخبار أى بناء، فبنت لهم الحكومة بعض المساكن الشعبية. فلما فرغت أراضى التخطيط الرسمى تكالب الأهالى على الأراضى المجاورة، حيث التحويطات الكثيرة بوضع اليد صارت فى حكم الملكية الشخصية. قامت سوق جديدة فريدة: وضعوا أيديهم على الأرض يبيعون قطعًا منها لملاك جدد بأسعار باهظة،

العجيب يا بوى أن واضع اليد البائع يستطيع فى النهاية ـ بلفة طويلة معقدة في دواوين الحكومة ـ أن يسجل للمشترى. إلى أن فرغت هذه المساحات بدورها فبدأت الأنظار تتجه إلى سفوح الجبل فى مواجهة قرافة المجاورين، حيث أفقر الفقراء من واضعى اليد الذين رغم طول مدة وضع اليد لم يستطيعوا إقامة بنيان واحد، والأكادة يا بوى أن الحكومة التى صهينت على الحيتان الكبيرة فى صحراء المماليك وطرمخت على كل المخالفات لم تتشطر إلا على هؤلاء، طبعا يا خال، لأنهم أفقر من أن يساوموا. وبدأ شبح البلدوزر يطل عليهم فى الظهيرة يا بوى، فألقوا بأنفسهم فى طريقه تحت عجلاته بكل جسارة، داس البلدوزر من داسه يا بوى، ولكن سيل الدم أعجزه عن المواصلة فتوقف ريثما يتشرب أنفاسه وتتشرب الأرض دم المجروحين التعساء. وهنا يا بوى تذكروا فجاة، أو ربما جاءتهم الأخبار مؤخرًا ، أن حسن ولد أبو ضب، بلدياتهم، الذى طالما اشتغل معهم فى تفتيت الجبل بالديناميت وحمل جنبة السمك على رأسه فى الأسواق، قد أصبح بقدرة قادر عضوًا فى مجلس الأمة، ويستطيع نقل استغاثتهم إلى سمع الحكومة..

فجاة رأيت المعلم شندويلى يصعد إلى مكتبى، كالنبى موسى عليه السلام يجر خلفه رهطًا من بنى إسرائيل المطاريد، بتأثر شديد، وعبر انفعالات هتماء مليئة بالحروف المكتومة الصافرة،

حكى لى المعلم شندويلى قصة شعبه المختار، وما نالهم من آلام وخسائر فادحة، صار يردد بصوت يكاد يكون باكيًا ـ وكأننى المسئول عما حاق بهم يا خال:

ـ «يروحوا فين دول؟! بنى اسرائيل دول اللى تايهين فى صحراء المماليك وجبل المقطم أكثر من أربعين سنة؟! بقى يعنى الحكومة لا منها ولا كفاية شرها؟! خلاص! تدور لهم على متوى باسمهم! ولا يعنى خلاص ما عادش لهم لازمة فى البلد؟! والله الصعايدة لو روحوا بلادهم القاهرة تنتن وما تلاقى لقمة تاكلها! طب هم بكره يرحلوا على الخليج يعمروه ونبقى ندور على نفر بطلوع الروح ما نلاقيهش!!».

جريت إلى سيارتى الشيفروليه السوداء ذات الستائر الحاجبة. بسبوسة بجوارى، وهندى خلفى مباشرة باعتباره حارسى الخاص حامل المسدس، ناهيك عن مسدسى المرخص باسمى والدائم دومًا تحت إبطى. بجوار هندى كل من بربش وغزولى. ومن خلفنا المعلم شندويلى بسيارته المرسيدس العتيقة المجنحة ملآنة بالخلق من بلدياتى. ومن خلفه سيارة أجرة تحمل الباقين..

ذهبنا من فورنا إلى ذلك الخلاء الرابض فى سفح الجبل، حيث الفرن القائمة على الجانب الآخر من الطريق، ومن بعدها حوش العائلة الخديوية الشبيه بقصر من القصور الملكية بحديقته الكبيرة الزاهرة. أمام حوش العائلة الخديوية صفوف من المقابر الخاصة

بعائلات أخرى كبيرة، بعضها داخل أحواش وبعضها فى العراء ـ مكانها الآن طريق الأوتوستراد وهو وحده قصة ساحكيها فيما بعد ـ أمام هذه الصفوف من المقابر توجد قضبان سكة حديدية خاصة بالقطار الحربى المتخصص فى نقل الأسلحة والذخيرة بجميع أنواعها من حلوان إلى معسكرات العباسية. هو طريق موحش يابوى، لكن بعض سكان حى قايتباى الذى يخدم هذه المقابر ويعيش عليها تخصصوا فى التربص بهذا القطار الحربى من أيام الجيش الإنجليزى، فنظرًا لأنه يمشى ببطء شديد خاصة وهو يجتاز هذه المنطقة فإن مجموعة من الولاد المخربشين يربضون تحت الجسر ثم يقفزون إلى العربات، ليدحرجوا الأسلحة وصناديق الذخيرة وشكائر المؤن والتموين فتتساقط على الأرض، حيث تكون بقية أفراد العصابة قد لاحقوا الجسر لتجميع ما ألقى لهم..

وكنت أعلم منذ مدة أن نفرًا من بلدياتى الذى استولوا على رقع فى هذا المكان الموحش البعيد وحوطوا عليها يتخذون من أكواخهم هذه مرابض ومحطات ومخازن لهذه العصابات، إذ يبادر الواحد من أفراد العصابة بتسريب المسروقات إلى كوخ من هذه الأكواخ بسرعة هائلة ليمشى بعد ذلك بأعصاب مطمئنة يترقب من قد يستوقفه أو يشتبه فيه. قل إن هذه المسروقات مآلها كلها فى النهاية لمن قاموا بإخفائها من بلدياتى. فحينما يقفل الأولاد عائدين، يتجمعون فى كوخ من أخفوا عنده هذه المسروقات، حيث يساومهم على شرائها، هو وشطارته، وغالبًا هو الكسبان يا بوى، يأخذها بتراب الفلوس، يبيعها بأغلى الأثمان للصعايدة المقتدرين فى القاهرة، أو يصدرها للصعيد الذى لا يشبع من السلاح، سيما وأن معلمى شادر السمك الذين يقعون فى ضديات مستمرة يعانون الحرب على بعضهم البعض دائمًا أبدًا، ولكن دون أن يظهروا فى الميدان، إنهم يكتفون بشراء الأسلحة والذخيرة وتكديسها تحت أيدى صبيانهم ورجالهم هنا أو فى الصعيد، لأنهم هم الذين يخوضون الحرب الضروس نيابة عن المعلمين، ومن يموت منهم فالمعلم يتكفل بعياله، أو يسجن فالمعلم متكفل به على أكمل وجه..

كنت أعرف هذا يا بوى بل كنت فى يوم من الأيام ضمن معاون هذا. المهم يا بوى، أوقفنا السيارات ومشينا على أقدامنا بين برك ودروب ملتوية. المكان موحش جدًا ولكنه جميل يا بوى: مجموعة أكواخ متناثرة، بين الكوخ والآخر مسافة يقطعها السائر فى مشوار سخن، وبين التحويطة والأخرى مرتفعات وصخور وأتربة وقمامة، ولكن كل كوخ وكل تحويطة تنبع منه وتحوطها أشجار وارفة وتكعيبات عنب، فوجئنا بسيارات ملاكى فخمة راكنة بحذاء بعض الأكواخ فعجبنا كيف دخلت إلى هنا، رائحة احتراق الحشيش تملأ أنوفنا تستدرجنا للنشوة. حقًا يا خال إنه

لمنتج عظيم، فأصحاب هذه السيارات الفخمة ناس من علية القوم من كبار الفنانين وكبار الموظفين والرأسماليين، جاءوا إلى هنا لتدخين الحشيش فى أمان الله بعيدًا عن دوشة القاهرة اللعينة. ثمة موسيقى شجية يصحبها غناء أجش لكنه مستساغ ومؤثر. قال واحد ممن يسيرون معنا إن أحد أشهر كبار الملحنين زبون يومى دائم عند صاحب هذا الكوخ، يحشش ويلحن، فقررت يابوى أن أتخذ لى أنا الآخر منتجعًا ها هنا ابتداء من اليوم..

تجولنا فى المنطقة من أقصاها إلى أقصاها، عاينتها جيدًا يابوى، تقابلت مع الكثيرين القاطنين فيها، استمعت إلى المشكلة من جميع أهلها وكيف أنه قد بات من المستحيل عليهم اقتلاع جذورهم من هذا المكان، أكملنا الحديث فى قعدة الملحن نفسها، فتعرف علينا وتعرفنا عليه، كان ضريرًا، وله ألحان كثيرة تذاع فى الإذاعة، واسمه سيد أبو العرب، فى هذه القعدة استراحت أعصابى يا بوى، هفهفت روحى مع النسيم العليل والهواء النقى. حقًا يا خال، أولاد الفرطوس بلدياتى وضعوا أيديهم على أصح وأجمل مكان فى القاهرة كلها. قديمًا حظى الموتى بحى يرم عظامهم، والآن يحظى به بلدياتى بالمجان، فليكن من نصيبهم إن شاء الله..

الولد بسبوسة استأذن وقام بعد حجرين، قال إنه سيلف لفة ويعود. وبعد أن خطا خطوتين أشار إلى غزولى أن يتبعه، فتبعه.

القعدة احلوت يابوى، وسيد أبو العرب صوته فاتن، وعوده أفتن، والجو أكثر فتنة، أما الحشيشة فعلى الكيف البريمو. بعد حوالى نصف ساعة عاد بسبوسة وغزولى وقد ظهر على وجهيهما تعبير شيطانى وحد بينهما. فملت على بسبوسة هامسًا:

ـ «ما الأمر يا ولد الفرطوس؟!»

قال مبتسمًا فى انتصار شيطانى:

ـ «سأقول لك بعد قليل!!»

ثم بدأت ألاحظ أنه يتململ، ويتعجل انصرافنا قبل انصراف ضوء النهار. عند خروجنا اقتادنى نحو أعماق بعيدة على أرض منبسطة مستوية، يبدو الجبل فى نهايتها كحائط بارتفاع ناطحة سحاب، وعرض شارع بأكمله. أشار بذراعيه حولنا قائلاً:

ـ «ما رأيك فى هذا المكان؟!»

ـ «ساحر يا بو العم!»

بغمزة من عينيه أضاف:

ـ «تخيل هنا صفًا من العمائر الكبيرة على نظام ڤيلات فوق بعضها! أو ڤيلات متجاورة بحدائق! شف ماذا يمكن أن يدفع فيها!!»

أصابتنى الغمزة فى الصميم يا بوى:

- «كم تبلغ هذه المساحة فى نظرك يا بسبوسة؟!»

- «حوالى سبعة أفدنة!!»

- «يا بو..و..ى! تصلح منطقة سكنية كاملة!!»

- إسكان فاخر على شرط! قرية سياحية! مدينة ملاهى مثلا! مشروع العمر يا حسن بك!!»

لعبت «حسن بك» هذه بأعصابى لعبًا حلو المذاق والله يابوى. ومع أنى شعرت أن بسبوسة يقصد بها بث الحماس فى نفسى وإشعارى بأننى لو نفذت هذا المشروع فإن البكوية تليق بمقامى، فإننى رغم ذلك أحببت اللقب وتمنيته بل اعتبرته فالأ حسنًا يابوى. إن اسمى نفسه حسن، فلقب البكوية وإن ألغته حكومة الثورة لم ينقرض، ويظهر أنه بات قريبًا من اسمى يا بوى. وهكذا رسمت الجدية على وجهى، تقمصتنى روح البكوية الحقة، فاشرت لبسبوسة فى أمر حاسم:

- «من غد يا بسبوسة تبعث بالرجال لتحويط هذه المساحة كلها بالأسلاك الشائكة! ويستحسن أن تقوم ببناء حجرتين ثلاثة لخفير ينام فيها لحراستها! والخفير نفسه يقوم بزراعة السور كله ساير داير بأفرع الفل والياسمين وشجر الموز والخروع! حتى لو اقتضى الأمر أن نرسل لها سيارة بفنطاس الماء كل يوم إلى أن يكرمنا الله ونتمكن من إدخال المياه والنور فى هذه المنطقة كلها!!»

هز بسبوسة رأسه فى اقتناع تام، بثقة من كان متأكدًا من نجاحه فى إغرائى بوضع اليد على هذه المساحة اللقطة.، ثم استدرك بلهجة ذات معنى:

- «هذا رزق جاءنا لحد عندنا! وما يجرى على غيرنا يجرى علينا! لن نكون الخاسرين على كل حال!» انشد عقلى يا خال، انشغلت فى التفكير، رحت أتصور منظر مدينة على الطراز الحديث يؤمها السياح والرواد من علية القوم الأثرياء، ونهر الفلوس الذى يمكن أن يتدفق علىَّ وعلى أولادى وذريتى. ويظهر يا خال أن الملعون بسبوسة قرأ أفكارى، فأضاف بلهجة من يضع شرطة احتراضية:

- «لابد أن يكون لنا من الحب جانب خل بالك!! نحن طبعًا رجالك! تكون لنا مساكن فى هذه المدينة! وعلى كل حال تاهت ولقيناها يا حسن بك! لماذا نكلفك؟! أنا وزملائى من الشلة الوسخة كل واحد يحوط له على مساحة معقولة من هذه الفدادين التى بلا صاحب! مثلنا مثل أى واحد من هؤلاء! نحن لسنا أقل منهم فى شىء! نحن الذين بدعنا الفتاكة والفهلوة والضحك على الحكومة!! أنت تحوط على هذه السبعة الأفدنة! وأنا سأكتفى بهذه المساحة التى ستفصل بينك وبين العشش! وأما غزولى وبربش وهندى والمعلم شندويلى لو أراد فكل منهم أمامه البراح كل واحد يحوط على المساحة التى يرى أنه قادر على الانتفاع بها!!»

قلت برضاء تام:

ـ «عداك العيب يا بسبوسة! وماله! ربنا معنا! من يدرى؟ ربما أكرمنا الله وأصبحت ملكنا فعلا!!»

ـ «هى خلاص أصبحت ملكنا من الآن!!»

هكذا قال بربش بكل ثقة. فنظرنا جميعا إليه فى إعجاب كأنه قد منحنا صك الملكية بالفعل يا خال، وضوعفت حماستى بصورة غير طبيعية. فشوحت بعصبية:

ـ «المهم التنفيذ فورًا يا بسبوسة!!»

شوح بسبوسة مؤكدًا:

ـ «من صبيحة ربنا سيجىء الأنفار بالأسلاك الشائكة والطوب والشتلات! دع الأمر لى! اعتبره قد حصل!!»

ابن الفرطوس نفذ كلامه بالفعل يا بوى من اليوم التالى. فبعد حوالى ثلاثة أيام لا أكثر فوجئت به يقدم لى فاتورة الحساب. كانت كبيرة على عكس ما توقعت، لكننى سرعان ما فطنت إلى أنه قد حملنى تكاليف العملية كلها: مساحتى ومساحاتهم، وبدلا من عشرة أنفار اكترى ثلاثين لكى تنتهى العملية فى زمن قليل وتصبح أمرًا واقعًا. قلت لا بأس فهم رجالى واليد الواحدة لا تصفق. ذهبت فى مشوار سريع خاطف للمعاينة ولتعيين خفير من بلدياتى اختاره المعلم شندويلى على ضمانته، ثم عدت فى ذلك

اليوم فرحًا إلى الشقة التى استأجرها لنا بسبوسة فى حى المنيل فى مواجهة بر الجيزة لنشوف مزاجنا فيها. وكان مقررًا أن نستمع فى تلك الليلة إلى نص الاستجواب الذى كلفت بربش بكتابته لكى أحفظه جيدًا وألقيه فى البرلمان بين يدى الوزير المختص ومحافظ القاهرة. والواقع أننى لم أكلف بربش، بل لم يخطر هذا على بالى يا بوى، إنما خطر على باله هو، إذ رأيته فجأة يسألنى فى اهتمام شديد:

ـ «هل حضرت الكلام الذى ستقوله فى حضرة الوزير؟ هل عرفت أولا معنى الاستجواب؟! معناه أن تعرض أمام الوزير المختص وزملائك الأعضاء مشكلة كبيرة تخص أهل دائرتك أو أى فئة من الشعب! ثم تطلب من الوزير إيضاحات حولها!! فإذا اقنعك بالوثائق والأرقام والبيانات الصحيحة أن موقف حكومته سليم وأنها غير مقصرة وغير متراخية فى أداء واجبها بالنسبة لهذه المشكلة بالذات! كان بها فتشكره وتعتذر له!! وإذا لم يقنعك فإنك تحاول إقناعه وإقناع البرلمان بسلامة طلبك وبضرورة أن تتخذ الحكومة فيه موقفًا إيجابيًا يعنى تبدأ فى حل المشكلة بالفعل!! وهذا بالطبع يتوقف على مدى استيعابك لحقيقة المشكلة وإلمامك بكل تفاصيلها الواقعية فلربما استطعت أن تثبت كذب الوزير فى بياناته!! أنت وشطارتك وقدرتك على الكلام والتأثير! ولكن! دعنى أكتب لك هذا الاستجواب! سأعرض المشكلة جيدًا من ناحية! ومن

ناحية أخرى سأضع مجموعة من الأسئلة المحرجة لأحاصر بها الوزير حتى يعترف بحقيقة موقف الحكومة من مسألة كهذه تهم عشرات المئات من الأيدى العاملة التى لا غنى للقاهرة عنها وفى نفس الوقت لا يمكن ترحيلها إلى بلادها بعد أن استوطنت هنا عمرًا طويلاً!! المهم الآن يا حلو أن تفتح مخك معى! تصحو! تحفظ الكلام جيدًا! صحيح أنك ستقرأ من الورق ولكن يجب أن تتدرب جيدًا على النطق السليم للكلمات الفنية! سأدربك فى يومين اتنين فلا تحمل همًا!!»

عندما بدأ بربش يقرأ علينا نص الاستجواب يا بوى تيقنت فى هذه اللحظة فحسب أننى بالفعل فى البرلمان. هذا البربش المتشرد المخربشاتى مخزن ثقافة يا بوى، ولاأدرى كيف يكون هكذا ويتشرد؟! يملك كل هذه المعارف والمعلومات ويشتغل لصًا نتنًا بدل أن يكون لصًا محترمًا. وكنت أظن أن حرصه على قراءة الجرائد والمجلات كلها هو الذى علمه السياسة، فإذا هو يخبرنى أن فهمه فى السياسة أصلا هو الذى دفعه لقراءة الصحف من الطفولة حينما كان فى البلاد سياسة حقيقية وساسة حقيقيين وصحف حقيقية لا نشرات إخبارية حكومية. لقد تعلم السياسة فى الشارع وعلى المقاهى وفى البيت لأن جميع الناس كانوا آنذاك يشغلون أنفسهم بالسياسة. وليست الصحف هى كل ما يقرأ بربش، إنما هو لا ينام مطلقًا إلا بعد أن يقرأ فى السرير ساعتين

أو ثلاثة فى كتاب يشتريه أو يستعيره أو يستأجره، مما جعلنى أحسده وأتمنى لو فعلت مثله ليستنير مخى الصعيدى الصرف ما دمت ساشتغل بالسياسة كما نصحنى هو نفسه..

كلام كبير يا بوى، لا تقل لى مرافعات المحامين فى محاكم الجنايات فى الأفلام، لا ولا خطب عبد الناصر نفسه. كلام يهز يا بوى، وفيه معلومات وأرقام وبيانات أتى بها الخربوش من جهات متعددة لم أكن سمعت بوجودها من قبل ولا أعرف طبيعة عملها. صور من الواقع، مقارنات بين المحظوظين والتعساء كيف يعيش هؤلاء وهؤلاء.. إلخ.. إلخ.. صاح غزولى منبهرًا:

- «يا ابن الكا..ا..لب..! كلام عتيق لم نسمعه من أيام سعد زغلول ومصطفى النحاس!!»

وقال بسبوسة:

- «دماغه جوهرة هذا الولد المتعوس!»

وقال هندى:

- «يضرب ويلاقى!»

وعلق بربش فى زهو:

- «الأهم من كل هذا أن الكلام فى النهاية لا يسىء لأحد! كما أنه لا يصلح دليلاً لاتهام قائله بأى قذف أو عيب!! لقد راعيت فيه ..... المآخذ القانونية المحظورة!! استخدمت لغة السياسة وأصول

الحوار البـرلمانى المحترم! كـيف أستجلب تعـاطف البرلمان كله مع مشكلتى! لقد كنت طول عـمرى أحلم بأن أكون سياسـيًا وبرلمانيًا ورئيـسًا لحـزب! هذا الحلم هو الذى ضـيع مـسـتـقـبلى الدراسى وشردنى من السجن مع الوفديين إلى مصر الفتاة إلى السجن مع الإخوان المسلمين ثم مع الشـيوعيين!! ضعت بين جـميع الأحزاب والفرق السـرية فلم أنسجم مـع أى أحد!! وأفقت فى النهـاية على موت أبى ومن بعـده أمى ولم يعد أمامى سوى احـتراف الشغب السـياسى؛ تسـتأجـرنى الأحـزاب والفرق لإثارة الشـغب فى أى محفل ومحاولة إفشال أى مـؤتمر والقيام ببعض العمليات السرية لكنهـا كلها أوصلتنى إلى احـتقار الجـميع والتـمرد على الجـميع والشغل ضد الجميع لحسـاب الجميع أو لحساب الشيطان إن دفع لى أجـرًا مغـريًا!! ثم كـسدت هذه السـوق فانتـمـيت إلى شلتكم الوسخة! وهـانذا أعود مرغمًا للاشـتغال بالسيـاسة ولو من وراء ستارة الأراجوز ـ لمؤاخذة يا حسن بك!!»

صحت فيه مبتهجًا، متغاضيًا عن نكته الحراقة:

- «إعتبر نفسك صـرت برلمانيًا يا بربش! فانا هو أنت! وكل ما تحلم به لقنه لى وأنا أحققه نيابة عنك!!»

ثم إننى أخذت الأوراق منه، انزويت بها فى الكرسى الأسيوطى متربـعًا، صرت أقرؤها. كـان قد كتبهـا بخط كبيـر جدًا، وحروف مشكولة، مما سهل علـىَّ نطقها بلذة فائقة. أحـببت الكلام يا خال،

عشـقتـه لما فيه من حـلاوة وطلاوة ومعـان كبيـرة فى السيـاسة أتعـرف عليهـا لأول مـرة وأعرف من خـلالهـا معـنى أن يشتـغل الإنسـان بالسيـاسـة وأن يكون برلمانيًا بـالذات، ومعنى البـرلمان، وكيف أنه صـاحب التشريع لكل القـوانين والدستور. من فـرحتى بالكلام وبالاكـتشـافـات،وفرحـتى الأكبـر بالدور الذى وجـدتنى سامثله، كدت أحفظ اللام بعباراته عن ظهر قلب..

تكررت القراءة خلال يومين آخرين، مـعهم أحيانًا، ومع نفسى أحيانًا، أمام المرآة تارة، وأمـام زوجتى تارة فكنت كـمن يستـعد لامتحان الكفاءة يا بوى. والغريب المدهش يا بوى أننى يوم قراءتى للاستجواب أمام هيئة البـرلمان كلها فوجئت بأننى أتكلم بطريقتى الصعيـدية البالغة الوضوح دون أن أقـرأ من ورقة، بل أضفت إلى ما فى الورقة ما ألهمنى به اللـه من عبارات مؤثرة، خطبت بها ود الحكومة، وحمـدت لها سهرها الدائم فى خدمـة الشعب، وكيف أن حرصها الشـديد على فئات الشعب العاملة، وخاصــة أبناء الصعيد الذين يقدمون لـنا أجل الخدمات سوف يجعلهـا تمد يد العون لهم، دون أن تكلف نفسـها شيـئًا، فالأرض ملك للـحكومة، وإذا لم تكن الحكومة قادرة على بناء المساكن فعلى الأقل تقدم للناس تسـهيلات أهمها الأرض التى لن تكلفها شيئا، وأن الذين سيبنون على نفقتهم يمكن أن يتكفلوا بنفقات المرافق، بل إن الحكومة ستـستفيد بنسبة الموارد المقررة على المبانى، إن قرارًا حـكيمًا من الحكومـة يسمح

لهؤلاء الناس بالبناء على الأماكن التى عششوا فيها واستوطنوها كفيل بحل مشاكل سياسية واقتصادية واجتماعية كبيرة، ويساهم فى تدعيم الأمن.. إلخ.. إلخ..

عندما رأيت ملامح التأثر بادية على وجوه المستمعين يا خال، وأنهم ينصتون باحترام كبير، أيقنت أن شخصية حسن ولد أبى ضب القديم، الحرامى النتن رد السجون، قد انمحت، وحل محلها لص كبير واعر، لص شرعى يحميه الشرع يستره القانون يعطيه كل يوم ما يسرقه. عجبت من تصاريف هذه الدنيا العجيبة الغريبة بأوضاعها المقلوبة، لكننى فرحت مع ذلك يا خال، وقلت لنفسى: مالى أنا؟ هل أنا المسئول عنها؟ إن اسمها دنيا، يعنى من الدناءة. ولا يمكن أن تكون الدنيا دنيئة والزمن خوان كما يقول المثل الشائع وأكون أنا من دون الخلق نبيلا أصيلا. ألسنا نحن أولادها وهى أمنا الرءوم؟ خلاص! دناءة بدناءة فالشاطر هو الفائز أما الخاسر فلا عذر له، ولا عزاء للشرفاء التعساء الواهمين يا خال..

بعد مشاورات ومناورات ومداولات بين البرلمان ومجلس الوزراء استمرت أيامًا طويلة صدر قرار مشفوع بموافقة شفوية من أبى عبد الناصر بأن تباع الأرض لشاغليها بأسعار رمزية تزيد عن تكلفة المرافق بقليل..

هب للنبى، نصبنا معسكرًا هناك، اقمنا احتفالا من ليالى العمر لا أنساه يا خال، كنت فيه العريس وصاحب الفرح، أعلنت فيه أن

هذه المدينة سيكون اسمها من الآن: منشية ناصر، تقديرًا لأبى عبد الناصر على جميله مع ولد بلده. وصحيح أنهم على مرمى حجر منا يقيمون مدينة جديدة اسمها مدينة نصر، إلا أنها من فعل الحكومة أما مدينتنا هذه فمن فعل الشعب تحية لرئيسنا المفدى، فهتف ولد بلدى كلهم، ورقص الخيل على نغم المزمار الصعيدى العظيم، وانتشى المقطم من أطنان الخمر والحشيش التى دخلت فى نخاع صخوره ليلة كاملة..

دبت فى المنطقة خلية نحل عاملة، حركة بناء على جميع المستويات يا بوى من حجرتين مسقوفتين بعروق الخشب والبوص، إلى فيلات متباعدة لا يقدر على تكلفتها سوى مليونير ملآن، إلى عمائر عالية يدفع السكان تكاليفها مقدمًا، إلى حظائر السيارات، ومخازن ودكاكين. ثم ظهر المخبوء يا بوى، إتضح فجأة أن هذه الأرض الشاسعة لها ملاك بوضع اليد لا نعرف أين كانوا مختفين ولا كيف علموا بالتطورات، معظمهم من مطاريد جبل الصعيد القدامى، الذين تلقوا أوامر من مباحث الصعيد بالرحيل إلى أى مكان بدلاً من اغتيالهم أو سجنهم، فعاشوا فى مغارات فى جبل المقطم يفرضون الإتاوات على كل من ينتفع بالمكان من حولهم، أو يفرضون حمايتهم على المنشآت والأعمال. وكان كل واحد منهم قد خطط للاستيلاء على مساحة معينة يقبض عليها فى الوقت المناسب. وإذا بابن خالتى دياب من بين

هؤلاء يا بوى، وكنت أظنه انقرض من الحياة لكثرة غيبته، فإذا بى أمامه وجهًا لوجه يوم دعـونى لفض النزاعات الدامية التى نشأت، فإذا هو يعرف كل أخبارى. بالحضن يا دياب كيفك يا حسن، بينى وبينك فـرحت بظهوره واعتـبرت أن السـماء باركتنـى بواحد من صلبى يحـمى ظهـرى، فكـان لابد أن أريحـه على الآخـر يا بوى، تركـته يبـيع للخلق أجـزاء من المسـاحـة التى زعم أنه واضع يده عليها منذ عشر سنوات. أما كيف يوثق للمشترين عقود البيع فهذا ما لا شـأن لى به كما قـال. فلما كثـر ظهور أمـثاله ممن يبيـعون للخلق عرفت أنهم يبيعون للمـشترين وهمًا، إذ يكتب الواحد منهم للمـشـترى تنازلاً عن قـطعـة الأرض ـ التى يحـددها مـسـاحـة واتجاهات ـ مقـابل خلو رجل كبير، يـعتبره المشـترى بمثابة خلو رجل مهـما كان يعتـبر نوعًا من البقـشيش بالقياس لثـمن قطعة أرض كهذه فى مكان كهذا. احتـفظ دياب لنفسه بقطعة تكفى لبناء عدة بيوت صعيدية واسعة، ثم شرع فى بناء عمارة كبيرة بالمبالغ التى اغتصبـها عنوة واستقدارًا أما أنا فقد احـتفظت بدياب نفسه، ضممته للخفير وادخرته ليوم قادم بإذن الله..

بسيارتى الملاكى سافرت إلى الصعيد، زوجى بجوارى، وهندى حارسى الخـاص فى المقعـد الخلفى. وبجواره بربش الـذى أصبح سكرتيرى الخاص ومدير مكتبى ومـدير أفكارى ومثقفى ومنقذى من كل ورطة طارئة. وقد درب نفسـه على نطق حسن بك ودربت

نفسى على نطق الأسـتاذ محـمد. قابلتنا البـلاد باحتفـال صاخب، واتضح أن خـبر بلدياتى مع منشـية ناصـر قدوصلهم، فارتـفعت قامـتى إلى عنان السـماء وأنا أتلقى المديح والثناء، وأعطـى وعودًا مؤكدة بالنظر فى أحوالهم فـى القريب العاجل إن شاء الله، وأوزع أنصاف الجنيهات وأرباعها على الفقراء. فى الليلة الأولى لوصولنا نبتت الفكرة فى ذهن بربش فـنفذناهـا فى الصبـاح، التـقـينا مع مجموعة من الشبان كـانوا تعلموا قيادة السيارات فى الجيش أثناء فترة التجنيد الإجبارى، استكتبناهم طلبات لبنك ناصر ليعطى لكل منهم سيـارة بالتقـسيط المريح لتشـغيلها فى نـقل الركاب أو نقل البضائع كل حسب طلبه، أخذ بربش على عاتقـه مهمة متابعة هذه الطلبـات فى بنك ناصر الإجـتـماعى، والإلحـاح بكل وسيلة حـتى يوافق عليهـا. والحق أنه لم يدخر وسعًا يا بوى، فلم تمـض شـهور ثلاثة حـتى كان الجـميع قـد تسلمـوا السيـارات ماركـة الرينوه والسوزوكى والهوندا والزاستافا، فكان لهـذه الحركة دويها الكبير يا بوى.

أما فى الليلة التالية فـقد شرفتنا الشيخة سـعادة بمرافقتنا إلى مكتب المحامى عم زوجـى فى أسيوط، حـيث أبرم لنا عقد شـركة مساهمة مكونة من العبـد لله وهليل وأبيه وأولاد خـرابة، لإنشاء مزرعة كبرى للخيـول والعجول والماشيـة مقرها منشيـة ناصر، ملحق بهامصنع لمنتـجات الألبان، وتعتبر مزرعـة البلدة فرعًا منها

للتوليد والتسـويق، على أن يتولى إدارة المركز الرئيسى دياب ابن خالتى لأنه يعتبر موسوعة فى علم الخيل طباعه وأنواعه وأسواقه وأمراضه وعلاجه فضلاً عن خبرته الكبيرة فى تدريب الخيل على الرقص والسباق..

أثناء عـودتنا لحق بنا هليل والشـيخـة سـعادة لمعـاينة المكان. بمجرد رؤيتهم له بلغ سرورهم أقصى مداه. اقتطعنا مساحة تقدر بثلاثة أفـدنة خصـصناها للمزرعـة والمعمل، وألحـقنا بها حـديقة تحوى كل نادر أصيل من الأشجار، يتوسطها قصرى هذا الفخيم، الذى انتدبت لإنشائه مهندسا كبيـرا شهيرًا يعرفه بربش بحكم أنه مخطط القاهرة الكبرى ولديه شركة مـقاولات ضخمة وذات فروع دولية. أطلعـنى المهندس على رسومـات كثيـرة وأقنعنى باختـيار واحد منها يشبه القـصور الملكية أعجبتنى فيه شـرفاته وكرانيشه وحليـاته، هو ذلك الذى نجلس الآن فى إحـدى شرفـاته نملى هذه الأمالى، مطـلين على القاهرة من جـميع الاتجاهات فنراهـا بجلالة قدرها مجرد علب صـغيرة كصناديق القمامة مـرمية تحت أقدامنا فى سـفوح سـحيـقة غـائرة فى الأرض. المهندس ـ بارك الله فى صحـته وأولاده وعلمـه ـ هو الذى صمم ونـفذ جمـيع ما يتـعلق بالقصر من مداخل ومنافذ وطرق ومسالك. هذا الطريق المرصوف الذى يبدأ من داخل الحديقة من أمام القصر مباشرة لينتهى خارج الجبل فى السفح الموصل إلى القلعة مـعمول على حسابى يا بوى.

من قرشك ولا تهن نفسك، فرجل مثلى وفى وضعى سوف يزوره ناس كثار يركبون سيارات فارهة فلابد من تسهيل الدخول عليهم وإيجـاد مكان آمن يركنون فيـه سـياراتهم براحـتهم. وقـد صح توقـعى يابوى، ففى هذا القـصر تعـشى وتغدى وسكر وحـشش وقامر خلق غلاظ يقشعر بدنك إن ذكرتهم لك، ناس من أعلى علية القوم يا بوى، صـاحبونى وانتفـعوا بمعرفتى وجمـعوا من ورائى ثروات طائلة هائلة بارك الـله لهم فيـهـا. وفى هذه الحديقـة غنى ورقص ومزك أكبر مشاهير المطربين والراقصات والموسيقيين فى حفلات أين منها حفلات أضواء المدينة.. أمال يا بوى.

دودة

استغرق بناء القصر حوالى نصف عام يا بوى. وكان المهندس الكبير قد بدأ بتعبيد الطريق وتمهيده وتبطينه بالحجر المبشور تمهيدًا لرصفه بعد الفراغ من البناء. وقد سهل ذلك دخول عربات الأسمنت والحجارة والزلط والحديد. كانت الحديقة قد أقيمت بالفعل وتولاها بستانى محترف أتى بأشجار كبيرة زاهرة ثم رشقها. كذلك أقيمت المزرعة والمعمل بواسطة خبراء تعاقد معهم بربش من أساتذة كلية الزراعة. بعدها مباشرة شرعنا فى بناء القصر جاعلين أبوابه الأساسية تفتح على جهة القلعة، مع الاحتفاظ بممرات مرصوفة بالحصاء تربطه من الخلف بالمزرعة. وحينما ارتفع بناء القصر بطوابقه الخمسة العالية الأسقف والشرفات أصبح يحلو لنا السهر كل ليلة فى الحديقة نتفرج على البناء نتخيل شكله بعد أن يتم دهنه وتلوينه على النحو الذى رأيته فى الماكيت المجسد، الذى نضعه أمامنا كلعبة أطفال ضخمة ونتفرج عليه مسحورين من جميع جهاته.

كانت زوجتى قد أنجبت ابننا البكرى أدهم، وكان قد تم فطامه منذ أشهر قليلة حين علمت بأنها قد حملت، فأسعدنى هذا النبأ. صارت قعدتنا على المساند والشلت تطول فى الحديقة أمام التليفزيون الذى يعمل بالبطارية السائلة، فتروح زوجتى تحلم بشغل كل غرف القصر التى بلغت سبعين غرفة بخلاف الردهات ودورات المياه والمطابخ والحمامات المتعددة. وكنت أداعبها وأقول

لها إن عيها أن تنجب لى عيالاً بعدد هذه الغرف، وكان المهندس أعطانا عددًا من المجلات الأجنبية الملونة تعرض ألوانًا وأشكالاً من الغرف المؤثثة. فهذه أنماط غرف السفرة وتلك من غرف الصالون وثالثة من الاستراحات وهكذا وعلينا أن نختار منها ما يعجبنا لكن المهندس بعث لنا بمهندس آخر يدعى مهندس الديكور تولى جميع الاختيارات الملائمة لطراز القصر كما قال..

فتك فى الكلام يا بوى. فلابد من الإشارة إلى أن سر الشيخة سعادة الباتع هو الذى غض عنا بصر المتطفلين المتجسسين الذين يمكن أن نقدم بسببهم إلى المدعى العام الاشتراكى أو نقع تحت الحراسة. ذلك أن شخصيات كبيرة جدًا فى الدولة كانت تعتقد فى الشيخة سعادة ولا تكف عن استدعائها لقراءة مستقبلهم السياسى بل ومستقبل البلاد فى ظلهم، وكثيرًا ما كنا نفاجأ بالسيارة الليموزين السوداء بسائقها ذى الملابس الموشومة تزحف نحونا بأضوائها، ثم تتوقف على مقربة، وينزل السائق مهرولا ليفتح الباب الخلفى للشيخة، وكانت توحى لكل المتصلين بها أنها من أصدقائنا، وأننا من عائلة تعد من أغنى أغنياء الصعيد، وأننا كذلك من أصل عربى منسب يمتد إلى الإمام الشافعى رضى الله عنه، سيما وأن لهذه النسبة ادعاء فى شجرة العائلة إن بالوهم أو بالحقيقة وكان أعمامى المشايخ دائمى الترديد لهذه المقولة..

الشيخة سعادة كانت بارعة أشد البراعة يا خال فى عقد الصلات مع الأسر العريقة فى حكم البلاد سواء من استمر منهم

فى الحكم بعد الثورة أو من ابتعدت عنهم العزوة. كل أسرة تتصل بها يا بوى كانت تدعونى للحضور فى سهراتها كى اختلط بهم أتعلم منهم فنون التعامل مع الحكومة ومع الناس ومع الحياة، حتى لقد أصبحت رغمًا عنى أقلد الدكتور سيد مرعى فى التحدث بصوت عريض مستريح النبرات ملآن بالشبع، وأعتذر عن كل ما يخيل لى أنه إساءة للغير، وأشكر الناس عمال على بطال، بسبب وبدون سبب، وأغدق على كل من ألتقيه من سعاة البرلمان وصغار موظفيه، وأبعث بالهدايا السرية لبيوت كافة المسئولين: أقفاصًا ملآنة بالطيور الداجنة والحمام والفاكهة النادرة وأجولة الأرز الأبيض وأفخاذ الضان، فى المواسم والمناسبات، حتى باتت أمورى كها مقضية بعون الله، أصبح هناك من يتطوع للدفاع عنى يا بوى، وتقديم خدمات لم أطلبها يا بوى، وتلك هى الحياة فى مصر يا بوى: تدفع ثمن كل شىء تعيش ملكًا متوجًا يا بوى، ومن يزعم غير هذا فهو فلحاس يضحك على نفسه..

ذات ليلة هلت علينا الشيخة سعادة ونحن جلوس: زوجى وأنا وابننا أدهم يزأط بين الأشجار، والشلة الوسخة شغالة فى رص الحجارة. التليفزيون أمامنا يذيع الأغنيات الوطنية، ويقطع الإرسال من حين لآخر لينتقل الميكرفون إلى إذاعة خارجية من مطار القاهرة، حيث نرى الرئيس عبد الناصر وهو يستقبل وافدًا جديدًا من الملوك والرؤساء العرب، حيث أن اجتماعاً للقمة سوف

ينعقد فى القاهرة لإيقاف المذبحة التى يقيمها الملك حسين للفلسطينيين فى الأردن، والتى أطلقت عليها الصحافة مذبحة أيلول الأسود، مما يجعل بعض العامة من بلدياتى يتصورون أن أيلول الأسود هذا رجل أسود القلب يذبح إخواننا المسلمين، فصرخ فى وجهى بانفعال وأسى: كيف يتركون أيلول الأسود هذا يذبح أشقاءنا؟! خذونى إليه وحدى وأنا أطحنه!!..

كان يخيم علينا جو من السكينة أميل إلى الحزن الدفين الغامض. قالت الشيخة سعادة وهى تتابع حركة الرئيس عبد الناصر وهو يستقبل الملوك والرؤساء. جعلت تهمهم بكلمات مطلسمة وبصوت فيه رهبة، ثم هتفت فجاة كانها تلقت خبرًا مزعجًا:

- «اللهم لا حول ولا قوة إلا بالله! اللهم لا نسالك رد القضاء بل نسالك اللطف فيه!!»

وراحت الدموع تنهمر من عينيها بغزارة كانها تبكى لسنين طويلة مضت يا خال..

انزعجنا بالغ الانزعاج يا خال، تشاءمنا، توقعت أن تكون أشفقت على الرئيس من هذه الدوخة بين الملاعين الذين لا يحلو لهم التشدد إلا مع أنفسهم وأشقائهم ولا يضمر أحدهم للآخر إلا كل شر وضغينة منذ أيام الخطف والهجمات إلى أيام النفط الذى اتضح أن أعماقنا جميعا أسود منه:

ـ «وحدى الله يا ستنا الشيخة! ما الذى استوجب كل هذا البكاء؟!»

كفكفت دمعها المنسوب:

ـ «هذا الرجل ميت! سيعلن موته بمجرد تمدده على أول فراش يقابله!!»

هتفنا جميعً فى رعب حقيقى:

ـ «سبحان الله ولا إله إلا الله! كيف عرفت؟!»

وكانت الكاميرا قد استقرت على وجهه، فأشارت الشيخة إليه كأم يائسة تشير إلى ابنها الكسيح فى الفراش:

ـ «أنظروا إليه!! دققوا فى عينيه!! الموت فيهما ظاهر كالشمس واضح كالموت!! لاشىء أوضح من الموت! أين اختفى بريق هاتين العينين الصقريتين؟! إنطفأ طبعًا!! لم يعد فى حدقتيه سوى بقايا فحم بارد!!»

قال بسبوسة:

ـ «كتر خيره! الرجل من صبيحة ربنا واقف على حيله!!»

قال بربش:

ـ «إنه إرهاق فحسب! مثل هذا الرجل لا يموت بهذه السهولة!! إنه كالقطط بسبعة أرواح!!»

قال غزولى:

ـ «فليمت! النبى محمد نفسه مات!!»

قالت الشيخة سعادة:

ـ «لو مات الآن تبقى مصر فى الوحل زمنًا طويلا! بكائى ليس عليه بل على مصر! الآن فحسب تذكرت أكبر خطيئة ارتكبها فى حياته! لقد كتم أنفاس كل الرجال فلم يعد هناك رجل حقيقى يطلقه! لسوف يتدخل فى حكم بلادنا كل من هب ودب من أسافل القوم فى المنطقة!!»

قلت فى استياء:

ـ «على كل حال ربنا عالم بنا!»

زفرت الشيخة سعادة:

ـ «حالنا لا تسر! أنا التى لم أكن أفهم فى السياسة ولم يكن يخطر على بالى أن أفهم شيئًا من أسرارها أصبحت بحكم عشرتى لأهلها أعرف كل شىء فيها!! إننى أقولها ورزقى على الله: كل من يحكمنا اليوم ليس فى دماغه أى نفع للبلاد!! إنهم لا يعرفون ماذا يفعلون! إننى أقرأ لهم الطالع جميعًا! وكل واحد منهم يطلب منى أن أكشف له عن حقيقة شعور الآخر بالنسبة له وما الذى يضمره له وللبلاد؟! إننى لولا التوفيق من الله لذهبت طوعًا إلى سراى العباسية من كثرة ما يصيبنى من الذهول من فراغ هؤلاء الناس!!»

صار قلبى يدق يا خال. وجدتنى أسألها:

- «وبعد يا ستنا الشيخة؟ ما الذى تنصحيننى بفعله فى هذه الظروف الغبراء؟!»

- «ضع عينك فى وسط رأسك! كن مع القوى حتى ولوكان مغلوبًا على أمره فالقوى مهما غلب على أمره سوف ينتصر!! امسك العصا دائمًا من الوسط حتى تكون قريبًا من طرفى النزاع فتعرف أى الكفتين أرجح!! لمصر رب يحميها يا خوى أما انت فإن لم تكن مراوغًا ذكيًا تجيد اللعب على جميع الحبال فسوف تدهسك أحفر الأقدام!! ولكن أكبر نصيحة أقولها لك يا خوى: إن رآك كلب وأنت تأكل فارم له بلقمة يألفك يصبح حارسك الوفى!! لا تلعب ولا تخاطر بنفسك إلا فى الكبير الكبير وعليك أن تعف عن كل صغير تتركه للصغار! كن كالأسد لا يقبل أكل الجيف ولا يأكل وهو شبعان!!».

حصيفة أريبة والله يا خال. كرامة لها أكاد أصدق أننا نمت بصلة قربى للإمام الشافعى، وإلا فمن أين جاءتها كل هذه الشفافية يا بوى إن لم تكن ورثتها عن جد قديم؟

الشاهد، سافرت الشيخة سعادة فى تلك الليلة لتبيت فى أسيوط فى البيت الذى يطلبها فيه المحافظ حينما يحتاجها القوم حيث يسرع خدمها الموجودون هناك دائمًا إلى الاتصال بها فى الجبل لتبليغها. وقد علمت أنها ليلتذاك ظلت ساهرة حتى الصباح بجوار الراديو، وبقيت فى أسيوط قريبة من الناس والأخبار..

أما نحن، الشلة الوسخة، فقد التقينا فى شقة المنيل عصر اليوم التالى ورحنا نشوف مزاجنا بالحجرين، والتليفزيون مفتوح أمامنا. كنا قد اندمجنا فى الكلام الحماسى حول مشاريعنا التجارية المقبلة وهل تكون - بتعبير بربش - صناعية أم ترفيهية أم استهلاكية؟. كان رأى بسبوسة أن أى مشاريع من أى نوع فى مصر بالذات مهما نجحت لا تساوى عشر معشار مشاريع الأكل والشرب، فإن أردنا ربحًا مضمونًا غير ممنوع ولا مقطوع فعلينا التفكير فى افتتاح مطاعم ومقاه ومحلات بقالة ومحاصيل زراعية أو مخابز للحلويات. كان كلامه صحيحًا تمامًا يا بوى، ولكننا أردنا أن نبحث فى وسيلة لتحقيق مثل هذه المشاريع الأكلوية الشربوية على نطاق واسع وكبير يحقق لنا الأرباح ونحن جلوس فى إطار دورنا..

وحينما خفتت حدة المناقشة قليلا وبدأنا ننتبه لشد الأنفاس بعمق، لاحظنا أن شاشة التليفزيون ملآنة بفقيه يقرأ القرآن. ثم بدأنا نتذكر أنه بدأ القراءة منذ وقت طويل جدًا يا خال، فالتقت أعيننا على نظرة كأنها نسخة واحدة لمعنى واحد فى نفوسنا جميعا، تنضح بالفجيعة الغامضة يا خال، لأمر ما، نكس غزولى رأسه فى منقد النار فيما يشبه الشعور بالذنب كأن فاله السيء بالأمس قد تحقق. لهذاترك ما فى يديه ونهض إلى التليفزيون، حول المؤشر على القناة الثانية فقيه يقرأ القرآن، قلنا جميعًا: بس جاءك الموت يا تارك الصلاة. فتحنا الراديو: فقيه يقرأ القرآن

يمشى وراء المؤشـر على جميع المحطات. نفـضنا كل ما فى أيدينا، بقينا مسمرين فى مواجهـة الشاشة لا ينطق أحدنا بحرف يا خال. فى لمح البصـر يا خال صرنا كالأطـفال التعسـاء ينتظرون صدور الحكم بالإعدام. أغرب وأطرف شىء لا أنساه يا بوى أننا لحظتذاك شعرنا جميعًا بالجوع، فجأة قال بربش: أنا جعت، فقلنا جميعًا فى نفس واحـد: ومن سـمعك، فـهـرول هندى إلى المطبخ فى دقـائق معـدودة تمت تسوية كـباب الحلة فنزلنا عليـها حـتتك بتـتك مثل المفاجـيع. وفيمـا نتناول الشاى خـرج علينا أنور السادات بنفـسه ينعى جمال عبد الناصر للأمة العربية وللعالم. كان وجهه الصدىء صورة بالكربون من محمد بك أبو شناف حتى تحيرت فالحركات هى نفس الحـركـات، وعوجـة الفك السـفلى، ونطق الحـروف بل والصوت والظل وكـل شىء من الملامح حتى الزبيبـة على الجبـهة واحدة ولا يمكن أن يكون هذا غير ذاك يا خال. مع ذلك فانا مرغم على الاعتراف بأنهما شـخصـيتان منفصلتان يا بوى. فإذا كان كل من يعرف الاثنين قد أكد أنهما اثنان فكيف لى أن أزعم أنهما واحد يا بوى؟! هناك من يزعم أنه قابل الاثنين فى جلـسة واحدة لكننى أشعر أن القائلين بهذا يكذبون لأنى لاحظت أنهم فشارون يبالغون فى إشعـارك بأهميتهـم، وأنا لا أدقق مع هؤلاء بل أترك كل واحد يفشر كمـا يشاء لأنى أستمتع بالفشر، والفـشر ينشط خيالى لكى أفشر أحـسن منهم، فهكذا الدنيا يا بوى، فشر فى فـشر والشاطر من يجعلك تصدقه فى كل ما يقول..

وه يا بوى.كـيف أصف وقع الخـبـر علينا؟ انفـجـرنا فى بكاء صارخ ولطم خدود، لكن الشرارة الـتى اندلعت فى الخلاء سرعان ما شـملت الكون كله اشعلت فيـه الصراخ والجعـير واللطم وشق الهدوم ودبدبـة الأقـدام على الأرض. الكون فى زلـزال رهيب يا خال، كان الدنيا كلها قـد تيتمت. نزلنا نمشى فى الشوارع تائهين مسلـوبى الإرادة والشعـور والعقول يـا خال. التحـمنا بالجـموع الضالة التـعسة البـائسة، وقد ألقت الجمـوع ظلالها الكثيـفة على الشوارع فـسحبت أضواءها واخـتنق الهواء وخيـمت الكآبة كأنما السماء دلقـت على الأرض جمـوعًـا بلا جذور بـلا أهل، تتعـرف أقدامها على الطريق لأول مرة..

عدنا إلى الشقة نفـسـها فى أواسط الليل، أغلب الظن لنبحث عن شخصيـاتنا التى فقدناها فى الجموع المتلاطمـة. استأنفت الجوزة دورتها. بدأت ظلال من شخصياتنا تـتعرف على أجسادنا وتنحاز إليها. وجدتنى أقول لبربش:

ـ «عندك تفسير لكل هذا الهلع الذى رأيناه؟!»

سحب من الحجـر نفسًا عميقًـا، أتبعه برشفة من كـأس البيرة المر دوننا بشربها، ثم قال فى هدوء الفلاسفة:

ـ «الجميع يشعر بالفجيعة طبعًا! لأنهم كالأطفال الصغار الذين يودهم أبوهم على أن يفعل كل شىء بنفسه لا يترك لهم أى شىء يدار كون به فـى إدارة البيت! فهو رب البيت وكـل شىء فيه! هو الذى يمنح ويمنع! لا رجل غـيره والجـميع عـيال حتى ولـو كانوا

أفضل منه فى كل شىء لا صوت أعلى من صوته! لا كلمة لأحد فى ظله وكلمته تمشى فوق رقاب الجميع!! لا يقبل نقدا ولا مشورة ومن يتقدم بشىء من هذا فهو عدو يجب إبادته فى الحال أو بتره من شجرة العائلة!! وهكذا أراح الجميع أنفسهم تركوه ينفرد بكل صغيرة وكبيرة حتى الذين اختارهم ليعاونوه يفعلون ما يأمرهم به فى العلن وينقضونه فى السر بأفعال مضادة!! فلما يموت فجأة لابد أن يشعر الجميع بأنهم صاروا فى العراء بعد أن انهدم سقف البيت على رءوسهم!!»

ثم استأنف الشرب وشد الأنفاس كأنه كان يكلم نفسه أو يفكر بصوت عال. قلت له:

- «والعمل الآن يا بربش؟!»

قال بتلقائية وبغير انفعال:

- «العمل عمل ربنا طبعًا! جاءت لأنور السادات على الطبطاب!! هو نائبه الأول! سوف يتولى رئاسة الجمهورية مؤقتًا إلى أن يحدث الاستفتاء الشعبى! المتوقع طبعًا أن الشعب سوف يوافق على رئاسة أنور السادات! الشعب الذى لم يقل لا طول تاريخه لن يقولها فجأة لأنور السادات! وحتى لو قالها فإنها لن تصل إلى أسماع القائمين على الاستفتاء!!»

- «وما الذى تراه إذن بالنسبة لنا؟!»

- «أرى أن نتصرف على أساس أن أنور السادات هو رئيس الجمهورية إلى الأبد! وأن نبلغه من الآن تأييدنا له بكل الصور! هو

سوف يكون رئيسًا غصبًا عن التخين فى البلد! فخلها بجميلة وأعلن مساندتك له من الآن ضد من سيحاولون منافسته من رجال عبد الناصر الذين كانوا قريبين منه وفى حوزتهم كل أسراره وأسرار الحكم والبلاد والناس!! هؤلاء لن يسكتوا بسهولة على بالك! ليس لأنهم يحتقرون أنور السادات فحسب بل لأن منصب الرئاسة أجل من أن يفرط فيه القريب منه!! ستحتدم المعركة وهنا يجب أن نكون نحن بعيدًا حتى نتفرج ونتسلى ونستمتع كبقية الشعب المصرى! إنما نكتفى بإظهار ولاءنا لأنور السادات! صدقنى إن الشعب يمكن أن يختاره بالفعل وبدون حاجة لتزوير لأن فى الشعب فئات كثيرة قوية يمتعها أن يكون رجل كأنور السادات رئيسًا للبلاد! وسواء كان هو عبيطًا بالفعل أم هو يستعبط ويتدروش لاكتساب حب الناس فإن الناس يهمها أن يكون الحاكم درويشًا لأنهم حينئذ سيسهل عليهم توجيهه لخدمة مصالحهم!! غدا سأفكرك بأن هذا الثعلب الماكر هو عبد الناصر مضروب فى عشرة ولكن فى الاتجاه المضاد للثورة!! سيقف وراءه الأغنياء القدامى! العائلات التى ضربتها الثورة ستضحى فى سبيله بالكثير وهو سيستجيب من أول نظرة لإغرائهم لأنه مصاب بعقدة العائلة! كان يتمنى أن يكون من عائلة ذات جاه وعزوة وسلطان كعائلة عبد الغفار مثلاً فى بلدتهم بالمنوفية!! سوف يفتح صدره لتلك العائلات الإقطاعية القديمة ويحتويها ببسط حمايته عليها لكى يشعر بالنشوة من توافق الأقدار إذ يرى هذه العائلات الضخمة ذات التاريخ قد أصبحت

تقف بأعتابه تتمسح فيه تخطب وده وأصبح منها بمثابة السيد ذى اليد العليا والقامة الأعلى!! إسألونى أنا عن أنور السادات فإنى أعرفه جيدًا عجنته وخبزته شاركت فى تهريبه ذات يوم قبل الثورة أنا وممرض بالقصر العينى أصبح الآن كاتبًا مشهورًا فى الإذاعة! وكنا قد عرفناه وصاحبناه عن طريق كاتب مشهور اسمه زكريا الحجاوى لعلكم سمعتم اسمه فى الإذاعة أيضًا! ذلك الذى تزوج خضره محمد خضر الموالدية!! أصبع ما فيكم جميعًا لا يساوى سنة واحدة فى حياة أنور السادات ومن هنا فإنه سيعلم الناس كيف تمشى على العجين فلا تلخبطه!!».

كلام بربش عميق يا خال، إنه ولد مخربشاتى يفهم فى أشياء كثيرة وبالأخص فى أنور السادات. خربشته أهم من خربشتى ومن خربشات بسبوسة وغزولى وهندى لهذا يفيد بعضنا البعض فائدة كبيرة. صياعة بربش شملت الحوارى والشوارع السياسية منذ وقت مبكر يا خال، فليس فى البلاد كلها سياسى واحد غير معروف لبربش بالاسم الثلاثى والعنوان وتاريخ الميلاد، بل قد يعرف اسم زوجه وأهله وأخباره العائلية الدقيقة، وهو يصدع رءوسنا كل ليلة بهذه الأخبار، وبمشاريعه الشريرة فى استخدام هذه الأخبار ضد أصحابها ذات يوم قريب، يعرف كم صفقة مشبوهة عقدها هذا الوزير، وكم استفاد ذاك من عمولات بحكم منصبه، يعرف لماذا أقيل فلان، وهل أقيل أم أنه استقال. وبهذه المناسبة يا بوى فقد ظللت وقتًا طويلاً لا أعرف الفرق بين الإقالة

والاستقالة إلى أن عرفتها من بربش العفريت هذا. وما أكثر ما عرفت منه يا بوى. على أننى بعد أن كنت أحاول إسكاته عندما يدير شريط مثالب الوزراء وفضائح مجالس الإدارات أصبحت أناشده أن يستأنف الكلام كلما سكت. ذلك أننى قد بدأت أعرف قيمة هذه الأسرار يا بوى ومدى إفادتها لنا فى تثبيت علاقتنا بأنور السادات.

أما صياعة بسبوسة ـ وهى الأخرى مفيدة جدًا فى هذا المجال ـ فإنها صياعة فريدة: يعرف أسرار كل نسوان البلد تقريبًا ياخال، وخاصة نسوان الوزراء والكبراء والوجهاء، ذلك لأنه كان مكلفًا بمراقبتهن من بعض أزواجهن أو عشاقهن أو بعض الجهات، يعرف متى تقابلت إحداهن مع أحدهم فى المصيف البعيد جدًا، وعلاقة المساحقة بين هذه وتلك. يعرف أخبار جميع دور اللهو فى شارع الهرم وشارع عماد الدين، فهذه السينما ملك فلانة وهذا الكازينو ملك الراقصة علانة، ومن الذى يسهر فى منزل الراقصة المعتزلة فلانة، ومن الذى يلعب القمار عند من، ومقدار الخسائر. يعرف عدد صناديق الويسكى التى تم تهريبها لملهى كبير بواسطة فلان الفلانى مقابل مبلغ كذا. يعرف من هى الصحفية المجهولة الداعرة التى نظمت حفلا غنائيًا راقصًا للضباط فى أنشاص ليلة أن تم ضرب جميع المطارات المصرية فى النكسة المشهورة، ومن هى الراقصة التى أحيت الحفل شبه عارية، وكيف أنها هى التى جابت بقية الفنانين للترفيه عن الرجال. يعرف أخبار وأسرار

الخلافات التى نشبت بين المشير أبو عامر وبرلنتى عبد الحميد، وكيف استولى عليها المشير وتزوجها رغم أنف المعترضين وعلى رأسهم عبد الناصر. يعرف الممثلات اللائى أرغمهن صلاح نصر رئيس المخابرات على العمل بالدعارة مع بعض السفراء وكبار الزائرين للحصول على معلومات تفيد البلد فى حربها مع العدو. كل هذا وغيره يا خال يعرفه اللعين بسبوسة، غير أنه أثقل من بربش فى الإفضاء بما عنده، ربما لأن مهنته الأصلية كمخبر فى الآداب علمته الكتمان كصنعة يستفيد بها عند اللزوم، لكنه عندما ينفتح يمكن أن تملأ منه مكتبة شرائط كاملة فى الجلسة الواحدة..

أما غزولى يا بوى فصياعته محدودة لكنها مهمة جدًا يا بوى. يعرف جميع تجار ومهربى المخدرات على أعلى مستوى،معرفة شخصية، بل لديه أسرارهم الخاصة إذ أنه - وهو من المفروض أنه عين الحكومة عليهم - يصبح عينهم على الحكومة. يعرف جميع اتصالاتهم بل ويقوم فى أحيان كثيرة بمهمة المرسال بين المهربين والتجار وبين ضباط الحدود ومباحث الأقسام، يتفاوض من أجل تمرير صفقة أو غض البصر عن بيعة، ويأخذ عمولته من الطرفين. يعرف كيف يقوم ضباط الحدود بالاستيلاء على بعض الصفقات بتواطؤ مع المهربين ذرًا للرماد فى العيون. يعرف من من كبار مستوردى الأخشاب والسيارات يتخذون من هذه السلعة المستورة ستارًا يخفى الحشيش والأفيون والهيروين. ومن الذى يشاركهم أو يعاونهم من أعضاء البرلمان البارزين. يعرف أن تاجر

المخدرات الكبير فلان الفلانى هو الذى اشترى سيارة أحد المسئولين بمبلغ كبير رغم سوء حالتها لكى يستفيد من حصانتها بقية الشهور المثبوتة فى الرخصة باعتبارها سيارة معروفة لجميع السلطات. يعرف أن محل الأزياء الكبير فى شارع الشواربى تملكه زوجة الوزير فلان وتكتبه باسم خالتها وهى التى تستورد الملابس الأجنبية وتهربها من الجمرك. يعرف ثروات أبناء الضباط الأحرار ورئيس الوزراء وعدد وأنواع المشاريع التجارية المستترة التى تدر عليهم أنهار الفلوس. ولأنه صايع كبير فإنه يعرف مساكن مشاهير الكتاب والصحفيين الكبار ونجوم المسرح والسينما والتليفزيون ويحلف أنه يشاهد الكثيرين منهم عند تجار المخدرات بل إنه كثيرًا ما باع لهم بنفسه. كل هذا وغيره يعرفه غزولى الخلبوص مع أن شكله يبدو كأنه لا يعرف السما من العمى. وربما كانت هذه الموهبة هى سر نجاحه يا بوى..

أما صديقى هندى المجدع فإن صياعته هو الآخر تبدو سطحية لكنها مع ذلك توقفه على الكثير من الأسرار والأخبار المهمة جدًا يا خال. إنه متخصص تقريبًا فى معرفة أخبار اللصوص كبارهم وصغارهم على السواء. يعرف كيف يسرق المحافظون وكبار رجال الدولة الأرض الحكومية بتسهيلات وأوراق ملفقة، وكيف يستغلون الفلاحين فى زراعتها، أو المقاولين فى بيعها للبناء. يعرف كيف يستفيد رجال الأوقاف من أموال الوقف التى بلا صاحب على كثرتها. يعرف مزارع الفاكهة التى استولى عليها

بعض الضباط الأحرار من قدامى الإقطاعيين فى الشرقية والمنوفية والصعيد. يعرف أخبار الاختلاسات فى محلات القطاع العام والهيئات والمؤسسات وكيف يتم تلفيقها لصغار الموظفين الغلابة. يعرف حجم المواد الغذائية النظيفة التى تخرج من مخازن الجمعيات الاستهلاكية إلى منازل المسئولين بالمجان فى حين يقف الشعب فى الطوابير طول النهار ينتظر مجىء ما لا يجىء مطلقًا. يعرف الكثيرين جدًا من أمثال الحاج أحمد نوار الدين السنى فى مجالات كثيرة متنوعة. كما يعرف الذين يتعاونون معهم من كبار الموظفين اللصوص، يعرف عدد سيارات الأجرة التى يمتلكها المسئول عن هيئة النقل العام وكيف يتم إصلاحها وتركيب قطع غيارها بالمجان فى ورش الهيئة نفسها. ويقول هندى دائمًا إنه كان جديرًا بأن يرأس مباحث الأموال العامة لأنه يعرف جيدًا أين تذهب وكيف يمكن أن يردها للدولة.

حين استعرضنا كل هذه الخبرات يا بوى فى قعدتنا تلك عقب وفاة الزعيم الراحل شعرنا بأننا قوة لا يستهان بها يا خال، وأننا إن فشلنا فى التعامل مع أى رئيس أيًا كانت شخصيته فإننا نكون غير جديرين بالحياة أصلا. معنى الكلام يا بوى أننا يجب أن نعمل بالقاعدة الشعبية الشهيرة: اللى تعرف ديته اقتله، واختها الأشهر: اللى تغلب به إلعب به. وبما أننا لدينا الكثير من الكروت الصالحة للعب فإننا يجب أن نعرف كيف نلعب بها فى حرفنة وتودك وإلا خسرناها وخسرنا الجلد والسقط.

وهكذا وضع لنا بربش خطته الجهنمية للالتفاف حول أنور السادات فى وقت مبكر. ولقد أوصانى بادىء ذى بدء بأن أنسى بل أنزع من دماغى مسألة المشابهة بين أنور السادات ومحمد بك أبوشناف، لأنها فى نظره غير مجدية من ناحية. ولأن السياسى عمومًا بحكم طبيعة عمله يمكن أن يكون أكثر من شخص فى وقت واحد، حتى لو ظهر أمامنا بشخصية واحدة من ناحية أخرى. ثم إنه من المصلحة أن نشعر من يعاملنا بشخصيتين أننا لم نفطن للعبته، حتى يتصرف أمامنا بكل حرية..

فوافقته فى الحال يا خال، سيما وأننا ـ كما قال اللعين بسبوسة ـ سنكون المستفيدين فى كل الأحوال. إذ أننا نستفيد من كل شخصية على حدة. وقال هندى إننا جميعًا نعيش بأكثر من شخصية فما الغريب فى ذلك؟ ثم قرأنا الفاتحة على الظالم والمفترى.

حظ

انخرطنا فى خطة بربش المحكمة: برقية عزاء باسمى فى وفاة الزعيم الراحل تحث السادات على حمل الأمانة باعتباره أكثرهم وفاء لبلده وأشدهم خبرة بالسياسة وإلا ما اختاره الزعيم الراحل ليكون نائبه الأول. ثم انهالت البرقيات يا خال بعدد المناسبات التى تفنن بربش فى استقطابها: عيد ميلاد ابنته، ابنه، زوجته، أبيه، عيد زواجه، عيد خروجه من السجن قبل الثورة. عيد عودته إلى

الجيش بعد فصله منه.. الخ أطواق الورد المرسلة لا حصر لها، من أكبر المحلات وأرقى الأنواع يا بوى، وقد نشط بربش فى أمور الدعاية لى بشكل جهنمى يا بوى، فهو تقريبًا يعرف تسعين فى المائة من محررى الصحف المصابين بنقاط ضعف كثيرة، يلتقى بعضهم فى البارات، وغرز الحشيش، فى عموم الأماكن المشبوهة. وما دام قد عرف خصالهم ونقاط ضعفهم فقد عرف بالضرورة أثمانهم: فهذا يحتاج لامرأة، وهذا جائع للفلوس، وهذا يخر أمام زجاجة الويسكى أو قرش الحشيش، وهذا يرضى بقليله، ربما بكلمة يا سعادة البيه، أو بمدح فى عبقريته وشرفه. وهكذا يا بوى انهالت التحقيقات الصحفية معى دون أن أنطق فيها بحرف واحد يا خال، عن مشاريع وهمية يجرى تنفيذها لخدمة دائرتى والنهوض بالصعيد الوسطانى، وعن أعمال البر والخير، والتبرعات للجمعيات الخيرية، وفى كل تحقيق صحفى لابد أن يشار على لسانى بكلمتين حلوتين فى حق أنور السادات وتاريخه السياسى الوطنى المشرف.

كنت قد عينت بسبوسة ـ الذى أصبح أفنديًا على درجة عالية من الأبهة والفخامة ويتكلم فى وعى ولباقة أكثر من وزير للخارجية ـ جاسوسًا لنا فى اللجنة المركزية بالاتحاد الاشتراكى، وكذلك اللجنة المركزية العليا، تلك التى لم أكن أعلم عنها شيئًا بعد أن ثقفنى بربش سياسيًا. ولأن بسبوسة ناعم ولذيذ فقد سهل عليه اختراق جميع الاجتماعات ـ حتى السرية منها، عن طريق

أصدقاء و أعوان من صغار الموظفين الذين تئول إليهم الأوراق والمحاضر فى النهاية. كان يأتينا كل ليلة بأخبار طازجة ليفاجأ بأن بربش قد علم بها من مصادره الخاصة وكان ينتظر ـ فقط ـ تأكيدًا لها من بسبوسة..

أبلغنا بسبوسة أن أنور السادات بعد أن كان قد أكد للجنة المركزية العليا أنه سيبقى نائبًا لرئيس الجمهورية إلى أن يتم الانتخاب الحر فى وقته الطبيعى أى بعد أن تتم إزالة آثار العدوان الإسرائيلى كما أعلن عبد الناصر فى خطاب عودته بعد حادث التنحى، رجع فى كلامه وطلب اجتماع اللجنة المركزية العليا ـ المكتب السياسى ـ وطالب بضرورة إجراء الإنتخابات للرئاسة، وطلب بعرض اسمه على الشعب كرئيس للجمهورية. وقد ثار ورثة عبد الناصر بقيادة على صبرى، وتحفظوا على هذا الطلب قائلين إن الشعب لا يحبه وسوف يرفضه لا محالة وحينئذ تسقط هيبة مجلس قيادة الثورة وتنتهى ثورة يوليو، فأصر السادات على طلبه وقال إنه لا بأس من المحاولة فإن رفضه الشعب قدموا مرشحًا آخر وثالث ورابع إلى أن يوافق الشعب. هنا أضاف بربش أنه علم أن الكثيرين من أعداء عبد الناصر فى مصر والأمة العربية ـ وخاصة الإخوان المسلمين ـ هم الذين أوعزوا للسادات بعدم التفريط فى فرصة انتزاعه للرئاسة من ألاديش عبد الناصر الذين ظهر أن معظم الشعب يكرههم لكنه يخاف من بطشهم، إضافة إلى الملوك العرب الذين ما صدقوا أن رحل عبد الناصر

فسعوا لاستئصال شأفته من السياسة المصرية ليعود كل شىء فى المنطقة إلى هدوئه الذى كان قبل الثورة. هذه التيارات قوية يا خال ولا يستهان بها مطلقًا، فمعها الأموال الطائلة يا خال، ومعها القوة الأمريكية الإسرائيلية الكارهة للشيوعية والاشتراكية، وهى تملك الأسلحة والأجهزة الرادعة الكاشفة فى حين لا يملك الاديش عبد الناصر سوى جهاز المخابرات بجهاز بث الإشاعات، جهاز بث الرعب مع الفقر المادى المدقع يا خال، مع انعدام الأسلحة. ومناورات ومخادعات الاتحاد السوفيتى الجبان الذى لم يكن صادقًا فى دعمه لمصر بقدر ما كان يتخذها مقرًا لمناوأة أمريكا. تلك هى تحليلات بربش الداهية.

يا خال. والحق يا خال لقد لخبط لى مخى بقدر ما أضاءه، فقد كنت أظنه من عشاق الاشتراكية فإذا به ليس من عشاق أى شىء، وإذا به يقول لى:

- «ما يهمنى هومستقبلنا السياسى وكيف نكون أقوياء نشوف لنا يومين قبل أن نتوكل على الله!! وعلى فكرة يا حسن! إن ظاهرة الحزن على عبد الناصر التى رأيناها بأعيننا لم تكن حقيقية إلا فى جزء منها!! الأغلبية العظمى وهى الأقوى تكره عبد الناصر كره العمى صدقنى: الإقطاعيون الذين انتزعت أراضيهم! أصحاب الشركات والمصانع والمحلات التى أممت! الأغنياء والرأسماليون الذين وضعوا تحت الحراسة ظلمًا وعدوانًا ليستمتع بخيرهم اللصوص والأفاقون! آباء الجنود الذين قتلوا فى حرب وهمية

قادها ضابط حشاش بتاع نسوان! السياسيون والمثقفون والشرفاء الذين جند أبناؤهم كمخبرين عليهم! الذين ذاقوا مرارة السجن والاعتقال والعزل السياسى! أعضاء الأحزاب التى حلت وكان لها فى الشارع حضورًا قويًا من قبل! الطلبة المستنيرون الذين قلمت أظافرهم وحرم عليهم الاشتغال بالسياسة وتم إقصاؤهم وإبطال دور ومفعول الجامعات! حتى التقدميون الذين من المفترض أن عبد الناصر يحقق لهم حلم الاشتراكية يقفون ضده كدكتاتور! وصحيح أنهم اليوم يتزعمون موجة التباكى عليه والإبقاء على تراثه لكن ذلك مؤقت وسببه خوفهم من ضياع ثورة يوليو وعودة البلاد إلى عهد الملكية وهذا بالطبع مستحيل حدوثه!! وإنهم يعملون بمقولة: نار عبد الناصر الثورية الاشتراكية ولا جنة السادات الرجعية! وهذه مقولة غبية لا نفع لها فى السياسة والدليل على ذلك أن معظم القوى التى تملك المال والسلاح والنفوذ فى مصر مدعومة بالعالم العربى المدعوم بأمريكا هى الان مع السادات وإن لم تظهر على السطح بعد خوفًا من بطش رجال عبد الناصر الذين قد يظهر أنهم يملكون قوة سرية مدخرة!! فلا تنس أن الحكم كان محوطًا بالسرية لانه حكم الفرد وأذنابه وليس حكم الشعب كما كان المرحوم يزعم!»

- «والخلاصة يا بربش؟!»

- «بكل صراحة كان المرحوم كابوسًا والناس كانت تبكى من الفرح لا من الحزن! أو قل من الحزن على المستقبل الغامض

والورطة المهيبة التى أوقعهم فيها المرحوم بموته المفاجىء! إن الموت فى حد ذاته هزيمة مضاعفة!! هزيمة بهزيمة فمن الأفضل أن يراجع الشعب نفسه فى هذه الثورة من أساسها ويعمل على الخلاص منها! وهذه هى الأرض القوية التى يقف عليها أنور السادات ونحن معه!!»

ـ «هل سيفرط السادات فى الثورة التى صنعته؟!»

ـ «الثورة عنده كانت لاستكمال الأبهة كما قلت لك من قبل يحقق بها النفوذ والعزة الشخصية! فإذا كان هذا سيتحقق له من مصادر أخرى فلتذهب ثورة يوليو إلى صفيحة القمامة غير أنه لن يفعل هذا مرة واحدة إنما سيظل مستمسكًا فى الظاهر بشعارات الثورة كأسباب شرعية لبقائه إلى أن يثبت أقدامه!!»

ـ «وما الموقف الذى يجب أن أتخذه غدًا فى البرلمان؟ ففى جلسة الغد سيجرى الاستفتاء على ترشيحه!»

ـ «لابد أن تكون على رأس الأصوات المؤيدة له!!»

صدقت نبوءة بربش يا بوى، وتم انتخاب أنور السادات بالإجماع فى السادس عشر من أكتوبر رئيسًا للجمهورية.

وكانت هذه صدمة كبيرة لالاديش عبد الناصر من أمثال على صبرى وسامى شرف وشعراوى جمعه وغيرهم من أعضاء المكتب السياسى الذين تمكنوا من بث الخوف فى دراويش عبد

الناصر ممن يتخذون من الإتحاد الاشتراكى سندًا للنفوذ والوجاهة.

وقد نقل لنا بسبوسة أن أعضاء المكتب السياسى بثوا هذا الخوف فى الدراويش والمريدين ليصبح لديهم ذريعة يواجهون بها السادات لكى يحكموا هم من خلاله يحولوه إلى طرطور وحسبه لقب رئيس الجمهورية يرضى به غروره أما الحكم الفعلى فيكون للمكتب السياسى. قال بربش إن عشمهم فى هذا عشم إبليس فى الجنة.

وقال غزولى: ـ «لى أصدقاء فى مباحث أمن الدولة والمخابرات العامة يقولون لى إن ألاديش عبد الناصر يفكرون جديًا فى اغتيال أنور السادات بخطة جهنمية يجرى الترتيب لها حاليًا».

فاعتبرنا هذا الكلام مجرد خرف ولم نعلق عليه رغم أننى يا بوى شعرت نحوه بشىء من الاهتمام نظرًا لتزايد خطر السادات والتأييد الشعبى له وقد يدفعهم هذا إلى التعجيل بالخلاص من عدوهم قبل أن تبرد دماء عبد الناصر فى عروق المؤيدين لهم..

سجلنا اسمنا فى دفتر الزيارات برئاسة الجمهورية، تقدمنا بطلب لمقابلة الرئيس لتقديم التهنئة وللتحدث معه فى بعض الأمور. المفاجأة كانت عظيمة يا بوى وافق السادات على هذه المقابلة وحدد لها موعدًا بعد ساعات قليلة.

في تلك الليلة سهرت الشلة كلها محتاطه بي تلقنني ما ينبغي أن أقوله للرئيس وما أرد به إذا سألني عن كذا وكيت. كل واحد من جهة راح يصب في رأسي أطنانًا من الكلام كأنني سامكث في مقابلة الرئيس عشر سنين، أو كأنني مطلوب مني مناقشته في مستقبل الكون كله يا بوي.

رغم ضيقي بكل ما سمعته وشعوري بعدم قدرتي على تذكره أثناء المقابلة، فوجئت في الصباح بأنني استوعبت كل ما قيل، فرغم تخانة مخي الصعيدي التي يعيرونني بها فهمت جميع عبارات بربش ومصطلحاته وصرت أرددها بكل طلاقة ووعي، صرت أتكلم بأسلوبه ومفرداته من قبيل: بيد أن، مطلقًا، طرا، حاشا وكلا، عن بكرة أبيها، برمتها، الشارع السياسي أزمة الشرق الأوسط، التيارات التقدمية الإلحادية، ماركس، إنجلز، فائض القيمة، الصراع الطبقي، مستقبل التيتوية، عدم الانحياز، التفوق النووي، شد البساط من تحت الأقدام، سحب الثقة.. إلخ إلخ، بل أستطيع الهمبكة بالكثير من الكلام في شرح هذه العبارات إذا ما وقعت في مأزق حرج..

قابلت الرئيس يا خال، كان جسدي كله ينتفض، أحاول السيطرة عليه بكل قوة. وكنت واثقًا أن هذه الرهبة مصدرها الجو المحيط بالزيارة للقصر وأنها ستنتهي بمجرد رؤيتي للرئيس لأن الشبه الكبير بينه وبين محمد بك أبو شناف سيخدمني فكأننا أصدقاء قدامى.

كان اللقاء في بيته بجوار شيراتون، وكان الرئيس يرتدي بذلة فاخرة كأنه المانيكان يا بوي، شياكة لا مثيل لها يا بوي، عطور نفاذة. وكنت بدوري قد ارتديت بذلة تضارع بذلته في الفخامة من مجموعة البذلات الفاخرة التي اشتريتها من شارع الشواربي، مع قمصان من الحرير الطبيعي وأربطة عنق من أشهر الماركات العالمية، ومجموعة أحذية يستخسر الواحد المشي بها على الأرض ومفروشة بالبساط.

خلعت العمامة وصففت شعري عند الكوافير مساء أمس، ودربت نفسي جيدًا على نسيان الزي الجديد حتى لا أرتبك وأبدو كمحدث نعمة. قالت الشلة إنني أبدو مثل قدامى الباشوات، وذهبوا ينتظرونني في استراحة الشيراتون..

بعد انتظار حوالي خمس دقائق في الصالون شربت خلالها جرعتين من كوب الليمون المقدم لي فور دخولي، أقبل الرئيس نحوي فانتفضت واقفًا، هرولت نحوه لمقابلته متوقعا أن يفتح حضنه لأرتمي فيه. لكنه يا بوي كالنخلة المصلوبة، فيما عدا وجهه المسترخي بابتسامة عريضة مشرقة، مد ذراعه الطويلة، فقبضت على يده صرت أهزها بحرارة، فتستجيب يده بحرارة أشد، ثم أشار لي بالجلوس، فجلست على أقرب كرسي له بعد أن جلس هو أولا...

من لحظة وقوع بصري عليه يا خال، أيقنت أنني أمام محمد بك أبو شناف الحميم لي. لكن ملامح وجهه، طريقة سلامه عليّ،

ثم أمره لـى بالجلوس، وقوله: أهلا وسـهلا شرفت، كـل ذلك كان محايدًا تمامًا يا خـال، وصادر عن شخص لا يعرفنى على الإطلاق من قبل. ثم أنه وضع ساقًا على ساق، وأعاد الترحيب:

ـ «تشرب قهوة معى؟!»

ـ «يزيدنى شرف يا سيادة الرئيس!»

ـ «مضبوطة؟!»

ـ «نعم يا سيادة الرئيس!»

فصـفق بيديه تصفـيقة خفـيفة، فظهـر السفرجى ذو العمـامة المرتفعة جدًا والوجه الأسود. عاجله الرئيسى قبل اقترابه:

ـ «مضبوطتان».

انحنى السفرجى وخرج. قال سيادته:

ـ «هيه! ما الأخبار؟!»

انبريت أخطب خطبـة حسدت نفسى على قـدرتى فى ارتجالها. ويظهر يا خال أن البنـى آدم منا عنده قدرات كبيرة لا يعـرفها ولا تبـين إلا فى الزنقة. هنأته وهنأت الشـعب المصرى والعـرب وكل شـعوب عـدم الانحـيـاز وكل المقهـورين فى الأرض. أعـربت عن سعادتى وسعادة كل هؤلاء برئاسـتـه الميمونة. دعوت الله أن يقيه شرور الاديش ودراويش عبد الناصر. وأن يحميه من الشيوعيين، ومن خبث الصهاينة الأشرار.

كـررت أننى بالأصـالة عن نفـسى وبالـنيـابة عن أهل دائرتى نتمنى له النصـر المؤزر ونضع أنفسنا بكل مـا نملك تحت تصرف سيادته.

صار هو يتابـعنى بهزة من رأسه فى إعجـاب ورضا وامتنان، مع ابتسـامة كبيـرة والبايب ـ نفس بايب محـمد بك أبو شناف ـ بين أسنانه البـيضـاء الناصعـة. ثم فـوجئت به يسـألنى عن اسم دائرتى وعن موقعها بالضبط من خريطة الصعيد وعن حالة الأمن فيها، وحـالتها الاقتصادية والاجـتماعية بوجه عـام، جعلت أحدثه فى كل ما طلب الاستعلام عنه حديثًا مستفيضًا.

استمع لى فى شغف وهدوء وروية، لم يبد عليه مطلقًا أنه على علم سـابق بأى من هذه المعلومـات. فأيقنت يـا خال أننى بالفـعل أمـام حـضـرة الرئيس وليس مـحـمـد بـك أبو شناف، وأن هذه الشخصيـة تختلف عن تلك اختلافاً بينًا رغم تطابقـهما فى الشكل والطول والصوت والعادات ولهجة الكلام. كـدت أعتقد أنهما توأم، لولا أن ذلك ليس موجودًا فى تاريخ السادات.

ثم إنه شكرنى على هذه الروح الطيبة الشجـاعة التى تتسم بها شخصـية الصعيـدى بوجه عام، وفى منتهى الرقـة أبدى ملاحظة بسيطة استـشفها من كلامى إذ قـال إنه يهمه أن يوضح لى نقطة بسـيطة كـانت غائبـة عنى وعن البـعض من أبناء شـعـبنا الطيب الأصيل، تلك هى أنه ـ فى الواقع يحب ويحتـرم عبد الناصر، وأنه ماض على طريقه بإذن الله، غيـر أن له طريقته الخاصة فى الحكم

ثم سألنى:

ـ «وبالمناسبة ما هى الأخبار التى تسمعها عن ألاديش عبد الناصر هؤلاء كما تسميهم؟!»

أدليت بكل ما عندى من تقارير سرية وعلنية، جميع ما أخبرنى به بسبوسة وبربش وغزولى وهندى، حتى الإشاعات المتطرفة حكيتها له باعتبارها معلومات.

وسعدت بأنه استمع لى يا خال فى صبر واهتمام. وكان الدفء ينبعث منه حارًا غازيًا، فكأننى جالس إلى أخى الأكبر فعلا، إذ يميل نحوى ويهمس متسائلا أو مستفسرًا عن شىء موحيًا لى بأن أخفض صوتى، فأخفضه إلى حد الهمس الحميم، مما أشعرنى بأننا صديقان فى حالة ود، أوحى لى يا خال أنه يبادلنى الأسرار، والصفاء بمجرد نطقه لعبارات من قبيل: أعرف يا حسن! أنا لست غافلا يا حسن! سوف ترى عاقبة الشر والخيانة يا حسن! ربنا على الظالم يا حسن! المهم أن نضع يدنا فى يد كل الشرفاء يا حسن لخدمة مصر وانتشالها من الكرب! ادع الله يا حسن أن يوفقنا فى خدمة هذا الشعب المسكين! فى إشباع الجياع. وسيادة القانون! خليك على اتصال بى يا حسن! مكتبى مفتوح لك ولكل الناس الطيبين! مع السلامة يا حسن! شرفت!!..

هذه العبارات ياخال أقنعتنى بأننى فى حضرة ولى من أولياء الله الصالحين، وأنه مثلنا يتحدث ويفكر كما نتحدث ونفكر. قل إننى أحببته يا خال، آمنت بزعامته، وعقدت النية على أن أكون من رجاله المخلصين..

أثناء خروجى من البيت متجهًا إلى استراحة الشيراتون لم أفلح فى طرد شبح محمد بك أبو شناف الذى شعرت أنه كثيرًا ما كان يطل من حديث الرجل فى لمحات خاطفة، صار يلطشنى فى رأسى فيخيل لى كأن الحرس الجمهورى المبثوث حولى سوف يضبطنى متلبسًا بالمقارنة بين الرئيس وشخصية كهذه.

رأيت الشلة تتحلق مائدة بجوار حمام السباحة. ضحكوا ضحكًا عميقًا لرؤيتى، هتفوا فى نفس واحد الحمد لله، فاستربت فى لهجتهم يا بوى.

صمموا على الغداء هنا، قلت: وماله، حلاوة مقابلتى للرئيس. وفيما أنا منهمك فى دفع فاتورة الحساب الحراقة قال بسبوسة ـ أغلب الظن ليصرف ذهنى عن استهوال المبلغ:

ـ «ألم تر جدول مواعيدك؟!»

ـ «لا!»

قال بربش:

ـ «غدًا بإذن الله نحن مدعوون على العشاء فى منزل ضيفنا القديم الحاج أحمد نوار الدين السنى! أخذتنى المفاجأة يا خال، فهذه أول مرة أدعى فيها إلى بيت الحاج أحمد نوار الدين السنى وأنا فى ثوبى الجديد بشخصيتى الجديدة، فكيف ترانى سأتصرف حيال مازق كهذا يا بوى؟! قعدة الحاج أحمد نوار السنى عرفتنى كصبى غرزة، مجرد نفر من أنتن اللصوص يقوم بخدمة البكوات يمسك لهم بالجوزة، هذا واقع ماثل لم يمض عليه

وقت طويل، فكيف أذهب إليها الآن وأنا عضو فى البرلمان ولى خدم وحاشية وسائق وهيئة مكتب وسيارة ملاكى وبطاقات مطبوعة باسمى!! وهل ترانى سأجلس بين البكوات حسب وضعى الآن؟! أم أن أصلى سيغلب ويعود بى رغمًا عنى إلى وضعى القديم؟ ومن هم البكوات الذين سيحضرون حفل العشاء يا ترى؟

يظهر يا خال أننى فكرت هكذا بصوت عال، لأن بربش رد فى الحال قائلا:

ـ «المدعوون ليسوا غرباء عنك! إنهم نفس الوجوه التى تعرفها: محمد بك أبو شناف (وانفجرت ضحكة صاعقة لفتت إلينا الأنظار بكثير من الاشمئزاز والاستنكار إذ كانت بالفعل سوقية يا بوى» والشيخة سعادة! وحسن بك عضو مجلس قيادة الثورة! والحاج قدرى! والمقدس زخاروس تاجر الآثار والمعلم عطاطس وحازم وأصدقاؤه وبقية الناس الهردبيس! المناسبة طبعًا هى عيد ميلاد ابنته! غير أن الحفل هذه المرة كما يقول سيكون على القد وليس مثل كل سنة!!»

لستنى هذه العبارة الأخيرة. وجدتنى أصيح:

ـ «آ... آ.... آ.... لماذا على القد هذا العام بالذات؟!»

قال بسبوسة كأنه يفسر شيئا فى غير حاجة لتفسير:

ـ «السبب واضح: الرجل يئس من الحفلات الواسعة!! الهدف منها لا يتحقق أبدًا!! فسلم أمره لله وقال لا داعى للتكاليف الباهظة!!»

ـ «وما هو هذا الهدف الذى لا يتحقق يا بو العم؟!»

ـ «البنت عانس كما تعلم! فرغم جمالها الصاروخى ورغم ثراء أبيها الفاحش لم يتقدم لها العريس المناسب!! كانت حفلات عيد الميلاد هذه كمصيدة للإيقاع بعريس ترضى عنه البنت ويوافق مزاج الحاج! فالرجل وابنته لديهما اعتقاد بأن كل من يتقدم لها ـ وهى الوحيدة ـ لابد أن يكون طامعًا فى ثروتها الكبيرة التى سترثها!! البنت نفسها تضع شروطًا معقدة فيمن تتزوجه! منها أن تحبه وأن تتأكد من أنه يحبها لشخصيتها كانت النتيجة أن تعقرب أمر زواجها! كثر الخطاب دفعة واحدة وانفضوا دفعة واحدة أيضًا!! على فكرة! هذا هو السر فى أن الشيخ السنى يكثر من دعوة الشيخة سعادة لعلها تنجح فى عمل سحرى يفك عقدة ابنته!!»

ـ «انتظر هنا يا بسبوسة! كيف تتأكد البنت من حب شخص أو عدم حبه ما دامت هى محبوسة فى البيت وليس لها علاقات كما أنها ليس لها عمل تحتك فيه بالشباب؟!»

شخر بسبوسة شخرة لم يسمعها لحسن الحظ أحد سوانا:

ـ «من قال إنها محبوسة يا سعادة البك؟! إنها أولا تخرجت فى الجامعة الأمريكية وتجيد عدة لغات إجادة تامة يمكن أن تعيش فى الخارج بدون أى مشاكل!! ثانيا هى عضو بارز فى نادى الجزيرة

وسيارتها البويك مركونة دائمًا أمام النادى! وتنزل حمام السباحة باستمرار! ومشجعة كبيرة لفريق النادى الأهلى لكرة القدم وتدفع للاعبين مكافآت فوز! وتعزمهم فى كل مناسبة! ولها صداقات قوية بين جميع كبار الفنانين بجميع مستوياتهم وألوانهم! ولعلمك فهى على علاقة ووثيقة بكثير من الأميرات العرب تعزمهن ويعزمنها باستمرار وتعرف بدلا من الشاب ألف شاب!! أما أن تعطى مفتاح قلبها ومفتاح خزينة أبيها لأحد فهذا هو بيت القصيدة! فهمت ياسعادة البيه!!»

قال هندى بهدوئه المعتاد، وثلاثة أرباع كلامه دائمًا غمز بالعينين والشفتين والحاجب واليدين، إذ يبدأ العبارة ويكملها بالغمز والحركات:

ـ «نسى بسبس أن يقول لك: إن بعض نجوم الفن اللامعين جدًا جدًا تقدموا لها! لكنها! كما تقول: إنها هى! هى المشكلة! والمشكلة هى! أخذت بالك؟ العقدة كلها فيها! دماغها! تعرف؟ دماغ مقطوش كدماغ أبيها بالضبط! وللعلم! أقولها ورزقى على الله! هى ليست! أقصد! من ناحية الجمال يعنى! فى مرة قربت وجهى من وجهها أتصدق؟ نفرت منها! أى والله نفرت! فى الأول كنت أتمنى تقبيلها! فلما اقتربت منها من غير قصد طبعًا تصور؟ جاءنى شعور بأننى ساقبل الحاج أحمد نوار الدين السنى فى شفتيه! هى جميلة طبعًا ما قلت فى ذلك شيئًا! إنما دمها! هو نفس دم الحاج! والحاج يمكن أن يكون خفيف الظل ولكن دمه على امرأة؟! إسمح لى!!»

ضحكنا فى مرح. قال بربش بلهجة حكيمة رصينة!

ـ «سيبك من كل هذا! البنت سوقها واقف لما يشاع عن علاقة محرمة بين أبيها وبينها! أستغفر الله العظيم يا جماعة! أنا شخصيًا لست متأكداً من صدق هذه الشائعة التى سمعتها بأذنى كثيرًا فى نادى الجزيرة مؤخرًا!! وما أستطيع تأكيده هو أن البنت مصابة بعقدة اسمها عقدة إليكترا قرأت عنها كثيرًا وفهمت أنها معروفة للأدباء وأطباء النفس!! مشهورة!! ومعناها أن البنت تعشق أباها أو أخاها نسبة لشخصية فى مسرحية عالمية اسمها اليكترا كانت هكذا والله أعلم!! وفى ظنى أن الحاج وإن كان بريئًا من الانس فإنه مسئول بشكل أو بآخر عن تنمية هذه العقدة فى نفسية البنت فقد أغدق عليها عطفًا مبالغًا فيه لأنها وحيدته ويتيمة من أم كان يقدسها لأنها صاحبة هذا العز الذى هو فيه وهذا البيت فى الأصل بيتها! البنت الآن عمرها فوق الثلاثين ولا ترى غيره أمامها! ومع ذلك تبدو كفتاة فى الإعدادية!!»

علق بسبوسة بخبث شديد:

ـ «والحاج هو الآخر عنس ولم يجد من تتزوجه رغم أنه حاول كثيرًا من أجل إنجاب ولد يرث ثروته! كل النساء اللائى تقدم لهن أيام الشقاوة كن يقبلنه فى الفراش ويرفضنه كزوج!! إنه فى الفراش دقرم جبار! لكن النساء مدربات على اكتشاف الرجل البسكوته! فالرجل البسكوته أحسن من يضاجع! وذوق الحاج يرميه دائمًا على نوع معين من نساء الذوق القديم اللائى لا

يعجبن ابنته ولا توافق عليهن!! يموت فى اللحم الكثير! والمد يفضلن ابتزازه بدلا من وجع الدماغ مع ابنته! فابنته هذه يكفيد شرها! أكبر متسلطة شفتها فى حياتى والحاج لا يخاف إلامنها!!»

قرفت والله يا خال من هذه الشلة الوسخة ولد الابالسة، صحت فيهم بأعصاب متوترة:

ـ «المهم الآن يا ولد الأبالسة هل سنروح الحفلة؟!»

قال بربش فى حماسة:

ـ «طبعًا! نحن أول من يروح!!»

ـ «حلو! هل سنكون بكوات هذه المرة أم يا ترى سيصر البكوات على معاملتنا القديمة كخدم وألاديش؟!»

قال هندى ساخرًا:

ـ «من فات قديمه تاه!!»

وقال غزولى:

ـ «اللهم علّى مراتبنا ووطى نفوسنا!!»

وقال بسبوسة:

ـ «الناس على دين ملوكهم يا حسن بك! مثلما تفعل سنفعل!!»

رهتف بربش فى انفعال وجدية، مقطب الجبين:

ـ «ما هذا الكلام الفارغ؟ سنحضر كبكوات طبعًا! نضع أرجلنا فى عين التخين ونطلب من يخدمنا! نحن لابد أن نروح لنشعر

بكويتنا! نفرضها! المثل يقول: أصلك وقتك! ونحن الآن فى وضع مختلف لقد محونا الماضى بأستيكة! والحاج نفسه لابد أن يكون واعيًا بهذا من قبلنا! وإن لم يفطن نفطنه غصبًا عنه!! من فيهم سيكون أشيك منك!؟! سيارتك أفخم!! والأهم من ذلك معك حاشية ورجال! وقابلت رئيس الجمهورية شخصيًا وتحدثت معه كأصدقاء! أنت يجب أن تكون نجم الحفل أنسيت الدرس الذى علمته لك؟ تصرف دائمًا كواحد من كبار رجال الدولة المتمتعين بالحصانة!!»

ـ «تشكر يا بو العم! أنا فعلا يجب أن أتذكر هذا دائمًا!! خلاص يا بو العم! نروح الحفل غدًا كبكوات!!».

فى مساء الغد كنا ـ أنا وولد الأبالسة ـ على سنجة عشرة. لبست بذلة كحلية اللون غامقة من الصوف الهيلد المعتبر على قميص لينوه الشوربجى زهرى اللون بياقة صلبة، ورباط عنق قرمزى اللون عليه رسوم زخرفية رصينة مشبوك بدبوس من الذهب الخالص.

أما الحذاء فإيطالى الصنع يلمع كالمرآة المصقولة رغم سواده الفاحم. كل ما كان يضايقنى هو منظر أصابع يدى بما تتراكم عليها من صدأ خشن لم تفلح الليفة فى تنعيمه. كذلك كانت شياكة الشلة كلها، حتى أن صياع مصر عتيقة الذين يعرفون أصولنا ظهر الانبهار الشديد فى عيونهم فانحنوا لنا فى تبجيل. وتلك هى الدنيا يا بوى، مظاهر فى مظاهر.

أوراق السر الأصغر

الولد بسبوسة الدقرم عينه ثاقبة طول عمره. لاحظ ونحن نقترب من بيت الحاج نوار أن الجو فيه شىء غير طبيعى: ثمة سيارات سوداء تركت فى زوايا مظلمة تطل من وراء زجاجها عيون متلصصة متفحصة وشبان فى ثياب بسيطة يقفون فى زهو ولا مبالاة مفتعلة يقول منظرهم: نحن مهمون، يحتلون النواصى وحول البيت وسرادق البضائع ـ تكاد عين الواحد منهم تستوقفك تشدك من قفاك، لا لتستعلم عن شخصيتك وتستطلع هويتك بل لمجرد أن تقول لك نحن هنا...

فى مدخل البيت، ذلك الممر الضيق القصير المؤدى إلى الباب الرئيسى وقف ثلاثة أشخاص لم نرهم من قبل ولانعرف عنهم أى شىء مع أننا نعرف كافة المتصلين بالحاج سواء من العملاء أو اللصوص أو السماسرة أو البلطجية أو الأصدقاء.

كانوا على شىء من اللباقة والمرونة والفهلوة، يوهمون كل داخل أنهم من ألاديش الحاج أوقفهم هنا لإدخال المدعوين فحسب ممن يحملون بطاقة مطبوعة باسمهم، واحتجاز كل ذى شكل مريب.

كانوا ـ تقريبًا على وعى بكل داخل ـ ينادون البعض بأسمائهم مسبوقة أو متبوعة بلقب: بك وباشا.

ربك والحق لم أسترح لهذا الجو يا بوى. بالفهلوة شعرت أن ولد الأبالسة من الشلة الوسخة يعرفون حقيقة الأمر ولا يريدون

كشفها لى لسبب من الأسباب، فلربما وقر فى أذهانهم أننى لو عرفت السر الذى يعرفون فقد أرتبك أو تنهار شخصيتى حيث كثيرًا ما يشعروننى بأن لهم الفضل فى تلفيقها بنجاح يشهد ببراعتهم.

كنا نمشى بقوام مشدود ووقار يليق ببكوات أصلاء: بربش على يمينى، وبسبوسة على يسارى، وغزولى وهندى خلفنا لزوم الحرس والتأمين متعمدين إظهار ذلك المظهر للعيان سيما وأن هندى كان بارعًا جدًا فى تقليد دور الياور أو البودى جارد المطلوب منه حماية شخصية كبيرة. همست لبسبوسة:

ـ «ماذا فى الأمر يا بسبوسة؟! المسألة فيها سر! ويظهر لى أنك تعرفه!!»

فبادر بربش بلهجة من يطمئن طفلاً متوجسًا:

ـ «بالعكس! الأمر واضح ومفهوم! فمن بين المدعوين عضو وربما أكثر بمجلس قيادة الثورة! ومن المؤكد طبعًا أن محافظ القاهرة ومحافظ الجيزة مدعوان! ولو شغلت مخك الصعيدى فإنه يقول لك إن المدعوين فى مثل هذه الحفلات الكبيرة هم دائمًا أشبه بالمجاميع المرتبطة ببعضها! بمعنى أنك إذا دعوت فلانًا فلابد أن تدعو بقية الطاقم الموازى له فى الأهمية! يعنى سيكون هنا بالضرورة مدير الأمن ومساعدوه ورجاله! وعلى كل ماذا يهمنا؟

رأسنا برأس الجميع هنا! أنت أيضًا طاقم! فبما أنك عضو فى البرلمان وصاحب أعمال فلابد أن يرافقك رجالك!!»

رفع يده بالتحية العابرة للثلاثة الواقفين، بحركة غاية فى الرصانة المتقنة لا يفعلها إلا كل شخصية خطيرة ذات نفوذ. بذلك ردوا عليه فى احترام وحماسة كبيرين:

ـ «أهلا يا افندى! شرفتم! تفضلوا!!»

تقدمنا أحد الأدلاء إلى الطابق الثانى حيث الردهة الكبيرة المستطيلة العريضة المعدة فى الأصل لمثل هذه الاحتفالات حيث ترتفع أرضها فى ركن منها بما يشكل مسرحًا. جعل الدليل يرشدنا إلى الأماكن المخصصة لجلوسنا وفقًا لترتيب محكم.

المقاعد أفخم من مقاعد سينما الدرجة الأولى، سمعت أن شركة متخصصة تأخذ الحفل من بابه مقاولة، من المقاعد حتى العشاء والحلويات وجميع أنواع المشروبات. جلسنا متفرقين يا بوى، أنا فى مقدمة الصف الثانى بجوار وزير الداخلية مباشرة، فى حين جلس رجالى فى صف يبعد خلف ظهرى بحوالى عشرة صفوف.

أكون كاذبًا يا خال لو قلت إننى لم أرتجف من وزير الداخلية. تصور يا بوى، لم أرتهب من جلستى مع الرئيس وارتعبت من وزير الداخلية وكتفى تلامس كتفه وفخذى يكاد يلتصق بفخذه. كنت أشيك منه بكثير جدًا، ومع ذلك فقد تجمع كل خوفى الأزلى من البوليس وكرهى الشديد له وانتصب واقفًا فى جوفى كعود الحديد فى كير الحداد المشتعل...

تذكرت فى الحال نصيحة بربش: أنت حيث تضع نفسك بشرط أن تكون قويًا من داخلك. عند ذلك اصطنعت كأننى لم أكن قد انتبهت للوزير أثناء جلوسى بحكم التهائى فى الزحام والأضواء والحركة الصاخبة على الحلبة المرتفعة، وهاأنذا بدأت أتبين ما حولى، و:

ـ «أهلا يا فندم فرصة سعيدة! لا مؤاخذة! العتب على النظر!!»

بكل أريحية واحترام هز الرجل رأسه فى امتنان:

ـ «أهلا يا حسن بك! احنا الأسعد!!»

أخرجت علبة السجائر الأجنبية الطويلة ماركة دوموريه، ثم قدمتها له:

ـ «سيجارة حضرتك!»

ـ «شكرًا!»

وأطفأ عقبًا كان بين أصبعيه، فى طفاية واقفة بين كل مقعدين، ثم تناول سيجارة من علبتى. وبسرعة أخرج ولاعته الرونسون البيضاء و.. تك أشعل لى، ثم له..

فجأة رأيت عبد الحليم حافظ واقفًا على الحلبة، فضجت القاعة ضجيجًا لا مثيل له يا بوى صياح وصفير وهياج وزغاريد مدوية. شكرهم عبد الحليم ممسكًا بالميكروفون فى زهو حبيب، وقال إنه رغم مرضه وانشغاله لم يطاوعه قلبه فى عدم الحضور وأنه ـ بعد إذنهم وإذن الآنسة العزيزة ـ سيغنى أغنية واحدة يختارونها

فضح الحضور بالطلب حتى استحال معرفة ما يطلبونه، لكنه هو الوحيد الذى عرف أنهم طلبوا أغنية: زى الهوى، إذ سرعان ما شوح بذراعيه للفرقة الموسيقية فانسابت على أوتار نغمات زى الهوى يا حبيبى زى الهوى وآه م الهوى يا حبيبى آه م الهوى.. يا حبيبى.

صارت القاعة تصاحبه بالتصفيق على الواحدة، وصار هو يعيد ويزيد ويترنم حتى استغرقت الأغنية نصف ساعة كاملة.

لوح بيديه بالتحية فالتقته الآنسة وهو يهم بالانصراف، احتضنته محتفظة بمسافة على قدر الحرج، فقبلته على خديه؛ رشقت على صدره جعرانًا فرعونيًا مطعمًا بالأحجار الكريمة بالغ الجمال، فمال عليها قبلها فى خديها، ثم انصرف وسط تهليل وتصفيق وصفير.. بعده طلعت نجاة الصغيرة فغنت! وصفوا لى الحب وأما غريبة، وتألقت فعلاً يا خال.

ثم توالت النمر، وكلها دسمة مبهجة: محمد رشدى، مع الراقصة سهير زكى، على نغمات عدوية وآه يا ليل يا قمر، محمد قنديل مع الراقصة نجوى فؤاد وأغنيتى جميل واسمر وأبو سمرة السكرة، عبد اللطيف التلبانى وبرج الجزيرة الله على سحرها، ماهر العطار وبلغوه، ومحمد العزبى ومواويله، فايزة أحمد ويا أمه القمر ع الباب، عادل مأمون وياللى مالكش حبيب بعدى تعالى هنينى وحدى، شادية وعلى شط النيل يا حبيبى، عايدة الشاعر أيوا أه، ليلى نظمى وع الزراعية يا رب أقابل حبيبى، أما شكوكو

فقد أكل الجو كله يا بوى. وكان الحاج قد استلمه بمجرد وصوله فأرسله إلى القمرة العليا حيث عجن الصبيان دمه بالحشيش الصافى، ونزل منها مرتديًا الجلابية والطرطور، متحزمًا بشال، وهات يا رقص ويا تنكيت ومواويل فكاهية وحوار مع الاراجوز.. بعده انصرف الكثيرون، صفصفت القاعة على الصفين الأماميين وبدأت فرقة موسيقية أخرى تدوزن أوتارها استعدادًا لوصلة سيد مكاوى..

أثناء ذلك حازانى الحاج نوار الدين ولكزنى، ثم غمزنى بأن أتبعه، فإذا هو يصعد بى إلى القمرة العلوية، فوجئت على آخر سلمة بأننى وحدى، فهممت بالنزول طالبًا رجالى، فلكزنى بلهجة مفحمة حازمة:

- «لا تكن مخلولاً!! هذه قعدة سرية وخاصة جدًا!! ولولا علاقتك بالشيخة سعادة وكونك برلمانيًا ما دعوتك إليها!! ولكن اطمئن فرجالك هم أولادى كما تعرف وقد طيبت خاطرهم وشرحت لهم الموقف بوضوح وصراحة فتقبلوه عن طيب خاطر!! هم الآن سابحون مع الويسكى المعتبر وسيد مكاوى! خش خش!!»

دخلت يا بوى. محمد بك أبو شناف - تانى؟! فى المواجهة كالعادة. تحلف اليمين يا بوى كدت أهتف صائحًا: أهلا سيادة الرئيس. هو بعينه يا بوى الخالق الناطق، ولولا أن الطاقية الشبيكة على رأسه، والجلباب السكروتة الأبيض، والعصا الأبنوس بجواره، كل ذلك يشهد بأنه فلاح قادم لتوه من العزبة،

لا يمكن أن يكون هذا العمدة الريفى القح هو نفسه ذلك البك المانيكان الذى استقبلنى بالأمس فى قصره بجدية هائلة وملامح وجه محايدة تمامًا.

انتعشت ملامح وجهه بمجرد رؤيتى، وبنفس الصوت المألوف صاح:

ـ «من؟ حسن؟ معقول؟ يا أرض احفظى ما عليك! ألف مبروك يا سيادة النائب! ألم أقل لك تشجع وافعلها؟ هانت فعلتها ونجحت! مليون براوة عليك! لا أحد أحسن من أحد!!»

سلمت عليه بحرارة، وعلى ذلك المدعو حسن بك ذى اللحية السكسوكة والوجه المتجهم الذى سبق والتقيته فى استراحة القناطر. وكانت الشيخة سعادة قد راحت ترقبنى من قعدتها فى الركن من تحت الخمار الشفاف الذى أمعن فى إبراز ملامح وجهها، بأنفها المستقيم المدبب قليلاً فى شموخ، وخديها البارزين وعينيها الواسعتين السوداوتين الساحرتين ومع ابتسامة ثقة وإعجاب وزهو تضىء ثغرها فيما هى تتأمل ـ شبه ذاهلة ـ شياكتى وبكويتى التى بدت متسقة على هياتى.

سلمت عليها ناظرًا فى الأرض، قبلت يدها الملفوفة فى قفاز حريرى، ثم جلست بجوارها متربعًا على الشلتة العالية.

قال محمد بك أبو شناف:

ـ «الليلة يا ستنا الشيخة أنا مشوق لمعرفة طالعى!! إفتحى لى الكوتشينة أقصد إقرئى لى ورقى عندك!! أنت سحرتنى بالفعل

ليلة قرأت لحسن بك طالع البلد ومستقبلها كدولة! من ليلتها وأنا أحلم بأن تقرئى لى ورقى فأنا فى الحقيقة أمر الآن بفترة انتقال جذرية وصعبة وأحب أن أعرف راسى من قدمى!! فمن يدرى؟ ربما استنرت برأيك واستبصرت حقيقة سككى وحظى محها كما يرمز له الورق! فابدئى باسم الله!!»

فتحت الشيخة سعادة حقيبتها السوداء، أخرجت حزمة الورق، فكت لفافتها الحريرية الحمراء، فصلت الجزء الصغير الذى مازلت أذكر أن اسمه أوراق السر الأعظم، أعادته إلى الحقيبة، أبقت الجزء الكبير فى يدها وهو المسمى ـ فيما أذكر بأوراق السر الأصغر. قالت لمحمد بك أبو شناف:

ـ «كم عمر سيادتك؟!»

قال بنبرة من التفاخر المصطنع:

ـ «ستة وخمسون عامًا على وجه التقريب!!»

صاحت الشيخة فى ابتهاج:

ـ «بعدد أوراق السر الأصغر!! هذا فأل سعيد من أولها!!»

ـ «الحمد لله! كله بفضل الله وبركة دعاء الوالدين!!»

هكذا قال وهو يتلمظ ثم يشعل البايب فى استمتاع طفولى كبير. الشيخة قدمت له الأوراق يا خال:

ـ «قم بنفسك بتفنيط الورق دون أن تنظر فيه!!»

بحركـة لاعب كوتشينة عـريق ومدرب قام بتـفنيط الورق عدة مرات بحيث يضمن أن كل ورقة كـانت تالية للأخرى لم تعد تالية لهـا. ثم قـدمه إليـهـا مـقلوبًا على وجـهه مـثلمـا نفـعل مع ورق الكوتشينة بالضبط يا بوى.

قلبت هى الورق على ظهره فى يدها، نازعة الورقـة ملوحة بها فى غبطـة، ثم أعادتها فـوق الورق، وأزاحت الخمـار عن وجـهـها، فأضـافت إلى ضوء الحجرة ضـوءًا جديدًا يا خال حـتى لقد بحلق فيـها الجمـيع منسحرًا بـهذا الجمـال الخمرى الهـادىء الرصين بكبريائه العظيم.

عندئذ قال محمد بك أبو شناف متعمدًا إظهار نبرة الغزل:

ـ «يا أرض احفظى ما عليك!!»

وقال حسن بك فى تحفظ وتحرج:

ـ «ما شاء الله! ما شاء الله!! جوهرة مكنونة!»

وعلق الحاج أحمد نوار الدين السـنى وقد برقت فى عـينيـه نظرته الطفولية الشقية المرحة العابثة:

ـ «قل لها يا حسـن بك: حرام إخفاء هذا الجـمال الربانى!! هذا بخل يا ستنا الشيخة!!»

نكست وجهى فى الأرض وقد غلت الدمـاء فى عروقى يا خال، صرت أقـرأ الفاتحة فى سـرى حتى لا تفضـحنى عيونى أو أفـقد توازنى. أما الشيـخة سعادة فقـد احمر وجهها وتحـول إلى بسمة نضرة. ولما راقبتها من تحت لتـحت رأيتها تعيد النظر فى الورقة المسحـوبة وتنقل بصرها بين الورق ومـلامح وجه محـمد بك أبو شناف. كانت الورقـة عبارة عن مجمـوعة من السيوف المتـقاطعة كـأنهـا غابة مـن السيـوف كل سـيف يحـاول قطع الآخـرين من منتصفه.. قالت الشيخة سعادة:

ـ «كنت تنوى السفر فى هذا الأسبوع!!»

شحب وجهه فى الحال يا بوى، دمدمت البوارق فى عينيه حتى كدنا نسمع لنظراته صوتًا يا خال. لكنه قال:

ـ «صح!! أنا أنوى السفر بعد غد إلى مكان ما!!»

ـ «زيارة عمل استطلاعية!!»

ـ «داخل مصر طبعاً!!»

ـ «ينصحك الورق بعدم السفر إلى هذا المشوار!!»

ـ «كذا!!»

ـ «هكذا يقول الورق!!»

نكس رأسه متفكرًا فى عـمق وحيرة تدخل حسن بك فى شىء من القلق الذى يخفى رغبة قوية فى معرفة ما وراء هذه النصيحة. قال بلهجة من يعرف حقيقة المشوار المقصود:

ـ «رأيى يا ستنا الشيخة أن تكشـفى له الورق أكثر!! صارحيه بما ترينه فى الورق!!»

ـ هزت الشيخة سعادة رأسها بالموافقة:

ـ «واجبى أن أنبهـه إن كان سيادته مصرًا على معـرفة السبب فإننى أقوله!!»

ـ «قوليه طبعًا! ليس هنا من أحد غريب!!»

ـ «هناك نية غدر فى طريقك! مؤامرة لقتلك من ناس متلاحمين بك تلاحم هذه السيـوف ببعضـها! السكة معـقربة تمامًا! سـيوف تتقاطع!!»

زام فى قلق كبير جدًا يا بوى:

ـ «الأمر هكذا إذن! والله قد حـدثنى قلبى بشـىء من هذا صباح اليوم! قلب المؤمن دليله فـعلا!! وبعد يا سـتنا الشيخة؟ مـاذا يقول الورق أيضًا؟!»

ـ «دعنى أرتب أوراق الكشف فى مجـموعاتهـا الأربع لكى أقرأ لك الورق من جميع النواحى!!»

شخصنا إليها جميـعا يا خال، فيما راحت هى تفرق الورق على الأرض فى أربع مجموعـات متجانسات، كل مجمـوعة أربع عشرة ورقة. أظن أننا جميعا حفظنا شكل الورق، ورقة ورقة..

هذه هى المجمـوعة الأولى: الورقة الأولى منهـا مرسوم عليـها سـيف نتار تمسكـه يد. الورقة الثـانيـة مرسـوم عليـها سـيفـان متـقاطعـان فى حركة التـفاف مـقوسة بيـضاوية يتـوسط الفراغ بينهـمـا وردة حمـراء على بسـاط من زهور وأغـصـان صفـراء

وخضراء. والورقة الثالثة مرسـوم عليها ثلاثة سيوف، اثنان منها فى حركـة التفاف بيضـاوية، والسيف الثالث يخـترق هذا الشكل البيضاوى عموديًا، تتـفرع من هذا السيف أغصان الزهور بأوراق حمراء وخضراء وصفراء فكأن السيف هو الذى طرحها.

الورقـة الرابعـة أربعة سـيـوف مـتعـاشـقـة فى نفس الشكل البيضــاوى كل سيفين يخـتـرقان السيفين المـتقابلين من الأطراف، وفى قلب البيضة غصن أخضـر على أصفر تتوسطه وردة حمراء، وعند الأطراف المتعاشقة ورد، وأغصان.

الورقة الخامـسة تشبه الرابعة فى شكل رسمـها إلا أن السيف الخـامس يخـتـرق البـيضـة عـموديًا، يلتـف حوله غـصن بأوراق خضراء، أما مقبض السيف فأصفر على أحمر على أزرق.

الورقة السـادسة ستة سـيوف،كل ثلاثة تتعاشق أطرافـها مع الثلاثة المتقابلة فى شكل بيضاوى يتوسطه غصن بأوراق خضراء وصـفراء وحـمراء فى نهـايته زهرة لوتس مـتفـتحـة عن أكمـام صفراء. الورقة السـابعة تشبه فى رسمهـا الورقة السادسة إلا أن السيف السـابع يخترق البيـضة عموديًا، والأرضـية تخلو من أى زهور أو أغصان. الورقة الثامنة مرسوم عـليها ثمانية سيوف كل أربعة تتـعاشق أطرافـها مع الأربعة المتـقابلة فى شكل بيـضاوى، تتوسط الأرضية زهرة على شكل النيشان. والورقة التاسعة تشبه فى رسمـها شكل الورقـة الثامنة إلا أن السـيف التاسع يخـترق البيـضة، والأرضيـة بيضاء من كل رسم. الورقـة العاشرة تشـبه

التاسعة هى الأخرى إلا أن السيفين التاسع والعاشر يخترقان شكل البيضة فى تقاطع من عند الرأس على شكل ميزان القبانى. الورقة الحادية عشرة مرسوم عليها صورة ملك يلبس التاج على رأسه ويمسك بيمناه سيفًا أصفر اللون كلون التاج مسكة تشريفية وسن السيف مرفوع لأعلى، أما بذلة الملك فلونها خليط من الأصفر والأزرق وهى قطعتان عبارة عن سترة ووشاح حول ساقيه جوربان أحمران وفوق الوشاح عباءة حمراء. والورقة الثانية عشرة مرسوم عليها صورة ملكة تلبس التاج على رأسها؛ هى الأخرى تمسك بيمناها سيفًا أصفر اللون مثل تاجها، وإذا كان الملك يمسك السيف جالسًا على كرسى العرش فإنها أمسكته واقفة بحركة من تتأهب لأداء رقصة وقد بسطت كف يسراها كمن يشرح شيئًا لأحد، سيما وأن قوامها رشيق بديع، فستانها ينساب ذيله على الأرض أزرق اللون فوقه مريلة بكتفين أحمرين حتى الجذع أما بقية المريلة فلونها بنى فاتح بكورنيش فيه زخارف زرقاء على أرضية صفراء. الورقة الثالثة عشرة مرسوم عليها صورة فارس بدرع أزرق وعباءة حمراء، يركب فوق حصان جامح مندفع مرفوع القدمين الأماميتين فى حالة انقضاض، فيما أمسك الفارس بيمناه السيف فى حالة من يهم بالضرب، أما الورقة الرابعة عشرة والأخيرة فمرسوم عليها شاب فتى عارى الساقين يرتدى ما يشبه الفستان لونه أزرق بخطوط حمراء، واضعًا يسراه خلف إليتيه فى حركة انثناء رشيقة، وبيمناه أمسك السيف مسكة تشريفية خالصة.. حاجة تهوس يا بوى.

تلك هى المجموعة الأولى يا خال. أما المجموعة الثانية فالورقة الاولى فيها مرسوم عليها قطعة نقود دائرية، فوقها نقوش زخرفية، والقطعة موضوعة بين غصنين عموديين على شكل الرسوم الزخرفية التى نراها فى بعض البوابات الحديدية، مما يدل على أن جميع النقوش الزخرفية التى نراها اليوم على البوابات والأبسطة وحوائط الريفيين المدهونة بواسطة الاسطنبة إنما هى مأخوذة من هذه الرسوم وأمثالها يا خال.

الورقة الثانية مرسوم عليها قطعتا نقد كالبريزة الفضية يحتاط بهما شريط طبق الأصل من شريط التصوير السينمائى قبل تحميضه يأخذ شكل علامة استفهام برأسين، وكل قطعة موضوعة داخل رأس من رأس علامة الاستفهام هذه.

الورقة الثالثة مرسوم عليها ثلاث قطع دائرية، والورقة مقسمة نصفان بالطول فى قلب النصف الأول قطعة تحتاط بها الغصون والأوراق. فى قلب النصف الثانى قطعتان متجاورتان تفصل بينهما غصون وأوراق، القطع الثالثة منقوشة بالأصفر والأخضر الزرعى والأغصان زرقاء على حمراء، يفصل بين نصفى الورقة وردة على شكل النيشان.

الورقة الرابعة عليها أربع قطع وهى الأخرى مقسومة نصفين، كل نصف عليه قطعتان متجاورتان بنفس اللونين الأصفر والأخضر، وكل قطعتين يفصل بينهما غصن مهيب قاعدته حمراء وأوراقه زرقاء على الجانبين، وفى الوسط أكمام لوتس صفراء متفتحة.

الورقة الخامسة عليها خمس قطع نقدية، اثنان فى اليمين واثنان فى الشمال وخامسة فى المنتصف، ويفصل بين القطع غصون وأوراق لوتس حمراء.

الورقة السادسة مرسوم عليها ست قطع نقدية بنفس النقوش بنفس الألوان، كل ثلاثة فى جانب فى وضع مثلث: اثنان وفوقهما واحدة، ويفصل بين المثلثين غصون حمراء على زرقاء تتفرع من شيء شبيه بالنيشان.

الورقة السابعة تشبه هذه الورقة فى تشكيلها. كل ثلاث قطع فى وحدة ثلاثية الوضع فى ناحية أما القطعة السابعة ففى منتصف الورقة تحيط بها الغصون والأوراق.

الورقة الثامنة مقسمة إلى نصفين، فى كل نصف أربع قطع متقابلة تشبه فى وضعها شكل الصليب كل ضلع من أضلاعه الأربعة تمثله قطعة، أما مركز الصليب عند نقطة التقاطع فيشبه مخدة بنية اللون غائرة من أطرافها الأربعة كأن كل قطعة قد طبعت على طرفها مستقرها المقوس، ولكنك يمكن أن ترى الورقة على شكل آخر بأن ترى ثلاث قطع فى كل جانب وبينهما قطعتان متجاورتان يفصل بينهما غصنان متعاكسان.

الورقة التاسعة شكلها أبدع: أربع قطع متجاورة فى أعلى الورقة، وأربع قطع متجاورة فى أسفلها، والقطعة التاسعة فى قلب الورقة كأنها نقطة الربط بين الأربع والأربع، يمتد بالطول من جوار القطعة التاسعة هذه غصن زهرة لوتس مزدوجة متفتحة من ناحية ومضمومة من الناحية الأخرى، والطرفان المتفتحان يفتحان

على القطعة التاسعة من الجهتين، الغصنان لونهما أحمر، وكل غصن يتفرع منه فرعان متقابلان لونهما أزرق.

الورقة العاشرة منقسمة إلى وحدتين، فى كل وحدة خمس قطع، اثنان فى الأعلى واثنان فى الأسفل، والخامسة فى القلب، يفصل بين الوحدتين غصن متفتح أحمر اللون.

الورقة الحادية عشرة مرسوم عليها صورة ملك يلبس التاج على رأسه أصفر اللون ويلتحف بعباءة حمراء غامقة يجلس على كرسى العرش ممسكًا بيسراه عصا صفراء، وبيمناه قطعة نقد كالرغيف، كأنه يهم بقذفها إلى بعيد.

الورقة الثانية عشرة مرسوم عليها ملكة تلبس التاج الأصفر، ترتدى ثوبًا سماويًا فوقه بلوزة فى لون عسل النحل وهى الأخرى تمسك بيسراها عصا صفراء وبيمناها قطعة نقد مشجرة كأنها تعرضها فى المزاد.

الورقة الثالثة عشرة مرسوم عليها صورة فارس فوق حصان فى لون جذوع الشجرة، يمسك بيمناه سيفًا مخفوض الرأس لأسفل، على رأسه خوذة يبزغ من رأسها زر كخصلة من ذيل الحصان ، وخلف رأسه قطعة نقد سابحة فى الهواء كأنها من أضغاث أحلامه.

أما الورقة الرابعة عشرة فمرسوم عليها صورة شاب فتى عارى الساقين على صدره درع مشغول بالقصب، ويرفع بيمناه قطعة نقد ويشير بسبابة يسراه إلى الأرض.. حاجة تهوس يا بوى..

أما المجموعة الثالثة يا خال، فالورقة الأولى منها مرسوم عليها صورة كأس لها غطاء كالسكرية عليه زخارف باللون الأصفر والسمنى والأخضر والبنى فى وسطها رسم صليب واضح ومحدد.

الورقة الثانية يا خال عليها كأسان من شكل مختلف بلا غطاء، أرشق من الأول وأرق يفصل بينهما غصن كشجرة تحتوى الكأسين من الجانبين.

الورقة الثالثة مرسوم عليها ثلاث كئوس، اثنتان فى القاعدة وواحدة فى الأعلى فى منتصف المسافة بين الكأسين، لكن الزهور والأغصان تملأ الفراغ من جانبيه تحفظ للصورة توازنها، يفصل بينه وبين الكأسين، وبين الكأسين وبعضهما غصن مزدوج بعنقودين من العنب.

الورقة الرابعة مرسوم عليها أربع كئوس، اثنتان متجاورتان فى الأسفل، والمساحة الفاصلة بين الاثنتين والاثنتين ملآنة بالزهور المتفتحة، لونها لون الكئوس خليط بين الأحمر والأصفر والأخضر، ويفصل بين الكأسين الأعليين عصاتان متقاطعتان مربوطتان عند التقاطع بشريط حريرى أزرق.

الورقة الخامسة تشبه الرابعة: كأسان فى الأعلى وكأسان فى الأسفل، والكأس الخامس فى المنتصف بين غصنين أحمرين متفتحين.

الورقة السادسة مرسوم عليها ست كئوس، ثلاث متجاورة فى الأعلى وثلاث متجاورة فى الأسفل، والمساحة بينهما ملآنة بغصن يأخذ شكل العقرب، ملون بالأحمر والأزرق، أما الكئوس فكلها صفراء اللون مشوبة بالاخضرار الخفيف ومكرنشة عند القاع بحزام أحمر فاقع كحبات عناب متكومة.

الورقة السابعة تشبه السادسة فى شكلها إلا أن الكأس السابعة فى منتصف الورقة، تحتاط بها زهور ثمار فى لون التمر وشكله.

الورقة الثامنة مقسمة إلى ثلاث وحدات: ثلاث كئوس متجاورة فى الأعلى، ومثلها فى الأسفل، واثنتان متجاورتان فى المنتصف، والمساحات بينهما ملآنة بالزهور والثمار.

الورقة التاسعة مرسوم عليها تسع كئوس: أربع فى الأعلى وأربع فى الأسفل والتاسع فى المنتصف يحف به من الجانبين غصنا زيتون.

الورقة العاشرة تشبهها فى الشكل إلا أن الكأسين التاسع والعاشر فى المنتصف، فوقهما غصن زيتون وتحتهما غصن زيتون.

الورقة الحادية عشرة مرسوم عليها صورة ملك يلبس التاج ويجلس على كرسى العرش يتكئ بيسراه على منضدة سطحها الرخامى مثبت على رقبة حصان وقائم كقدم الحصان طبق الأصل، عصا الملك نائمة على كتفه الأيسر، وقد أمسك بيمناه كأسًا كأنه يقول: فى صحتك.

الورقة الثـانية عشرة مـرسوم عليها صـورة ملكة تلبس التاج الأصفر وتقف ممسكة بيسراها نفس العـصـا وبيمناها كأس تقدمه لمجهول غير ظاهر.

الورقة الثالثة عشرة مرسوم عليها صورة فارس فوق حصان يخب خببًا ويمسك بيمناه كأسًا كأنه ينادى على من يملؤه له.

الورقة الرابعـة عشرة مرسوم عـليها صورة شاب فـتى كامل اللبـاس يمسك بيـمناه غطاء رأس كـالقبـعة، وبيـسراه كـأس فى مستوى وجهه يحلق فيها بعينيه.. حاجة تهوس يا بوى.

أما المجموعة الرابعة، فالورقة الأولى منها مرسوم عليها صورة عصا غليظة جدًا كفرع مقطـوع لتوه من شجرة لا تزال أغـصانها وأوراقـها عـالقـة به، تمسكهـا يد قوية بألوان حـمـراء وصفـراء ومخضوضرة.

أما الورقة الثـانية فمرسوم عليهـا عصاتان متقاطعـتان بعلامة إكس، تشـبهـان أعمـدة السـرير الفلاحى الـقديم ذات العـساكـر النحاسـية، وكل الفراغات حـول التقاطع من جمـيع النواحى ملآنة بأوراق شــجر كـبيـرة تأخذ شكل طـيور بمناقـير، لونهـا أصفـر وأخضر أما العصاتان فـالأولى جزؤها الفوقى أحمر ورأس زرقاء فوقها رأس أخرى صـفراء، والجزء الوسطى أزرق والجزء السفلى بنفس لون الجزء الفـوقى، وكذلك العـصـا الثانيـة جزؤها الوسطى أصفر والفوقى والسفلى أزرق ورأسها حمراء وصفراء.

الورقة الثالثة يا خال مرســوم عليها ثلاث عصى، اثنتان منها متقاطعتان والثالثة تختـرق التقاطع عموديًا، والفراغ فى الجانبين ملآن بأوراق شجر على شكل طيور مريشة.

الورقة الرابعة مرسوم عليها أربع عصى، اثنتان منها تتقاطعان مع اثنتين، وفراغ الجانبين مشغول بأوراق شجر على شكل طيور تنوعت أجناســها أمـا الفراغان الفـوقى والسفلـى ففى كل منهـما غصن مورق ينتهى بوردة.

الورقة الخامـسة مرسوم عليـها خمس عصى، وشكلهـا يشبه شكل الرابعة إلا أن العـصـا الخامسة تخـترق التقاطع عـموديًا، قد طرحت العـصى أغصان ورد مـورقة وامـتلأت الفـراغات بأوراق شجر على هيئة طيور.

الورقة السـادسة ثلاث تتـقاطع مع ثلاث تحتـاطها الأغـصان المورقة والورود، الورقـة السابعة شكلها نفس شكل السـادسة إلا أن العـصـا الســابعة تخـترق التـقاطع عـموديًا والفـراغات مـلآنة بالأغصان المورقة .

الورقة الثـامنة أربع تتقاطع مع أربع، والفـراغات القليلة تزدان بأغصان ورد مورقة.

الورقة التاسعة شكلها نفس شكل الثامنة إلا أن العصا التاسعة تخترق التقاطع عموديًا مع زهرتين فى موضع التقاطع.

الورقة العاشرة شكلها نفس الشكل إلا أن العصا التاسعة والعاشرة تخترقان التقاطع عموديًا مع زهرتين فى موضع التقاطع.

الورقة الحادية عشرة مرسوم عليها صورة ملك يلبس التاج ويجلس على كرسى العرش ممسكًا بعصا طويلة كالحربة.

الورقة الثانية عشرة مرسوم عليها صورة ملكة تلبس التاج على رأسها وتقف ممسكة بعصا، نفس عصا الملك فى يمناها، وفى يسراها شىء غامض تشير به إلى العصا.

الورقة الثالثة عشرة مرسوم عليها فارس فوق حصان شرس متمرد رافع قدميه الأماميتين فى نكوص وإحجام، والفارس يرفع العصا بيمناه كأنه يهم بضربه لإلزامه حد الطاعة.

الورقة الرابعة عشرة مرسوم عليها شاب فتى يقف فى وضع انتباه، يمسك بيسراه غطاء رأس كالقبعة وبيمناه العصا بمسكة حربة.. حاجة تهوس يا بوى..

كلنا يا خال دفعنا الفضول إلى التفرج على هذه التصاوير وفحصها ورقة ورقة كأننا نبحث خلف تصاويرها الغريبة هذه عن أسرار مهولة غامضة.

وقال محمد بك أبو شناف:

ـ «شىء فى منتهى العجب! هى بالفعل أوراق سحر! ولابد أن راسمها قصد من ورائها شيئًا رمزيًا!!»

وقال حسن بك ذو اللحية السكسوكية غير المنسقة على شكله كواحد من الضباط الأحرار وعضو مجلس قيادة الثورة كما يزعمون:

ـ «أوراق السحر هكذا دائما يا محمد بك! سبحانه جلت قدرته يعطى أسراره لمن يشاء ويلهم قراءتها من يشاء! لقد خاطبنا سبحانه وتعالى بالكلمة المصورة فى قرآنه فلا عجب أن يلهم عبيده مخاطبته بالصورة المرسومة الملونة!! يضع سره فى أضعف خلقه يا محمد بك! وأنا وأنت وأمثالنا من المتعلمين تعليمًا عاليًا لا نفقه شيئًا فى مثل هذه الأمور السحرية على سبيل المثال فى حين قد يفقه فيها من لم يدخل المدارس!! ملك يا محمد بك نظمه سيده!! سبحانه تبارك وتعالى!!»

أخذ الحاج أحمد نوار الدين السنى يلوح بأصابعه الطويلة الصدئة المزدانة بخواتم فضية وذهبية غليظة، فى الأصبع الواحد خاتمان وربما ثلاثة.

نظرته الصبيانية العابثة المرحة تتلالأ فى عينه وهو يقول:

ـ «شف يا حسن بك! والكلام لك أيضًا يا محمد بك! هذه الأوراق مصرية أى نعم لكنها مرسومة فى العصر الرومانى! هذا واضح!! ملامح الوجوه رومانية! حتى الشعر وطريقة تصفيفه! طبعًا!هذا لا يمنع أن تكون الأفكار مصرية فرعونية ولكن..»

قاطعه حسن بك:

ـ «الله أعلم على كل حال!! ولكن ما قولك أننى كنت على علاقة ذات يوم قريب ببعض الأسياد من الجن من ذوى الجنسية المصرية!!...».

قاطعته الصاعقة، أقصد الضحكة يا خال، التى فجرها محمد بك أبو شناف، فاتسعت فى التو أصواتنا جميعًا فيما راح حسن بك ينظر فينا بحرج شاحب السمات.

وكان محمد بك يهتز من فرط الضحك العميق ويمسح عينيه بمنديل.

قال الحاج أحمد نوار الدين السنى بلهجة اعتراض يشوبها التحفظ الساخر.

ـ «هذه أول مرة أعرف أن هناك جنيًا مصريًا وآخر سودانيًا وشاميًا وتركيًا!!»

هتف حسن بك فى غضب مشيرًا إلى الشيخة سعادة التى كانت تكتم ضحكها بقوة خرافية:

ـ «اسأل ستنا الشيخة وهى تقول لك!!»

فى ذكاء منقطع النظير وسرعة بديهة تحسد عليها قالت الشيخة سعادة:

ـ «عدم المؤاخذة! الجن يتشكل للإنسان فى صور كثيرة! ربما جاء على هيئة امرأة جميلة من أولاد البلد المصريات! فلا تستغرب

يا عم إذا لا سمح الله الشر بره وبعيد ـ ركبك جن إنجليزى أو فرنساوى!!»

بلهجة من لا يريد الدخول فى تفاصيل رفع كتفيه فى عدم اقتناع واضح:

ـ «ممكن على كل حال! كل شىء جايز!!»

ـ «طبعًا يا عم الحاج! ما دمت آمنت بوجود الجن فلابد أن تؤمن بكل ما يفعله وما يظهر به من أشكال وأرواح وشخصيات وكل ما لا يخطر على البال!!»

هكذا أضافت الشيخة سعادة، فعلق حسن بك فى حماسة بالغة:

ـ «أفادك الله يا ستنا الشيخة!! الجن نفسه كان يزورنى فى أوقات عصيبة! أحيانًا وأنا مجتمع بزملائى! ويقول لى كلاماً غريبًا: أنا مصرى وخائف على مستقبل البلاد منكم! يقصد زملائى فى الحكم! وكنت وما زلت أوافقه!!»

كأنما لينهى المناقشة المغرقة فى الفكاهة قال محمد بك:

ـ «المهم يا ستنا الشيخة سعادة! أكملى قراءة ورقى!!»

أشارت الشيخة إلى المجموعات الورقية بعد أن انتهت من ترتيبها ورصها بعد أن عبثت بها أيادينا. قالت:

ـ «تحب أن نبدأ بأى مجموعة من هذه؟!»

أشار محمد بك إلى المجموعة الأولى، أغلب الظن ليدرأ عن نفسه مأزق وشؤم المفاضلة فى الاختيار قال:

ـ «هذه!»

قالهـا بلهجـة من يقول: بختـك يا بو بخيت. فرفـعت الشيـخة سعادة المجموعة وأعطتها له قائلة:

ـ «فنطها!»

فنطها وأبقاها فى يده. قالت له:

ـ «إختر ورقة لأقرأها لك!!»

هنا ارتعشت أصابعه يا خال، وارتبك. حاول نزع ورقة بطريقة عشوائية عميانية، فالتقطت أصابعه ورقتين مضمومتين على أنهما ورقة واحدة، سلمهما للشيخة، فإذا بها تبتسم قائلة:

ـ «هكذا شاء بـختك فالورقـتان الآن ورقـة واحدة بالنسـبة لك والمثبوت فيهما متـصل ببعضه وبك فى معنى واحد!! نشوف على كل حال!»

وكانت الورقـتان مقلوبتـين، فعـدلت الأولى وعرضتـها لنا ثم نظرت فيها.

كـانت هى صـورة الملك جـالسًـا على كـرسى العـرش ممسكًا بالسيف فى يمينه. قالت الشيخة سعادة:

ـ «بسم الله ما شاء الله أنت على كرسى العرش جالس غير أن الحرب مفروضـة عليك فرضًا لا مـفر من خوضها ولا مهرب يعنى ستحارب ستحارب ندعوا الله سبحانه وتعالى أن ينصرك!!»

فتبسم محمـد بك أبو شناف، وشملته رعدة فرح تنضح زهوًا، كأن النبوءة قد أصابت فيه منطـقة غرور يحبها، ثم جعل يردد فى تهدج كأنه يختم الصلاة:

ـ «اللهم لا حــول ولا قـوة إلا باللـه! اللهم أعنى علـى قـدري وامنحنى الفطنة!! تمام يا ستنا الشيخة! أفادك الله!!»

قلبت الورقة الثانية التى كانت لصيـقة بالأولى. تجهمت فجأة. كانت هى صـورة الشاب الفتى ممسكًا بالسيف. قـالت متحـاشية النظر إلى أحد:

ـ «ولكن! هذا قضـاء الله يا محمـد بك! ستفقد فى هذه الحروب واحـدًا من ذريتك! ابنك أو أخاك! هذا مـا يقـوله الورق والله أعلم طبعًا لكن علينا أن نتقبل الضرر والحزن مثلما نتقبل الخير والفرح بروح طيبة!!»

ارتعد محمد بك بالفـعل يا خال، ظهر عليه قليل من الاضطراب والتشاؤم، ولكنه قال:

ـ «ونعم بالله!! أنا مؤمن شـديد الإيمان!! وما دمت سـأخوض حربًا مقدسـة من المحتمل أن أموت فيها فمن باب أولى اسـتشهاد أحد أبنائى فيها!!»

ـ «والآن أى مجموعة تختار؟»

أشار إلى المجموعة الثانية:

ـ «هذه بإذن الله!»

كانت هى مجموعة النقود. فرفعتها الشيخة عن الأرض سلمتها له. صار يفنطها عدة مرات، وبنفس الطريقة العشوائية سحب ورقة فإذا هى الورقة العاشرة ذات القطع النقدية العشرة.

أشرق وجه الشيخة سعادة، فتسربت عدوى الإشراق إلى وجوهنا قالت:

ـ «يعطيك الله مالا بغير حدود فعسى أن تنفقها فى أعمال البر والخير ومهما أنفقت فإن الله يزيدك على الدوام أضعاف ما تنفق ولسوف يضاعف لك حتى لو لم تنفق فى سبيله وهذا حظك مرسوم وناطق بالسعد!!»

رمقه حسن بك فى كثير من الحسد والغيرة، ولكنه سرعان ما عدل النظارة الطبية على وجهه ونكس رأسه فى الأرض مهمهمًا:

ـ «لا إله إلا هو!!»

وتهدج صوت محمد بك:

ـ «اللهم لك ألف حمد و ألف شكر!! اللهم إنى زاهد فى المال وأنت تغرقنى بنعمتك!!»

ثم مد يده تلقائيًا ورفع المجموعة الثالثة وجعل يفنطها بعناية.

كانت هى مجموعة الكئوس يا بوى. وسحب ورقة مسبوقة بالبسملة، فردتها الشيخة سعادة فإذا هى الورقة التاسعة تضم تسع كئوس. صارت تتأملها مقطبة الجبين وقد صرنا جميعا فى حالة ترقب ووجل. هتف محمد بك:

ـ «خيرًا يا ستنا الشيخة؟!»

تنحنحت قليلا ممسكة بصوتها:

«ورق الكئوس يقرأ الحظ بالذات! حظك يا محمد بك ضارب فى السما كما هو واضح والورقة التى اخترتها بنفسك تقول إنك أوتيت والحمد لله جميع كئوس الحظ إلا كأسًا واحدًا ولو أنك اخترت الورقة العاشرة لاختلف الحظ أما وقد كشف حظك عن غياب الكأس العاشر فإنه يبدو أنه الكأس الوحيد الذى تسعى أنت إليه بكل وسيلة وربما دون أن تدرى والله وحده يعلم ماذا سيحتويه ذلك الكأس الغائب لكن المرجح أنك إن لم تسع إليه فسوف يسعى هو إليك وهو بكل أسف فأل ليس حسنًا!!»

ـ «أى كأس سيكون يا ترى؟!»

ـ «الظاهر أنه يمثل شيئًا غاب عن بالك وغير متوقع منك لكننا نطلب الستر من الله على كل حال!!»

ـ «أيكون كأس الموت مثلا؟!»

ـ «ربما!!»

ـ «فهو إذن كأس دائر على كل العباد؟!»

- «نعم ولكنه قد يأتى فى ظرف حرج وغير متوقع بل غير مناسب!!»

- «مرحبًا به فى كل الأحوال! أنا رجل مؤمن بالله ورسوله واليوم الآخر بقدر ما أنا مؤمن بواجبى تجاه وطنى!!»

- «دعوتى لك بالتوفيق يا محمد بك!»

ثم سلمته المجموعة الرابعة، مجموعة ورق العصى.

راح يفنطها بغير عناية هذه المرة، وقد ظهر فى وجهه لون من الشحوب يعكس قلقًا غامضًا. أخيرًا سحب ورقة للشيخة سعادة التى راحت تتأملها.

كانت الورقة تحتوى على صورة الملكة المتوجة الممسكة بالعصا. قالت له:

- «امرأة مقربة إليك ربما كانت زوجك أختك ابنتك أو من نسلك لكنها من أقرب الناس إليك مقدر لها ولك وللناس أن تمسك هى بالعصا فى يدها لتضرب بها كل من ليس على هواها ولسوف تضرب الكثيرين وتسبب الألم للكثيرين ما لم تفطن أنت لها وتوقفها عند حدها فلربما نالتك عصاها أنت نفسك وإنك فى الواقع لمحبوب من الله ولذا فهو يكشف لك الأوراق كلها كى ينبهك إلى الأشياء قبل حدوثها بوقت طويل لتكون منها على بينة فربما استطعت تدارك الأمور ومن المتوقع أنك ستفعل بإذن الله نسأله التوفيق لنا جميعا آمين يا رب العالمين!!»

شاركناها جميعًا فى هذه العبارة الأخيرة يا خال. رغم ما ظهر على وجه محمد بك من زهو وإشراق إلا أن مسحة من القلق كانت واضحة عليه، فيما راح يوجه عبارات الشكر للشيخة سعادة والثناء على بصيرتها النيرة، ويقول لها إنه تحت أمرها فى كل وقت إذا ما احتاجت لأى خدمة.

جعلت هى تدعو له بطول العمر ودوام الصحة وروقان البال، فيما أخذت تجمع ورقها تضمه إلى بعضه تعيد ربطه بالشريط الحريرى تضعه فى حقيبة يدها ناظرة إلى حسن بك نظرة ذات معنى حرت أنا فى تفسيرها يا بوى: أغلب الظن أنها تنبهه إلى رغبتها فى الانصراف.

سألها حسن بك إن كانت فى عجلة من أمرها فيأمر بتوصيلها حالا أم أن عندها فسحة من الوقت لقضاء يوم آخر أو يومين فى ضيافته.

فشكرته ودعت له بأن يظل بيته عامرًا أبد الدهر، ثم نهضت واقفة، فنهضنا فى أثرها. تقدم حسن بك وهى فى أعقابه، ومن خلفها محمد بك، فالحاج أحمد نوار الدين السنى، فأنا. سلمت علينا، وغمزت يدى غمزة دافئة كأنها تبلغنى رضاءها عنى. ثم ركبت الليموزين السوداء فى المقعد الخلفى، وركب حسن بك مع محمد بك فى سيارته، واتجهت أنا إلى سيارتى وقد شعرت أن حركة مفاجئة استيقظت فى الشارع تحيط بنا فى خفاء ظاهر، أى والله يا بوى.

بنط

صحـوت ذات عصرية على أحـداث غريبة: مـوجة كاسـحة من الاستـقالات: رئيس مـجلس الأمة، وزيـر الإعلام، وزير الحربـية، وزير شئون رياسة الجمهورية أعضاء من اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكى، وأعـضاء اللجنة المركزية العليا، كل هؤلاء اسـتقالوا يا خال مرة واحدة فى نشـرة أخبار واحدة احتجـاجًا على قيام أنور السـادات برفت وزير الداخليـة، حـيث قـيل إن الرئيس السـادات اكتشف أن هذا الوزير تآمر على حيـاته ووضع خطة لاغتياله أثناء سـفره إلى مـديرية التحـرير، وأن السـادات قد حـصل على دليل حقيقى فى يده..

خـيل لنا يا خال أن البـلد قد انحلت عـقل ظهـرها وستـقع فى الحال مغشيًا عليها.

ربك والحق يا بوى كنا لا نزال خائفـين من شبح عبـد الناصر القوى المـمثل فى كل رجاله وألاديشـه الذين كانت البـلاد كلها فى أيديهم يا بوى.

لكن شـيـئًـا من ذلك لم يحـصل يا خـال، لم يخـرج أحـد فى مظاهرة، ولم يفك أحد فـمه بكلمة. الظاهر يا خـال أن الشعب أحب أن يتفرج فقد جاءتـه الفرصة على الطبطاب يا بوى: وقعت الثورة فى بعضها ويا حبذا لو فتكت ببعضها وأراحتنا من كابوسـها.

لكن السادات العقـر انتصر يا بوى، تغدى بهم قبل أن يتـعشوا به، كل شىء كـان جـاهزًا عنده، أعلن التليـفـزيون إعـادة تشكيل الوزارة، ومـضت الحـيـاة يا بوى والناس تضـحك وتنبـسط فى الشـوارع، غرز الحـشيش شـغالة عـلى سنجة عـشرة، والبـارات مصهللة، وأم كلثوم فى المقـاهى تردح بأعلى صوت، والنغمة التى كانت تتحدث بها الإذاعة مع الصحف عـن عبد الناصر هى بنفسها الخـالق الناطق التى تحـدثت بها عن أنور الـسادات، أصبح عندنا عهدان بائدان:

عهد ما قبل جمال عبد الناصر وعهد ما قبل أنور السادات.

أجـمعت الصـحف على أنهـا ثورة على الثورة واسـمهـا ثورة التصحيح، هى الأخـرى لها أغنيات وأناشيد، ومحـمد عبد الوهاب جـاهز فى الحال ومن ورائه حـملة العـيدان والآلاتيـة والشعـراء والأصوات.

ذلك هو الشـعب المصرى يا بوى: اللى يتـجوز أمى أقـول له يا عمى، والكتاب والصحفيون ورسامو الصور المشلفطة الذين رفعوا عبد الناصر إلـى السماء السابعة رفعوا أنور الـسادات إلى السماء الثامنة، هات مـدح هات يا رقص هات يا تلسين على عبـد الناصر وثورته وذمتـه المالية وتسلطه وتكسـيره لكرامة الشـعب المصرى مع أن الذى يكسـر كرامـة الشعب المصـرى حقًا يا خـال هو هذه الفعال نفسها أكثر من غيرها..

بينى وبينك يا خـال أنا لم تكن تعـجـبنى هذه الفعـال، فـعبـد الناصر مهـما كان بلدياتنا، ورافع رأسنا فى البـلاد، ومحررنا من الملك والاستعمار، ومهما كانت فعاله فلا يصح أن نجلده وهو ميت

ولكن هل أستطيع أن أقول شيئًا يا بوى؟ لا طبعًا يا بوى، فالعيب فى الشعب المصرى قبل أن يكون فى حكامه وآلاديشهم.

هذه خميرة زرعتها أمم وأجناس شريرة من الذين احتلوا بلادنا فبقيت بذورها فى أرض مصر.

ومادامت مهمتنا ليست إصلاح الكون يا خال فلنعش أيامنا ـ على رأى بربش ـ بقدر ما نستطيع من الفخفخة ولا شأن لنا بالصح والغلط إلا إذا كان الغلط ضد مصلحتنا الشخصية.

إن الفيصل فى حكم مصر يا بوى ـ كما يقول بربش دائمًا ـ هو مدى قدرة الشلة المسيطرة على شكم غيرها من الشلل الطامعة فى سرقة السيطرة، ومدى قدرتها على التبجح وإنكار التهم وإخفاء الحقائق وطمس نور البصر عند الناس ومسح أمخاخهم..

من حسن الحظ يا بوى أننى صار لى رأس بين الرءوس يمكن أن يكون له سعر وثمن، فمالى لا أختار ذهب المعز دون سيفه؟ ثم إننى أحببت الرئيس السادات فعلا يا بوى، أرى أنه ولد فتوات أخذ الكرسى بذراعه من أنياب الأسود الشرسة الغادرة.

فإذا كان ألاديش عبد الناصر بكل جبروتهم المعروف قد سكنوا الجحور منذ أن حدد إقامتهم إلى أن حاكمهم وأودعهم السجون، فهل يستطيع فلفوس مثلى أن يقول تلت التلاته كام؟ لا يا بوى، يفتح الله، أنا لا أعرف شيئًا اسمه تلت التلاته من أصله...

وهكذا يا بوى أصبحت صديقًا للرئيس السادات، يطلبنى كثيرًا فى قعداته الخاصة، فى أماكن غير معروفة، يستأنسنى فأظل

طول السهرة أعمل على اضحاكه والتسرية عنه كأننى بشهادته بعضمة لسانه أكبر ممثل كوميدى فى مصر وليتنى اتجهت للتمثيل إذ حودت به على السياسة رغمًا عنه.

وهذا ما كان يملؤنى زهوًا ونفخة يا بوى إذ هاأنذا أشترك مع الرئيس السادات فى بعض الصفات. كنت أقلد له عبد الناصر وهو يخطب ولكن بكلام هزلى اخترعه فور اللحظة بحكم ما أصبحت أعرفه من معلومات وأسرار، أقلد الوعاظ النصابين الذين ينتشرون فى الصعيد وهم أجهل من أمى، وبكلام هزلى أيضًا، أرفع ذراعى صائحًا فى جدية شديدة وورع مصطنع بإتقان:

أقلد له من أسماهم بمراكز القوى، فى كلامهم فى مشيهم فى صورتهم التى تنشرها الصحف. أحكى له أحدث نكتة عن الصعايدة، فيستلقى على قفاه من الضحك.

وكان ضحكه يا بوى هو الشىء الوحيد الذى يقنعنى بأنه يقلد محمد بك أبو شناف لحظة انبساطه فى قعدة المزاج..

النكتة التى عششت فى دماغه،جعلته يطلب منى إلقاءها كلما التقانى، ويضحك بعمق كأنه يسمعها دائمًا لأول مرة، هى نكتة بخيت وبخيتة: بخيت أخذ بخيتة لزيارة سيدنا الحسين، ركبا القطار، بعد قليل صاحت بخيتة: عايزه اعمل زى الناس، فأشار لها على المرحاض فذهبت وأغلقت الباب عليها فاطمأن وجلس ولكنها غابت، حيث خرجت من المرحاض فاختل دماغها فذهبت فى اتجاه آخر فتاهت فى القطار، فقام بخيت إلى المرحاض فوجده لا يزال

مغلقًا من الداخل، فطرقه بقبضة يده، فأتاه من الداخل صوت رجل يصيح: إحم فهتف بخيت فى الحال: بخيتة عندك؟!»..

كان يقول إن هذه النكتة دليل على طيبة قلب الصعايدة وخفة ظلهم، بعكس أهل مدن القناة السواحلية مثلا، فهم فى رأيه لؤماء وخبثاء.

ثم يتباسط معى فيحكى هو الآخر نكتة عن أهل مدن القناة:
«كان فى زيارة لمدينة السويس بعد توليه الرياسة وقد دفعه الحنين لزيارة بعض سائقى الكميون الذين صاحبهم أثناء فترة الهروب من الإنجليز حيث اشتغل سواقًا للكميون هو الآخر، فوجد أحدهم على قيد الحياة فقرر أن يزوره فى بيته إمعانًا فى التواضع وحلاوة النفس، فسبقه البوليس والحرس والمخبرون فمشطوا المنطقة كلها فزرق هو إلى البيت فى أمان، وفيما هو جالس يتبادل حديث الذكريات مع السائق العجوز دوى صراخ امرأة تتألم، فقيل له إنها زوج ابن السائق تلد وهذا قال طيب، فقرر فى الحال صرف إعانة كبيرة عاجلة، بعدها بقليل جاء زوج المرأة ليشكره على هذه الإعانة الشريفة، قال: الحمد لله يا سيادة الرئيس كنت قدم السعد علينا فنتعها الله بالسلامة بعد أن كادت تموت!!

فسأله الرئيس: ولد ولا بنت؟ فقال الرجل: ولد يا سيادة الرئيس! فسأله الرئيس: وناوى تسميه إيه؟! قال الرجل: صراحة بصيت فى شكله لقيته كشر وباين عليه حيطلع مفترى رحت مسميه جمال عبد الناصر!!»

وينفجر ضاحكًا بعمق، وأجاريه فى الضحك ولكن بتحفظ، ثم كان يتباسط معى أكثر فيقول لى ـ بما لا أدرى إن كان يقصد المدح أم الذم فى الشعب المصرى:

ـ «الشعب المصرى لئيم يا حسن!! ولابد لمن يحكم هذا الشعب أن يكون ألأم وأمكر واحد فيه! لأن أفراد الشعب سيعاملوه بكل لؤم ومكر على أساس أنه أكثر لؤمًا ومكرًا منهم حتى ولو كان هو بريئًا من المكر واللؤم والخداع!! فلابد له إذن أن يكون ألأم وأمكر حتى تتوازن الأمور!!»

الشاهد يا خال، صرت أبرطع فى البلاد طولا وعرضًا أفعل كما أشاء، أحقق أية فكرة تطق فى رأسى مهما كانت مجنونة.

أصبحت أنا الآخر أستعمل سيف المعز وذهبه، فسيف المعز هو معرفة من بيدهم الحل والربط أننى من خلصاء الرئيس وأننى سميره ومضحكه، أما ذهبه فيتمثل فى الفرص التى تواتينى بسبب هذه العلاقة، يعنى أنا أعيش فى خيره يا بوى.

بسيفه انخفضت لى الرءوس وانزاحت العقبات كلها عن سككى، ومن خيره أغدقت على كل من يقدم لى خدمة ولو بسيطة. والشعب المصرى ـ عدم المؤاخذة يا بوى ـ يموت عشقًا فيمن يغدق عليه.

مستعد هو لأن يغفر له كل ما تقدم من ذنبه وما تأخر. كن سفاحًا يقتل القتيل ويمشى فى جنازته، كن لصًا يسرق الكحل من

العين، وثق أنك واجد من يغطى على سوءاتك ويدافع عنك بحماسة كبيرة ما دمت تدفع، وكلما دفعت تحصد يا خال..

دفعت أموالاً طائلة لناس لا يتصور المرء أن الواحد منهم يمد يده يا خال، ناس على رأسهم الريشة كما يقال: الواحد منهم يفاجأ بى طبيت عليه فى الوقت المناسب، حيث يكون غزولى قد أتى لى بأخباره فعرفت أنه مزنوق فى كذا، فإذا هو يفاجأ بى قد عزمته على العشاء، فبعد أن يتعشى وينبسط أسرب له المظروف المنتفخ حالفًا بأيمان المسلمين ألا يفتح فمه بأى كلام، ثم تمر الأيام والشهور وأنا لا أسأله شيئًا، لكنه يفاجأ بعد حين بهندى أو بسبوسة أو غزولى يذهب إليه من طرفى يطلب خدمة معينة، تحلف اليمين يا خال أنه يؤدى الخدمة حتى لو كانت على رقبته، ولو كان يملك مفتاح المدينة لقدمه لى عن طيب خاطر.

وماذا يكون مفتاح المدينة هذا يا خال بالنسبة لما قدموه لى من خدمات؟ لقد أعطونى جميع المفاتيح التى يمكن أن تتخيلها يا خال طبعًا، من ذقنه افتل له حبلا يا بوى.

مجنونــــة

انتقلنا إلى القصر يا بوى. يوم افتتاحه جاءت الشيخة سعادة وكل أصهارى ونفر من عائلة خرابة. فكان يومًا مشهودًا يا خال. اقترح هليل أن يقام أمام القصر فرح بالطبل والمزمار البلدى ترقص فيه خيول المزرعة المرشحة للبيع، فكتب بربش بطاقة دعوة

بعثنا بها إلى عائلات كبيرة كثيرة مشهورة فى الزقازيق والمنوفية والصعيد والبحيرة يدعوهم لمشاهدة ما أسماه بمهرجان الخيل، فجاء نفر كثير. وليلتها باع هليل كثير من المانجو والخوخ والتفاح والبرقوق والبرتقال وهى كلها أسماء يطلقها على الخيل.

الشقتان على الكورنيش فى مواجهة النيل حولناهما إلى مكتب للاستيراد والتصدير، استيراد كل شىء يخطر على البال، وتصدير كل ما لا يخطر على البال.

اقترح بربش أن نوظف عندنا فى المكتب شخصيات كبيرة من رجال الإقتصاد ومن أساتذة الجامعات المتخصصين فى التجارة الدولية والمحلية، ومن كافة التخصصات التى تخدم الإدارة، وقام بنفسه بالإرشاد إلى وزراء سابقين، ورؤساء مجالس إدارات أحيلوا إلى المعاش، وضباط أحرار متقاعدين، وضباط شرطة مغضوب عليهم، وما أكثر المغضوب عليهم يا بوى من أعلى الكفايات فى مصر، هذا ما كشفه لى بربش وهو يحكى لى عن عمالقة فى العلم والاقتصاد والسياسة والقانون غضبت عليهم الثورة السوداء فركنتهم وحاربت بعضهم فى رزقه وحريته.

جئنا بهم يا خال، أتى بربش بعناوينهم وأرقام هواتفهم ثم دعونا الجميع وعقدنا معهم لقاءات ومفاوضات ثم إتفاقيات ثم عقود عمل.

إن هى إلا أيام حتى صار المكتب يعج بذوى الرءوس العالية والكفاءات النادرة والأسماء الكبيرة الرنانة ممن كنت أظن أن

مقابلة الواحد منهم مستحيل لعلو شأنه وارتفاع صيته ومقامه، فإذا بالفلوس لها فعل السحر يا بوى، الفلوس فى عصرنا هى القبلة التى أصبح يركع فى اتجاهها أعتى الرجال.

كلهم يا بوى تم توظيفهم عندى بمرتبات شهرية يسيل لها لعاب التخين، أرقام لم يسمعوا بها فى حياتهم خاصة بعد أن كانت الأضواء والخيرات قد انسحبت عنهم.

وأنت تعرف خصلة شعب الثورة يا خال، فمن تغضب عليه الثورة ولو بالإشاعة فإن حياته تصبح جحيمًا، يهرب منه الناس ويتم عزله، ولهذا فلا أستطيع وصف الروح الطيبة والحماسة التى أقبلوا بها على العمل..

هؤلاء يا خال هم الذين نظموا لنا المكتب من الألف للياء، وضعوا هيكله الإدارى والتنظيمى، ملئوه بالعناصر المطلوبة من خريجى كليات التجارة والحقوق والزراعة والعلوم ومعاهد السكرتارية وكلية الألسن، هم الذين فتحوا عيوننا على نوعيات العمل، ما الذى يجب أن نستورده الآن ومن أين؟ وما الذى يجب أن نصدره وإلى أين، وضعوا لائحة مطاطة بحيث يكون للمكتب صلاحيات بلا حدود فى البيع والشراء، حدّدوا حجم الميزانية المطلوبة أشرفوا على فتح حساب لها فى البنك الأهلى.

عينونى رئيسًا لمجلس الإدارة، فضلاً عن كونى المالك، وعينوا بربش ـ بكثير من نبرة المجاملة مديرًا عامًا وكان بربش من الذكاء والإخلاص لى بأكثر مما قدرت، إذ نشن على واحد يعرفه جيدًا من

أعضاء مجلس الإدارة وطلب منى تعيينه عضوًا منتدبًا يتولى الإدارة الفعلية ويتحمل المسئولية كاملة على أن يظل منصبى شرفيًا ومنصب بربش رقابيًا سريًا..

اشتغل المكتب يا خال عقبال أملتك ربنا يعطيك ويعطى كل مجتهد. صدق من قال إن أصحاب المال لا قلب لهم يا بوى.

هذا صحيح مائة فى المائة، فرأس المال خوان ونذل لا يعرف أباه ولابد أن يكسب الطاق عشرًا وربما ألف ليظل يحمى نفسه بالتكاثر المستمر، فهو إما أن يتزايد أو يتناقص وليس من حال وسط.

الانفتاح الذى مشاه أنور السادات فتح علينا أبواب الرزق بغير حساب استوردنا الجبن ولبن الأطفال والبولوبيف ولحوم الديوك الرومى والفراخ المجمدة وكافة المعلبات من مأكولات ومشروبات.

استوردنا الأخشاب بجميع أنواعها، العطور، الأدوات المنزلية والكهربائية من سلع معمرة وأخرى غيرمعمرة. دخلنا فى علاقات مع الشركات المتعددة الجنسية لبناء القرى السياحية فى أسوان والأقصر والغردقة ومرسى مطروح.

حصلنا على توكيلات من كبريات الشركات المنتجة فى العالم: السيارات ، الموتوسيكلات، والدراجات وقطع الغيار، والسجائر الأجنبية التى أصبحت أنا وشلّتى من كبار مدمنيها.

ضاق السكان بالسكنى فى العمارة باتوا جاهزين لأى مساومة على الرحيل، رحلو بالفعل مقابل تعويضات تملأ العين لكنها

ملاليم بالنسبة لنا. فى ظرف شهر واحد أحال المقاول هذه العمارة إلى عروس تتصل شققها ببعضها فى جميع الطوابق بواسطة مصاعد داخلية صغيرة تنقل الأوراق والتأشيرات. أقمنا خزينة صرف ثانية كبنك صغير بنينا عدة عمارات جديدة فى قطع من الأراضى التى اشتريتها آنفًا. جعلناها مخازن وأفرع إدارية فى وحدات متخصصة، منها وحدة للمتاجرة فى أراضى البناء وإقامة عمائر لشقق التمليك بأسعار خيالية. باتت مجموعة شركات الصفا والمروة أكبر بيت للمال فى مصر.

علمنى الجهابذة والأساتذة من موظفى كيفية إخفاء ثلاثة أرباع الأرباح فى البنوك الأجنبية بعيدًا عن أخطار المفاجآت غير السارة. كما كانوا بارعين فى خلق مشاريع استثمارية تعفى من الضرائب لعدد من السنوات تشجيعاً لها على منتجات تحتاجها السوق المحلية كمصانع للأسمنت وحديد التسليح ولا بأس أن تقوم هذه المصانع بصنع أشياء أخرى.

قمنا بتصدير البطاطس والبصل والخضراوات بجميع أنواعها والفواكه والمنسوجات القطنية من ملابس داخلية وفوط وبشاكير وملاءات وأطقم سراير وسجاجيد يدوية من شغل الكرداسة وكنت أرى الناس تدوخ وراء السلع المحلية فلا تجدها فأعرف أننا قد استنزفنا السوق كلها بل أوقفناها لأننا نتعامل مع المصادر نفسها نشترى الحدائق والحقول قبل نضج الثمر بوقت كاف ليتولى خبراؤنا رعايتها بالطرق العلمية الناجحة. نتعاقد مع المصانع عقود احتكارات طويلة المدى.

ذمة ودين يا خال كان قلبى يوجعنى حينما أرى الناس محرومين من خيرات بلادهم، ولكن ماذا يفيد وجع القلب؟ لقد أصبحت ماكينة العمل دائرة لا تستطيع إيقافها بأى حال. فجميع الموظفين يحصلون على حوافز وإضافيات وإكراميات تكفل لهم الاستغراق التام فى العمل بحماسة.

وكان بربش متألقا فى دفع العملات والرواتب الشهرية لأعداد هائلة من المسئولين فى جيمع الجهات..

البنى آدم منا طماع يا بوى لا يملأ عينيه إلا التراب. هكذا كان كل العاملين فى شركاتى وعلى رأسهم بسبوسة. لم أستطع إيقافهم عند حدهم، فجميعهم ناس يلعبون بالبيض والحجر يا بوى.

سافرت معهم مئات المرات إلى جميع أنحاء العالم. أمال يا بوى: مال وحصانة. شفت لندن وباريس والهند واليابان وألمانيا وأسبانيا وإيطاليا والنمسا والسويد وسويسرا والنرويج ناهيك عن تركيا وإيران وبلاد العرب. أترك المختصين يشوفون شغلهم فى التعاقدات والمعاينات، وأمضى بصحبة زوجتى ومعنا ترجمان خاص من عشرات المترجمين العاملين عندى شغلتهم الترجمة من وإلى العربية وجميع اللغات. نتفرج على دور اللهو والمحلات نشترى كل مبهر من الطلبات ناكل فى أفخم المطاعم نبيت فى أعظم الفنادق، آخر نزاهة يا بوى.

وكنت على يقين من أن المختصين بأمور البيع والشراء والتعاقد يتقاضون العمولات الكبيرة، وأطرمخ، فهذا رزقهم، ويا بخت من نفع واستنفع ولكننى لم أعرف أنهم على هذه الدرجة من الفجور وانعدام الضمير يا خال: ما تكاد البضائع المستوردة تصل حتى أفاجأ بأننى مطلوب للذهاب إلى الجمارك لتخليص إحدى الرسالات بمعرفتى مستغلا صفتى البرلمانية، لماذا يا ولد؟ يقال لى: هناك مشكلة بسيطة، أذهب يا خال، أفاجأ بأن الفحص الطبى قد أثبت أن صفقة الفراخ المجمدة كلها غير صالحة للأكل بعد أن فقدت عمرها الافتراضى من قبل أن نتعاقد عليها، فابعزق بضعة آلاف من الجنيهات وبضع مكالمات هاتفية فيتم تعديل التقارير وتغيير الأوراق وأخرج بالصفقة كاملة غير منقوصة.

ما تكاد أيام قليلة تمر حتى أطلب ثانية: صفقة البولوبيف اتضح أنها معمولة أصلاً للكلاب ومكتوب عليها هذا بصريح العبارة باللغة الأجنبية طبعًا.

طلب ثالث: لحوم الديوك الرومى هذه ليست لها صلة بالديوك الرومى إنما هى طيور جارحة اصطيدت من الغابات وأعدت كطعام للكلاب أيضًا. طلب رابع: الجبن والمكرونة ولبن الأطفال كله ملىء بالإشعاعات الذرية!! ما الحكاية يا بربش؟! إن مديرى المشتريات ـ يقول ـ يسترخصون ويدخلون فى هذه الصفقات المضروبة وهم على علم بأنها كذلك.

عال عال، وكيف يا رجل الرقابة تسمح لهم بهذا؟! أمن أجل عمولات كبيرة نخرب بيتنا؟!

قال: بالعكس فإن الفروق الهائلة فى الأسعار تضاف إلى مكاسبنا ثم إن البضائع فى النهاية تباع فنحن نبيع لشعب يأكل الزلط ولا يعترض إنما الذى يعترض هم القاعدون للساقطة واللاقطة كى يسترزقوا من حجة تأدية الواجب! وهؤلاء مقدور عليهم فى النهاية! وعلى كل حال خليك أنت بعيد وأنا أتصرف سيكون تصرفى أقل تكلفة من تصرفك فأنت تنفق بسخاء لأنك طيب من ناحية ولا تعرف المختص الرئيسى من ناحية أخرى ووصولك إليه يكلفك إضافات باهظة أما أنا فأخرم على واحد بعينه قبل وصول الصفقة فينتهى كل شىء فى ستر وكتمان!!

قلت: «وهل يرضى ضميرك بهذا يا بربش؟!»

قال: «ضمير ماذا يا أبا الحاج؟! هل فى البلاد كلها شىء اسمه الضمير حتى نتمسك نحن به! الناس جعانه وحياتها أرخص من الأموال بكثير! اقتلنى وادفع لى هكذا يقول كل واحد فى البلد!! الست تدفع عمولات ومرتبات لشخصيات كبيرة جدًا من المفروض أن يحاسبوك ويحاكموك؟! إنهم إذن يوافقون على كل شىء! فكيف تحبكها أنت؟! حكامك أنفسهم أباحوا لك هذا بمجرد أن مدوا أيديهم لهبر المعلوم بركة ورثك ياعبيط استهدى بالله ولا توقف حالنا بعد أن جاءت الدنيا إلينا فى أواخر العمر!!»

ما أسكتني يا بوى هو أنني ثور الله فى برسيمه فى مسألة الإدارة هذه. ثم إن ماكينة الشغل تضخمت وقويت تروسها وتشعبت وتداخلت فروعها واتجاهاتها وأغراضها أصبحت شيئا منفصلاً عنى يا خال، لم أعد قادرًا على السيطرة عليها فأخذت للراحة والاستمتاع بأطايب النعيم من كل ما قلبك يحبه ويتمناه، صارت مهمتى تنحصر فى عد الفلوس العائدة كقواديس تصب الفلوس فى جيبى بغير توقف ومن كل ناحية وكانت زوجتى - التى شجعتها على مواصلة التعليم الجامعى - تقرأ لى التقارير النهائية وإشعارات البنوك عصر كل يوم فى شرفة القصر المطلة على المقطم، تقول إن ثروتنا باسم الله ما شاء الله لو وضعت فوق بعضها لصارت كهذا الجبل!.

الأرباح فى تزايد أى نعم يا خال، لكن الرائحة فاحت فى كل مكان والأمراض بدأت تنتشر بين الناس من سرطان إلى إلتهاب كبد وبائى إلى فشل كلوى إلى تسمم إلى ارتفاع فى ضغط الدم. كما أن ضبط الرسائل لا يتوقف والبرطيل فى تزايد نشوان، حيث امتدت جهود بعض الكبراء من العاملين عندى فشهدت القاهرة نشاطًا كبيرًا فى الندوات والمؤتمرات حول تلوث ماء النيل الذى يسبب كل هذه الأمراض.

وكنت أرى صور رجالى فى الصحف وهم يتحدثون فى المؤتمرات والتحقيقات الصحفية باعتبارهم أساسًا من أكابر

العلماء، فاندهش من هذه الازدواجية التى تنطوى عليها شخصيات كبار المتعلمين فى بلادنا بحيث يحمل الواحد منهم الضمير ونقيضه معًا.

الدليل على ذلك هذه التقارير المغرضة التى يكتبها بعض أطباء الرقابة الصحية بعد أن يظرفهم بربش بالمعلوم، إذ تقول بكل علمية أن المادة المسممة فى الفراخ المجمدة واسمها السلمونيلا توجد فى جلد الدجاج فقط وأنها تموت على النار ولهذا فمن الأفضل شوى الدجاج بدلا من سلقه، وفى حالة سلقه تنزع قشرة الجلد وترمى.

طب ما قولك يا بوى أننى ياصعيدى ضحكت من هذا التقرير الفكاهى وظننت الطبيب يسخر منا ومن كافة عقول شعبنا الطيب، ومع ذلك حاجة تهوس يا بوى. تناقلت الصحف هذا التقرير بكل احترام وتوقير وردده الناس فى اقتناع.

الناس فعلاً جعانه يا بوى والجائع يمكن أن يصدق كل شىء ويقول ما تطلبه أنت. أذكر كلمة لعمى الفقيه الكبير قالها ذات يوم ورسخت فى بالى: قال الإمام الشافعى رضى الله عنه: «لا تشاور من ليس فى بيته دقيق».

فعلا يا بوى صدق الإمام الشافعى، إذ كيف تنتظر من الجائع أن يعطيك المشورة فى شىء؟ فى انتخاب أو تقرير أو شهادة؟! مستحيل يا بوى وإلا ما ظهر مثل شعبى يقول: «احيينى اليوم وامتنى غدًا».

يبقى ضميرى أنا يا خال، وخوفى من نق الشيخة سعادة لو علمت أن شركاتى هى المتسببة فى كل هذه المصائب الكبيرة. ضغط شبح الشيخة على نافوخى ذات يوم ففكرت فى حل هذه الشركات، فلما صارحت زوجتى بهذه الرغبة صرخت فى وجهى: لا تكن فقريًا وتسد نهرًا سيروى نسلك الكثير من بعدك! هذه فكرة عبيطة يا أبا أدهم فالشركات أصبحت أشد رسوخًا مما تتصور والقائمون على إداراتها لن يمكنوك من هذا وربما اشتروها منك بتراب الفلوس فلا أنت أوقفت الغش ولا أبقيت على نهرك الفياض فاحمد الله واسكت ودع الملك للمالك ولا تزن على خراب عشك لأن حل الشركات ربما يؤدى إلى تقديمك للمحاكمة لأنه اعتراف بعدم سلامة العمل!!

طبعًا يا خال، فقد باتوا عصابة قوية متماسكة للدفاع عن مصالحها بكل نذالة. سيما وأنهم جميعا قد ملّينوا وصارت أرصدة لهم خصوصية مثلى فى بنوك العالم.

انفصلت عنهم ظاهريًا فحسب، بمعنى أن شركاتى راحت تمارس فسقها فى واد، وأنا فى واد آخر ذلك الرجل الصالح فعال الخير، الذى يتبرع بالأموال الطائلة لكل مشاريع البر والإحسان يقيم فى كل عام قرعة للسفر إلى الحجاز على نفقته يفوز فيها أكثر من ثلاثين حاجًا، ويخصص عمارة بين كل خمس عمائر مما تقيمها شركاته للعرائس الغلابة، صحيح أن معظم شققها يذهب إلى أبناء كبار رجال الدولة المهمين ولكن هناك من يأخذ نصيبه

من العامه كما أن أبناء كبار رجال الدولة هؤلاء يمكن إدراجهم ضمن المحتاجين أيضًا يا بوى.

وهكذا ملكت البلاد من أقصاها إلى أقصاها يا بوى.

ملعوبـــه

الرجل الواعر خيَّبَ كل توقعات العالم يا خال. ظل ثلاث سنوات يتذرع بالضباب الذى يملأ الأفق أمامه، يعشم الناس بالإصلاح، يزعم أن الرخاء قادم لا محالة يسافر إلى روسيا للتفاوض مع الزعماء السوفييت على أسلحة، زعماء السوفييت يظهرون له الاحترام والتوقير وهم فى حقيقة الأمر يحتقرونه يستهزءون به، وذلك ـ كما يقول بربش ـ لغبائهم الشديد فى السياسة الخارجية، والأخص فى علاقتهم بمصر والعرب كما أضاف بسبوسة..

كان المفهوم لنا أن عملاءهم فى مصر من الاديش عبد الناصر يوهمونهم أن السادات لن يستمر فى الحكم أكثر من شهور معدودة لأنه غير محبوب من جماهير الشعب العاملة ولأنه من ناحية أخرى غير كفء لحكم دولة كمصر، وأنهم هم الذين ساعدوه على النجاح فى الانتخابات إنقاذا لثورة يوليو وهيبتها من الضياع.

وحتى حينما هزأ هو بهم وأودعهم السجون ظل السوفييت على وهمهم بأنه غير باق فى الحكم، فراحوا يماطلونه، حتى

فوجئوا به يفعل بهم ما فعله في مراكز القوى في لحظة غير متوقعة: طرد خبراءهم من مصر شر طردة.

وبدلاً من الكلام في الحرب راح يتكلم عن السلام، يقبل المبادرات، ويقترح المبادرات، وهو ماء من تحت تبن يا بوى و.. هب للنبى، فوجىء الناس كلهم بأن قواتنا الباسلة عبرت خط بارليف المنيع..

تصور يا خال أننى ليلة خمسة أكتوبر لبيت طلبه في الهزيع الأخير من الليل فذهبت إليه في مكان سرى بعيد لم أتبينه لأن سيارة المخابرات التى أقلتنى إليه كان زجاجها حاجبًا للرؤية إضافة إلى أن الوقت كان ليلاً.

سهرت معه أقلب في القديم والجديد، ولكى أضحكه كما أراد:

ـ «عاوز أضحك يا حسن! نفسى مفتوحة للضحك الليلة بشكل غريب لدرجة إنى فكرت أبعث أجيب العيال بتوع مدرسة المشاغبين وثلاثى أضواء المسرح يعملوا عرض خاص هنا لولا أن الوقت تأخر والظرف مش مناسب!!»

قلت له:

ـ «مشاغبين وبتاع مين يا سعادة الرئيس؟ وسع لى وسع!»

صرت أتشقلب مثل القرد، وأفعل ما لا يخطر على البال من حركات فكاهية، وهو مستغرق في الضحك لكن على من يا بوى؟

أنا أعرف الضحك الأصلى من الضحك التقليد. ضحكه ليلتذاك كان ضحكًا برانيًا مغشوشًا، مما جعلنى أفكر في سكك بعيدة تصورت أنه متخانق مع الجماعة في البيت ويريد النسيان لكن يظهر أن الخناقة كانت حامية خصوصًا أنه يحب جماعته بشدة والجماعة أشداء بعض الشىء عليه لثقتهم في مكانتهم عنده. وإذ بهذه الداهية يا بوى قد أمضى قرار الحرب وانتهى الأمر وكان القلق يطارده وهو يحاول الهروب منه بأى شكل.

لم تجىء سيرة الحرب في سهرتنا إلا بكلمة واحدة عابرة على الماشى حينما سألنى فجاة:

ـ «إلا قوللى يا حسن! أنت تبرعت للمجهود الحربى ولا لأ؟!»

صحت بصوت جهورى:

ـ «طبعًا يا سيادة الرئيس! دفعت ثلاثة آلاف جنيه حته واحدة!!»

تراجع بذقنه في استنكار:

ـ «بس؟!»

ـ «هل هناك من دفع أكثر منى؟!»

ـ «أوهو.. وه! الناس الطيبون كثار في مصر! الإخوة المؤمنين بالله والوطن! على كل حال! إدفع خمسة لتتساوى رأسك برأس الكبراء المساهمين! الجيش محتاج لنهر من الفلوس!!»

ترددت بعض الشىء بحثًا عن الرد المناسب، لكنه أسكتنى برفع ذراعه:

-«بكرة تذهب إلى إدارة المجهود الحربى وتدفع خمسة آلاف أخرى! حرب الاستنزاف مصت دمانا يا حسن لابد من وقوف كل المؤمنين بالله معنا فهذه حرب مقدسة!!»

- «أمرك يا سيادة الرئيس! هاك دفتر الشيكات إملأ منه شيئًا بالمبلغ المطلوب وأنا أوقعه وتتفضل سيادتك بإرساله للإدارة!»

وكتبت شيئًا باسم المسئول عن المجهود الحربى فنادى سيادته على شخص، سلمه الشيك أمره بتوصيله إلى ادارة المجهود الحربى من صبيحة ربنا..

الحرب قلبت كل الموازين يا بوى. فرحة المصريين لم تكن تقدر بمال وفرحتهم بأنور السادات كانت لا مثيل لها.

فجأة أصبح أنور السادات بطلاً من أعظم أبطال مصر. مع ذلك فإن بربش أعلن سخطه عليه وعلى الصحافة والإذاعة. مالك يا بربش؟ ماذا يغضبك والناس كلها فرحانة؟!..

- «كيف يسمح للإخوان المسلمين بالركوب على هذا النصر العظيم؟! إياك تظن أن أنور السادت هو الذى انتصر فى الحرب!! لا المنتصر الفعلى يا أستاذ هو الشعب المصرى! إذا كان هناك مجموعة من تجار الإخوان المسلمين تبرعوا للمجهود الحربى بمبالغ كبيرة جاءتهم من مشايخ النفط! فإن الذى حارب هو

الجندى المصرى! أبناء الفلاحين والعمال هؤلاء هم الذين حاربوا بغل شديد وانتقموا لأهلهم أرادوا الخلاص من العار! ودماؤهم فى سيناء تشهد على أربع حروب ضارية! فكيف يجىء الإخوان المسلمون ويركبوا على النصر؟ ويقول عملاؤهم فى الصحافة والإذاعة إن هذا النصر تحقق لأن ملائكة من السماء يلبسون الأبيض فى أبيض نزلوا إلى الميدان وشاهدهم الجنود وهم يطيحون فى العدو؟! ما هذا التخريف يا مسلمين؟! هذا معناه يا أستاذ أن هذه الفئة المخرفة ذات العقول الخربة تحرم الشعب المصرى من الشرف الوحيد طول تاريخهم الحديث! معناه أن المصريين ليسوا أقوياء ولا يحزنون والنصر جاءهم على الطبطاب!! غلطة أنور السادات أنه سمح لهذا الكلام المضحك أن يتردد فى الصحف والإذاعة بحجة أنهم يريدون جذب الناس إلى الإيمان كأنهم يريدون القول إن ثورة يوليو الاشتراكية الشيوعية جلبت علينا الهزائم فلما تخلصنا منها كافأنا الله بالنصر كلمة حق يراد بها باطل! والحقيقة إن الإخوان المسلمين طلعوا من جحورهم بدأو نشاطهم بالركوب على نتائج حرب أكتوبر العظيمة ومن الآن فصاعدًا يجرون الناس إلى البلاهة والدروشة حتى تسترد إسرائيل أنفاسها وتهجم علينا ونحن حينئذ نجرى لنصلى صلاة الاستسقاء وصلاة النصر ننتظر نزول الملائكة لتحارب نيابة عنا كما فعلت!! سننصرف كلية للتعبد وعلى الله أن يكافأنا بإرسال الملائكة تدافع عنا!! لا يا استاذ أنور السادات لم يعجبنى فى هذه النقطة وفى نقاط كثيرة أخرى! إنه الآن يعتبر متحالفًا مع التيار

الإسلامى المتطرف وهو يتحالف فى نفس الوقت مع أمريكا لصالح إسرائيل ألم يوقف إطلاق النار حتى تمكنت إسرائيل من الاختراق وتطويق الجيش الثالث والوصول إلى السويس؟! لا يا استاذ! المسألة غامضة وفيها أسرار كثيرة وربنا يستر!!»

بينى وبينك يا بوى اغتظت من بربش ومن كلامه المسموم هذا، لقد سمم فرحتى يا بوى. لكننى تعودت دائمًا أن أتشرب كلامه وأستنير به إذ هو يفهم فىَ السياسة ربما أكثر من أنور السادات. وهذا ما جعلنى أشعر أن شخصيتى كثيرًا ما تنقسم على نفسها حتى أصبحت أومن بالشىء ونقيضه معًا، وأصبحت غير قادر على البّت النهائى فى أى مشروع من المشاريع دون وجوده.

فعلا يا خال صدقت نظرة بربش، فوقف إطلاق النار نكد علينا قطم فرحتنا قطم الخيار، نصف الفرحة بقى، النصف الآخر أكلته الثغرة التى فتحها الجيش الإسرائيلى فى قلب جيشنا ما كسبناه فى الحرب خسرنا أضعافه فى هذه الثغرة يا بوى..

أمواج السخط بدأت ترتفع يا خال منذ بدأ السادات يتكلم عن السلام والصلح مع إسرائيل. أنصاره يقولون إن الصلح هنا لا عار فيه لأنه يتم بعد الانتقام ورد الهزيمة فهو إذن صلح من منطق القوة.

والحكماء ممن أقابلهم من أبناء الشعب يقولون إنه فى النهاية صلح مع العدو، والصلح مع العدو قبول للعدو وتسليم بكل

شروط عيشه فى المنطقة إلا أن أنور السادات فاجأنا بقوله بأعلى صوت أنه مستعد فى سبيل السلام ـ أن يسافر إلى إسرائيل.

كلنا تصورنا أنه يمزح يا بوى، ولعله شرب حجرين من صنف ردىء هيأ له مثل هذه التخيلات الضارة. قامت قيامة البعض، وانكتم البعض كتمة العدس، وهاجت الأغلبية المسماة بالمنسحقة صار الشارع يغلى بالتناقضات: شتائم صريحة فى أنور السادات، مدح كبير فى أنور السادات.

المهلباتية وتجار المخدرات وثعالب الأسواق والحرامية كلهم كانوا مبسوطين من السادات آخر انبساط، يقولونها لبعضهم البعض صراحة: من لا يعمل ثروة كبيرة فى عهد أنور السادات سيحكم على عياله بالجوع مدى الحياة وهذا صحيح يا بوى: عصر أنور السادات عصر سبهلله، عصر يا بخت من نفع واستنفع انهب واسرق وكوم ثروة كما تشاء بأى شكل تشاء، فلن تجد من يحاسبك ما دمت تلحلحت وفتحت مخك فأعطيت للجميع من «الحب» جانبًا..

لكن ولد الأبالسة من كارهى السادات يريدون قطع رزقنا صارت الجرائد كل يوم تطالعنا بأخبار القبض على تنظيم سرى، شيوعى أو إسلامى متطرف، تحلف اليمين يا خال أنه لا يمر يوم واحد دون خبر اكتشاف تنظيم سرى يعمل لقلب نظام الحكم ضبطت فى حوزته منشورات وأسلحة وأموال وخرائط وقوائم

شخصيات عامة مرشحة للاغتيال، حتى ذعرت، فلو كان صحيحًا يا خال فإن الشعب كله يكون قد تحول إلى تنظيمات سرية تعمل على قلب نظام الحكم فى البلاد، إذن فالحكومة فى هذه الحالة غير شرعية، وتعتبر مغتصبة للسلطة.

جاء علينا وقت نكاد نستورد فيه وكلاء نيابة بأعداد هائلة تكفى للتحقيق مع كل هذه الأعداد المهولة من التنظيمات السرية المعادية للحكومة لأن جميع وكلاء النيابة باتوا يستنزلون اللعنات على النبوى اسماعيل الذى يستكردهم كل يوم بتنظيم يحتاج التحقيق فيه إلى جهاز كامل وهم ـ على كثرتهم ـ اقل عددًا من حجم هذه التحقيقات والقضايا، والمحاكم ازدحمت بمئات الألوف من المشتبه فيهم لأسباب واهية بلهاء، وحتى لقد خيل لى يا بوى أن النبوى اسماعيل عقد اتفاقًا مع أحد مقاولى الأنفار، أو موردى الكومبارس، لتزويده بكل هذه المجاميع التعسة ليشتغلوا متهمين كعمال موسميين..

كنت أرى هذا وأغتاظ من غباء الحكومة التى لا تريد أن تدعنا نشوف شغلنا فى ستر وهدوء بال، وتخلق لنا التوترات المزعجة بتلفيق القضايا وتنشرها فى الصحف والإذاعات.

فلتقبض على من تشاء يا بوى فهى حرة ولكن لماذا الفضيحة؟ تريد أن تطلع الرأى العام كى تكسبه فى صفها؟ رأى عام ماذا يا خال؟ هل بقى هناك رأى عام ولا زفت؟! الحكومة تفعل ما تشاء

وصحفها شغاله فى التسبيح بحمدها ومن يتمرد يأخذ بالحذاء على أم رأسه فعلام الفضائح والشوشرة التى تقلق راحتنا وتلفت الانتباه إلينا؟!..

أصبحت أعتقد أن الحكومة ظلت تلفق وتلفق حتى صدقت نفسها، وصدقها الواقع هو الآخر، أصبحت هناك تنظيمات سرية بالفعل تعمل على قلب نظام الحكم، وأخشى ما أخشاه أن تضطر الحكومة ذات يوم للقبض على الشعب كله. مجنونة وتفعلها. ولكن هل ترانى استطيع الجهر بهذا الرأى ولو من باب الحرص على مصالحها؟ حاشا وكلا ستنظرون الى نظرة استرابه والنبوى اسماعيل جاهز فى كل لحظة لاكتشاف كل ما ورائى من تنظيمات سرية، ولديه الوثائق الدامغة على الدوام وفى الحال.

فهل أنا مجنون يا بوى؟! من يحمل قربة مثقوبة تخر على دماغه. مع ذلك فأنا أدعو ليل نهار: يا رب احفظ لنا أنور السادات.

ـ ١ ـ

ما كنت أتـصور مطلقًا يـا خال، وما كـان يدور لى بخلدى، أن الشيخـة سعادة بجلالة قـدرها ـ شقيقـتى من لحمى ودمى وبنت ابى وأمى ـ يمكن أن تقـاطعنـى، بله أن يصل الأمـر بيننا إلى حـد الصدام. أكثر ما كنت أخشاه أن تعاتبنى مثلاً أو تلومنى بشدة على ما تفعله شركاتى فى البلاد من نهب وهبر وتسفيح. وهذا ما حدث كثـيرًا بالفعل يا خـال ربك والحق، غير أننـى ظننت أن الأمر يقف عند هذا الحد، ولم يكن ذلك الظن إلا قلة مفهومية من جانبى..

فذات ليلة عصيبة ـ والبلاد كلها مقلوبة بحادث اختطاف الشيخ الذهبى واغتياله بأيدى جماعـة التكفير والهجرة التى أعلنت ـ لأول مرة فى تاريخ مصر ـ مسئوليتها عن الحادث ـ فوجئت بالشيخة سعادة تزورنى على غير انتظار كعـادتها دائما، يرافقها هليل هذه المرة، وهو الذى قـاد سيـارتها المرسـديس الخاصة الـسوداء ذات الستـائر والزجاج الحـاجب. كان من الواضح أن العـلاقة بينهـما دخلت فى طور جـديد يا خال، صار الحب القـوى الجارف بينهـما معلنًا سـافرًا مبطنًا بالاحترام والمـعزة والفضيلة التى أعـرفها فى

كليهمـا. بدا لى أنه لم يبق إلا أن يعلنا عقد القـران ولكن بعد قليل، ربما انتظارًا للـوقت المناسب. ولم يكن ذلك ليـقـلقنى يا خـال، بل لعلنى على يقين تام بأنه لو تم يكون أنجح قصة حب حقيقى على ظهـر الأرض، ويكون أعـدل زواج تم بين اثنين كـلاهمـا يتـبـتل ويتفانى فى حب الآخر كما لمست بنفسى يا بوى..

إنما القلق جـاءنى من حالة التـجهـم الشديد التى شـملتهـا فى زيارة تالية، لدرجة عدم الاستجابة للفرحة المعلنة بقدومها ، والتى ترددت أصداؤها الصـاخبة من أول الخفـير فالحـارس فالجنايني فالتشريفاتى الذى صحبهـما من مدخل الحديقة حتى منتجعنا فى الطابق الثـالث، وما أبديناه جـميعًـا من مظاهر الحفاوة، إذ نودى على الطباخ والسفرجية فى الحال لـتجهيز العشاء. كل ذلك لم يلق منهما أى بادرة اهتمام أو امتنان أو انبساط، مما بعث فينا توجسًا كبيرًا..

من سـذاجتى يا خـال تصـورت أنهـما مـأخوذان مـثلنا بهـذا الحادث الجليل. فما إن جلست قبالتى فى الركن المضاء فى الردهة الكبيرة حتى بادرتها قائلا:

ـ «البقية فى حياتكما! ربنا يـستر على مصر من هذه العصابة السوداء العمياء القلب! أفينبغى أن نعامل شيخًا تقيًا ورعا بكل هذه الوحـشيـة! نضربه بالرصـاص فى رأسـه؟ الذى امتـلأ بعلم الله والقرآن والسنة والحديث! تلك والله علامة من علامات الساعة!!»

فكأننى لم أقل شيئًا يا خال. لم يبد عليهما أدنى تأثر، كلاهما جالس فى أدب واحتشام وتزمت كضيف غريب غير آمن غدر مضيفه. حينما جاء السفرجى الأسود اللطيف بملابسه الزرقاء المزركشة بالقصب الأحمر، ووضع أمامهما عصير المانجو صائحًا فى غبطة ومرح كالعادة: «مرحبًا ستنا الشيخة»، لم تبتسم له كالعادة أو تلاطفه؛ إنما اكتفت بهز رأسها بوجه مقطب، بلهجة من يريد قول: إخرس. فارتد الرجل مأخوذا ومضى يتصبب عرقًا. أبدًا ليست هذه هى الشيخة سعادة يا خال؛ وليس هذا هو هليل الفياض بالدفء والمودة. فسرت ذلك أيضًا بأنه ربما كان شدة تأثر بالحادث الأليم، فاستطردت:

ـ «لابد أن يأخذوا هذه العيال بالشدة!! لابد من تعليقهم فى المشنقة فى ميدان عام وإلا عمت الفوضى وخربت البلاد!»

فإذا بها تصيح فى غضب من بين أنيابها:

ـ «لم لا يعلق غيرهم: قبل أن تطلب هذا لعيال أبطال مجاهدين كهؤلاء لا يعجبهم الحال المائل وحالة الكفر التى تفشت فى البلاد إطلبه للمجرمين الأصلاء الذين يتاجرون فى قوت الشعب وفى أرواح الناس يبيعون البلاد للأعداء!!»

دُشٌ بارد انفتح فوق دماغى فأغرقنى يا خال، برد كل شىء فى جسدى حتى صرت أقاوم الرعشة، تملكتنى حمى مفاجئة فغامت الأشياء فى نظرى وخيل لى أننى صرت عاريًا فى مهب

ريح عاصفة. لذت بالصمت طويلاً، رشفت جرعة من كوب المانجو أبل بها ريقى الذى جف كالعصا، ثم أشرت لهما على الأكواب:

ـ «تفضلا!»

ـ «شكرًا!»

نطقاها فى نفس واحد بصوت مشروخ من شدة الصمت، حاسمة باترة تعنى رفض الشرب بصريح النبرة!. اعتقلت دموعى شعرت بها تنزل فى صدرى:

ـ «ما الأمر يا جماعة؟ حالكما لا يسر!!»

لحظتها كانت زوجتى قد أنهت ارتداء ثيابها الرسمية وجاءت تجرى من الطابق الرابع معلنة الترحيب بصوت يسابق صوت خطواتها على السلم الخشب الجعجاع:

ـ «ما كل هذا النور؟ من العصر وأنا أشعر أن طيفًا من الجنة فى طريقه إلينا!»

لمّا اندفعت نحو الشيخة سعادة لكى تأخذها بالحضن فوجئت بها ترتد قليلاً، وتمد يدها الملفوفة فى الطرحة لتسلم عليها من بعيد فى أنفة وتأفف. أما هليل فقد لف يده هو الآخر فى منديل قبل أن يسلم. غلت الدماء فى عروقى يا بوى. غرقت زوجتى فى الحياء والخجل وقد انطفأت فرحتها؛ لكنها جلست على كرسى مجاور للشيخة سعادة مستأنفة الترحيب بها كأن شيئا لم يكن:

ـ «أهل البلد كلهم بخير؟!»

ـ «الحمد لله!»

ملت على هليل:

ـ «ما الأمر يا هليل؟!»

صوت جديد وغريب في حنجرة هليل أجاب:

ـ «يستحسن يا بو العم أن نتكلم في حجرة مقفلة بعيدًا عن الخدم والسفرجية!! هناك أمور جئنا لتصفيتها!!»

ـ أهي أمور تستدعي أن يكون منظركما هكذا؟ انظر بجوارك في المرآة لترى غضب الله على وجهك ووجهها! عمرك ما كنت هكذا ولا هي! ما الحكاية بالضبط يا هليل؟!»

نكس هليل رأسه؛ وردت الشيخة سعادة:

ـ «بعد قليل تعرف كل شيء!!»

ـ «هل زوجتي ممن لا يجب حضورهم؟!»

ـ «لتبق إذا أرادت! هي وشأنها!!»

تقدمتهم إلى الطابق الخامس والأخير، حيث توجد حجرة مزنوقة في جدار المقطم بشرفة عريضة تشبه المحراب أو الخلوة كنت أحب الصلاة فيها بل كنت قد أعددتها خصيصًا من أجل الشيخة سعادة تختلي فيها حينما تكون في ضيافتنا وأسميناها محراب الشيخة سعادة. جلسنا متربعين فوق الشلت:

ـ «خير يا ستنا الشيخة؟!»

ـ «شف يا خوي! لقد نصحتك كثيرًا لكنك تصر على أن تستمر في الضلال!! أنت بكل صراحة تعتبر في نظري ونظر شرع الله من أكابر المجرمين في البر المصري! كل ثروتك التي جمعتها من وراء شركاتك المتعددة هي حرام في حرام! أنت تقبل الحرام على نفسك وأولادك أما أنا وهليل فلا! سننفق كل ما نملكه في البر والإحسان!!»

ـ «كسبنا صلاة النبي!»

ـ «لا تذكر اسم النبي على لسانك لأنك تفعل كل ما يغضب الله ويغضبه! لقد حاولت أنا أن أطهرك أنتشلك من الوحل الذي كنت فيه! بذلت كل ما أستطيع لأجعل منك كبير قوم لعلك تعود إلى الله مؤمنًا كامل الإيمان لكنك مع الأسف الشديد كبرت في الضلال أيضًا! وبعد الانحراف أصبحت غارقا لأذنيك في الرذيلة!! صلاتك باطلة من أساسها إن كنت لا تزال تركعها!!»

ـ «اللهم طولك يا روح!»

ـ «جئتك الليلة لأضع حدًا لهذا الكفر الذي تجره علينا أنا وهليل بغير ذنب جنيناه! ولكن كيف؟! أقول بغير ذنب في حين أنني المذنبة الكبرى؟! ليتني تركتك مجرد لص صغير يسرق أفرادًا لكنني مع الأسف كبرتك لتسرق شعبًا بأسره! الناس الذين انتخبوك نسيت أمرهم لم تقدم لهم أية خدمة حتى كرهوك! أما

هذه الأموال التى تدفعها كما تقول الصحف لأعمال البر والإحسان فخير لك ـ إن كنت تدفعها بالفعل ـ أن توفرها على نفسك لأن حسنة واحدة لن تكتب لك بسببها فهى من الحرام!! عذرى عند الله ـ إن قبله سبحانه وتعالى ـ أننى قصدت الخير يوم وقفت معك كما أننى نصحتك مرات ومرات فلم تهتد ومن الواضح أن الله لم يكتب لك الهداية بعد!!»

انسحبت زوجتى من لسانها غاضبة:

ـ «هذا كثير علينا يا ستنا الشيخة! الإنسان لا يجب أن يهان فى بيته إلى هذا الحد حتى ولو من أخيه ابن أمه وأبيه!!»

سلقتها الشيخة بنظرة حارقة:

ـ «لو كنت مكانك لهجرت هذا البيت سكنت فى عشة فراخ أطهر منه وأشرف!! هذا القصر المبنى بجماجم الفراعين القدامى! ودم الغلابة المساكين الذين ماتوا بأغذية مسممة يستوردها زوجك هذا والشقق السكنية التى تكلفت الملاليم وبيعت بشقاء عمر كامل فى الغربة! إن الذين ماتوا فى النكسة وفى الحرب الأخيرة لا يستاهل أهلهم أكل الفراخ الفاسدة وبولوبيف الكلاب ولا أن يشرب أطفالهم حليبًا ملوثًا بالإشعاع الذرى!!».

تفجر الغضب على وجه زوجى وانسابت الدموع على خديها غزيرة مهانة:

ـ «هذا ما لم أكن أنتظره منك أبدًا يا ستنا الشيخة!! طول عمرك لسانك لا يعرف العيبة فكيف يطول علينا هكذا مرة واحدة؟!»

قلت على سبيل المزاح لأطيب خاطرها:

ـ «يظهر أن ستنا الشيخة انضمت إلى جماعات التكفير والهجرة وها هى ذى تتشطر علينا وتكفرنا فى عقر دارنا!»

قالت بجفاء:

ـ «أنا لا أنضم لأحد ! الناس هى التى تنضم لى وأنت تعرف! إن كان ولابد من الانضمام فاعتبرنى منضمة لطريق الجهاد فى سبيل الله طول عمرى ولا يصح أن أكون مجاهدة ويكون أخى فى هذا الفسق والضلال تحت سمعى وبصرى! وقد قال الرسول عليه السلام من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وهذا أضعف الإيمان!! ولما كنت غير ضعيفة الإيمان فإنى نويت أن أغير هذا المنكر بالوسائل الثلاثة: اليد واللسان والقلب!!»

رمقتنى زوجى بنظرات مشحونة بالانفعال، فيها فضول وتحريض. وكنت قد غضبت بالفعل وتعبت من نزيف كرامتى؛ قلت بلا مبالاة وبرود:

ـ «زين والله زين! أرينى كيف ستفعلين!!»

قالت ببرود أشد:

ـ «أما باللسان فقد فعلت! وأما باليد فهو ما جئت من أجله اليوم أنا وهليل لنقول لك إن محامينا الخاص سيمر عليك ليفض الشركة التى بيننا!! إما أن تبيع لنا وإما أن تشترى ولكننا فى الواقع نحب أن نشترى لأننا حرّمنا فلوسك الملوثة ولا يصح أن نمسكها أو نخلطها بفلوسنا!! سنشترى منك وقد نبيع لغيرك أو لا نبيع هذا شأننا!!»

ـ ما بينى وبينكما هى المزرعة فحسب!! خذاها إذن بكاملها ووصلنى ثمنها! إنك فى نهاية الأمر شقيقتى وهليل صديق عمرى!

بعد صمت طويل نطق هليل:

ـ «كنت صديقك فيما مضى! أما الآن فلا!!»

ضبطت زوجتى على صدرها فى هلع وقد عراها التوتر والخوف فانتفشت صارت كالبالونة الموشكة على الفرقعة. أردفت الشيخة سعادة:

ـ «شقيقتك هذه لم يعد لها وجود! انتهت رسميًا وعمليًا من الحياة! اختفت! الجالسة الآن أمامك هى الشيخة سعادة!!»

ـ «حتى علىَّ أنا الآخر هذا الكلام؟ لقد دفناه سويًا!! أنا تسترت عليك وهذا يكفى!!»

ـ أنا لم أدفن معك شيئًا! الماضى هو الذى اندفن بإرادتى وبفعلى أنا وقدرتى أنا! ولو أنك حاولت كشفى فلن يصدقك أحد!

أما أنا فلو تكلمت فأنت تعرف جيدًا ما تفعله كلمتى فى أكابر الرءوس!! التى تكلمك الآن هى الشيخة سعادة بمعنى الكلمة!! أقصد التى تغير قلبها من ناحيتك!!»

كدت أبكى يا خال، لكنى أدركت أن أوان البكاء لم يحن بعد، وأننى يجب أن أعالج هذه الأزمة الداهمة بأقصى ما أستطيع من هدوء أعصاب. إنغلق دماغى واسودت الدنيا كلها فى عينى، فلو أنا بعت لها المزرعة فلست أضمن أن تبيعها لجار سيىء ينازعنى فى ملكيتى يصبح شوكة فى جنبى، قد يهد المزرعة ويبنيها محلات أو ورش؛ فى نفس الوقت هى رافضة قبض فلوسى فهى إذن تريد أن تضايقنى والسلام. فى قلب هذه الحيرة نط بربش فى راسى فتشعلقت به.

***

دخل بربش علينا كمانيكان يستعرض الأبهة والفخامة بملابس اشتراها من أشهر بيوت الأزياء فى العالم.كانت رائحة الخمر واضحة مع أنه كان فى غاية الاتزان. أجلسته بجوارى. لم يكن قد دخل هذه الخلوة من قبل، ولذا راح يتلفت حواليه فى شغف مستطلعًا جمال زخرفتها ومشغولات سقفها المقبب الملىء بالمنحوتات والبروازات. وكانت الشيخة سعادة ترمقه فى تأفف واحتقار ظاهرين، إضافة إلى أنها لم ترد عليه السلام لكنه لم يكن من النوع الذى يتأثر بسهولة بل هو يتلذذ باللامبالاة فى مثل هذه المواقف إمعانًا فى الكيد للطرف الآخر. فى أثره مباشرة جاءت

صينية القهوة التى طلبها وهو يصعد السلم: قال بربش بروحه العملية السريعة الإيقاع فيما يرشف القهوة والدخان معًا بشراهة:

- «شغلتنى يا رجل! أنا تحت أمرك!»

تفكرت قليلاً قلت له:

- «جاءتنى الآن برقية عاجلة من الصعيد من شركائى فى المزرعة يطلبون بيع نصيبهم بشرط ألا أشتريه أنا لانهم يستحرمون فلوسى وأنا أخشى أن أبيعها لهم فيبيعونها بدورهم لواحد غير مضمون السيرة يكون شوكة فى جنبى فبماذا تشير علىّ لحل هذه الورطة البايخة؟ السخيفة؟ مع ملاحظة أن محاميهم سيصل صبح الليلة للتخليص!!»

بلا مبالاته الخفيفة الظل قال:

- «يعنى شركاؤك هؤلاء يعتبرون أن أموالك ملوثة كأموال تجار المخدرات والقوادين؟!

صاح هليل على غير انتظار:

- «بالضبط يا بو العم! هم يرونها أسوأ من هذا إذا لم يعجبك!!»

لم يلتفت إليه بربش، لم يعره أدنى التفات، بل رشف ما تبقى فى الفنجان ثم جعل يهز الفنجان بهدوء وجسده يتراقص ليذيب

البن المترسب فى قاع الفنجان للرشفة الأخيرة التى طوح بها فى فمه ثم وضع الفنجان فى الصينية وجذب نفسًا من السيجارة.

- «الحل بسيط: إغسل أموالك الملوثة هذه قبل أن تعطيها لهم! نظفها جيدًا!!»

ولم يضحك، بل كان وجهه جاد الملامح ورصينًا، فصحت فيه بغيظ وألم:

- «الأمر لا يقبل الهزار! ما معنى هذا الكلام الفارغ الذى نطقت به؟ نضع الأموال فى الغسالة؟ بالرابسو أم بالصابون؟ يا رجل قل كلامًا ينسمع!!»

جذب بربش نفسًا عميقًا بكل هدوء ثم التفت لى فى اندهاش عظيم:

- «أصبحت بنكيرًا كبيرًا ولا تعرف أن الأموال هى الأخرى تنغسل وتتطهر؟! ألم تعرف كيف يودع تجار المخدرات أموالهم فى بنوك ويسحبونها من بنوك أخرى بترتيبات بنكية معينة ومعروفة؟! على كل حال هذه فكرة وسوف أشرحها لك فيما بعد! أما الخروج من هذه الورطة التافهة التى تحيرك الآن فالخروج منها يتم على النحو التالى: دياب ابن خالتك يشترى نصيب شركائك ويدفع لهم من جيبه وبهذا يقبض شركاؤك أموالاً طاهرة: ثم يقوم دياب بالبيع لك!!»

الفكرة على بساطتها وبدهيتها كانت مشرقة فعلاً فنظرت إليهما أتكشف رأيهمـا، أقصـد هليل والشـيخـة سـعـادة، فلم ينطقـا؛ فسألتهما:

- «يرضيكما هذا الحل؟!»

قال هليل دون أن ينظر إليّ:

- «يرضينا يا بو العم»

- «اتفقنا إذن! فليأت المحـامى للتنفيذ من صبيحـة ربنا وسيجد محاميً الخاص جاهزًا!»

خبط بربش على ركبتيه فى استعجال:

- «انتهت مهمتى؟!»

- «شكرًا»

ونهضت مسلمًا عليه فجذب يدى بغمزة خفيفة فمضيت بجواره لأوصله إلى السلم. فهـمس لى بعبارات مـضغمـة باننى من الغد يمكن أن أضع مبلغًا فى البنك لحـساب دياب ابن خالتى وأن أكتب مـعه عـقد بيـعه لى قـبل أن يكتب هو عـقد الشـراء، ولا بأس من تكسيب دياب مبلغًا معقولاً يشجعه. ثم هبط السلم مهرولاً..

وقد تم التنفـيذ فى السر والكتمـان، وبهدوء تام، وفى أقل من ساعـتين؛ ولكننى لم أستطع مـداواة جرحى يا خال؛ شـعـرت أننى

خسرت خسارة فادحة؛ إذ كـيف تصل الأمور بينى وبين شقيقتى إلى حد العداء هكـذا؟ وهليل صديق عمرى الوحيـد كيف يتنكر لى هكذا؟! ما الـذى جرى فى الدنيا يـا خال؟ ما سـر هذا العطب الذى أصاب الناس فى مقتل فأتلف قلوبهم؟..

الحياة أصبحت ماسخـة. وأنا يا بوى ما كان مرادى أن أخسر أختى وصديق عمرى، لكن هل أفرط فى مستقبل عيالى ومستقبلى فى سبيل إرضائهما؟ من يقول هذا؟ من يقول أن الإنسان يحاسب أخاه على الإيمان أو عدم الإيمان؟ لم نسمع من قبل يا خال أن الله قد عين شرطة للإيمان تتحرى عن قلوب الناس.

- ٢ -

باعتـبارى من ألاديش الرئيـس السادات بطل الحـرب والسلام على سن ورمح، فإننى كنت أتبعـه كظله. نعم، وعن عشق والله يا خال بصرف النظر عن المصلحـة الشخصية فـأنا والحمد لله كنت قد أصبحت قادرًا على الاستغناء عنه بل أصبح بإمكانى الاستغناء عن مصـر كلها، أستطيع أن أعـيش فى سويسرا، فى النمـسا، فى باريس فى أى مكان فى أفخم القصـور فى أجمل الجزر، لدىّ من الأموال مـا يكفينى ويكفى نسلـى لعشرة أجـيال قادمـة على أقل تقدير..

ولما بلغتنى أخبار تحركات التيارات الإسلامية المتطرفة منذ وقت مبكر، وأن الإخوان المسلمين يدبرون لاغتيال الشخصيات العامة تسهيلاً لوصولهم إلى حكم البلاد وانهم قد اخترقوا معظم الأجهزة وصار لهم رجال فيها، فكرت جيدًا فى الهجرة التامة إلى الخارج وإدارة أعمالى من أى عاصمة عالمية! سيما وأننى قد أصبحت أجيد التكلم بالإنجليزية إلى حد يكفل لى التعامل مع الناس والبنوك،كما أصبحت زوجتى تجيد الفرنسية والألمانية قراءة وكتابة بل وكانت تؤلف شعرًا بالفرنسية لأنها باسم الله ما شاء الله تخرجت فى الجامعة الأمريكية ودخلت فى سباق مع سيدة مصر الأولى چيهان السادات قائلة لنفسها ولى: إذا كانت السيدة جيهان وهى الأكبر منها سنًا وفى مركز يحقق لها كل شىء وقد أصرت مع ذلك على مواصلة التعليم والحصول على الدكتوراه ودراسة الشعر الإنجليزى فمن باب أولى ـ وهى الشابة الصغيرة لا تزال ـ أن تفعل ذلك هى وفى العمر أمامها متسع لتحقيق درجات علمية تنفعنا فى الحياة.

بتشجيع منها قمت ـ فى نوبة شبه جنونية ـ بشراء مجموعة من القصور فى بعض العواصم العالمية: لندن وباريس وروما. لعلمك يا خال إن كنت تستهول هذا الأمر فإنه لم يكلفنى إلى حد الإبهاظ، بل إننى لم أشعر بالإرهاق مطلقاً، فثمن قطعة أرض واحدة من الأراضى التى سبق أن اشتريتها بتراب الفلوس، والتى ركنتها فلم أدخلها فى حساب ثروتى المتزايدة، كان يشترى قصرًا

بكامل مفروشاته فى واحدة من هذه العواصم الكبيرة. فى البداية يا خال فكرت فى الإقامة الدائمة فى باريس الساحرة، ليكون قصرى استراحة جيدة لاصطياد السياسيين المصريين الوزراء والأمراء العرب؛ فمنها أستطيع إدارة أعمالى أفضل من القاهرة؛ ومنها أحقق خلوة تمكننى من شراء أى رأس يشكل نتوءًا فى طريقى. فسيف الدولار هو أمضى سيف لكشط أى نتوء يضايق حركتك. أنت فى الخارج ـ كما عرفت يا بوى ـ تستطيع امتلاك جميع المسئولين إذا كان عندك شقة للمبيت والصهللة فما بالك لوكنت تملك قصرًا فخيمًا ونهر فلوس لا ينفذ؟!..

إلا أن بربش العفريت نصحنى بالابتعاد عن لندن وباريس بالذات لأنهما تحويان الواغش. فهناك ثلاث جهات تعيث فسادًا فى المثقفين المصريين بالذات والعرب عامة، تنفق عليهم الأموال الطائلة ليكونوا جنودًا يخدمون سياستها بالدعاية لها وإضفاء الرهبة عليها من ناحية أخرى ولتسخيرها لضرب الحاكم المصرى وإشاعة البلبلة والقلاقل فى مصر من ناحية أخرى بأوهام وشعارات اشتراكية وحدوية فهلوية ثورية من ناحية أخرى. هذه الجهات هى العراق ومنظمة التحرير الفلسطينية وليبيا. ما من واحد من مثقفى الناصرية والشيوعية المصرية إلا ويعيش مليونيرًا أو على الأقل لورداً فى بلهينة من العيش على نفقة واحدة من هذه الجهات الثلاثة بعضهم متسق مع نفسه لأنه يعمل فى إطار المبادىء التى آمن بها بصرف النظر عن القوة المادية المسيطرة التى توجهها فى خير أو فى شر؛ وبعضهم يعرف جيدًا

أنه مجرد لاعب على الحبـال بهلوان يرغب فى تجميع ثروة طائلة فى زمن محدود ولذا فهو يجيد القفز على التناقضات القائمة دائمًا بين الأنظمة السـياسية العربيـة؛ ليضع نفسه فى خـدمة أى منها إلى أن تواتيه فـرصة أكـبر للوثوب على تناقض أكـثر ثراءً؛ منهم المراسل الصـحـفى، والكاتب المتـفـرغ، والمدمن إصـدار مـجـلات وصحف تتلقى التمويل من كل حـدب وصوب مقابل السكوت عن الشوشرة أو توجيهها فى اتجاه آخر؛ ومنهم السياسى المعزول فى بلده وقـد أوهم إحدى هذه الجـهات بزعـامته وقـدرته على إقـامة تنظيم مصـرى فى الخارج يستطيع القـفز على الحكم فى الداخل؛ ومنهم الجـاسوس المحـترف ذو الوجـوه السبـعة، ومنهم الشـاب المخدوع بأوهام الثورة والاشتراكـية والقومية.. إلخ؛ ومنهم المذيع الحنجورى المتخصص فى تدبيج وإلقاء البـيانات ضد مصر وأنور السادات خـائن العروبة. لكل هولاء ـ يقـول بربش روافد وقنوات داخل القـاهرة؛ والدولار النفطى فى يدها يستـقطب كل من يجـيد الإمسـاك بالقلم ممن يلزمـهم مسكن وزوج وسـيارة ومـصـروف جيب يقاوم به الارتفاع الجنونى للأسعـار بعد حرب أكتوبر، ولذا فإن الصـحافـة النفطية هى صـاحبة الصـوت الأعلى الآن بل هى صاحـبة الصـهـوة والصولجان فى مـصر، ثقـافة معلبـة لا تخدم قضية ولا تبنى شعبًـا، تفح منها رائحة الجاز؛ كل ذلك يتم طبخه فى لندن وباريس أكبر سوقين فى العالم لتجارة السياسة والفنون وصنع الأبطال المزيفين والإرهابيين والمفكرين الأدعياء..

ولو أننى أقـمت فى باريـس أو لندن يا بوى فـإن هذه القـوى الجهنمية ستتـخطفنى بأى شكل على الأقل تورطنى فى أشياء قد تغضب الرئيس السادات منى، خاصة وأن المثقفين المصريين هناك يسببون له كثيرًا من الضيق والإزعاج، وهومحق فى الثورة عليهم والتنديد بهم فى خطبه وأحاديثـه، لأن الفرق بين محاربة الرئيس المصرى فى الخـارج وبين محاربة مـصر نفسهـا شعرة رفيـعة ينسى المحاربون المحترفون دائمًا أنها كـثيرًا ما تنقطع رغمًا عنهم فإذا هم يحاربون بلادهم فى الصميم تحت علم الجهاد فى سبيل مصلحتها فى حين أن مصلحتها فى سكوتهم. وجودى بين هؤلاء خطر يا خال كما نصحنى بربـش، مجرد اتصالى بهم أو اتصالهم بى قد يجر علىّ الإشاعات والوشايات خاصة إننى لست هاربًا من شىء فى مصر، وبالأخص لأنى صديق لأنور السادات مؤمن مثله ومقـتنع بأنه السيـاسى الوحيـد الذى يمكن احتـرامه بين جـميع زعمـاء العرب على الإطلاق، والعـمل معه أشـرف بكثيـر جدًا من العمل مع أى ديكتاتور عربى لا يملك إلا السيف والذهب؛ فى نفس الوقت أنا لست محتـاجًا للمال أو الشهـرة أو المركز لكى أعمل مع أى قوة عـربية مضادة لأنور السـادات؛ الأهم من ذلك أننى أعشق تراب مصر ولا أطيق من يسىء إليهـا أو إلى رئيسها فى الخارج، أى أننى باختصار يا بوى سأخلق لـنفسى من المشاكل ما هو أشد خطورة من بقائى فى مصر. ثم إننى عـضو فى مجلس الشعب يا خـال، وعضـويتى أصبـحت مضـمـونة فى كل دورة يعنى ناجح

ناجح غصباً عن الجميع مهما حوربت من خصومى فى الدائرة بل أصبح عندى دائرة احتياطية مضمونة فى جيبى هى منطقة منشية ناصر والجمالية والدرب الأحمر، وهى منطقة لو سحبت منها أموالى الشغالة فيها لخربت ثلاثة أرباع تجارتها..

قل إننا نحينا فكرة الهجرة جانبًا.. ونصحنى بربش بتوجيه اهتمامى إلى المظاهر الإسلامية الزاعقة حتى أصبح رمزًا من رموز الإسلام ترضى عنه جميع التيارات المؤيدة والمعارضة على السواء، فبدأت أتجه لبناء المساجد وإقامة المستوصفات فى الأحياء الشعبية الفقيرة تعمل بالمجان وتسمى بأسماء إسلامية: الصفا، مكة، الريان.. إلخ. ولم يكن ذلك يكلفنى كثيرًا يا بوى، بل على العكس كان يفيدنى؛ ذلك أن تكاليف هذه المستوصفات كانت تخصم من الضرائب المستحقة على شركاتى ثم أن بربش وبسبوسة وغزولى أقنعونى أن عدوان جماعات التكفير والهجرة منصب فى الأساس على الشرطة، وحدها وإلى أن يمتد عدوانها إلى الشخصيات العامة يكون قد حلها الحلال.

***

كنت قد انضممت إلى حزب مصر الذى كونه الرئيس السادات. صرت أفخر بأننى عضو بالهيئة التأسيسية مما أتاح لى أن أصبح عضوًا بلجنته المركزية العليا. دفعت أكبر مبلغ تبرعت به فى حياتى لتأسيس الحزب، ثم مبلغًا آخر لتأسيس جريدة مصر.

وحينما انقلب الرئيس السادات على الحزب لسبب لست أدريه ولم أعن بسؤال بربش تفسيرًا له؛ تبعته فى الحال يا خال؛ وفسرت انقلاب الرئيس بينى وبين نفسى أن الرئيس قد أدمن الانقلابات؛ وقلت لنفسى:

ما دمت قد أحببته وآمنت به ولد فتوات فيجب أن تكون بجواره أينما ذهب..

شاركت فى تأسيس الحزب الوطنى يا بوى؛ دفعت مبلغًا أكبر من السابق تبرعًا لميزانية الحزب،؛ قدمت شركاتى كل خدمات ممكنة تحتاجها مقار الحزب وجريدة الحزب ووسائل انتقالاته..

بعد ذلك انضم كل من بسبوسة وغزولى إلى حزب الوفد لأنهما يحبان هذا الحزب بحكم الميراث. أما هندى فقد انضم إلى حزب العمل لأنه قرأ ذات يوم مقالة عن أحمد حسين فأحبه واعتقد أن هذا الحزب يشبه أحمد حسين وأيامه!! أما بربش ـ وهذا هو المثير المدهش يا خال ـ فقد انضم إلى حزب التجمع الوحدوى الناصرى. ظننته يمزح يا بوى؛ لكنه صفعنى بإبراز بطاقة العضوية؛ ثم بدأ يكتب فى جريدة الأهالى من حين لآخر وعلى حس الأهالى صار يكتب فى صفحات الرأى فى الجرائد المسماة بالقومية والأهرام والأخبار والجمهورية، بشكل متواصل، لا يمر أسبوع إلا وتقرأ زوجتى علىّ مقالة بقلمه فى جريدة من الجرائد أومجلة من المجلات؛ كما أنه صار يلمع نفسه بالأخبار

الدائمة فى كل الصحف معتزمًا دخول الحقل السياسى من جميع أبوابه عن طريق الحزب وجريدته. قلت له:

- «ولكنك يا بربش من ألد أعداء عبد الناصر والاشتراكية والشيوعية وغير مؤمن بفكرة الوحدة العربية وإمكانية تحققها فى العصور القليلة القادمة على الأقل! ورأيك إن الاتحاد السوفيتى نصاب بل أشد وساخة من أمريكا فكيف تنضم إلى الحزب الذى ينادى بكل ما أنت ضده؟!»

قال ببساطته ووضوحه المعهودين:

- هذه هى الشلة التى أعرفها جيدًا فى الحقل السياسى كما أعرف نفسى!! ليس من شخص فيها لم أختلط به فى السراء والضراء وأعرف نقاط ضعفه ومكامن قوته! إنها المجموعة التى أستطيع التعامل معها فى يسر وسهولة لما بيننا من لغات مشتركة وتفاهم سريع سهل! فهى إذن مجموعتى! فريقى الذى أستطيع أن ألعب به أية مباراة سياسية ولا تنس أنهم أكثر وعيًا بالسياسة وأكثر قيمة فى معظمهم بصرف النظر عما يصيب بعضهم أوكثرتهم من عطب وعفن وضمر فى عضلة الضمير وجروح غائرة بسبب ما أصابهم من تعذيب داخل السجون!! إنهم أكثر السياسيين مدعاة للاحترام!! إننى أشعر بينهم بالتواؤم! لقد انتهت المبادىء فى نظرى منذ سنوات!! وبحكم سفرياتى العديدة فى السنوات الأخيرة إلى كل العواصم الاشتراكية كتاجر وكسائح

وكمثقف يلوح لى أن المسألة الاشتراكية هذه أصبحت على حافة بركان لابد أن ينفجر عما قريب!! فالشعوب ضائقة مخنوقة ومستوى الحياة والمعيشة يؤكد أن درجة القهر الاجتماعى والسياسى بلغت الحلقوم ولم يبق إلا الانفجار!! ومعظم من نادوا بالاشتراكية والشيوعية فى مصر عرفوا هذا وتأكدوا منه لكن أصبح من العسير أن يتحولوا هكذا ببساطة عن أشياء آمنوا بها عمرًا طويلاً وقدموا فى سبيلها زهرات شبابهم! إن أكبر سلطة فى العالم الآن هى سلطة النفط حتى وإن كان مالكوه ضعافًا جهلة متخلفين إنما العبرة فيمن يسيطرون عليه!! أموال النفط مثل طبيعة النفط تمامًا عندما يكشف عن نفسه بالفيض إذ أنه ينتشر فى بقع عشوائية تأخذ فى الاتساع والتشعب حسب درجة صلابة التربة!! هكذا أمواله أيضًا تزحف على سطح المجتمعات العربية والنامية على شكل رقع عشوائية حتى تصبح الطبقات العاملة والفقيرة من صغار الموظفين والفلاحين معرضة للثراء الفاحش بغير مناسبة !! حينئذ تبدأ مقتنيات التكنولوجيا فى الانتشار فى الأحياء الشعبية وتكثر مظاهر الرفاهية فتبطل بالتالى كل دعوة للمبادىء السياسية المسماة بالاشتراكية والشيوعية لأن الطبقات المقصودة بالخطاب السياسى لم يعد لديها أذن تصغى ولا وقت تضيعه فى عمل سياسى منظم!! كل البطولات السياسية تصبح وهمًا أخرق فى ظل سوق نفطية عارمة تبعثر الأموال بغير حساب على كل من ينضم إلى قافلة الزيت أو يحتك بها مجرد الإحتكاك إننا مقبلون

المزعومة؛ مصلحة البترول الحاكم ستكون هى فصل الخطاب، هى التى لابد أن تسود. إن البترول - يقول يا خال - الذى سيطرت عليه القوة الأجنبية الشيطانية سينضم تلقائيًا لخدمة سادته أصحاب الهيمنة وبالتالى فغدًا أو بعد غد تتشرذم هذه الجبهة الهشة من حالها، التى لا يجمعها سوى الشعارات والانفعالات ولا تملك من أسباب التلاحم الحقيقى سببًا واحدًا؛ سرعان ما تنفتح لكل منها جبهات داخلية مدمرة تستهلك كل قواها فلا يبقى من جبهة الصمود والتصدى سوى فراغ المنطقة من أى جبهات على الإطلاق؛ تظل كما كانت وكما ستبقى لدهور مجرد سوق للنفط يستهلكه السادة إياهم ونحن مجرد حرس وخدم نعيش على الفتات الفوضوى، ولسوف تؤوب المسائل فى النهاية إلى سريان ما خطط له السادة إياهم وأرادوا. وإن عشنا لسنوات قليلة قادمة فسيفكرنى حينما أرى بعينى أن الجميع يسعون للصلح مع إسرائيل لأنهم لا خيار أمامهم سواه بعد أن تفتتت كل الجبهات واضمحل شأنها. كل طرف سيمنى النفس ولو بربع ما حصل عليه أنور السادات فى اتفاقيته؛ وما حصل عليه السادات ليس بالقليل فى الواقع؛ يكفيه استرداد الأرض المغتصبة منه شبرًا شبرًا. ثم إنه لم يلجأ لهذه الاتفاقية إلا بعد أن تركه أشاوس الصمود والتصدى وحده فى مهب الريح يتراخون فى دفع أنصبتهم فى تكاليف المعركة هم يريدون استمرار الحرب مع إسرائيل حتى آخر جندى مصرى وآخر قرش فى خزانة مصر

فهل هذا حلال أم حرام؟ تقولون بأن المعركة عربية؟ نعم؟ إذن فليكن الجيش عربيًا والسلاح صفا والقيادة واحدة؛ أما أن يكتفى البعض برمى الفتات كتعويضات مادية دون مشاركة فعلية صارمة حاسمة، شراءً لخواطر سادتهم المهيمنين على نعيمهم النفطى فهذا محض تهريج وتخريف وتخلف؛ ولا جناح على أنور السادات إن هو ولى وجهه نحو إنقاذ ما يمكن إنقاذه من مصير بلاده قبل تفاقم الخسائر ووصول الأمور إلى المراحل الصعبة ثم المستحيلة.

ذلك هو رأى بربش يا خال وبكل حذافيره كما شرحه لى مرارًا وتكرارًا فى سهراتنا إبان القلق العام والدوار الذى أصاب الجميع بصدمة الاتفاقية المفاجئة؛ بل إنه صاحب التعبير القائل بأن المستحيل أصبح ممكنًا بهذه الاتفاقية فلِمَ لا يعيش الجميع من سكان المنطقة فى وئام وحذر طالما إنه أمر واقع ومفروض بإجماع العالم ولا مفر منه؟

إلا أننى أفاجأ - ربما فى صباح نفس الليلة يا خال - بمقال بتوقيعه منشور فى جريدة الأهالى يهجم فيه على السادات يصفه بأشنع الأوصاف يا خال؛ يمزق اتفاقية كامب ديفيد شر تمزيق واصفًا إياها بأنها اتفاقية الخيانة والهزيمة والخور وبيع التاريخ كله بنصف خردة!! ثم يصف الحزب الوطنى الحاكم بانه حزب التجار وأغنياء الحرب والصدفة، والسماسرة والوكلاء الذين لايعنيهم مستقبل الوطن فى كثير أو قليل.

تكررت هذه الحركات النص كم يا خال من بربش حتى فهمت إنه حينما يريد أن يكيل اللعنات للسادات فإنه يرفع اسم الرئيس ويضع بدلاً منه الحزب الوطنى الحاكم؛ و حينما يكيل اللعنات على الحزب الوطنى الحاكم فإنه يضربنى أنا تحت الحزام يا خال. أما حين أعاتبه يضحك؛ وفى ضحكه ـ يا عجبًا ـ صفاء الطفولة وبكارة الأبرار، ثم يقول:

ـ «هذا شغل سياسة لابد منه يا صاحبى!! أنا حينما أكتب فى جريدة الحزب فلأننى عضو فى هيئة كبيرة تمثل الحزب أمام جمهور السياسية وأعضاء الحزب!! إن الحزب الذى أشرف بالانتماء إليه يرفض الاتفاقية شكلاً ومضمونًا بل لا يعترف بها من الأساس فكيف أخالف الحزب بإجماعه؟! إننى إذن لمنشق ويحق له طردى منه!! أنت يجب أن تفرق بين بربش صديق عمرك وبربش عضو الحزب السياسى! أنا مع الاتفاقية بقناعة شخصية لكننى مع حزبى بالموقف والمساندة بجميع أنواعها!! هذه أصول حزبية لابد من مراعاتها!!»

ـ «ولكنك يا بربش يا خوى تشهر بنا! تحرض الجماهير علينا تحريضًا صريحًا تهيج مشاعر الرأى العام! خاصة وأن القراء المهمين انصرفوا عن الجرائد القومية إلى الجرائد النفطية اللندنية ونشرات المعارضة!! فما معنى أن تكون صديقى وعدوى فى نفس الوقت؟!»

ـ هذه هى السياسة يا صاحبى! أنتم بالفعل خصومى السياسيين فى الواقع! ولسنا وحدنا، خصومكم الشعب كله فأنا إذن أقف فى صف الشعب! لقد رضى الشعب بالحرب وقدم أولاده ولف الحزام على بطنه جاع تعرى أهين فى المواصلات سكن فى المقابر كل ذلك فى سبيل الخلاص بالحرب فلما تحقق النصر ساءت الأوضاع واسودت عيشة الناس بدلاً من الرخاء المنتظر!! اشتعلت الأسعار عزت المساكن انعدمت السلع نضبت المرتبات والمهايا!! سنوات الضباب التى تذرع بها الرئيس لم تمطر بالذهب والفضة بل أمطرت البلاوى السوداء والعياذ بالله!! قيل السلام قرين الخير! فرضى باتفاقية السلام ودم أبنائه لم يجف بعد فإذا بالأوضاع تزداد سوءًا حتى أولادنا الذين كفونا مئونتهم بالعمل فى بلاد النفط أصبحوا يتعرضون للذل والهوان والطرد بسبب الاتفاقية!! حتى الذين رضوا بالذل والهوان هربًا مما هو أمر منه فى بلادهم خفضت أجورهم إلى أدنى حد عنوة واستقدارًا!! إن البلاد يا صاحبى تغلى غليانًا مخيفًا وأنت لا تدرى!! الفرق بينى وبينك أننى شوارعى أصيل استمرت علاقتى بنبض الشارع حتى وأنا فى رحلة فى الخارج أما أنت فاستمرأت النعيم!!»

تصور يا خال، بربش يقول هذا الكلام. عندئذ يا خال أيقنت أننا فى عصر التبجح البهلوانى المتقن، إذ يحق لبربش أن يفعل ما

فعل ويرتكب مـا ارتكب ضد الناس فى إدارته لشركـاتى ثم يقول مثل هذا الكلام الوطنى الحار!! هذا درس آخر مما تعلمته فى شغل السياسـة يا خال: أن تكون محبـوك الشخصيـة قادرًا على الإقناع بالكلام المسـبـوك فـهذا يكفـيك وافـعل خلف ذلك مـا تشـاء من الأفعال.

- ٣ -

كـان فرح سـمـاسم بنت بسـبوسـة - الذى أقـمناه فى فندق المريديان - على وشك الانتهاء حينما انزويت مع بسبوسة فى ركن قصى فى الاستراحة فوق مياه النيل، نستروح النسمات ونستنشق ذكريات الماضى الأليم. وإذا به يقول فى شىء من الزهو:

- «ضيوف بربش الليلة كانوا أضعاف ما توقعت!! الولد اتسعت علاقاته! كـان معه الليلة ناس مهـمون من سفارات العراق وليـبيا والجزائر ومنظمة التحرير الفلسطينية وتونس واليمن والسعودية! كُتّـاب وصحفـيون ودبلوماسـيون ومناضلون! رحبت بهم طبـعًا حينما قدمهم لى بالواحـد، ملأت موائدهم بزجاجات الويسكى من أرقى نوع بخـلاف ما أتى به بربش! جـلست معـهم بعض الوقت فاستكملوا حديثهم أمـامى! جننت! ليس هذا بربش الذى أعرفه! ما كل هذا الكلام الفـخيم الرنان؟ هذه الثـقة؟ هذه القـضايا الكبـيرة التى تكلم فـيهـا؟ لو رأيته لحظتـها يـخيل إليك أنه يسـعى لمنصب رئيس الجمهورية!! مجنون ويفعلـها!! فاجر! والله كان يتكلم كأنه المهدى المنتظر! المذهل أن ضيوفه كانوا يعاملونه هكذا!!»

- «ماذا كان يقول مثلا يا بسبوسة؟!»

- «أنت تعرف أننى لست مائى المزاج وإن كنت أشرب!! لكننى شربت الليلة بمعنى الكلمة فلعب الويسكى برأسى لولا أننى قرقشت ليمونة يخيل لى أنه كان يتكلم عن جريدة يومية باسم الفيضان تكون سياسية انتقادية حادة! وتكلم عن شىء اسمه الميليشيات! لم أعرف معنى الكلمة ولكن ربطها بالعمل الفدائى جعلنى أفهم أنها ربما كانت تعنى الفدائيين المقاتلين! وأن يديرها بنفسه متصديًا بها لفرق التيارات المتطرفة يصفيها جسديًا قبل استفحال خطرها الزاحف بقوة! وأشياء من هذا القبيل! وأظنه تكلم أيضًا عن حزب سياسى سيتقدم بطلب لإنشائه بعد أن يجمع النصاب القانونى من الأعضاء سيسميه باسم الجريدة: الفيضان! فيضان الخير فيضان الغضب فيضان النيل كله داخل فى بعضه كما قال!! يبدو أن الولد قد ركبه جنون العظمة بعد أن شبع وعمل القرشين!! لا تستهن به على كل حال!! ابنه من زوجته القديمة - وهو طالب فى الجامعة - عنده سيارة بى إم دبليو! مثل سيارة زوجته الجديدة!! أما زوجته القديمة فسيارتها بيجو ٥٠٤، لابنته الطالبة بدبلوم التجارة سيارة فيات ١٢٨!! اللهم لا حسد ولكنه بدأ يفجر فجورًا لامثيل له وعلينا أن نحذر منه كل الحذر! لا نخسره وفى نفس الوقت لا نأمن جانبه!!».

- «ربنا يعمل ما فيه الطيب يا بسبوسة! ربنا يهديه فأنا فى الواقع لا أستغنى عنه أبدًا وأنت تعرف مدى ارتباطى بكم جميعًا فأنتم أهلى وناسى!»

- «أنا لا أطعن فيه لعلمك! ولا أوقع بينه وبينك فأنا أيضًا أحبه وهو قطعة عزيزة من حياتى إنما أقول ما لاحظته عليه! ولأننى مخلص لك وله فإننى يجب أن أقول لك إنك لن تستفيد منه الكثير بعد الآن فى شغل السياسة! لقد بدأ عصره الآن!! هو لعب فى السياسة من خلالك! لبس وجهك وثيابك حتى حقق ما كان يتمناه أصبح يوصف برجل الأعمال المصرى الكبير أصبحت له شعبية فى النادى الأهلى ويرشح نفسه لمجلس الإدراة فينجح ويتزوج من نجمة سينمائية صاعدة ويقنعها بالتخلى عن طموحها السينمائى من أجله!! هو الآن يشتغل فى السياسة لحسابه! باسمه! بوجهه! ولسوف ينجح بالتأكيد!!»

- «وما العمل فى رأيك يا بسبوسة؟!»

- «أنت لا تزال الأقوى طبعًا بحكم موقعك فى السياسة فى الحزب الحاكم ومركزك المالى الضخم! ولا أظن أنه سيصارعك فى يوم من الأيام لأنه يحبك من جهة! ومن جهة أخرى فإن حزبه لن يصل إلى الحكم أبدًا لأنه مجرد أنقاض عهد مضى وكرهه الناس كرهًا شديدًا! كل ما فى الأمر أن بعض الأذكياء من أمثال بربش يمكن أن يقفوا فوق هذه الأنقاض فيحققوا مكاسب شخصية كبيرة!!»

ـ «ما رأيك يا بسبوسة لو أننى فضضت جميع شركاتى أرحت نفسى من وجع الدماغ وهاجرت إلى بلد أوربى أقضى فيه بقية عمرى بعيدًا عن المخاوف أربى عيالى تربية راقية وأعيش عيشة راقية؟»

ـ «تكون جننت بالفعل!! إياك أن تفكر فى هذا مجرد التفكير! إن الرأسماليين المصريين المتجنسين بالجنسية الأمريكية بدأوا يتوافدون اليوم على مصر لإنشاء المشاريع الاستثمارية المربحة! فجأة تذكروا مصريتهم التى تركوها أيام الحرب غرقانة فى الوحل وعادوا الآن يتمسحون فيها يظهرون فى برامج التليفزيون يقولون كلامًا يرفع ضغط الدم من كثرة النفاق والزيف والكذب: جئت لأخدم بلدى الحبيبة مصر العزيزة فى القلب.. إلخ!! الأحرى بالواحد منهم أن يقول: جئت لأنهب وأستغل فأنا أولى من الغريب!! ماضيك كله فى التجارة والاستثمار كوم والأيام القادمة كوم آخر!! المكسب الحقيقى سيبدأ!! القطاع العام سيتم بيعه لا محالة لأن معظم أعضاء مجلس الشعب والوزراء من كبار الرأسماليين وأصحاب المشاريع والحزب الوطنى كله كما تعلم ضد القطاع العام ومجانية التعليم ومكاسب العمال والفلاحين وتحالف قوى الشعب العاملة؟! أكبر تناقض فى حياتنا السياسية الآن هو أن الحزب الحاكم يحكم باسم ثورة ٢٣ يوليو وهو نفسه الذى يقوم بتدميرها ومحو آثارها من الوجود!! ذهب عصر حكومة العمال والفلاحين وانقضى عصر حكومة المهندسين وعصر حكومة التجاريين المحاسبين وبدأ عصر حكومة رجال

الأعمال! وتجىء أنت بسلامتك لتفكر فى الإنسحاب؟ ما الذى أصابك فى عقلك يا رجل؟! توقف نهر الفلوس؟!»

ـ «بصراحة يا بسبوسة أصبحت أخشى التيار المتطرف! أسلوب الخطف والاغتيال والتفجير قد بدأ وعيونهم الآن على كل من أيد الاتفاقية أو سافر إلى إسرائيل مع الرئيس!! أنت بنفسك نقلت لى أخبارًا سرية تقول إن إيران والسعودية ينفقان أموالاً طائلة على التيار الإسلامى لخلخلة النظام المصرى وتعجيزه كى يصل الإخوان المسلمون إلى الحكم فإما أن يكون التيار الموالى لإيران هو الأقوى فتكون مصر ممرًا لإيران إلى السيطرة على السعودية! وإما أن يكون التيار الموالى للسعودية هو الأقوى فتكون مصر سلاحًا فى يد السعودية لضرب إيران وتبقى هى زعيمة العالم الاسلامى الكبير!!»

ـ «لعلك تذكر أن بربش شرح لنا ساعتها أن ذلك سيبقى مجرد حلم تسعى إليه الدولتان وهو غير قابل للتحقيق بسهولة وإن ظل مصدرًا للقلاقل! إن أوربا التى تستنزف الآن بترول البلاد! وأمريكا التى تدلل السعودية وتبغدد الخليج لتضمن حراسًا أمناء على مصالحهم فى المنطقة بدلاً من الشاه وحتى تصبح إسرائيل قوية بالدرجة الكافية!! هؤلاء لن يتركوا لا السعودية ولا إيران ولا الباكستان ولا حتى مصر تقيم إمبراطورية إسلامية تنازعها وتهدد أمنها بعد أن تخلص العالم من الإمبراطورية العثمانية!! وإذا

كانت أمريكا تركز جهودها الآن للقضاء على الاتحاد السوفييتى كى تستقل هى بحكم العالم فإنها ليست من الغباء بحيث تسمح للتيار الإسلامى بأن يصل إلى أبعد من الحدود التى رسمتها له!! إنه هو الآخر سلاح فى يدها تلعب به فى المنطقة من بعيد لبعيد ولكنها عند اللزوم يمكن أن تدكه دكًا!! هذا ما شرحه بربش وإنى أتذكره جيدًا!»

كان بربش قد انصرف مع ضيوفه إلى حيث يستأنفون السهرة فى صحارى سيتى؛ وهندى وغزولى تطوعا باقتياد سياراتنا مزوقة بالورق الكريشة للمشاركة فى موكب توصيل العروس إلى شقتها التى احتجزناها فى واحدة من عماراتى الفاخرة فى مدينة نصر كهدية مجانية لها وكسرًا لعين عريسها ضابط الشرطة، فيما جلست أنا وبسبوسة نشرب القهوة فى انتظار ولد الفرطوس بالسيارات. وكنت أهز رأسى بالتحية لكل من يفوت علينا ملقيًا السلام، كأننى أحد نجوم السينما يلاطفنى الكثيرون بل إن بعضهم يصر على أن يبعث لى فنجان قهوة على حسابه، بصراحة يا خال كرهت بربش لحظتها لأنه أضر بهذه الناس وأطعمهم الفراخ الفاسدة وطعام الكلاب باسم شركاتى. عاد حب القاهرة يلعلع فى قلبى؛ قلت لنفسى: كيف طاوعك قلبك على التفكير فى الرحيل بعيدًا عن هذه العزوة الدافئة لتعيش فى بلاد لا يعرفك فيها أحد؟.

واستدرك بسبوسة:

ـ «على فكرة! الناس تلوم أنور السادات لأنه أفرج عن الإخوان المسلمين وترك لأشبالهم حرية العمل فى الجامعة فانقلبوا عليه!! قيل إنه أراد أن يلعب بهذه الورقة لكسب شعبية دينية كبيرة من ناحية وليخلصوه من الشيوعيين والناصريين من جهة أخرى فخانه الحظ فى هذه الورقة لأن من يربى وحشًا لابد أن يستدير عليه!! وأنت بنفسك شفت محاورة السادات مع عمر التلمسانى ساعة أن دعا عليه التلمسانى على الملأ فى الجلسة قائلاً بالفم المليان: شكوتك لله! وشفنا فى التليفزيون أنور السادات وهو مرعوب من هذه الشكوى ويطلب من التلمسانى سحبها فلا يسحبها فكأنه أهدر دمه بين القبائل المتطرفة وها هم يتآمرون عليه علنا!! بصراحة لا تدخل دماغى فكرة الديمقراطية هذه! وفى ظنى أن السادات أفرج عن الإخوان نتيجة ضغط عليه من جهة معينة زينت له فكرة الحصول على الشعبية الدينية! الله أعلم أن تكون هذه الجهة هى السعودية أو أمريكا! المهم الآن أنه خلق لنفسه عدوًا ليس سهلاً! فالإخوان بينهم وبين ثورة يوليو تار بايت! وهم أصحاب العمل السياسى المسلح طول عمرهم! وكل هذه التنظيمات الشبابية الجديدة من أبنائهم وتحت توجيههم ومخططاتهم يسخرونهم لتمهيد الطريق حتى تظهر الرءوس الكبيرة فى الوقت المناسب! إنه تنظيم دولى خطير يمتلك بدلاً من سيف المعز وذهبه كل السيوف وكل الذهب بل يمتلك المعز نفسه!!»

- «هذه التنظيمات الشبابيـة هى ما أخشاه على نفسى وأولادى يا بسبـوسة يا خـوى! خاصة أن تصـرفات بربش وشـركائه فى شركاتى سـوأت سمعتى!! المسـئولية مسـئوليتى طبعًـا لأنى كان يجب أن أقطم رقـبـتـه من الأول لكنى بكل صـراحـة عـجـزت يا بسـبوسة! الـله وكيل يا بسـبوسـة! أنا أيضًا طمـعت فى المكسب الكبيـر! من ناحية أخـرى حسبـتها فـرأيت أننى حتى لو منعـتهم رسميًـا من التلاعب فى البضـائع فإنهم كانوا سيـفعلون ذلك من وراء ظهرى!! ضميرى يأكلنى يا بسبوسة ولا أدرى ماذا أفعل!»

- «على كل حال يـا حسن بك ما حـصل حصل وانتـهى الأمر! وعلى فكرة! الشعب المصرى أسرع شعب ينسى الإساءة ويغفرها! أنظر حواليك فى أى مكان فى مصر! فى مكان كهذا مثلاً! تجد على الأقل عشرة رجال ممن كانوا سياسيين ذات يوم من وزراء وحكام سقونا المر أشكالاً وألوانًا بل وقتلـوا منا المئات باعونا للذى يسوى والذى لا يسوى بتـراب الفلوس، وها هم كما تراهم يبـرطعون فى البلاد بالطول وبالعـرض يعيشـون عيشـة الملوك! هل تعرض لهم أحد؟ هل انتقم منهم أحد؟ أبدًا وشرفك!! الكثـيرون منهم سيبقون فى هذه الأيام سوف يظهرون من جـديد فى صورة ملائكة أطهار جاءوا لإنقاذ الشعب من أزماته الاقتصادية!! يا حسن بك ضع فى بطنك بطيخة صيفى وضع ضـميرك هذا فى الثلاجة! وعند اللزوم إذا وضعك أمـام المساءلة فأنت لا دخـل لك فيمـا حدث لأنك لست المدير المسئول إنما أنت صاحب مال فحسب!!»

- «صدقت يا بسبوسة يا خـوى ولكن التسفيح فى تزايد!! إننا أصبحنا نبـيع الشقة التمليك بمائة ضعف مـا تكلفته وهى مع ذلك مجرد حجـرة واحدة قسمنا مساحتهـا على ثلاث حجرات وصالة وعفشة مياه!! شفت بعـينى نوعية المونة وطريقة الكلفتة فى البناء والبخل بوضع أساس متين مع أن الأرض رخوة! فى ظنى أن هذه العمائر لن تعمر أكثر من عشر سنوات على أحسن الفروض!! إننى مرعوب يا بسبوسة يا خـوى! الله نجانى من لبخة المواد الغذائية أما هذه العمائر المبنية على قشر بيض فلا أظن أن الله ينجينا منها بسهولة!! الكوابيـس بدأت تطلع لى فى الليل وبربش يخطط لحزب الفيضان!!»

- «صدقنـى إن كل شىء سيـمضى فى سـلام كما يحـدث فى مصـر دائمًا!! لا أحـد ينتبـه لشـىء مما يدور فى ذهنك! الناس فى لهو يا حسن بك!!»

- «لا بك ولا زفت! الواحد مـا عاد قادرًا على الاسـتمتـاع بهذه البكوية! جئـت لنفسى بالوجع المؤلم حتى فـى الرقاد! فى الماضى كنت أفرح بأنى وجدت شيئًا طلبتـه ولو كان صغيرًا! اليوم كل ما لا أطلبه تحت أمرى لعلنى أطلبه فى حين أنى لم أعد أطلب شيئًا لم أعد استلذ شيئًا حتى هذه القـصور التى أمتلكها فى عواصم عالمية كبـيرة أراها مـوحشـة ولا أطيق البقـاء فى واحد منـها أكثـر من أسبوع!!»

- «أولادك يا رجل سوف يستمتعون بها قريبًا وسوف تتلقى دعواتهم بغزارة!!»

- «لا أظن يا بسبوسة يا خوى! إن من يولد ويرى كل شيء ميسرًا حوله لن يشعر بالامتنان والشكر لأحد!! لا يشعر بالامتنان مطلقًا إلا من كان فى احتياج لشيء وعثر على من عاونه فى تحقيقه أو حققه له!! أما المولود بغير احتياجات على الإطلاق فإنه لو شكر الله يكون عملة نادرة!!»

- «هل أنت فى هذه الحالة منذ وقت طويل؟!»

- «تصور يا بسبوسة يا خوى أن أقرب الناس لى هزانى وقاطعنى بسبب نشاط شركاتى؟! أنت تقول:الناس فى لهو ولا احد يدرى شيئًا! غير صحيح يا بو العم! إن شقيقتى وصديق عمرى سيحا دمى فما بالك بالغريب؟!»

- «هذا هو السبب إذن!! قل هذا من الصبح وخلصنى يا رجل! المسألة كلها أنك أخذت على خاطرك من سوء تفاهم حصل بينك وبين أختك وصديقك! صعبت عليك نفسك فوصلتك إلى الحال التى أنت فيها! هذه هى الفولة! ما رأيك إذن فى كاسين من الويسكى؟! على الأقل مجاملة لى فى فرح ابنتى أخرج عن عادتك مرة واحدة الليلة! جرب الويسكى ربما اكتشفته أحسن من الحشيش والأفيون وأحسن من البودرة التى ابتلى الله بها كل من فى يده فلوس!!»

- «كفانا الله شر البودرة! وهذا على فكرة مما يطمئن بسبوسة! لو كانت فلوسى هذه حرام لابتلانى الله بشم البودرة مثل كل من أعرفهم فى سوق المال والتجارة ورأيى يا بو العم أن فلوسهم حرام فى حرام ولهذا سلط الله عليهم هذا البلاء ليخرب بيوتهم أولاً بأول ويكتب عليهم العرى والفضيحة فاللهم استرها يارب!!»

- «طب علىَّ الطلاق أنت محتاج لكاسين!! بسْ! بسْ! يا متر! إتنين دوبل هنا من فضلك تبع الفرح! فيه قزايز جوه تبعنا ليلتك فل يا بو على!!»

- «إخز الشيطان يا بسبوسة!»

- «إخزه أنت! جرب وستدعو لى بالستر بعدها! ستعرف أنك من حين لآخر يجب أن تدواى نفسك بكاسين لكى تجدد مشاعرك وأفكارك! سوف تحب قصور أوربا ونسوان أوربا! هل جربتهن؟!»

- «أعوذ بالله!»

- «يا رجل شوف لك شوية عيال العب معاهم! الغنى لمثلك حرام! ما فائدة العز إن لم تستمع به؟! غير دمك! غير العتب! غير النفس! غير السرير وقميص النوم والعطر والملاءات! غير الأحضان يا بقف يا مقفول! ليس من الضرورى أن يكون ذلك فى الحرام! تزوج! اليوم ظهر فى بلادنا شيء اسمه زواج المتعة! فماذا تنتظر؟ حتى يضمك التراب؟! مثلك ليس له راحة إلا فى الهموم

والمشاكل والأزمات وإن لم توجد أوجدها لنفسه بنفسه!! أرح نفسك واستمتع!!»

بعد الكأس الأولى يا بوى بدأ كلام بسبوسة فى هذا الاتجاه يحلو فى نظرى. وحين نسيت عدد الكئوس كان كلام بسبوسة قد أحيانى بالفعل يا خال، جدد نشاطى ونفسيتى وضعنى فى حالة اهتياج لم أعهدها فى حياتى من قبل. كدت أعض بنان الندم على ما فات من العمر بغير استمتاع كنت قادرًا عليه؛ شعرت كأن الرغبة الجامحة تكاد تأخذنى من لحظتى إلى مطار القاهرة لأكمل بقية الليل فى الطريق إلى سويسرا أو باريس أو روما. فى آخر الليل أقبلت على زوجى بشهية أذهلتها، فلما تشممت رائحة فمى دفعتنى بعيدًا عنها، وانزوت إلى بعيد تبكى وتندب حظها العاثر، فنكدت على بقية الليل يا خال.

- ٤ -

عقد السادات لقاءًا فى النادى السياسى مع أعضاء اللجنة المركزية وأعضاء الهيئة البرلمانية. كان من المفروض أنه سيناقش معنا خطة الحزب فى النهوض بالاقتصاد المصرى، ورأى الحزب فى أداء تجربة القطاع العام. لكننى من لحظة ما جلس بيننا، أيقنت من منظره وشروده أنه يخفى توتراً عصبياً شديداً وإن بدا انه بارد الأعصاب هادىء البال..

كان مشتت الأفكار ياخال، يوأوأ كثيراً حتى يعثر على الكلمة المناسبة؛ يقفز من فكرة إلى فكرة، ومن موضوع إلى موضوع كفرس النبى، يمزج بين أزمنة ماضية وأخرى حاضرة وقادمة، بلا تركيز، يستعيدك السؤال مرتين ليعطى نفسه فرصة تجميع الإجابة..

لاحظت أنه كثيراً ما يتلفت حواليه فى شىء من الاسترابة، يتفحص كل من يدخل أو يهم بالخروج، بعين ممدودة كالمثقاب؛ يكاد ينتفض خوفاً إذا سمع طرقعة مفاجئة أو انكسار كوب فى

البوفيه البعيد. لحظتئذ يا خال أيقنت أن السادات لم يكن فى حاجة لاجتماع مباحثات ومناقشات، بل كان فى حاجة لدفء الجماعة الكبيرة الموالية له، ليشعر معها بشىء من الأمان. لهذا قد انقلب الاجتماع إلى دردشة تتخللها نكات مصطنعة سقيمة لا تضحك ومع ذلك تجد من يضحك فى صخب.

وزير الداخلية كان حاضراً بالطبع سمعته يطمئن السادات بان «هؤلاء الأولاد» ليسوا سوى مجموعة شراذم لا وزن لها ولا أهمية، وأنه إذا كان قد وفقه الله فى تشريد عصابات الشيوعية من لابسى قميص عبد الناصر فإنه بالأحرى قادر على قطع دابر هذه الجماعات المتطرفة بإذن الله. أما ذلك الضابط العسكرى المدعو بعبود الزمر فإنه بات على بعد خطوات من الفخ المنصوب لاصطياده. فعلى السادات أن يقر عينًا ويهدأ بالا من ناحية الأمن الداخلى، لأن «هؤلاء الأولاد» إن كانوا نارًا فلن يحرقوا مطرحهم. ثم راح يتكلم عن ذلك التنظيم الجديد المسمى بتنظيم الجهاد وكيف أنه لعب عيال فى لعب عيال، ولسوف يلقنهم درسًا لا ينسى..

السادات يتابعه بهزات من رأسه، وقد ارتسم على وجهه شىء شبيه بما يظهر على وجه أى أب يبد الإعجاب بشجاعة ابنه رغم يقينه بأنها مجرد حماسة مرتفعة وكان من المفروض أن الرئيس سيلقى خطابًا يشرح فيه ظروف الحالة الأمنية التى اضطرته للقبض على عدد هائل من العناصر الدينية المتطرفة، من كبار

الكتاب والصحفيين أمثال محمد حسنين هيكل صفيه القديم ومرشده إلى الكثير من القرارات المهمة؛ ومنهم ذلك الشيخ السكندرى المدعو بالمحلاوى الذى اتخذ من أحد المساجد السكندرية مقرًا لوعظه السياسى صار يواصل هجومه على أنور السادات والحكومة الكافرة التى تبيع البلاد وتتصالح مع العدو. البلد ياخال فى حالة غليان وفوران حتى فاضت المياه المغلية واندلقت: خطباء بألسنة طويلة يندون بجميع المصريين المحدثين، صحف المعارضة الحزبية كلها استحلت اللعبة الديمقراطية المزعومة وهات يا شتائم من أعنف وأقذع ما سمعت فى حياتى؛ الجامعات فى حالة اضطرابات أشد عنفًا وشراسة حيث تغولت الجماعات الإسلامية سيطرت على اتحادات الطلاب صادرت كل الأنشطة الثقافية والفنية دخلت فى حوار وحشى بالسنج والجنازير والمطاوى فرضت سلطتها بالقوة الجبرية على الطالبات. الناس فى الشوارع غاية فى السخط يا بوى وكأن حالة الرواج المادى التى أحدثتها قوانين الانفتاح وما تبعها من جريان المال فى كثير من القنوات التى كانت بعيدة عن المصبات من قبل قد أيقظت الغالبية العظمى على أحقيتها فى المال الكثير السايب كغيرها من الفئات القريبة من الأنهار والمصبات المالية. ثم إن الفلوس كثرت أى نعم ولكنها رخصت يا بوى قلت قيمتها، فطالب المال فى طلب مستمر لا يتوقف، والفقير فى فقر مستمر ينزل به إلى قاع القاع بدون رحمة. حدث انقلاب مروع فى المجتمع، القوالب نامت والأنصاص

قامت؛ من يستحقون العيش الكريم داسهم المجتمع ونكلت بهم الأسعار والطبقات الطالعة؛ ومن يستحقون الحرق والرمى فى القمامة أصبحوا بفضل النهب والسرقة ملوكًا وأباطرة يكفى أنا يا خال والشلة الوسخة، شف ماذا كنا وكيف أصبحنا. غير أننا فى نهاية الأمر اشتغلنا وتعبنا وفكرنا وبعنا أشياء محدودة؛ الدور والباقى على من تاجروا فى أوهام وباعوا لنا الهواء والشمس وربحوا من خيانة الوطن بالانضمام إلى قافلة النفط المعادية. وكما قال لى بربش ذات يوم قريب: سقطت كل الهيبات على الإطلاق بفعل هذه القافلة النفطية التى سربت جراثيم أمراضها وإحنها الحضارية إلى لفيف من مثقفى مصر فصاروا ـ تحت ستار زائف من البحث العلمى والدراسات الأدبية والتاريخية المغرضة ـ يشوهون كل القيم الوطنية الجميلة، حتى فوجئنا ذات يوم بأن جميع زعماء مصر ورجالاتها من كبار المفكرين والسياسيين والكتاب خونة وعملاء شواذ وتافهون ونمور من ورق. سارت هذه الموجة وعمت وأصابت حتى الذين حركوها واستفادوا منها لبعض الوقت بالذين شوهوا آباءهم ورموزهم لن يكونوا إلا شائهين. جبلة الجراثيم التفشى، وهكذا انحطت قيمة العرب جميعًا سقطت هيبتهم فمرغت اسرائيل كرامتهم فى الوحل أدخلتهم جحور العز والفخفخة الكاذبة محبوسة فى مخزن طعام شهى. صرنا فى عصر الصبية؛ وها هو ذا السادات يتلقى تهديداً مباشراً من أحدهم تمكن من الهرب من الجيش والكمون فى مأمن.

كل هذه الخواطر دارت فى ذهنى ياخال وأنا منزو فى ركن مهمل من اجتماع النادى السياسى. وكنت أشعر أن الله قد أمسك بقلبى وصار يهزه كأنما يقول لى: أفق يا هذا وعد كما كنت مجرد مواطن يكسب لقمة عيشه بشرف! اسمع نصيحة أختك الشيخة سعادة فهى أقرب إلىَّ منك أيها الضال المارق! أنتما من دم واحد فكيف صلحت هى وفسدت أنت؟! ألم تسمع قراءتها للورق فتتعظ كما اتعظت هى؟! إن الطريق للتوبة مفتوح أمامك فدعك من هؤلاء وعد إلىَّ فأنا الذى يحميك ويرفعك وليس بين البشر قوة تعادل قوتى وهؤلاء الذين تحتمى فيهم أضعف منك!!..

انتفضت يا خال مرتعش الأوصال. نظرت حولى؛ كان وزير الداخلية ماثلاً فى ناظرى أكثر من غيره. طب ما قولك يا خال أنه رغم مظهر القوة والثقة والصلابة؛ ورغم مظاهر القوة المسلحة التى أحاطت بالنادى السياسى إحاطة السوار للمعصم وامتدت ذيولها وتفرعت إلى جميع النواصى والتقاطعات؛ رغم كل ذلك بدا لى أخوف من جرذ..

عدم المؤاخذة أنا أصيع واحد فى المجتمعين كلهم أعرف حقيقة شعور الممسك بالمطواة؛ من نظرة واحدة فى عينيه أعرف إن كان سيضرب بها حقًا أم أنه مجرد هواش أونطجى. الوزير كان يغطى خوفه بقناع سميك من اللامبالاة والثقة الزائدة عن الحد يا بوى؛ مما جعلنى ـ ربك والحق ـ أصير أشد منه خوفًا يصل إلى حد

الارتعاد رغم ربع قرش الأفيون الخام الذى استحلبته قبل المجيء إلى هنا من أجل التطامن وهدوء الأعصاب. شعرت بالهول يا بوى. قال صوت فى أعماقى لعله صوت الشيخة سعادة: أنت وأمثالك سبة فى جبين النظام السياسى الساداتى! أنتم من أقوى الأسباب التى عجلت بهذه الفورة العنيفة التى كانت نتيجة متوقعة لمن يقرأ الأوضاع جيدًا. وقال صوت لعله صوتى: لو أن السادات كان جادًا فى إقامة نظام سياسى وطنى طاهر حقًا لطهر بلاده من أمثالنا فهل هذه هى غلطته السياسية الخطيرة؟ فرد عليه صوت يشبه صوت بربش: ولكن هذه هى العناصر التى التفت حوله ومكنته من الاستقرار واستتباب الكرسى فأمثالنا هم الصواميل والمسامير التى أحكمت متانة المقاعد المستتبة كلها فهل رأى السادات خيرًا منا ولم يقبل؟ فتسلل صوت كصوت بسبوسة على شيء من الخبث يقول: ولماذا لا تقول إن هذه العناصر هى التى عرف السادات كيف يتواءم معها من وقت بعيد؟ ولم لا تقول إن ميوله الشخصية موالية لهذه الفئات الحوتية المطبوعة على النهم والرغبة فى الثراء السريع السهل؟.

اختلطت الأصوات التى تطلع من صدرى بالأصوات التى تصخب فى الاجتماع. بدا لى الاجتماع يا خال كاجتماع أسرة ذات عزوة وصيت وأبهة لكنها من عتاة قطاع الطرق وقد اجتمعت لتبحث موضوع أمنها الشخصى وهى تعرف مقدمًا أن مصالحها

تتعارض مع مصالح بقية العائلات وأن هذه العائلات من حقها أن تثور وتغضب وتهدد لكن أن تتعدى هذه الأسر حدودها فقد وجب أن تلقن درسًا قاسيًا وعاجلاً. راح كل من يضع نفسه فى مقام الأخ الأكبر يشحن كبير العائلة بعبارات حماسية هوجاء تستجلب سخطه وغضبه على المتطاولين من أبناء هاتيك الأسر وتحرضه على إنقاذ هيبة العائلة ببالغ السرعة وبكل قوة وحزم حاجة تهوس يا بوى..

العجيب يا بوى، إن الرجل قد تسرب إليه شيء من الاطمئنان. يظهر يا خال أن هذا الجمع الملتف حوله ينهش فى لحم المشكلة قد أحال المشكلة إلى هيكل عظمى متفتت، فخف حملها عن الرجل، فإذا به قد خفت توتراته العصبية التى جاء بها، قلت استجابته للأصوات المفاجئة الصاخبة، بدأ يرى من حواليه كأفراد؛ بدأ اتصال عينيه بالأفراد يذكره بملاطفات كانت غائبة، وتحيات كانت واجبة، لمحات كانت خافية. نحى الغليون أشعل سيجارة خفيفة، رشف من فنجان القهوة رشفة، ركز بصره على وجهى ثم ابتسم، لمعت فى عينيه نظرة من عثر على شيء كان غائبًا عن ذهنه رغم أهميته؛ فإذا به يعتدل فى جلسته ناظرًا لى فى إمعان:

- «ما أخبارك يا حسن؟ لعلك بخير!!»

- «الحمد لله يا سيادة الرئيس! طالما حضرتك بخير فأنا فى أسعد حال! إن شاء الله منصور على الدوام! إن النصر من صفاتك! وإن ينصركم الله فلا غالب لكم!!».

شار إلى جواره:

- «تعال هنا! أريدك فى أمر!»

- «انتفضت واقفًا والجميع ينظر لى فى حسد وغبطة؛ فإذا بالذى كان جالسًا بجواره يتطوع بالقيام متخليًا عن مقعده لأجلس عليه: فلما جلست مائلاً برأسى فى اتجاه وجهه الذى مال نحوى قليلاً، وضع يده فوق يدى الموضوعة على مسند الكرسى، ثم همس فى كثير جدًا من الخبث:

- «قيل لى إنك تعرف تلك العرافة التى اسمها الشيخة سعادة! أظن أنكما بلديات أو أقارب!»

أسقط فى يدى يا بوى؛ فالسؤال يلخبط اللخبطان خاصة أنه مفاجىء. ترددت قليلاً نكست رأسى فى الأرض مرددًا كأنى أحاول التذكر:

- «الشيخة سعادة! الشيخة سعادة!!»

فازداد ضغط يده على يدى، فنظرت إليه؛ فإذا فى عينيه نظرة أذهلتنى والله يا بوى. تحلف اليمين يا خال كأنها تنطق قائلة: «جرى إيه يا ابن ...؟! نعم الشيخة سعادة التى نعرفها معًا أم أنك تستعبط على؟! ففى الحال هتفت بصوت خفيض:

- «نعم! أعرفها إننا بالفعل بلديات لكنى لم أرها منذ وقت طويل!!»

- «أنا محتاج إليها!! رح لها برسالة منى قل لها إننى أوافق على أن تقابلنى فى أسرع وقت!! قل لها إن سيادة الرئيس يطلبك فى خدمة ضرورية فلابد أن تجىء!!»

صرت أكتم الرعشة من خوف جديد غامض:

- «ولكن! أنا دائمًا كنت أقابلها صدفة! هنا فى القاهرة عند أحد أصدقائى وكانت أحيانًا تحضر فجاة إلى بيتى وسيادة المحافظ يعرف عنوانها فى أسيوط وهى يمكن أن تجىء بالأمر»

- «لا يا حسن! مثلها لا يمتثل للأوامر! فيجب أن نعاملها برقة! لقد أرسلنا لاستدعائها بالفعل ولكن اتضح أن شقتها فى أسيوط يسكنها الآن ناس غيرها يقولون إنها عزلت إلى مكان آخر لا يعرفونه!!»

وقع قلبى يا خال؛ فهذه معلومة جديدة تشى بكثير من التطورات الجديدة فى حياة الشيخة سعادة. قلت:

- «هذا يزيد مهمتى صعوبة يا سيادة الرئيس!»

قال بلهجة أمر حاسمة لكنها مغلفة بالود:

- «تصرف يا حسن! هذه مهمتك تنفذها من بكرة إن شاء الله! لابد أن أهل دائرتك يمدونك بأخبار عنها!! وجودها الآن ضرورى بالنسبة لى!! لابد أن تاتى بها من تحت طقاطيق الأرض! اتفقنا»

- «أمرك يا سيادة الرئيس!»

ثم شعرت فى الحال يا خال كأننى صرت جالسًا فى العراء تتخطفنى الرياح من جميع الجهات. زحف نحوى شبح رعب غامض مقبض للقلب يا خال، وانزاح كل الصخب من حولى، ليحل محله فى أدنى صوت كصوت صفير البوم فى بيوت خربة مهجورة ليلتها يا خال ظللت حتى الصباح أقلب جميع الأمور على وجوهها، أتوقع احتمالات يقف لها شعر الرأس، ومفاجآت تسقط من عنقها الحبلى. صرحت لزوجى بكل شىء فقالت:

ـ افعل ما أمرك به! هاتها له من تحت الأرض! فمن يدرى؟ ربما كان محتاجًا لها بالفعل فى هذه المحنة؟ وربما تكون هذه المهمة سببًا فى انصلاح العلاقة بينك وبين أختك فالظفر لا يخرج من اللحم بسهولة والدم ليس ماء!!»

أراحنى هذا الكلام بعض الشىء يا خال. من صبيحة ربنا ركبت سيارة من سياراتى القوية المعدة لمثل هذه المشاوير؛ واتكلت على الله وحدى وليس فى صحبتى سوى حارسى الخاص هندى، على سبيل التحوط والونس. ولم أكن فى قرارة نفسى مستريحًا لهذا المشوار يا خال.

ـ ٥ ـ

وصلت إلى أسيوط فى أذان الظهر بالضبط، فصليت فى جامع سيدى جلال، اتخذت طريقى إلى شقة الشيخة سعادة فى عمارة حديثة البناء فى أعماق الحقول. استقبلنى فى أول وصلة الطريق الداخلة إلى العمارة رجل ممسك بمسبحة وملتح يلبس جلبابًا أبيض قصيرًا، صار يمد خطوه ليسابق زحف السيارة البطىء. لم أعره التفاتًا، حتى وصلت إلى باب العمارة، فنزلت من السيارة تاركًا هندى فيها فلما هممت بدخول العمارة اعترضنى ذلك الرجل ولكن فى شىء من الرقة والدماثة:

ـ «تريد مَن حضرتك؟!»

أزحته برفق ومودة وابتسام، وواصلت الدخول، بدأت أصعد السلم قائلاً فى غير صلف:

ـ «هذه عمارتنا يا أبا الحاج: أنا المالك وأختى هنا فى الدور الثالث!»

ـ «يا مرحب! و لكن من تكون أختك إن شاء الله؟!»

اغتظت، لكننى لم أشأ الصدام من أول الطريق قلت فى مزيد من الرقة:

ـ «ليس من حقك هذا السؤال وقد عرفتك بنفسى فأنا الذى يجب أن أسألك من تكون حضرتك؟!»

ـ «أنا من السكان! أقوم بدور البواب هنا مؤقتًا! عينتنى صاحبة العمارة»

ـ «الشيخة سعادة عينتك؟! منذ متى؟!»

ـ «الشيخة سعادة تبرعت بالعمارة كلها لجمعية السنة المحمدية! هى على كل حال لم تعد تقيم هنا منذ شهور طويلة!! وجمعية السنة المحمدية تقوم بتأجير العمارة لطلبة الجامعة المغتربين نظير أجر رمزى كمساعدة لهم فى طلب العلم!!»

وكان قد جعل يرافقنى فى الصعود خطوة بخطوة كانه يشوف آخرتها معى، إلى أن توقفت أمام باب الشقة وطرقت بابها برفق. فإذا به يقول:

ـ «يا سعادة البيه العمارة كلها يسكنها طلبة فى حالهم أبناء ناس غلابة مجتهدين فى العلم لا شأن لهم بالسياسة!!»

ارتعبت، لكننى قلت:

ـ «وأنا مثلهم بالضبط لا شأن لى بالسياسة إنما جئت لزيارة أختى التى لم أرها من وقت طويل لأنى كنت فى سفر فى الخارج!!»

جعل يعيد النظر فى ملامحى بتدقيق شديد، ولاحظت أن مشاعر الاسترابة قد بدأت تزايل وجهه شيئًا فشيئًا.

فازدادت ابتسامته تحفظًا وتحسبًا. قال برقة دافئة:

ـ «ملامحك بالفعل قريبة منها! الدم واحد على كل حال! تدويرة الفم! العينان! طول الرقبة! لكنك أسمر منها وأطول قليلا! صوتك فيه نفس نبرات صوتها ولكن على رجالى! يمكننى أن أصدق أنك شقيقها أو ابن عمها!!»

ـ «أنت تعرفها جيدًا إذن!!»

ثم طرقت الباب بعصبية. فقال:

ـ «مساها الله بالخير! صاحبة أيادى بيضاء علينا كلنا! ربنا يكرم أصلها!!»

ـ «الله يكرمك! فلماذا تعترض طريقى؟!»

وطرقت الباب بعصبية أشد. فإذا به يتقدم بينى وبين الباب قائلاً فى تهدئة:

«لا عليك فلن يفتحوا لك! لهم عذرهم يا سعادة البيه فالبوليس لا يترك لهم فرصة للمذاكرة! كل يوم والثانى يهجم على العمارة يفتشها ركنًا ركنًا! ويأخذ بعض الولد للتحرى ثم يتركهم! هؤلاء ولد غلابة عندهم امتحانات! وعلى كل حال لن يفتحوا إلا على خبطاتى أنا!!»

ويظهر يا خال أنه رأى الغضب فى عينى، فعالجنى بهزة من يده فى الهواء قائلا:

- «سأثبت لك!!»

ثم طرق الباب بعقلة بنصره مرة ثم مرتين متتاليتين ثم ألحقهما بثالثة منغمة بعدها جاءنا صوت واهن متوجس بعد نحنحة:

- «من بالباب؟!»

- «أنا البواب! إفتح يا خالد!»

إنفتح الباب نصف فتحة، ظهر شاب فى حوالى الثانية والعشرين من العمر، ملتح، يلبس نفس الجلباب الأبيض القصير، ملامحه غلبانة جدا، من الواضح أنه من طلبة الأرياف المجتهدين بتفان وسهر، شاحب الوجه قليلا، أسمر البشرة كالرغيف المحروق، بعينين حادتين فيهما قليل من العدوان وكثير من التحدى، طويل القامة ناشف العود، جعل يصب على وجهى النظرات القلقة المستطلعة. أشار البواب نحوى قائلا:

- «يقول إنه شقيق الشيخة سعادة!!»

برقت نظرات الشاب واختفى منها العدوان فى الحال، تغيرت ملامحه إلى مسحة من الترحيب الشجاع هتف:

- «آه! أهلا وسهلا! حضرتك عضو مجلس الشعب! أعرفك! رأيت صورك فى الصحف كثيرًا! تابعت أخبارك لكننى لم أكن أعلم أنك شقيق للشيخة سعادة! تفضل على كل حال!!»

وسّع فتحة الباب، وأومأ للبواب المزعوم أن ينصرف، فتلكأ هذا قليلا ثم انصرف..

العفش والفرش هو نفسه كما رأيته آخر مرة زرت فيها الشيخة هنا. نفس الأنتريه فى مدخل الصالة، وترابيزة السفرة بكراسيها ونيشها الملئ بالأطباق فى نهاية الصالة تحت الشباك المطل على المزارع. حجرة الصالون هى الأخرى كما هى، مفتوحة على كراسيها المذهبة ذات التاج المرتفع، وسجادتها، وعلى حوائطها سور قرآنية على لوحات مبروزة، كل ما أصاب الحجرة من تغيير أن أضيف إلى أرضها بعض الوسائد، وثمة ملتح ينام مستغرقًا على ظهره كميت يتنفس، فلما عوجت رقبتى قليلا تبين أنهم ثلاثة بين الكراسى، كلهم ملتحون بجلابيب بيضاء قصيرة، لكنهم غليظو الوجوه والملامح ولحاهم أطول وأغزر من أن تستريح لها العين يا بوى، أقدامهم خشنة متشققة الكعوب، الطُرقة المؤدية إلى المطبخ والحمام وغرفة النوم منظرها كئيب يفح منها الظلام أرضها مبطشة بآثار الأقدام؛ رائحة النوم والعرق الزنخة والسجاير تملأ الشقة. ليس ثمة من كتب أو كشاكيل أو أية أدوات تدل على أنهم يذاكرون بالفعل، اللهم إلا مثلث كبير من الخشب

ومسطرة طويلة، وعدد هائل من الصحف والمجلات وكتاب تلبيس إبليس، وكتاب الفقه على المذاهب الأربعة، مصحف بتفسير الجلالين..

فتحت الشباك على مصراعيه طلبًا لتجديد الهواء.

قال الشاب:

ـ «راحت علينا نومة! تعبنا جدا مساء أمس وأول أمس فى قسم الشرطة! يصرون على أن لنا صلة بالجماعات الإرهابية المتطرفة مع أنهم يعرفون جيدًا أن جمعيتنا لا شأن لها بالإرهاب أو بالسياسة إنما نحن أهل ذكر وعبادة وصلاح! بهدلونا من التفتيش عن عبود الزمر وغيره!!»

ألهمنى الله الفطنة، فنافقته قائلا فى غضب متقن الصنع:

ـ «حكومة تستحق الحرق! وبوليس يستحق قطع رقبته! ماذا يريدون من عبود الزمر وأمثاله؟! والله وبعقد الهاء لو كان الله يحب هذه البلد أعطاها كثيرين من أمثال عبود الزمر الشجعان! إن مستقبل الإسلام فى خطر وهو أمانة فى عنق أمثالكم من الشباب الناهض! نريد أن نعيد مجد الإسلام! ولكى نعيده لابد أن يكون عندنا أمثال عمر بن الخطاب وأبى بكر وطارق بن زياد وخالد بن الوليد الأبطال المقاتلين! لابد من رفع السيف فى وجه الطاغوت طالما أن المعارضة بالقول لم تعد تفيد الطغيان يتفشى!! الانحلال

يستشرى وكلمه لا إله إلا الله مهددة بالانقراض!! اسمع يا بنى! حلفتك بالله وقرآنه وسنة رسوله إن كنت تعرف شيئًا عن الزمر أو غيره فلا تتفوه به حتى لو قطعوك إربًا!! نحن لا نساعد الحكومة على ضربنا! لقد اخترنا صف الله ومن وقف فى حزب الله لا يضام لا ينكسر! اللهم وفقنا جميعًا لما فيه خير للإسلام!!»

ويظهر يا خال أننى كنت أعنى ما أقوله بالفعل وليس مجرد تمثيل. وقف الشاب وقد عادت إليه بوادر من تلقائيته:

ـ «أعمل لحضرتك الشاى!»

ـ «وماله!»

خطا نحو الطرقة. استوقفته:

ـ «لو سمحت! كانت هنا صورة مبروزة بالحجم الكبير لأبى وعمى الشيخ أحمد! هل أخذتها الشيخة سعادة؟!»

طرقع الشاب بأصبعيه وقد ظهر عليه الاطمئنان إلى أننى أعرف الشقة جيدًا. قال:

ـ «بالضبط! أرسلت مرسالا منذ أيام قليلة بطلبها فأعطيناها له! إن الشيخة بمثابة أم لنا جميعًا! تنفق علينا من تبرعاتها التى لاتنفد! كما ترى تترك لنا الشقة لنقيم فيها بالمجان! إنها سيدة عظيمة من عظماء مصر الآن!!»

ـ «أنتم طلبة فى الجامعة طبعا!»

ـ «أنا خالد فى كلية الهندسة! ومعى وائل وهمام فى كلية الطب! وياسر فى كلية أصول الدين! وطلعت فى كلية الصيدلة! وسهير فى كلية الصيدلة أيضًا!!».

ـ «فتاة تعيش معكم هنا؟!»

ـ «هى زوجة طلعت! تزوجا حديثا! ولذلك أمرت أمنا الشيخة سعادة بأن نترك لهما حجرة نوم الشيخة! هما الآن نائمان فيها! أما نحن فننام فى أى مكان هنا كما ترى!!»

أخرجت محفظتى الكبيرة، سحبت منها رزمة فلوس، عددت منها ثلاثمائة جنيه، ذهبت بها للشاب:

ـ «أنا أخ كبير لكم! بما أننى شقيق الشيخة سعادة فأنا بمثابة خالكم! حالتى ميسورة والحمد لله كما تعرف! هذا المبلغ هدية منى لتعاونكم على شظف العيش! أنتم ستة أفراد فلكل واحد منكم خمسون جنيها! وإن شاء الله سأترك لك عنوانى فى القاهرة لتطلب منى أية مساعدة تحتاجها!!»

بُهت الولد يا خال، طاف بنظراته الذاهلة على كل أنحاء جسدى كمن يرى كائنا أسطوريا غريبا. وقبل أن يفتح فمه بكلمة اقتربت منه ودسست المبلغ فى جيب صدره. لحظتها قال:

ـ «الآن فقط اقتنعت بأنك شقيق ماما سعادة! نفس روح العطاء! نفس نبرة الدفء فى صوتها!!»

ـ «لا تشكرنى! فهذه النفحة من باب الله جاءت لأبناء الله! ففى ميزانيتى بند ثابت لأعمال البر والخير! بفضل الله بنيت أكثر من مسجد ومستوصف ومستشفى!!»

ـ «أعرف الكثير من هذه المعلومات! كلنا نقرأ الصحف جيدا ونفليها!! ماما سعادة أيضًا كلمتنا عنك كثيرا بمناسبة تحقيق صحفى معك يوم افتتاح مستوصف الدِّراسة بجهودك الذاتية!! لكن ماما سعادة بصراحة لم تقل إنك شقيقها لكننى أتذكر الآن أن حماسها كان يقول ذلك!!»

ـ «أنا يا بو العم شقيقها الشقيق لحما ودمًا أما وأبًا! كل ما فى الأمر أن ماما سعادة ذات كبرياء عظيم! لا تحب أن يظن الناس أنها تتمسح فى شقيقها! بل تحب أن يحترمها الناس لشخصها! تكره المظاهر! على فكرة! آخر مرة زرتها هنا كان البوتاجاز خربًا وكانت تنوى إصلاحه لكننى اقترحت عليها تغييره بطراز أحدث!!»

هتف فى مرح واطمئنان:

ـ «بالضبط! اشترت بالفعل واحدًا جديدًا لكن من نفس الطراز! تركته لنا وأخذت القديم تصلحه لنفسها! إنها لا تطمع فى شىء أبدًا!! إنها أم بمعنى الكلمة! هى التى زوجت صديقنا من صديقتنا على سنة الله ورسوله! هى تعول ما لا يقل عن ألفين من الطلاب تدفع لبعضهم مصاريف التعليم وحتى الدروس الخصوصية ولا شرط لها إلا أن يكونوا أعضاء فى جمعية الكتاب والسنة!! إن

الجميع حتى الأكبر منها سنًا يقولون لها يا ماما عن اقتناع حقيقى! يقبلون يدها! منهم عيال على ثقافة عالية إذا قالت للواحد منهم إرم نفسك فى البحر فلن يجعلها تكررها قبل أن يفعل!! إن فى ماما سحرًا لا يستطيع أحد مقاومته مهما كان جامد القلب لابد أن يخر صريعًا أمامها!! أعرف عيالاً فلاسفة متبحرين فى علوم الدين حين يتناقشون معها يكتشفون أنهم بجوارها لاشىء مع أنها لم تستق العلم من كتب!! ماذا أقول لك! نحن هنا فى أسيوط كلها نسميها أم المؤمنين! بعضنا يسميها أميرة المؤمنين وإنها لأميرة بالفعل! والله يا أستاذ لو أنها حكمت البلاد لجعلت البر المصرى قبلة المسلمين قاطبة!!».

زحفت معه تلقائيًا حتى وصلنا إلى المطبخ، فرأيته كما كان لم يتغير باستثناء البوتاجاز الجديد، إلا أن منظر الحلل والأوانى والأكواب القذرة كان مثيرًا للقرف كريه الرائحة.

مع ذلك وقفت بجواره واضعًا إحدى يدى فى جيب السروال، ممسكًا المسبحة بالأخرى، وفيما يغسل الأكواب ويضع البراد فوق النار استدرك متذكرًا:

ـ «ولكن منذ متى لم تر ماما سعادة؟!»

ـ «منذ شهور طويلة! أنت لست غريبًا الآن! بل أنت فى مقام ابنى طالما أن أختى بمثابة أم لك! لقد حدث بيننا سوء تفاهم بسيط! هى كانت محقة حينما طلبت منى أن أصفى بعض

شركاتى لأنها غير راضية عنها وأصرت على ذلك لكنى ترددت فهذه الشركات تفتح بيوتًا كثيرة! المهم يا بو العم غضبت هى ومشت! فتركتها حتى تروق وتتصل بى فلم تتصل! فأخذت على خاطرى منها ولم أتصل! إلى أن راقت نفسيتى اقتنعت بكلامها فنفذته أرسلت لها تلغرافًا بذلك لتحضر فرجع التلغراف! فأرسلت مرسالاً من رجالى فلم يستدل على عنوانها فجئت بنفسى لأصالحها فصدمت بخبر عدم وجودها! فإن كنت تعرف مقرها الجديد فإنها سوف تشكرك شكرًا كبيرًا إن دللتنى عليه!!»

راح يصب الشاى مقطبًا فى تفكير عميق، ثم نظر فى عينى نظرة ذات معنى وهو يلقى بورقة الاختبار الأخيرة قائلا فى شىء من المراوغة:

ـ «هى فى الواقع لم تأخذ مقرًا جديدًا!! هى رجعت إلى مقرها القديم!!»

ـ «فى الجبل؟!»

فى الحال انبسطت ملامحه، أشرق وجهه ببسمة عريضة مطمئنة:

ـ «أنت فعلا تعرف كل شىء عنها!!»

ـ «قل لى: هل تزوجت هليل أم لا؟!»

أشرق وجهه:

ـ «يا..ه! تعرف هليل أيضا؟!»

- «أعرف هليل؟! إنه صديق عمرى الوحيد!! فى حياتى كلها لا أعوض صداقته!!»

- «هو الآن أمير كبير! هو الآخر عملة نادرة فى هذا الزمان! يا..ه! هليل!»

- «أمير على من؟!»

- «علينا كلنا! جماعتنا!!»

- «ما شاء الله.. ما شاء الله! هو يستاهل! طول عمره أبيض القلب مؤمن نقى الإيمان! يده مبروكة تخر ذهبًا!! اللهم قربنى من مكانته عندك يا رب!!»

- «بالضبط يا أستاذ! هذا هو الشيخ هليل بكل دقة! لخصته حضرتك فى كلمة! هو فعلا مبروك! يوم يوزع علينا اللحم فى عشوة يشبع الجميع ويفيض مهما كانت الكمية قليلة! المشاريع التى يقيمها بفلوس الجمعية تتضاعف فى كل ساعة وبالحلال!!»

- «المهم هل تزوج ماما سعادة أم لا؟!»

- «لا مع الأسف!! اقتنع كلاهما بأنه منذور من يومه لخدمة الطريق!! كل منهما أزهد من الآخر فى متع الدنيا كل منهما مع ذلك يحب الآخر حبًا جنونيًا لكن حب الله والإسلام عندهما أكبر وأجلّ من أن ينشغل الإنسان عنه بحب آخر دنيوى! أو بمتعة أخرى غير متعة الانتصار على الشهوات!!»

- «هى إذن تقيم الآن فى الجبل؟!»

- «تعرف المقر طبعًا!»

- «طبعًا! رحته مئات المرات!!»

- «أنت تقصد قصر الجبل العتيق! ببستانه الفسيح! ومسجده المحندق!!»

- «طبعا هو ما أقصده!»

- «هذا الذى تقصده هو مقر الشيخ هليل الآن! تركته ماما له! البستان الآن منذور لمن يريد التدريب من الشباب يقيم فيه تحت رعاية هليل إقامة دائمة لا ينعى للدنيا هم أكل أو شرب أو كساء أو دواء!!»

- «التدريب على ماذا عدم المؤاخذة؟!»

- «على! على المجاهدة! جهاد النفس والرياضة النفسية والبدنية! وذكر الله فى خلوة!!»

- «ذكر الله موجود فى البستان طول عمره! ماما سعادة كانت تأوى وتعول الكثيرين من مجاهدى الأمة الإسلامية!!»

- «الآن أصبح البستان مملكة ثانية! حاجة تفرح القلب حقًا! مئات من الشبان المتعلم وغير المتعلم ممن أفاقوا من الغفلة على يدى ماما! خريجو جامعة أطباء ومهندسون وضباط جيش وكيميائيون زهدوا فى وظائف الحكومة واحتقروا العلم الدنيوى

فمسحوه من عقولهم واتجهوا إلى العلم الدينى الآلهى يستنبطونه من الحياة من القرآن من الحديث الشريف من السنة المحمدية من الآيات البينات فى الكون!! هناك أيضا شباب ممن لم يكملوا تعليمهم عن رغبة وممن لم يتعلموا أصلا! حرفيون عمال نجارون خياطون فلاحون كلهم تمت هدايتهم للسنة المحمدية خلصت نيتهم للتبليغ والدعوة!! اللهم قربنى منهم! أمنيتى أن أكتسب قوتهم فأهزم نفسى الأمارة بالسوء أذهب لأعيش بينهم فى هذه الجنة الحقيقية لعل الله يتقبل منى يسامحنى فى ذنوبى أيام جاهليتى! لكن كل شىء بأوان! الشيخ هليل هو الذى سيحدد لى متى أكون أهلاً للانتقال إلى البستان والصمود فيه بقوة لا تتزعزع!!»

- «ربنا يا ولدى يبلغك ما تتمنى! اللهم اهدنا جميعا إلى ما فيه الخير والصواب!»

ثم إن دموعى تفجرت من فرط الروع يا خال، انثالت بغزارة هائلة حتى أغرقت ياقة القميص ورباط العنق ولم أكن أعرف علام أبكى بالضبط فعمرى ما بكيت هكذا يا خال.

بكائى كان عنيفًا صامتًا، مما أثر فى الولد تأثيرًا شديدًا، بل تألقت الدموع فى عينيه يا خال، صار يقول بصوت مرتعش النبرات:

- «صلى على النبى يا أستاذ! لا داعى لهذا!»

- «ما يبكينى أننى لن أستطيع رؤيتها وقلبى ينفطر عليها! روحى ستطلع من أجلها!! ذمة ودين يا ولدى لو كنت تتصل بها فى وقت قريب قل لها إنى أخشى أن أموت قبل أن أراها!!».

هتف فى شجاعة عظيمة:

- «ومن قال إنك لن تراها؟! ستراها بإذن الله! أعرف أننى أرتكب مغامرة حمقاء! غير مضمونة العواقب من كل النواحى! لكننى سأتحمل المسئولية لأننى اقتنعت بصدقك تماما ومن أول لحظة لولا ذلك ما صرحت بكل ما صرحت! إن أى معتوه ينظر فى عينيك بالذات لابد أن يعرف صلتك الوثيقة بماما!! لا تظن أنى عبيط أو مغفل!!»

- «لا سمح الله يا ولدى! لن أنسى لك هذا الجميل وهى أيضًا لن تنساه!»

- «معك سيارة طبعا!»

- «طبعا!»

- «انحلت المشكلة!!»

- «لا تؤاخذنى يا ولدى! المشتاق متعجل دائمًا!! فاقدالصبر! فلو لحقنا وقتنا مبكرًا يكون أفضل!»

- «اهدأ وأرح أعصابك على الآخر فالأمر يلزمه ترتيب! سنفعل كل شىء حالا فاطمئن!»

حمل كوبى الشاى فى يديه، تقدمنى إلى الردهة وأنا وراءه كطفل تعيس شقى. ترك الكوبين على المنضدة مطرقعا أصابعه من شدة اللسع:

ـ «بعد إذنك دقيقة واحدة!!»

اختفى فى الغرفة الداخلية المجاورة لغرفة النوم، وكانت معدة فى الأصل كغرفة للمسافرين وللمعيشة معها.. ما إن رشفت بعض الرشفات وأشعلت سيجارة حتى رأيته مقبلا وقد ارتدى قميصًا افرنجيا وسروالاً من الجينز الملطخ بالعرق والوسخ.

سحب من تحت المجلات كراسة (بلوك نوت) كبيرة، وقلمًا من الرصاص..انخرط فى الكتابة بسرعة شديدة.. كتب أكثر من صفحتين، نزعهما من الكراسة رشقهما بدبوس إبرة فى الستارة الفاصلة بين الطرقة والردهة مرددًا:

ـ «كتبت خط سيرى لزملائى حتى لا يقلقوا!!»

بخفقة قلب صادقة وجدتنى أعترض بانفعال شديد:

ـ «خطر يا ولدى عليكم! ما دام البوليس ينط هنا كل ساعة والثانية! ورقة كهذه ربما جعلتهم يتشككون فى سيركم وسلوككم! انزعها يا ولدى! وعود نفسك على الحرص الشديد طالما أنكم مستهدفون من الحكومة!!»

أومأ برأسه علامة أنه يعرف كل هذا، أضاف:

ـ «من يقرأها لم يفهم منها أى شىء يدعو لأى استرابة! أنا أقول لهم جاء أخى الأكبر من القاهرة وذهبنا سويًا لرؤية أمى فى البلد ربما أتأخر! قلت لهم أيضًا إن أخى أقرضنى مبلغًا قدره كذا تركته لكم على رخامة المطبخ لتشتروا طعامًا كثيرًا للثلاجة الفارغة! كلام عادى لا يحتمل أى لبس!!».

أيقنت يا خال أننى أمام عيال لا يستهان بهم على الإطلاق، وإنهم ليسوا مجرد محبين للسُنة المحمدية، لا يا خال إنهم أكثر وأكبر من مجرد هذا الغرض. إن وراءهم لترتيبًا وتدريبًا وأهدافًا جد خطيرة..

ما إن رآنى هندى حتى نزل من السيارة مقدما طقوس الاستقبال المتبعة. وكان البواب المزعوم قد ارتكن على حافة نافذة السيارة وراح يتبادل حديثا وديا ودودًا تتخلله الضحكات. جرى هندى مهرولا، فتح الباب لى فدخلت إلى مقعد القيادة، ثم استدار بنفس الحفاوة والاحترام ففتح الباب المجاور لسيده الجديد، الذى تقدم فركب بجوارى، فأغلق هندى الباب وركب فى المقعد الخلفى متأهبًا لكى ينقض من الخلف على هذا الرجل بمجرد إبداء بادرة عدوان تجاهى، كسكست إلى الوراء قليلا، ثم اعتدلت على الوصلة. فلما صرت فى الطريق الزراعى قال مرافقى:

ـ «خلنا فى طريق الغنايم!»

قلت: طيب. ونزعت من الخرطوشة الموضوعة أمامى علبة سجائر مددتها له:

ـ «ولع! خلها معك!»

أخذها مرددًا:

ـ«متى يتوب الله علىّ منها؟! إنها من الأسباب التى تحول بينى وبين البستان! شرط البستان أن أبطل كل المكيفات لا أتعلق بشئ يكون سببًا فى أن أضعف أمامه!!»

فتح العلبة وأشعل منها ثلاثة وزعها علينا، صرنا ندخن والسيارة تهدهدنا على الطريق الزراعى.

- ٦ -

عمرى ما تصورت يا خال أننى يمكن أن أتوه فى الجبل.

ويظهر يا خال أن هذه الخصلة تنتاب كل من يكون على اتصال بهذا الجبل مدمن للتجوال بين دروبه ومسالكه.

إذ يتوهم أنه قد أصبح خبيرًا به وبشعابه ومنعطفاته السرية، هؤلاء سرعان ما يهزأ بهم الجبل، هذا المكان السحرى الكبير، إذ يبقى دائمًا أبدا أكبر من كل الكائنات المتطفلة عليه، يحتويها فى جوفه البعيد فلا يظهر له ثمة من أثر..

وأنت يا خال تستطيع أن تمضى فى الجبل رائحا غاديا ليل نهار، أو تنظر إليه من طائرة هليوكبتر مثلا تمسحه بنظراتك ونظارتك المعظمة كيفما شئت، فتتيقن بالدليل البصرى أن الجبل خال تماما من كافة السكان لأنك لا ترى شيئًا إلا الوحشة ودروب الظلام والسفوح والوديان الملساء.. فى حين أن الجبل يشغى بكائنات لا يشملها حصر، وتقوم فيه حيوات أشد نشاطا وحيوية مما فى المدائن والقرى..

الواقع أن ميزة الجبل يا خال لا تتمثل فى دروبه ووديانه ومغاراته ودرواته الكثيرة الآمنة، ولا فى كونه متاهة تعطل المطاردين وهم يتعقبون المطاريد، فحسب إنما تتمثل ميزته الكبرى فى أنه خيمة من الصخور تحجب طرقا وبلاداً تقوم تحت بطن الأرض وتتصل ببعضها وبخارجها فى سهولة وسلاسة.

نعم يا خال، فتحت الجبل طرق كاملة ووديان وممرات سرية وسراديب لا يمكن اكتشافها إلا صدفة، أو السيطرة عليها إلا صدفة أيضا.. هذا كما قلت آنفًا لا يكون إلا من شغل الفراعين قاهرى الصخور والموت والفيضانات..

كنا قد تركنا السيارة على الطريق الزراعى فى مدخل الغنايم ومشينا ـ حسب رغبة الولد ـ مشية من يستروح نسمات العصارى. منظرى كان قد تغير بطبيعة الحال منذ سنوات لدرجة أن الكثيرين ممن كانوا يعرفوننى من قبل بالعمة والجلباب لم يعد من الممكن أن يعرفوننى بالبذلة الفاخرة والشعر المصفف والنظارة الريبان ذات الإطار الذهبى. ولأن الجبل يلتحم بالأرض كثيرا فى التحامات خادعة، تتصور معها أنك لا تزال بعيدا عن الجبل فى حين أنك فى الواقع تمشى فوقه وأن هذه البقاع الزراعية هى الجزء الذى كان مغمورا منه دائمًا تحت الفيضانات المتكررة فاكتسب خصوبة فسرعان ما حوله الأهالى إلى أرض زراعية وتملكوها؛ فإننى ظللت لمسافة طويلة أتوهم أننا بعيدون عن الجبل. قلت لمرافقى بلهجة ودودة حانية:

ـ «هل تعرف الجبل جيدًا يا خالد؟!»

ابتسم ابتسامة ذات معنى:

ـ «أنا من ديروط الشريف! عمى من مشاهير المطاريد أنت تعرفه وهو يعرفك! حكى لنا كثيرا عن أيام شقاوتك وأنت صبى!! تظن أن الأجيال الجديدة لا تعرف ماضيك الحافل؟ بالعكس! الكثيرون من جيلى يعرفونك جيدا ومنهم من يراك مثله الأعلى فى النجاح!! منهم من يراك أسطورة من أساطير النجاح الساحق فى الصعايدة المحدثين!! حتى الذين يدينونك بعض الإدانات السياسية والسلوكية يفعلون ذلك من باب الاحترام أيضًا!! عمى هو محمود بخيت الذى وقف بجوارك فى المعركة الانتخابية الأولى دون أن تدرى به شيئًا!! قد كبر فى السن! بفضل الله تمكنت ماما سعادة من هدايته! هو الآن من أكبر مساعديها فى استعمار الجبل! طبعا أنا أقصد كلمة الاستعمار بمعناها الأصلى لا بمعنى الاحتلال!! إن ماما تقوم الآن فعلا بتعمير الجبل والنفوس معا!!».

ـ «ما أظن يا خالد يا ولدى أننا جئنا لنتفسح وسط الحقول ونحكى الذكريات! الوقت يسرقنا خل بالك! وأخشى على السيارة وحدها فى الطريق!!».

ـ «السيارة فى أمان! لن يجرؤ مخلوق عفريت على الاقتراب منها! لأن هذه الأرض ملك لستنا الشيخة اشترتها وأوقفت ريعها على خدمة شباب الإسلام!! أنت الآن فى مسكن ستنا الشيخة

بالضبط وها نحن فى الطريق إليها فلا تكن عجولا فالأمر لو تدرى شائك وخطير!!».

لاح لنا على القرب كوخ مبنى بالطوب الأحمر مسقوف بالخشب والبوص، من تلك الأكواخ التى تقام لخفارة ماكينات المياه. صرنا نقترب منه؛ دخلناه. هو بالفعل هكذا، ماكينة المياه موجودة وشغالة، بجوارها خفير فى حوالى الخمسين من عمره، متغضن الملامح ذابل العينين من فرط السهر والإرهاق، نظراته متلبكة بكتل من العماص اللزج. كان متربعا على حشية مستطيلة من الخيش المحشو بالقش، بجواره مخدة وبطانية وبندقية وخريطة ملآنة بالذخيرة، ووابور جاز وعدة شاى، وحلة وسلة خبز..

ـ «سلام عليكم يا عم القط!»

هكذا قال مرافقى وهو يدلف داخلا ويشير لنا بالدخول أكثر فاقتربنا من الفرشة. رمقنا الرجل بكثير من التوجس المتزن ثم نهض واقفا:

ـ «عليكم السلام ورحمة الله وبركاته!»

سلم علينا باليد:

ـ «يا مرحب! تفضلوا»

وانزاح عن الحشية موسعا لنا. قال مرافقى:

ـ «فلنتربع!»

تربعنا بالفعل. تذكرت فى الحال أيام أبى وخفارته الطويلة لمثل هذه الماكينة وكيف كنت أبيت معه فى كوخ كهذا بالضبط إن لم يكن هو نفسه، ونستقبل المطاريد فى الليل الحالك نقدم لهم الأكل والشاى، توجه الخفير إلى وابور الجاز فسحبه وأعطاه نفسا. عاجله مرافقى:

ـ «اترك هذا الأمر لى واخطف رجلك إلى أمى! قل لها: خالد كلية الهندسة ابن بيتك فى أسيوط قد حضر برسالة فحواها كما يلى: أخوك حسن يبلغك أنه قد تاب وأناب ونفذ لك شرطك عليه وجاء من القاهرة يطلب عفوك ويضع نفسه تحت أمرك من الآن فهل ترضين بمقابلته؟!»

تمعن الرجل فىّ أنا وهندى بتدقيق شديد كأنه يريد أن يعرينا من ثيابنا ليعرف ما تحتها. تردد قليلا، لكنه ترك الوابور ونهض واقفًا:

ـ «حاضر!».

ومضى، ثم ارتد فى الحال وأخذ البندقية والخريطة علقهما فى كتفيه، ومشى بخطو بطىء متمهل. راقبناه وهو يبتعد، منحرفًا فى طريقه نحو الغرب قليلا، حيث يوجد كوخ آخر مشابه تماما لما نجلس فيه. تذكرت أننى كثيرا ما انزعجت من هذا الكوخ فى طفولتى، فقد كان مصدر رعب لا ينتهى؛ إذ هو مغلق منذ سنوات بعيدة جدا، تسكنه العفاريت والشياطين وأرواح القتلى من كل

المطاريد. قيل إن كثيرين دخلوه فلم يخرجوا منه مطلقا؛ وأن إحدى النساء اللعوبات كانت تلتقى بعشيقها فيه؛ وذات ليلة راقبها زوجها فتبعها خطوة بخطوة حتى فتحت باب الكوخ ودخلت؛ كانت تفصله عن الباب خطوات قليلة قطعها على مهله ليضمن ضبط زوجه متلبسة بأحضان عشيقها؛ فلما فتح الباب ودخل لم يجد أحدًا على الإطلاق؛ أشعل علبة ثقاب كاملة عودًا وراء عود، لف جميع أركان الكوخ، لم يجد أحدًا؛ رجع إلى داره فلم يجد زوجه فهى إذن لم ترجع؛ فظل طول الليل يهذى؛ ثم استمر الهذيان إلى أن أدى به إلى العباسية لأن زوجه لم تعد حتى الآن.

كان مرافقى وهو يشعل الوابور ويغسل عدة الشاى يفتعل كلامًا كثيرًا لم أركز الانتباه عليه لانشغالى فى مراقبة خط سير الخفير، وكان يتصنع الإتيان بإبريق الماء من ركنه البعيد فيستكمل الكلام واقفا؛ مما أشعرنى بأنه يحتجز بصرى عن مراقبة الخفير. لكننى أوهمته بأنى معه ونظراتى تخالسه وتخطف خطوات الخفير أخرج من جيبه مفتاحًا فتح به قفلا كبيرًا على الباب، ثم فتح الباب ودخل، وأغلقه من الداخل..

شربنا الشاى ثلاثة أدوار. دخنا كومة هائلة من السجائر. قمت لأصلى العصر الذى فاتنى، فانضم الاثنان ورائى: مرافقى وهندى. صلينا عصرين، فأربع ركعات لله، فأربع أخرى لكى يوفق الخفير فى مشواره، فأربع لكى يعود بسرعة، لكنه لم يعد،

وازداد اصفرار الشمس واغمق لون الخضرة فى الأرض؛ حتى تخيلت أن الأساطير المشاعة عن هذا الكوخ لا تزال قائمة وأنها حقيقية. قلت هذا لخالد على سبيل التسرية عن نفسى ولتبرير ما اعتورنى من قلق ممض. فقال الولد إن الطريق طويلة وليست سهلة كما أتصور..

فى اللحظة التى فقدت فيها الأمل يا خال، لحظة الغسق، واختناق الشمس على صليب الأفق فوجئت بالخفير يدخل منهكًا لاهثًا:

- «تقول لك هاته وتعال!!»

فانتفضت واقفًا يا خال. كأننى تلقيت أمرًا بالإفراج بعد سجن طويل. نهض خالد:

- «أنت وحدك عدم المؤاخذة!!»

- «طبعا يا ولدى! هندى هو حارسى الخصوصى وسوف يبقى هنا فى انتظارى! هيا بنا!!».

وأشار خالد بأصابعه إشارة من يضغط على زر؛ فاستل الخفير من جيبه الداخلى كشافًا يعمل بالبطارية، سلمه له. فمضى خالد أمامى نحو الكوخ الذى كان الخفير قد دخله. كوخ الأساطير المرعبة يا خال.

- ٧ -

وجد القفل موضوعًا فى الرزة لكنه غير مقفل؛ رفعه فتح الباب ودخل. دخلت وراءه؛ وضع القفل فوق عرق خشب من العروق المثبت فوقها لوح الباب؛ ثم أغلق الباب من الداخل بالترباس، وأضاء الكشاف وسلمه لى. لم يكن فى الكوخ ثمة من أحد؛ اللهم إلا ماكينة مياه قديمة صدئة معطلة، والأرض من تحتها ناشعة بالزيت والشحم المتجلد..

لف خالد حول الماكينة، أزاحها كثيرًا؛ ثم تقرفص، سرب أصابعه فثبتها فى حافة بلاطة كبيرة أشبه بغطيان البالوعات. وبقوة انتفخت لها عروق رقبته رفع البلاطة حتى أوقفها على سيفها وقال لى:

- «انزل!!».

نظرت فى الفتحة التى ينبعث منها الظلام والمجهول المرعب، ترددت. قال بحسم قاطع:

- «انزل! لا تخف!!».

انحنيت ناظرًا فى أعماق الفتحة مسلطا ضوء الكشاف فى قلبها؛ فإذا هو بئر ساقية مبنى بالحجارة لكنه جاف تماما؛ فى الحوائط الأربع المتقابلة قضبان حديدية مثبتة فى الحجر وبارزة كالمساكات، وهى نفسها درجات نزول وطلوع قال:

- «انزل!!»

زررت السترة؛ وضعت رجلى السروال فى الجورب، نزلت، ليست هذه أول مرة أنزل فيها داخل بئر كهذا، فقد سبق ونزلت فى شبيه له أوصلنى إلى مقبرة العز التى يملكها الحاج أحمد نوار الدين السنى. جعلت أهبط درجة وراء درجة فى حرص وحذر، حتى وصلت إلى ما يشبه الأرض؛ فتوقفت؛ رأيت خالد يهبط ساحبا بكلتا يديه مقبض البلاطة التى راحت تميل فوق الفتحة شيئًا فشيئًا حتى غطت الفتحة، تبعها صوت شئ صلب يفر ثم يتك تكة مكتومة، كصوت الأكره الخشنة الفسدانة. قلت واجفا: ما هذا؟ قال إنه صوت الماكينة تعود إلى مكانها إذ إنها مثبتة فى البلاطة ببكرة وزنبرك خفى، تزيحها البلاطة وهى ترتفع، وتشدها لمكانها وهى تهبط ثانية: تكنولوچيا عتيقة يا خال فكر فيها الحفاة العراة من أهلنا. هكذا قال خالد وهو يتأبطنى آخذًا الكشاف منى. كنا فى قلب ما يشبه فسقية المقبرة، وهى عبارة عن صحن كبير مربع يجده النازل فى مواجهته بعد النزول مباشرة.

مشينا فيها يا خال. العجيب أنها كانت ممتلئة بالهواء ولا أدرى من أين أتاها يا خال. لففنا حول الجدار المواجه ثم مشينا فى

سرداب متعرج، أرضه مبلطة بالحجارة العريضة الجافة، طوله حوالى نصف كيلو متر، تتخلله على الجانبين فتحات مظلمة كأنها دواليب منحوتة فى الحائط الصخرى بأطوال وأعراض هندسية مدروسة، حوَّد بنا السرداب فجأة إلى الجنة. لا أجد وصفا آخر يا بوى، ما كل هذا السحر المذهل؟ أكاد أقع مغشيًا علىّ من فرط الذهول والمفاجأة الصادمة. لابد أن هذا هو الطريق الملكى فعلا: طريق عريض رصعت طاقاته على الجانبين بالشموع، آلاف الشموع المضيئة على امتداد نهاية البصر، الشموع وحدها تحتاج لفريق من العمال كل وظيفتهم إضاءة الشموع واستبدال الفاقد منها ليس هذا هو المدهش مع ذلك يا خال؛ فأى واحد فى مركز الشيخة سعادة وأهميتها يستطيع فعل هذا، ولكن ما ليس فى طاقة البشر، حتى فى عصر التكنولوجيا المتطورة، أن ينقش هذا الشارع الضخم على الجانبين بهذه النقوش ذات الألوان الزاهية الملعلطة ليس فحسب من أول الجدران لآخرها بل والسقف أيضا تحلف اليمين يا خال كأن هذه الألوان الزاهية خارجة لتوها من تحت يد النقاشين، رسوم، رجال ونساء بالزى الفرعونى البسيط الشبيه بملابس الإحرام، حيوانات، صقور وكباش وأغربة وسباع وعصافير ودجاج وثعابين وحيات، شموس وأقمار، أهرامات مثلثة ومدرجة، مفتاح الحياة بشكله القريب من شكل الصليب، يتخلل كل هذه الرسوم حروف هيروغليفية، نفس النقوش التى رأيتها كثيرًا فى كثير من المعابد الفرعونية الظاهرة فوق الأرض؛ غير أن

هذه التى تحت الأرض هربت من الزمن فقهرته نفته بعيدًا عنها فكأنها تولد كل يوم مرة. والله العظيم إنه لشئ يلحس المخ فعلا، تصور يا خال أننى بعد خطوات قليلة تبينت أن عشرات الآلاف من الشموع المضاءة لم تكن فى الواقع إلا عددًا قليلا جدا، وأنها قد ضوعفت إلى ملايين من أمثالها، لانعكاسها على السقف والحوائط اللامعة المصقولة كأنها المرآة؟! هل هو ما نسميه اليوم بالسيراميك أو الزليزلى؟ هل تم نقش هذه النقوش فوق الأرض ثم جئ بها لتركيبها فى حوائط وسقف هذا السرداب الصخرى العريض الممتد إلى ما لا نهاية ظاهرة؟! وسواء كان قد تم نقشه على قطع فوق الأرض أو على الحوائط نفسها والسقف فإن العمل فى الحالتين مستحيل يا خال؛ ليس لطول المسافة وعظم الشغل فحسب، بل كيف يتسنى لهم فعل هذا داخل سرداب مظلم بهذا الطول وهذا العرض إلا أن يكون أجدادنا قد عرفوا الكهرباء وسلطوا على مكان العمل أضواء ساطعة كالنهار؛ وحتى فى ظل الكهرباء فكيف يتم نقش الجدران والسقف هكذا دون أن تخلو عقلة أصبع واحدة من نقش وتلوين، بل كيف تم نقش السقف وحده يا خال؟ هل كان الفنان ينام على ظهره فوق سلم كبير ذى عجل ليتمكن من نقش السقف بهذه الرسوم الدقيقة؟ حاجة تهوس يا بوى..

الدواليب المنحوتة فى الحوائط بأطوال وأعراض موحدة، والطاقات الصغيرة، كلها مزدانة هى الأخرى بالنقوش

والألوان،وفى كل منهـا تمـثـال من الواضح أنه قـد تم نحـتـه فى الصخـر أولا ثم نحتت له هذه المقـصورة من حوله. تماثيل كـباش وصقور وثعالب وأعضاء تناسل رجـالية عظيمة الحجم، ومسلات. ما بين الشرفة والشرفة ما يقرب من نصف كيلو متر.

مـرقت بجـوارنا ظلال أجـسـام بشـريـة تماوجت على الأرض وانعكست فى لمعـان الحوائط والسـقف. كركـبت بطنى وأمعـائى؛ خيل لى أن التـماثيل تتـحرك، حيث يتـمخض عنهـا ناس يظهرون فجأة يقطعون الطريق علينا لابسين الجلاليب البيضاء والمسدسات فى أيديهم. صرخت من الرعب؛ فضحك خالد بل ضحكت الأشباح قال خالد:

ـ «لتوك شاعر بهم؟!»

ـ «بينى وبينك أشعـر بوجود أنفاس بشـرية من أول ما دخلنا لكنى لم أر أحدًا إلا الآن!»

ـ «كـأنك لم تر الذين كـانوا فى السـرداب المظلم؟! إنك بمجـرد نزولك من الفـتـحة مـرصـود بوضـوح خطوة خطوة! وهى خطة جهنمية مدروسة بحيث لا تمكنك من رؤية راصدك فى حين تمكنه من كشفك جيدا!! من يتـولون هذه المهمة مدربون على ترك النازل يمشى كـيف يشاء مـؤجلين الصدام به حتى يـصير فى الأعـماق البعيدة حيث يتم افتراسه إن كان غازيًا مهاجمًا أو احتواءه إن كان أخًا زائرًا؛ مع العلم بأنهم يعرفون مقدمًا من سيجئ ومن سيخرج..

تعبت من المشى يا خـال فبعـد ما يزيد على ثلاثة كيلو مـترات طلبت الجلوس قليلا فى إحدى هذه الشرفات. لكن خـالد قال إننا قـد وصلنا. ثم دخل بى فى شـرفـة على اليـمـين، تبـين لى بعـد دخولها أن حـائطها المنقوش وراء التمثال إنما هو جـدار صخرى، يراه المار فيظنـهـا مجـرد شرفة منحـوتة فى الحائط؛ فـإذا دخلها فوجئ بفراغ مستتر فى أحد صدغيها. مرقنا فى هذا الفراغ المظلم. ما كدنا نخطو حـتى انبعث ضوء كشاف آت من بعـيد مسلط على وجـهـينا؛ ثم تبـعـه كشـاف ثان من الجنـب؛ ثم ثالث من الجنب المقابل؛ ثم رابع من أعلى؛ فعرفـت أننا قد وصلنا إلى عرين الأسد، وسط ما يشبه ساحة عريضة يشرف عليها فى المواجهة درج سلم رخـامى كبـير، مـا إن وصلنا إليه حـتى تحول ضـوء الكشافـات فـاستـقـر على هذا الدرج؛ فـإذا بنا فى مدخل بـوابة مهـولة ذات واجـهـة منقوشـة الأعمـدة. دخلنا. الأرض مبلطة بالرخـام الملون، والشموع كثيرة فى ردهة مستطيلة على جانبيها عدة أبواب. ضوء وشـيش كلوب يأتى من البـاب الأخـيـر على اليـمـين فى الردهة. حودًنا إليه. دخلنا..

الشيـخة سعادة جـالسة فى صدر الغرفـة على كرسى ملوكى قـريب الشكل من السرير، بقـوائم ومـساند من الواضح أنهـا من الذهب. حـولهـا مـجـمـوعة مـن الرجـال والنسـاء كلهم يرتدون الجلاليب البـيضاء يجلسون على مـقاعد مشـابهة فوق سجاجيد ومصليات مفـروشة على الأرض. كان من الواضح أنهم فى خلوة

روحية عميقة؛ وكان ثمة من يتكلم فلما دخلنا كف عن الكلام ونظر فينا مستطلعًا..

سلام عليكم، فردوا السلام وهم جلوس. خيل لى أنهم تماثيل منحوتة هى الأخرى فى الصخر دبت فيها الروح قليلا. اخترقت الطريق إلى الشيخة مباشرة؛ ارتميت فى صدرها وهى جالسة؛ إندفعت فى البكاء يا خال، صرت أنتفض على صدرها وهى تربت فوق ظهرى قائلة:

ـ «ظاهرة غير مطمئنة! اجلس على كل حال!!».

نهض أحدهم تاركًا لى مقعده بجوارها. كان شابًا يافعًا ناضج الملامح. قال:

ـ «إسمحى لى يا أم»

التفتت إليه:

ـ «ستنصرف يا ناجح؟!».

ـ «حان وقت انصرافى فاعطنى الإذن!».

ـ «بسلامة الله!»

ومدت له يدها، فطبع على ظهرها قبلة، ثم قدم لها خديه، فطبعت فوقهما قبلتين أموميتين:

ـ «وفقك الله يا ناجح!»

مضى الولد خارجًا. نادته:

ـ «ناجح!».

فتوقف فى الباب مستديرًا إلينا. وهتفت به.

ـ «إذا لم تجد الظرف مناسبًا فارحل! وإذا التقاك أحد من صحابك عند الرحيل فأنت لست تعرفه ولا تود أن تعرفه!!».

ـ «فاهم يا أم!!»

ـ «فى رعاية الله!»

فاختفى، وساد الصمت برهة. قلت:

ـ «هل عطلتكم عن شئ؟!»

ـ «نعم! كان فضيلة الشيخ يلخص لنا فلسفة ابن تيمية فى معاملة الحاكم! اللهم قربنا منه فعلمه غزير وخيره وفير منير! بصره حديد ورأيه سديد!!».

ـ «إذن فأنا آسف!»

فلم تعلق، بل أشارت إلى ذلك الرجل.

ـ «تفضل يا مولانا أكمل حديثك!»

رفعت يدى بسرعة:

ـ «لا تؤاخذينى فقد...»

قاطعتنى:

- «ضيفك الآن فى الرعاية الكاملة! سـياكل ويشرب ويبيت فى أحـسن مكان! سـيارتك أيضًـا فى أمـان! أنت لكى تخـرج من هنا يلزمك وقت طويل! السكة سـالكة بإذن الله ولكنهـا طويلة طويلة فاهدأ واتركنـا الآن نكمل هذا الغرض الملح! نسـتقبل علمًـا كنا فى حاجة إليه منذ وقت طويل لكى نسلك سلوك المسلمـين الحقيقيين!! استفد معنا لعل الله يغفر لك شيئًا من ذنوبك!!».

وانصـرفت عنى إلى الاسـتماع، وبدأ الـرجل يتنحنح مـسلكًا صوته، وأخـيرًا تكلم بعد أن تصفح أوراقًـا فى كتاب أصفـر قابع بين ركبـتيه على حـامل خشبى. لم أفهـم من كلامه شيـئًا، وربما لأننى لا أعـرف اللغـة التى يتكلمـون بهـا. كل مـا بقى فى رأسى كلمات عن التتار والمغول والصليبيين والأتراك والمماليك والطاغوت وفريضة الردع والمقومات الحقيقية للمسلم الكامل الإيمان، والغزو اليهودى وعذاب القبر، كل كلمة من هذه الكلمات تنحشر بين أعداد هائلة من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية. صار دماغى من فرط التعب يسـتسلم للنعاس لحيظات خـاطفة يسقط فيهـا دماغى على صدرى فـأسترده مـأخوذًا. مع ذلك بقيت فى ذهنى بعض إسـماء الجالسين الذين كانوا يحاورون الرجل فيرد عليهم بأسمائهم: عبد السلام، خالد، همام، فرج، عبد الجواد، ياسر.. إلخ.

أنقذنى مـن الكابوس رجل فى حوالى السـتين من العـمر وقف بالباب هاتفًا:

- «العشاء يا أم!!».

نهضت الشيخة سعادة واقفة:

- «يكفى هذا الآن!»

ومشت، فـنهض الجميـع؛ فخيل لى أنى مـندهش من قيـامهم. مشينا خلف الشيخة عـائدين إلى باب مجاور للبوابة فإذا هى كلها مفـروشة بالحـصائر الملونة وقـد ارتصت فوقـها مـجمـوعة من الطبـالى حفلت بأنـاجر الفـتة وهبـر اللحم والشـوربة والسلطات والفجل والجرجير. جلست الشيخـة أولا ثم جلسنا جميعًا؛ وكانت جلسـتى بجـوارها فلم تولنى أى اهتـمـام بالمرة، فلمـا فـرغنا من الطعام وشرب الشاى نهضت الشيخة قائلة:

- «سأذهب إلـى محرابى لأنظر فـى أمر هذا الضيـف ولسوف يرجع إليكم بعد قليل ليمكث معكم حتى الصباح!!».

ثم دفعـتنى أمامهـا برفق، ثم تقدمتنى. اتجـهت بى يسارًا، إلى الحجـرة المواجهـة للحجرة التى كـانوا فيـها عندما دخلـت عليهم. حجـرة مربعـة صغـيرة بعض الشئ، حـوائطهـا وأرضها مـغطاة بالسجاجيد المنقوش عليها صورة الحرمين بخيوط النسيج. يوجد بعض الشلت بمخـتلف الأحـجام؛ الشـموع مـشـتعلة فى طاقـات محـفورة فى الحـوائط؛ جلست متـربعًا شـاردًا فاقد القـدرة على الكلام.

- ٨ -

انقبض قلبى يا خال وشعرت بأخطار غامضة. تمثلت لى الشيخة سعادة فى شكل مارد من الجن أكاد أحترق بسعيره المتطاير شررًا من جسدها، لحظتئذ فحسب يا خال أنكرتها بكل معنى الكلمة؛ فرطت فى أخوتها، سلمت أمرى لله فيها. كانت فى غاية القسوة رغم رقتها الظاهرة. كانت شخصية رابعة أشد هولاً وخيالاً من الشخصيات الثلاث السابقات: سعدية زوج خرابة قاطع الطريق؛ زعيمة الجبل الملكة عليه؛ الشيخة سعادة العرافة قارئة الكتاب السحرى والكف والفنجان؛ أم الرجال الحصيفة الحادة النارية. أى دماء تجرى فى عروق هذه الكتلة الضئيلة من اللحم؟ أى شيطان تلبسها يا خال؟ أهى طبيعة الجبل زرعت فيها روح العصابة ودستور العمل السرى فى الخفاء ضد عدو إذا لم يكن موجودًا أوجدته؟! أهى اللوثة الدينية التى أصابت البلاد فى مقتل؟ ولكن كيف تسربت جرثومة القسوة والعمل الدينى المسلح ليس ضد الدولة فحسب بل ضد الناس كلهم صالحين وفاسقين معا؟! ومن يدريها يا خال إن كان هذا أو ذاك من البشر فاسقا أم

صالحًا؟! وما مقياس الفسق ومقياس الصلاح فى نظرها؟! هذه اللوثة جرثومة وفدت علينا من خارج البلاد يا خال. فأنا على يقين من أن الشيخة سعادة على علاقة وثيقة بأمراء ومشايخ نفط أثرياء وشيوخ دين مصريين أكثر ثراء يعيشون فى قلب أمريكا وأوربا. رأيت الكثيرين من أمثال هؤلاء وأولئك عندها كثيرًا فى الجبل وفى أسيوط. رأيت عندها فى الجبل حقائب سفر ملآنة بالفلوس: دولارات على فرنكات على إسترلينى على كويتى وسعودى وعراقى أنها بنك من البنوك؛ مما يدل على أن هذه الأموال قادمة إليها من كل هذه البلاد. أذكر أنى سألتها ذات يوم مازحًا: هل تتاجرين فى العملة؟! فسلقتنى بنظرة أحرقت فى صدرى روح النكتة وقالت إنها لا تتاجر فى شئ وإن هذه نفحات من باب الله لباب الله؛ والآن جاء الوقت الذى أعرف فيه أى باب من أبواب الله تنفق فيه هذه الأموال الطائلة..

تأملتنى طويلا، ثم صاحت:

- «أراك صامتا! فهل هو شعور بالذنب؟!»

والواقع يا خال أنى لم أكن عرفت كيف أبدأ حديثى؛ فما رأيته قد صعب مهمتى ووضعها فى جراب المستحيل ففى أى شئ أتكلم الآن؟

سمعنا طرقا خفيفا على الباب. صاحت الشيخة فى أمر: ادخل. فانفتح الباب الثقيل ودخل شاب غليظ الوجه والصوت، ملتح، توقف على عتبة الباب:

- «دقيقة واحدة لو تكرمت يا أم!»

كان يبدو عليه الاضطراب والشحوب. فنهضت هى ذاهبة إليه؛ فى طريقها وجهت لى نظرة استرابة غير مريحة ثم سحبت الباب وراءها واختفت. بقيت وحدى يا خال أضرب أخماسًا فى أسداس. ماذا أقول؟ ماذا أفعل؟ لقد أرهقت أعصابى يا خال، وخيل لى أنى كبرت خمسين عامًا من شدة القهر والغيظ. طال الوقت جدًا فكأنه يأكل فى لحمى أكلا ينهشه بأسنان ثالمة، مضى ما يقرب من ساعة كاملة، كثرت خلالها الخطوات فى الردهة رائحة جائية فى توتر مصحوب بأصوات تكتكة أقرب إلى صوت تزييت البنادق وتجريب محركاتها. ثم إن الباب انفتح أخيرًا ودخلت الشيخة سعادة وأغلقت الباب وراءها..

كان وجهها ركية نار فى قلبها ثقبان يفحان لونا أزرق مخضوضرًا. تربعت فى مواجهتى صامتة تتحدانى بنظرات حادة فيها لوم واحتقار وغضب ونذر وانتقام شيطانى مروع. قالت أخيرًا:

- «أراك انكتمت! فماذا وراءك أيها الكافر الفاجر! يا من تستحق السحل! خير لى أن ألقى بك حيًا فى قلب النار وأستمتع برؤيتك وهى تسلقك وتشويك!!».

راحت الدماء من عروقى يا خال، طفش عقلى، صرت أردد فى خوف:

- «يه.. يه! لماذا؟ ما الذى جرى لأستحق هذا؟!»

- «ظننتك جئت تائبًا توبة نصوحا! فإذا بك عميل جاسوس! حيوان قذر!!»

- «سامحك الله! أنا على كل حال جئتك برسالة رسمية وما على الرسول إلا البلاغ! حرصى على مصلحتك هو الذى جعلنى أقبل المجئ إليك لتبليغ الرسالة!!

- «رسالة؟! ورسمية؟! ممن يا ترى؟!»

- «من أنور السادات بذات نفسه! هو لم يعرف أننى شقيقك لكنه يعرف أنى أعرفك كما قيل له!!».

- «قيل له؟! يا لها من صفاقة!!»

- «كلمنى! قال إنه محتاج لك فى أمر مهم! وقد طلبك المحافظ لمقابلته فقيل له إنك بعت البيت وعنوانك غير معروف! فطلب منى السادات شخصيًا أن أجئ بك بأى شك نظرًا لاحتياجه الشديد إليك فى مهمة لم يكشف لى عنها فربما كانت مهمة شخصية!!»

انفجرت ضاحكة ضحكًا جنونيًا يمتلئ بالحقد والكراهية بشكل ضاعف من فزعى . أخيرًا قالت:

- «هذه وحدها خطيئة تستحق القتل عليها!! الخطيئة الثانية هى ما ترتب على قبولك لهذه المهمة المشبوهة السافلة!! أتعرف ماذا حدث أيها الجاسوس الجبان؟!»

مات قلبى، صحت فى حشرجة:

- «استر يا رب!»

- «قتل أولادى ثلاثة ضباط من مباحث أمن الدولة كانوا يراقبونك خطوة خطوة، اشتبه فيهم الخفير فراقبهم وهو يحومون حول الكوخ الذى دخلته فتركهم وخرج إلى الخلاء أطلق بفمه صفيرًا معينًا! فلما عاد وجدهم فى كوخه يتحدثون مع رفيقك الذى ينتظرك! سألهم عما يريدون فقالوا إنهم اشتبهوا فى نمر السيارة المركونة على الطريق فجاءوا يبحثون عمن يكون صاحبها! فأيقن أنهم أعداء قال سأنادى لكم صاحبها! وخرج فالتقاه الشباب الذين هبوا لصفيره لنجدته ثم تسللوا إلى نافذة الكوخ وأطلقوا الرصاص عليهم من مسدس كاتم للصوت!! أجهزوا عليهم بطبيعة الحال ومات رفيقك معهم وكان يجب أن تموت أنت أيضًا!!»

- «قتلوا هندى؟! لا حول ولا قوة إلا بالله!!»

وانفجرت باكيًا ألطم خدى كالنسوان، لكنها بكل برود قالت:

- «العقبى لك!! الجثث تمت تعبئاتها فى أجولة! حملتها الحمير فى الظلام، وألقت بها فى النيل! ولكن الشبان أبنائى حماهم الله

أرادوا أن يخدموك بإبعادك عن القضية فأشعلوا النار فى سيارتك فصارت كتلة من الصفيح الخردة! لا يمكن الإستدلال عليها! رأيى أنك لا تستحق الخدمة بل إن قرار قتلك قد اتخذته منذ وقت مضى لكنى أرجأت تنفيذه لعلك تثوب إلى رشدك وتعفينى من عتاب الدم ومن شبح العظام النائمة فى قبرها!! أما الآن فإننى صرت مقتنعة بأن قتلك أصبح واجبًا وحلالاً!! غير أنى سأتركك حيًا لسببين: الأول أن تبلغ رسالتى لأنور السادات! والثانى لأنه هو الذى سيقتلك بنفسه!! لقد عرف أنك شقيقى منذ وقت طويل وهو يضعك تحت الاختبار! وعرف أنى أحاربه فأرسلك طعمًا ليصطادنى بك! لكنه نسى أن مخابراتى أنشط وأقوى من مخابراته!! ولدنا العزيز خالد الذى أتى بك إلى هنا شغلته التخابر وجمع المعلومات وتبليغها أولا بأول!! لابد أن توصل رسالتى لأنور السادات كى يمتد عمرك أيامًا فهل أنت مستعد لتوصيلها؟!»

- «ماذا أقول له؟!».

- «قل له إن الكتاب لا يكذب!! إن الورق لا يخون أهله ولا يخدع نفسه!! النبوءة لابد من حدوثها!! لقد قرأت لك الورق فكأنى أقرأ التاريخ الذى رأيت أحداثه المقبلة مجسدة أمام عينى!! قرأت له الورق أى أنى أنذرته! وقد أعذر من أنذر لكنه لم يرعو! بل ازداد جهالة على جهالة وكرر صورة الطاغوت مضروبًا فى مائة!! إن الله الذى ألهمنى قراءة الورق هو سبحانه الذى ألهمنى مهمة تنفيذ

النبـوءة!! حـينما كـنت أقرأ له الورق كـنت فى الواقع أقـرأ عهـدًا وميثاقًا أبرمته روحى مع الله سبحانه وتعالى!! قل لأنور السادات كل هذا!! قل لـه إن أم الرجـال أم المؤمنيـن لقـادرة على تـخليص البلاد من رأس الفـساد! وإن الله لناصـرها عمـا قريب! وإن الموت أقرب إليـه ـ وإليك ـ من حـبل الوريد! وإن جمـيع قواته وحـرسه وسلاحـه وأسواره كل ذلك لن يعصمـه من مصير اخـتاره له الله والدليل على ذلك اقـتناع الملاييـن من المسلمـين بهذا الـقصـاص!! والآن فلتذهب إن ولدى الذى أتى بك هو الذى سيخرج بك من هنا! هذه آخر مرة أراك فيها!!».

تنفـست الصـعـداء بمجـرد علمى بأنى سـاخـرج من هنا إلى الخلاء ثانيـة؛ مع أن منظر الشيخـة وملامحـها المسمومـة الحادة كانت تشككنى فى صـدق عفوها؛ فـالراجح عندى أنها وصلت إلى المرحلة القصوى فى الانفصال عن كل المشـاعر الإنسانية من فرط يقيـنها بكفر الآخـرين، وبوجود كل هـذا الرعيل من الشـبان وهذا العدد الهائل من المريدين من جميع فئات المجـتمع مثقفين ومهنيين وحرفيـين وعسكريين وطلاب دراسات عليا كل هـؤلاء بعثوا فى فؤادها غطرسة القوة الغاشمة القاسية التى لا ترحم، لقد تقمصتها روح زعيمـة العصابة على نطاق أوسع، حيث يصـبح القتل وقطع الطريق وقطع الأرحـام عمـلا بطوليًا شـرعيًـا فى خدمـة الإسلام والله..

قل إننى كنت مرتابًا فى عفـوها وأظنه تمويهًا وخداعًا، وإننى ـ كما صار مرتبًا لى ـ ستؤخـذ بناصيتى فى الخلاء بعيدًا عنها. إلا أننى يا خال تذكرت شيئًا خطيرًا فى كلامها أردت أن أراجعها فيه على أمل واه بأن تغير رأيها أو على الأقل تخفف من حدته. قلت:

ـ «ولكن يـا ست الكل أنت تقـوليـن إنك قـرأت الورق لأنور السادات! والصـحيح أنك قرأته لمحمـد بك أبو شناف! فكيف حدث هذا الخلط! تحـملين رجـلاً أوزار رجل آخـر؟! مـا لمحـمـد بك أبو شناف بأنور السـادات؟! هذا رجل كان من الضبـاط الأحرار ذات يوم واعـتـزل السيـاسـة واشـتغل فى الـبزنس أمـا هذا فـرئيس جمهورية بعد تاريخ سياسى كبير!!».

فضحكت ضحكة عمرى ما سمـعت فى غرابتها يا خال، سعدية الرقيقـة الشقيانة فى مكتـبة عمها الفـقيه وخدمة ضـيوفه، والتى انتقمت لـزوجها خرابة من قاتله فـى التو واللحظة محقـقة العدالة بنفسها على الحكومة فى عقر دارها؛ سعدية زعيمة الجبل مطهرته ناشـرة الود والسـلام والعدالة بين المـطاريد الأشقـيـاء؛ سعـدية الشيخـة سعادة ربيبة العلمـاء والمتصوفين والصـالحين من أنحاء العالم الإسـلامى قارئة الكف والورق لرجالات الثورة فى مـصر، سـعدية هذه بكل وجـوهها لـم يحدث أن صـدرت عنها مـثل هذه الضحكة النحاسية الصدئة السـمجة الشريرة؛ ضحكة خلفت على وجهها شحوبًا أصفـراويًا مرعبًا يا خال. قالت بنبرة تخلو من أية مشاعر:

- «كيف تريد أن تفرض علىَّ غباءك الذى لا مثيل له بين الحمير؟! أنا لم أقرأ ورق محمد بك أبو شناف أنا قرأت ورق الحاكم المصرى!! سيان عندى أن يكون الجالس أمامى محمد بك أبو شناف أو أنور السادات!! محاولة التفريق بين الشخصيتين لم تشغلنى لم أفكر فيها أصلا!! لكننى مذ وقع بصرى عليه ليلة القراءة وعند تفنيط الورق اعتبرت كلا منهما قرينا للآخر!! أنا التقيت صاحب البزنس كما تسميه لكنى قرأت فى الورق صورة قرينه بصاحب البزنس الأكبر!! كلاهما يوضع فى مكان آخر دونما فرق يذكر عندى!! كلاهما آثم فى نظرى!! كلاهما قنطرة يعبر فوقها الفساد لتخريب ديار الإسلام ويفتح الباب للكفر حتى يصبح الإسلام غريبًا فى بلده!! كلاهما خائن للأمانة وأنت نفسك أكبر دليل وأوضحه على فسادهما معًا!!».

وصفقت بيديها؛ فانفتح الباب وأطل منه الوجه الغليظ. صاحت فيه:

- «المهندس خالد!».

فمضى الغليظ. وبعد برهة جاء خالد. صاحت فيه:

- «اصحبه إلى الخلاء من سكة لا يتذكرها!!».

ولم أكن أقوى على الوقوف يا خال من شدة الرعب والخور فتقدم خالد منى ووضع يديه تحت إبطى، ثم أوقفنى، ثم سحبنى

فمضيت بجواره كالمنوم مغناطيسيًا؛ مجرد هيكل عظمى لا حول له ولا طول..

ظللت منتبهًا إلى أن غادرنا الساحة أمام البوابة إلى سرداب متفرع من الشرفة التى دخلنا منها. سرداب مظلم تمامًا، ضيق لدرجة أن أكتافنا كانت تحتك بجداريه. من حسن الحظ أنه لم يطل أكثر من حوالى ربع ساعة. فما إن شعرت بأننا حودنا إلى سرداب أوسع كثيرًا، تهاويت على الأرض فاقد الوعى يا خال..

أفقت بعد وقت طويل، على يد تدلك قلبى وتحرك ذراعى كحركة ذراع الطلمبة فطنت إلى أنى استفرغت كل ما فى جوفى. صار خالد ينظف لى ملابسى، يجفف عرقى. ثم جذبنى بقوة فأوقفنى. استأنفنا السير. كانت الساعة فى معصمى تشير إلى التاسعة صباحًا حينما نظرت إليها فى ضوء الولاعة وأنا أشعل سيجارتين لى ولخالد. طلبت الجلوس قليلا؛ فجلسنا. أبديت دهشتى من تقدم الوقت إلى هذا الحد فهل مشينا كل هذا الوقت؟ فقال خالد إن فترة الإغماء قد امتدت حوالى خمس ساعات، وأنه ظن أنى مت وبدأ يفكر فى كيفية التخلص من جثتى لكنه من شدة الارهاق تمدد بجوارى حتى يمر بنا أحد من الرجال يساعده على التصرف، فنام نومًا عميقا فلم يوقظه إلا شخيرى الذى ارتفع فجأة يدمدم ويزلزل كقصف الرعد؛ فحمد الله وانتفض جالسًا يمسح القيئ عن صدرى ثم يجرى لى عملية تدليك للقلب لتنشيط الدورة الدموية.

مشينا يا خال، والسرداب يتسع شيئا فشيئا والضوء يتسع معه، فكأننا نمشى فى ميدان مسقوف تتفرع منه سراديب ضيقة لا حصر لها كجيوب يختبئ فيها الهول والمجهول. توقف خالد وصار يستطلع حواليه ويعد السراديب التى على يساره ثم يسحبنى إلى السرداب الثالث؛ دخلناه بقامة محنية قليلا؛ مشينا بالقامة المحنية حوالى عشر دقائق صعبة خانقة؛ إلى أن دهمنا جدار يسد علينا السرداب. فلما اقتربنا منه رأينا فراغا على الجنبين عبارة عن شق هائل بالطول فى الجبل؛ شق ليتسع لجسدين فقط؛ والسماء ظاهرة لأول مرة، بشمسها ونورها الساطع. ثمة صخور وأحجار كثيرة تسد الطريق من الجهتين؛! تسلقناها بصعوبة. لفت بنا الصخور عبر مدق ينحدر من أعلى، صرنا نصعد فوق الجبل تحت قرص الشمس مباشرة، مشينا تحت الشمس حوالى نصف ساعة؛ ثم دهمتنا مغارة ذات بوابة تستطيع ابتلاع عمارة شاهقة. دخلناها؛ كانت مليئة بالضوء، متعرجة، واسعة؛ ما إن تضيق حتى تتسع، وما إن تتسع حتى تضيق مشينا فى قلبها حوالى ساعة كاملة يا خال، والضوء يقترب ويزداد ابيضاضًا ونصوعًا. ثم ظهر الأفق من بعيد جدًا، كشريط أخضر؛ ومن خلفه بيوت كعلب من الكبريت. لفظتنا المغارة إلى أرض مستوية، ثم تبين لنا أن الأرض الزراعية والمساكن فى سفح واطئ، وأننا أعلى منها بنحو قامة رجلين. صرنا كأننا نقف فوق سطح أحد المنازل، والناس تروح وتجئ من تحتنا..

ـان ثمة منحدر على اليمين فمضينا إليه. صار يهبط بنا. بعد ـيل صرنا فى قلب أرض زراعية، وبعد قليل صرنا فى قلب لمساكن. قال خالد:

- «أتعرف أين أنت الآن؟!»

صرت أراجع كل منظر حولى. قلت:

- «البلد مألوفة لى!»

ثم تبينت فى الحال أننا فى قرية «دُرُونْكه». هتفت من أعماق خاوية:

- «يا.. !...ه! كيف وصلنا إلى درونكه؟ يا لها من رحلة عصيبة مضنية!! إنى آسف يا وَلدى! لقد سببت لك المتاعب دون ذنب ودون فائدة!!».

قال بتلقائية:

- «بل أنا الذى يأسف لكل ما حدث! لكنه مكتوب! والمكتوب ما منه مهروب! المهم الآن أن صلاة الجمعة وجبت! بالكاد نتوضأ!».

- «إذن فاتجه بنا إلى جامع درونكه!».

توضأنا؛ دخلنا إلى المصلى. كان المصلون فى حالة غير طبيعية؛ يميلون على بعضهم البعض يتهامسون فى قلق، يكاد الهمس ينقلب إلى شجار، وهم بين مؤيد ومعارض، راض وساخط. كانت

عيونهم تشير إلى المنبر وتستانف الهمس والعراك الصامت. نظرت فى الخطيب الواقف على المنبـر؛ أصابنى الذهول يا خـال؛ إنه ذلك الشـاب المدعو نـاجح، الذى رأيته بالأمـس فى حضـرة الشـيخـة سعادة. ميلت على خالد وسألته:

- «ناجح هذا من زملائكم طبعا!!».

- «نعم! أظنك رأيته بالأمس مع ماما!!».

- «أهو من درونكه؟!».

- «لا! ولكنه يجول بين المساجد فى بلاد الصعيد! إنه من أنشط العناصر وأقواها فى الإقناع والتأثير! هو خطيب جيد!».

- «ولكنى أرى فى االأمر شيئًا غير طبيعى!!».

- «طبعًـا! فأتباعه هـنا قلة قليلة جدًا أو غيـر قادرين على إقناع الآخرين فاستضافوه ليخاطب أهلهم من فوق المنبر! ولأنه معروف بالاسم هنا فبعضهم متوجس من ظهوره وبعضهم مرحب به!!».

ثم خطب ناجح. كان فصيـحًا بليغًا سريع البديهـة قوى البيان، يربط بين الماضى والحـاضر بأفكار جـرئية مبـهرة براقـة يرصد فيها مظـاهر الفسق والفساد فى كل مكان، يحمل الناس مـسئولية ظهورها ومـسئـولية اسـتمرارها؛ يـنذرهم بعذاب الجحـيم إذا لم يقاوموها ويستأصلوا شأفـتها من أرض الإسلام. أشهد أن ناجح نجح فى تخدير جميع الصفوف، وفى التأثير عليهم إلى حد ارتفاع

البكاء بين المصلين. ثم أقام الصلاة؛ فما أن سلم ذات اليمين وذات الشمال، وصـافح المقربين منه، حتى تلقفـه مضيفوه، واخـتفوا به فى لمح البصر..

توجهت بصحبة خالد إلى الطريق الزراعى، حيث تلقفتنا إحدى سيـارات النقل لتلقى بنا فى أسـيوط. كنت أجـرر ساقى شـاعرًا بالقهـر والحزن العمـيق، أكتم الدموع فى صـدرى، أمشى ذاهلاً. قال خالد:

- «تركب القطار؟!».

قلت: لا. وعزمـته على الغداء، توجهت به إلى مطعم لـلأسماك، فتناولنـا وجبة سـريعة. ثم ودعـته على باب المطعم ومـضيت إلى مـوقف السـيـارات فـركـبت واحـدة: علـى مـصـر يا أسطى، ثم استـرخيت مـتمددًا عـلى المقعد الخلـفى كله، واستغـرقت فى نوم عميق كأنه الموت يا خال.

- ٩ -

بُهتت زوجى حين رأتنى يا خال، انكرتنى، أعدت الحمام الساخن فغطست فى الحوض لساعات طويلة وأنا فى حالة لا تركيز فيها على الإطلاق. تناولت العشاء فى صمت، وأويت إلى الفراش فنمت. أيقظتنى زوجى فى اليوم التالى لاتناول الغداء، فدخلت الحمام الساخن وخرجت منه فاقد القدرة على التركيز تمامًا. أين طفش عقلى؟ إنى غير شاعر بوجوده يا بوى، لا أقوى على التفكير فى أى شئ، لا أعرف شيئًا مما يدور حولى؛ تكلمنى زوجى بالساعات فلا أفقه شيئًا مما قالت، فأعاود النوم، وأصحو لاتعشى وأنام، ولا أقوى على صلب حيلى يا بوى، ولا الوقوف على قدمى..

ذعرت زوجى؛ استدعيت طبيبى الخاص. فحصنى جيدًا؛ قال إنها حمى أدت إلى فقدان الذاكرة مؤقتًا. لم توافق على نقلى إلى المستشفى. كانت المكالمات التليفونية تنهال على البيت من جهات مختلفة تسأل عنى، فترد عليهم بلباقة، وتتابع العمل مع بربش دون أن تخبره بشئ عن حالتى الصحية وكانت الرئاسة قد

اتصلت بى أكثر من مرة ؛فأبلغتهم بحالتى الصحية، فاتصل السادات بنفسه وسألها عن حقيقة الأمر فشرحت له الحال كلها؛ فأرسل مندوبًا طبيًا من طرفه ليرانى على الحقيقة. أيقظونى. لم أقو على النهوض؛ لم أع شيئًا مما يقال حولى؛ إنما أبحلق فيهم كأنهم جميعًا غرباء، وحينما أعود للنوم يستغرقنى الهذيان..

بدأ الانزعاج الحقيقى. جاء السادات بنفسه ليعودنى فصرت أنظر إليه ولا أقوى على مواصلة النظر بل تعاودنى الحمى وينكسر راسى فوق صدرى. نقلونى إلى المستشفى العسكرى. مكثت فى غرفة العناية المركزة عشرين يومًا؛ ثم انتقلت إلى حجرة استشفاء فمكثت فيها عشرة أيام. فى هذه الأيام العشرة الأخيرة بدأت أفيق شيئًا فشيئًا، بدأت أعى ما حولى؛ أتذكر ما حدث، أرد على الهاتف، أتبادل الحديث مع الزوار بتركيز طبيعى، أناقش مع بربش تقارير الوضع فى الشركات، أحكى لزوجى حقيقة ما ألمَّ بى..

جاءتنى وفود من المباحث الجنائية، ومباحث أمن الدولة. سألونى عما يكون قد حدث لى فى الصعيد. راوغتهم، زعمت أن بعض مطاريد الجبل قد اختطفونى ظنًا منهم أننى أحمل فلوسًا كبيرة فأرهقونى بالتعذيب والتهديد بالقتل ثم فتشوا سيارتى فلم يجدوا بها شيئًا فأحرقوها ونقلونى معصوب العينين ليلا إلى أسيوط فتركونى عند المحطة ولاذوا بالفرار؛ رجحت أن يكون ما حدث لى من فعل الجماعات الإرهابية لأن الجناة كانوا ملثمين..

كان عدم التصديق والاستنكار واضحين فى أعين الذين حققوا معى، لكنهم مع ذلك لم يرهقونى. بعد عودتى إلى البيت بأيام قليلة طلبنى السادات فذهبت إليه. طلب منى تقريرًا وافيًا عما حدث لى فى المشوار المشئوم؛ حكيت له نفس ما حكيته من قبل ولكن بشكل محبوك هذه المرة إذ أضفت بأن الذى قادنى للخطف أوهمنى بأنه سيوصلنى إلى المقر الجديد للشيخة سعادة وأنه اختفى فى شعاب الجبل ليمسك بى الملثمون..

نظراته كانت نظرات ثعلب ماكر تبدى الاقتناع بما أقول لكنها تفلت منها بوارق تتوعدنى تقول إن كلامى مفكك بل متهافت لايدخل الدماغ. لكنه قال:

ـ «على كل حال! حمدًا لله على سلامتك!!».

ونهض واقفا إيذانا بانتهاء المقابلة. وحينئذ انتبهت إلى أنه يرتدى الجلباب والطاقية الصوفية الفلاحية ويمسك بالعصا، ولولا منظر القصر الجمهورى وحشود الحرس المتنوع الأزياء لأيقنت أنه محمد بك أبو شناف بلحمه ودمه. وعندما سلمت عليه تأهبًا للانصراف شعرت بيده رخوة باردة؛ فدوى قصف الرعد فى بطنى، وقفلت عائدًا إلى بيتى أعض بنان الندم لأنى لم أعترف بكل ما حدث جملة وتفصيلا؛ ولشدة غيظى لم أفهم لماذا أعترف يا خال.

لحقت بى زوجى إلى المرحاض مهرولة متوجسة يشملها الكثير من الاضطراب. بقيت واقفة على باب المرحاض المروب قليلا؛

صارت تحدثنى بصوت مضطرب؛ وأنا أشد منها اضطرابًا أرد عليها بصواريخ من الضراط الراعد، المطرطش، ومخى كله مركز فى بطنى. فلما هدأت بطنى قليلا استعدتها ما قالت، فحكت لى أنها لاحظت شيئا غريبا مقلقا: هناك من يراقب البيت منذ بضعة أيام، حوالى خمسة رجال كل منهم يتمركز فى جهة يظل يحوم حولها طول النهار فإذا دخل المساء انصرف وتسلم المكان بدلا منه شخص آخر؛ كما أنها لاحظت أن هناك من يلاحقها فى الخفاء أثناء توجهها إلى أى مشوار وأن إحدى صديقاتها نبهتها إلى ذلك لكى تأخذ حذرها وأنى يجب أن آخذ حذرى أيضًا إذ لابد أنى مراقب كذلك.

قدمت لى كوب الليمون على السرير وهى تقول:

ـ «لابد من الرحيل! السفر هو الحل! بقاؤنا هنا يجر علينا متاعب لا تتخيلها بسبب أختك!!».

ـ «ومصالحنا؟!».

ـ «نبيعها ولو بالخسارة! آن الأوان لأن نستريح من القلق والمسئولية التى نقع فيها بسبب غيرنا! فلوسنا فى بنوك الخارج تكفى لنعيش من أرباحها السنوية! ومن يدرى؟ ربما وفقنا الله فى عمل مشاريع جديدة فى البلد التى نستقر فيها!!».

ـ «تظنين أنهم يسمحون لنا بالسفر؟!».

ـ «سأتصرف! البلد كلها شرقانة وكل شئ يمكن شراؤه بالفلوس حتى الرجال! سأتصرف!!».

- «وعملية بيع الشركات أتظنيها سهلة؟!».

- «سأتصرف أيضًا هى سهلة عندى!!».

- «دبور يزن على خراب عشه! أخاف أن نخسر ما تعبنا فى تأسيسه وفى نفس الوقت نُمنع من السفر!!».

- «أنا متأكدة أننا لو انتظرنا سنوضع تحت الحراسة لسبب من الأسباب! فدعنى أتصرف!!».

- «خلاص يا أم أدهم ! تصرفى!!»

وغطنت ياخال إلى أن زوجى التى تخرجت فى الجامعة الأمريكية بعد الزواج، خدمها جمالها الفطرى الصارخ عندما أصبحت ترتدى أحدث الأزياء من أشهر وأغلى بيوتها فى باريس، فأصبحت معدودة بين أشيك نساء مصر؛ صارت شخصية لها ثقلها واحترامها وخطرها، صارت صديقة حميمة لجميع نساء الوزراء والكبراء والرءوس التخينة فى البلد ناهيك عن الرءوس التخينة فى شركاتى. كل يوم عزائم وضيوف، وهدايا ثمينة متبادلة، وحضور أفراح، وحضور ندوات، ولقاءات فى نادى الجزيرة والنادى الأهلى وهليوبوليس. كانت هذه ملحلحة وذكية ومحبوبة، وعطوفة..

اشتغلت التليفونات عدة أيام، ثرثرة النساء ترتب عليها لقاءات متكررة وعاجلة بين محامين ومحاسبين، مستشارين ووكلاء،

تكونت شركة مساهمة من مجموعة الإداريين الكبار المهيمنين على نشاط شركاتى من رجال الإدارة المركزية الأم، تقوم هذه الشركة بشراء أصول شركاتى كلها، على أن يتم التعاقد مع بنكنا الرئيسى فى سويسرا، الذى أعطيناه توكيلاً وتفويضًا بذلك. ولما كانوا جميعا من ذوى الأرصدة فى الخارج فقد تم التحويل بالعملة الصعبة من بنك إلى بنك، وتم كل شئ فى يسر وسهولة بواسطة المندوبين الوكلاء والمحامين والمحاسبين، فيما نحن جلوس فى بيتنا..

سافرت زوجى إلى فرنسا وحدها لتعرض نفسها على أحد كبار أطباء التجميل ليريحها من شئ تافه كان يزعجها مع أنه كان يعجبنى. ذلك هو أنفها الذى كان طويلا حادًا مدببًا فى عوجة أمامية صغيرة كمنقار الديك الشركسى..

بعد سفرها بساعات جاءنى الخبر من أسيوط بأن أمى قد ماتت منذ عدة أيام وتم دفنها تحت إشراف زوج ابنتها أبو هليل. أتانى بالخبر واحد من السماكين الذين يوردون السمك لقصرى كل أسبوع، وهو فى الأصل من بلدنا. قال إن أمى ماتت من الخضة، إذ فوجئت بقوة مسلحة من رجال الشرطة تقتحم عليها منزل خرابة القديم لتفتش عن أخى حسين اذى إنضم للجماعة الإسلامية فى كلية الطب وأصبح من أنشط وأبرز عناصرها. قال إنه كان أميرًا للجماعة وإنه هارب منذ وقت طويل فى مكان

مجهول بعد أن هجر الدراسة تماما. بكيت مُرَّ البكاء يا خال، فهو أخي الوحيد الذى كنت أدخر له مستقبلاً عظيمًا فى السنين القليلة القادمة من سفر للخارج إلى فتح عيادات ومستشفيات خاصة. يعلم الله يا خال كيف تلقيت هذه الطعنة النجلاء فى قلبى. اعتبرته قد مات، ولعنت الشيخة سعادة وسنينها السوداء وطافت بذهنى فكرة السفر إلى أسيوط لأقرأ الفاتحة على قبر أمى وأتسقط أخبار أخى حسين لعلنى أظفر به وأحاول إنقاذه من هذا الجنون..

لحظة أن هممت بارتداء ثيابى وقعت عينى على شاشة التليفزيون فرأيت ملابس عسكرية ودبابات فى الميدان وجنود تحمل المدافع والكورس الغنائى يصيح مغنيًا: الله أكبر! الله أكبر! فتذكرت أن غدًا هو اليوم السادس من أكتوبر، وأننى مدعو لحضور الاحتفال السنوى بالعرض العسكرى فى مدينة نصر مع الرئيس السادات والوزراء وكل رجال الدولة المهمين؛ ولابد أن أحضر يا خال؛ فصرفت النظر عن السفر إلى ما بعد الاحتفال؛ ثم ما لبثت حتى صرفته نهائيًا. فلأول مرة يا خال أشعر أن الصعيد فقد حميميته تمامًا بالنسبة لى، أصبح غابة عدوان بشعة مخيفة مشبعة بالظلام. وتلك كانت أكبر خسارة منيت بها فى حياتى يا خال.

ذهبت إلى مقر الاحتفال يا خال. كنت منقبض الصدر بصورة أخافتنى، والهواء الذى أتنفسه يبدو مشبعًا بالمؤامرات والخسة

والقرف، وكل المرئيات رمادية كابية قاتمة. عزوت ذلك إلى القلق الذى أقض مضجعى حتى الصباح، فى نوم متقطع ملئ بالكوابيس المزعجة..

رأيت فيما يرى النائم أن أنور السادات أشبه بفلاح ممسك بفأس ومقطف يعلقها فى كتفه. وكان يبدو أننى عزمته على الغداء فى دارنا القديمة فى البلد. ولم أكن أعرف لماذا عزمته مع أنه فى المنام لم يكن صديقى بل كان يظهر كما لو كان آتيًا يصطحبنى لنعمل سويًا فى العزيق تبع مقاول أنفار يعرفه. لكنه كان يبدو عليه التوجس والخوف لا تكف عينه عن التلصص. ثم إذا به ينتفض واقفا فى خوف صائحًا:

ـ «خبئنى يا حسن! شف لى ركنًا اختفى فيه! المقاول سيقتلنى يا حسن مع أننى مظلوم! والله مظلوم يا حسن ولست أكره الأنفار كما صور لهم المقاول اللعين!!».

ثم اندفع يجرى داخل الدار يبحث عن منفذ يهرب منه؛ فالتقاه فى منتصف الحوش ملثم انسلخ من الحائط وفى لمح البصر شج رأسه بالفأس واختفى. جعلت أصوت وألطم حتى صحوت؛ فأخذت أتشهد وأقرأ الفاتحة وسورة يس؛ ثم نمت؛ فرأيته ثانية، يجلس معى فى شقة مصر عتيقة مرتديًا لباسه العسكرى ممسكًا بكوباية شاى صغيرة؛ فإذا بالسقف ينهار فوقنا فاختفى هو تحت الهديم أما أنا فرأيتنى طائرًا فى الهواء كأنى بأجنحة خفية،

والدم يسـيل من رأسى، وعينى فى الأرض تبـحث عن رقعـة آمنة لأهبط فيها، والأرض كلها أوحال وبرك ومنحدرات جبلية وعرة..

وكنت أحـوم فى الفضـاء حول هذه المنحـدرات الوعرة حيـنما صكت أذنى أصوات جلبة العرض العسكرى؛ فأفقت، فتحت عينى، فإذا بى جالس فى المنصة فى مدينة نصر ثالث صف وراء الرئيس السـادات. تحلف اليمـين يا خال مـا إن فتـحت عينى حـتى رأيت إحدى السيارات المصفـحة تمر أمامنا فى العرض ثم تتوقف؛ و من فوقها جنود يصوبون المدافع نحونا. ظننت ذلك من ضمن العرض يا بوى؛ لكننى فـوجئت بالرصـاص ينطلق فى وجوهنا، مـصوبًا على رقـبة الرئيس السـادات نفسـه. جمدنا الذهـول يا خال، وإذا بشـاب ضـخم الجـثة يقـبل مـهـرولاً نحـو أنور السـادات يصب الرصاص فى صدره مع الصـرخات الآمرة المتشفـية ـ هبطنا كلنا تحت الكراسى كالأرانب المذعورة، حدثت دربكة هائلة؛ فر من فر، ووقع من وقع امـتلأت الدنيا بـالصراخ المذعور مـختلطًا بطـلقات الرصاص. عـينى جاءت فى عين الـشاب الضـخم الذى اقـترب من المنصة؛ تحلف اليـمين يا خال أننى رأيته بنفـسه بعينيه فى مـخبأ الشيخة سعادة. تعرفت عليه وعلى شاب آخر ممن لاذوا بالفرار.

منذ ذلك اليـوم المشئـوم يا خال كـمشت فى منزلى لا أبـرحه، أعانى من مرض فى معدتى وأمـعائى، وصداع مزمن، ورعشة فى أطرافى مـسـتمـرة لا أقـوى معـهـا على الإمسـاك بشئ. كـرهت

السياسة طلقتها بالثـلاثة جمدت عضويتى بالحزب الوطنى منعت نفسى عن مجلس الشعب نهائيًا أصبحت أخاف من خيالى تعودنى أشـباح تتـربص بى لتـغتـالنى. صرت أقـضى النهـار والليل فى الصلاة أضرع إلى الله أن يسامحنى وينجينى..

وكانت زوجـتى قد علمت بالخبـر فور وقوع الحـادث، فأبرقت لى تطلب النصح، فأبرقت إليها بأن تبـقى لأنى قادم إليها لأعرض نفسى على الأطبـاء. وبالفعل سافرت إليـها تقرر إبقـائى فى أحد مستشفيات سويسرا مدة تحت العلاج. تركتنى زوجى وعادت إلى مـصر، جـهزت أوراق العـيال، سـرحت جمـيع الخدم إلا واحـدة عـجوز؛ أغلقت أبـواب القصـر، جاءت بـالعيال، ألحـقتـهم بأرقى المدارس فى سويسرا. استقر بنا المقـام فى هذه العاصمة البديعة، صـار بيتنا بفـضل زوجى مزارًا للـجاليـة المصرية كلهـا؛ اختـفى الشعور بالوحشة؛ لكننى ما لبـثت حتى وجدت نفسى تلقائيًا ذات يوم أجلس فى الطائـرة المتجـهـة إلى مصر. إن مـصـر هى الداء والدواء يا خال. لقـد كنت فى الغربة أتمنى أن أعود إليهـا ولو كان الثمن كل ما أملك. وها أنذا قـد عدت يا خال كما كنت أول مـجيئى إلى القـاهرة، مـجرد رجـل من جملة الـناس، مع الناس، بلا وجع للدمـاغ، من البيت للجـامع، ومن الجامع للبـيت، وكل بضعـة أيام يقتـادنى الشوق إلى العـيال فـأركب سيارتى إلى مطـار القاهرة، أقضى مع العيال ما أشاء من أيام، ثم ألتفت للسائق بأن ينتظرنى

فى المطار يوم كذا الساعة كذا، وحدى أو مع العيال أحيانًا. وهكذا لم يعد يقلقنى فى الدنيا شئ سوى ما يحتدم فى بطن الجبل فى أسيوط من براكين مروعة تعود بمصر والعالم العربى كله إلى عصور الجاهلية الأولى. إن الحياة فى مصر اليوم أصبحت شبه مستحيلة يا خال، ولكنها فى الخارج بالنسبة لى أكثر استحالة يا خال. على كل حال ربنا على الظالم.. مساء الفل.

الفهـــرس

أولنا ولد ٥

البسملة ٧

الفاتحة ١٥

الله واحد

أمى هى المبتدأ والخبر ٢٩

ما له من ثان

الأولة ـ مقابلة شخصية مع الدنيا ٤٧

الثانية ـ كيف شردتنى التسعيرة ٦٣

العدد ثلاثة

الأولة ـ عرسان وعرايس ٧٣

الثانية ـ بصرة بالبنت ٨١

الثالثة ـ عصف الريح ٩٧

الجهات أربع

الأولة ـ فى الليل البهيم ١٠٩

الثانية ـ الوقوع فى عرين النار ١١٥

الثالثة ـ الطاولة ١٢٣

الرابعة ـ المحاولة ١٣١

في عين العدو خمسة
الأولة ـ صورتان ليستا على الحائط ١٣٥
الثانيه ـ سقف العراء! ١٥٧
الثالثة ـ نهارك أبيض! ١٦١
الرابعة ـ بل القراقيش ١٧٥
الخامسة ـ حلاوة النار ١٨٣
أيام الخلق ستة
الأولة ـ مدرسة الظلام المستنير ١٩٥
الثانية ـ زائد الفرج ٢٠١
الثالثة ـ فولة فى قلب غونة ٢٠٥
الرابطة ـ عيان يضاجع ميتا ٢١١
الخامسة ـ الله اكبر لكن الليل كافر! ٢١٧
السادسة ـ الهروب من قرص الشمس! ٢٢٣
وثانينا الكومى ٢٣٣
أيام الاسبوع سبعة
الأولة ـ هلت ليالى الفجر ٢٣٥
الثانية ـ عرس القمر ٢٤٣
الثالثة ـ زمن الولاد ٢٤٨
الرابعة ـ يوم الهول ٢٥٧
الخامسة ـ يوم الفزع الاكبر ٢٧١
السادسة ـ يوم الطوفان ٢٧٩
السابعة ـ يوم الطلوع من الهديم ٢٨٢
أبواب الحنه ثمانية
الاولة ـ قيام العمل ٢٩٣
الثانيه ـ الحضور المباغت ٢٩٦
الثالثة ـ التقاء الزيانية ٣٠٢
الرابعة ـ الباب المنهوب ٣٠٩
الخامسة ـ الباب المضمون ٣٣١
السادسة ـ ليلة المحرقة قاف عين ٣٤٢
السابعة ـ ليلة النتاية المحرقة ٣٥٤
الثامنة ـ ليلة البلول السكر ٣٧٥
ورقه الناسك: تسعة
الاولة ـ ع الاصل دور ٣٩٦
الثانية ـ قلب الراعى ٣٩٩
ثالثا ـ خطبة الوداع ٤١٠
الرابعة ـ المساخيط إخوتى ٤٢٠
الخامسة ـ البساط الأحمدى ٤٢٤
السادسة ـ الطريق الملكى ٤٣٧
السابعة ـ الإمبراطور ٤٤٢
الثامنة ـ خطبة على قبر أبى ٤٥٦
التاسعة ـ حساب على تخوم الجحيم ٤٦٢
عجلة الحظ عشرة
الاولة ـ بركة دعاء الوالدين ٤٧٧
والثانيه ـ العتبة العالية ٤٨٧
والثالثة ـ صباحية مباركة ٤٩٨

الرابعة ـ المفاجأه ٥١١
الخامسة ـ طلوع الشعرة من العجين ٥٢٨
السادسة ـ الفخ الجهنمى ٥٤٢
السابعة ـ مغامرة عرب الحصار ٥٥٣
الثامنة ـ مفاجأة غرزة المطار ٥٨٠
التاسعة ـ الولاعة المنسية ٥٩٠
العاشرة ـ طيف الخيال ٦١٥
ثالثا الورق ٦٤٣
تطبيق ٦٤٥
تفنيط ٦٥٠
قطع ٦٦٠
تفريق ٦٧٧
أربع فى الارض ٦٨٦
باطه ٦٩٣
لعب ٦٩٦
اكل ٧٠٦
اولنا ولد ٧١٦
كومى ٧٢٣
حرقته ٧٢٧
بصرة ٧٥٤
مكبس ٧٦٨
أوراق السر الاعظم ٧٨٢
المهرج ٧٩١
الساحر ٧٩٤
الكاهن ٧٩٧
المملكة ٨٠٠
الملك ٨٠٢
الحكيم ٨٠٦
العاشق ٨٠٩
العربة ٨١٣
العدالة ٨١٧